تفسير السعدي

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

تأليف العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٦٧هـ)

تهذيب وترتيب وتنسيق دون حذف أو اختصار

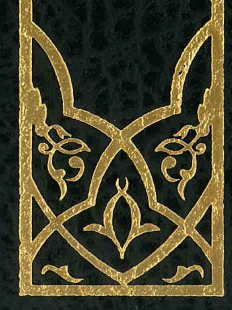
اعتنى به

إسلام بن منصور بن عبد الحميد










تفسير السعدي
تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان
٣

ⓒ دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
عبد الحميد ، اسلام منصور
تفسير السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان
المجلد الثالث / اسلام منصور عبدالحميد - الرياض ١٤٤٢هـ
٨٧٤ ص ؛ ١٤× ٢٠ سم
ردمك: ٤-٦٦-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - التفسير الحديث أ-العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٥٧٧٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٧٧٧
ردمك: ٤-٦٦-٨٣١٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨



تفسير السعدي

تيسير الكريم الرحمن
في تفسير كلام المنان

تأليف العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٦٧هـ)

تهذيب وترتيب وتنسيق دون حذف أو اختصار

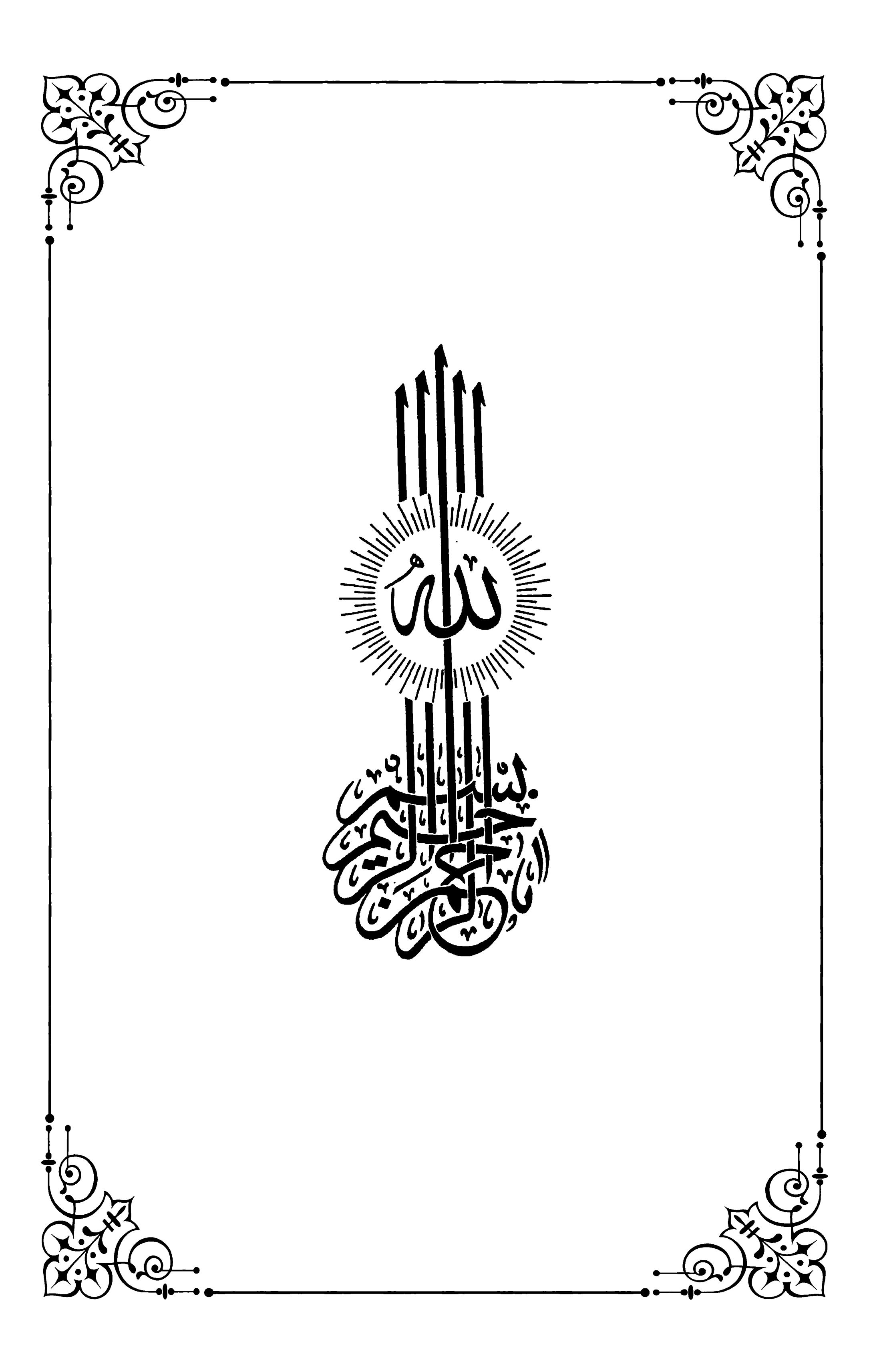
اعتنى به

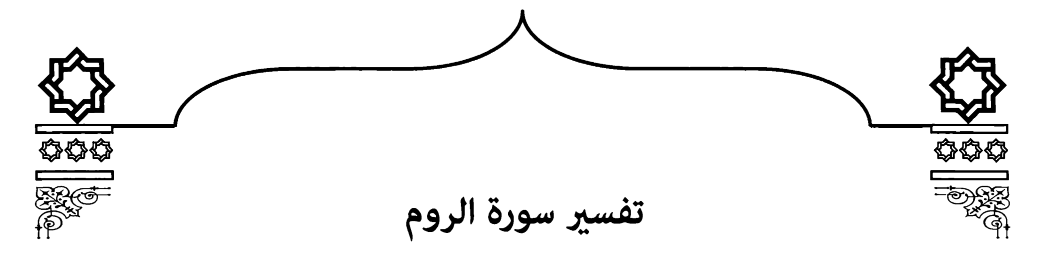
إسلام بن منصور بن عبد الحميد



المجلد الثالث





الله
بسم الله الرحمن الرحيم



تفسير سورة الروم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم:١-٥]

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوىٰ دول الأرض.. وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون **بين الدول المتوازنة**.. وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلىٰ التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلىٰ المسلمين من الفرس.. فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم علىٰ الفرس، وكان المشركون -لاشتراكهم والفرس في الشرك- يحبون ظهور الفرس علىٰ الروم.. فظهر الفرس علىٰ الروم فغلبوهم غلبًا لم يحط بملكهم، **بل بأدنىٰ أرضهم**، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس..

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ تسع أو ثمان ونحو ذلك، مما لا يزيد علىٰ العشر، ولا ينقص عن الثلاث.. وأنَّ غَلَبَة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كلَّ ذلك بمشيئته وقَدره ولهذا قال..

﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم..

﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ يفرحون بانتصارهم علىٰ الفرس، وإن كان الجميع كفارًا، ولكنَّ **بعض الشر أهون من بعض**.. ويحزن يومئذ المشركون..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ [آل عمران: ٢٦]..

﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم:١-٥] بعباده المؤمنين، حيث قيَّض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٦-٧]

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ فتيقنوا ذلك، واجزِموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.. فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد صدَّق بها المسلمون، وكفر بها المشركون حتىٰ تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين علىٰ مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله، انتصر الروم علىٰ الفرس وأَجلُوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.. وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها اللهُ قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ أن ما وعد الله به حق.. فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته.. وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: **لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها**.. وإنما..

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فينظرون إلىٰ الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا، **فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلىٰ مسببها** المتصرف فيها..

﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٦-٧] قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلىٰ الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسَعَت، وأقبلت بها وأدبرت.. وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يُرَوِّعُها ويُزعِجُها.. وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

📖 **الفـوائـد**

١- من العجب أن **هذا القسم من الناس** قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلىٰ أمر يحير العقول ويدهش الألباب..

وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا..

وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عمَّا أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء..

وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، **وأقلهم معرفة بالعواقب**..

٢- قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون..

ثم نظروا: إلىٰ ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وما حرموا من العقل العالي.. فعرفوا أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو **إلا توفيقه وخذلانه**..

فخافوا ربهم، وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتىٰ يصلوا إليه، ويحلوا بساحته..

٣- وهذه الأمور **لو قارنها الإيمانُ وبنيت عليه، لأثمرت الرُّقِيَّ العالي والحياة الطيبة**.. ولكنها لما بني كثير منها علىٰ الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم:٨-١٠]

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه..

﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ فإنَّ في أنفسهم آيات يعرفون بها: أنَّ الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطوارًا من نطفة إلىٰ علقة إلىٰ مضغة إلىٰ آدمي قد نفخ فيه الروح إلىٰ طفل إلىٰ شاب إلىٰ شيخ إلىٰ هَرِم.. غير لائق أن يتركهم سدىٰ مهملين لا ينهون ولا يؤمرون ولا يثابون ولا يعاقبون..

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ليبلوكم أيكم أحسن عملًا..

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾ مؤقت بقاؤهما إلىٰ أجل تنقضي به الدنيا وتجيء به القيامة، وتبدَّل الأرضُ غير الأرض والسماوات..

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ فلذلك لم يستعدوا للقائه، ولم يصدِّقوا رسله التي أخبرت به.. وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة قد دلَّت علىٰ البعث والجزاء.. ولهذا نبههم علىٰ السير في الأرض..

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ والنظر في عاقبة الذين كذَّبوا رسلهم وخالفوا أمرهم..

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ هم أشد من هؤلاء قوة..

﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ وأكثر آثارًا في الأرض من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع وإجراء أنهار..

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ فلم تغن عنهم قوتهم ولا نفعتهم آثارهم حين كذَّبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات علىٰ الحق، وصحة ما جاءوهم به.. فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك لم يجدوا إلا أممًا بائدة، وخلقًا مهلكين، ومنازل بعدهم موحشةً، وذمًّا من الخلق عليهم متتابع.. وهذا جزاء معجل نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له..

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ وكل هذه الأمم المهلَكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها..

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعيًا لهم لـ..

﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾ [الروم:٨-١٠] فهذا عقوبة لسوئهم وذنوبهم.. ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سببًا لأعظم العقوبات وأعضل المَثُلات.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۝١٥﴾ [الروم:١١-١٥]

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ يخبر تعالىٰ أنَّه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم؛ ليجازيهم بأعمالهم.. ولهذا ذَكَر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير فقال..

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقوم الناس لرب العالمين، ويَرِدُون القيامةَ عِيانًا، يومئذ..

﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢﴾ ييأسون من كل خير.. وذلك أنهم ما قدَّموا لذلك اليوم إلا الإجرام، وهي الذنوب، من كفر وشرك ومعاصي.. فلما قدَّموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، أَيِسوا وأُبلِسوا وأُفلِسوا، وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال..

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ التي عبدوها مع الله..

﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝١٣﴾ تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله وتبرأ المعبودون وقالوا: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣] والتعنوا وابتعدوا..

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افترقت أعمالهم في الدنيا..

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وصدَّقوا ذلك بالأعمال الصالحة..

﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتهيات..

﴿يُحۡبَرُونَ ۝١٥﴾ [الروم:١١-١٥] يسرون وينعَّمون بـ: المآكل اللذيذة.. والأشربة.. والحور الحسان.. والخدم.. والولدان.. والأصوات المطربات.. والسماع المشجي.. والمناظر العجيبة.. والروائح الطيبة.. والفرح والسرور.. واللذة والحبور.. مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم:١٦]

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا نِعَمَه وقابلوها بالكفر..

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا..

﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم:١٦] فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، واطَّلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم، وقطَّع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين؟ وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين؟!

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١٩﴾ [الروم:١٧-١٩]

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص، وتَقَدُّسه عن أن يماثله أحدُ من الخلق..

﴿حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧﴾ وأمرٌ للعباد أن يسبحوه حين يمسون وحين يصبحون..

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾..

﴿وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨﴾ ووقت العشي ووقت الظهيرة.. فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أَمَرَ اللهُ عبادَه بالتسبيح فيها والحمد.. **ويدخل في ذلك: الواجب منه** كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، **والمستحب** كأذكار الصباح والمساء وأدبار

الصلوات وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل من غيرها، فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها، بل العبادة وإن لم تشتمل علىٰ قول (سبحان الله) فإن **الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل** أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أَحَدٌ من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة..

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك..

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ بعكس المذكور..

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ فينزل عليها المطرَ وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج..

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم:١٧-١٩] من قبوركم.. فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢٠-٢١]

هذا شروع في تعداد آياته الدالة علىٰ انفراده بالإلهية وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه فقال..

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أصل النسل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة، وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها.. ففي ذلك آيات علىٰ أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض، هو الرب المعبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت..

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة علىٰ رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط..

﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن..

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب علىٰ الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.. **فحصل بالزوجة**: الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، **فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة**..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢٠-٢١] **يُعملون أفكارَهم، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلىٰ شيء.**

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **والآيات في ذلك كثيرة**: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما: أن ذلك **دال علىٰ عظمة سلطان الله وكمال اقتداره**، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته لما فيها من الإتقان وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤].. **وعموم رحمته وفضله**؛ لما في ذلك من المنافع الجليلة.. وأنه **المريد الذي يختار ما يشاء**؛ لما فيها من التخصيصات والمزايا.. وأنه **وحده الذي يستحق أن يعبد** ويوحَّد؛ لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة.. فكلُّ هذه أدلة عقلية نبَّه اللهُ العقولَ إليها وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها..

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ علىٰ كثرتكم وتباينكم، مع أن الأصل واحد ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك **لا تجد** صوتين متفقين من كل وجه.. ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.. وهذا دال علىٰ **كمال قدرته، ونفوذ مشيئته**.. ومن عنايته بعباده ورحمته بهم **أن قدَّر ذلك الاختلاف لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب** ويفوت كثير من المقاصد والمطالب..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢] **والعَالِمُون** هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم:٢٣]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ **إن ذلك دليل: على رحمة الله تعالىٰ**، كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].. **وعلىٰ تمام حكمته؛** إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به ويستجموا، وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم:٢٣] سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم:٢٤]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ **ومن آياته:** أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد.. ويريكم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق الذي يُخَاف ويُطْمَع فيه..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ **دالة علىٰ:** عموم إحسانه.. وسعة علمه.. وكمال إتقانه.. وعظيم حكمته.. وأنه يحيي الموتىٰ كما أحيا الأرض بعد موتها..

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم:٢٤] لهم عقول تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدل به عل ما جُعِل دليلًا عليه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم:٢٥-٢٧]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ **ومن آياته العظيمة: أن قامت السماوات** والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره، فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض..

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥﴾ فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوةً من الأرض إذا هم يخرجون ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]..

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الكل خلقه ومماليكه المتصرِّف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض..

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦﴾ وكلهم قانتون لجلاله خاضعون لكماله..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾..

﴿وَهُوَ﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم..

﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادرًا على الابتداء الذي تقرون به، كانت قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.. ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذَكَر الأمرَ العظيم والمطلب الكبير فقال..

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو كل صفة كمال.. والكمال من تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل والعبادة منهم.. **فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه**.. ولهذا **كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى**، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم:٢٥-٢٧] له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة.. فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات.. وحكمته أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم:٢٨-٢٩]

هذا مثل ضربه الله تعالىٰ **لقبح الشرك** وتهجينه..

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لا يحتاج إلىٰ حِلٍ وترحال وإعمال الجِمَال..

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم..

﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ وترون أنكم وهم فيه علىٰ حد سواء..

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟! ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكًا لكم فيما رزقكم الله تعالىٰ.. هذا! ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم، وهم أيضًا مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكًا من خلقه وتجعلونه بمنزلته وعديلًا له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟! هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء علىٰ سفه من اتخذ شريكًا مع الله، وأن ما اتخذه باطل مضمحل، ليس مساويًا لله، ولا له من العبادة شيء..

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ بتوضيحها بأمثلتها..

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الحقائق ويعرفون.. وأما من لا يعقل، فلو فُصِّلَت له الآيات وبينت له البينات لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لُبٌّ يعقل به ما توضح.. فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام ويوجه الخطاب.. وإذا عُلِم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكًا يعبده ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام علىٰ أمر باطل توضَّح له بطلانه وظهر برهانه؟! لقد أوجب لهم ذلك اتباعُ الهوىٰ، فلهذا قال..

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمرًا يجزم العقل بفساده والفطر برده..

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾ دلَّهم عليه، ولا برهانٌ قادهم إليه..

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإنَّ اللهَ تعالىٰ أضلَّهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضلَّ اللهُ؛ لأنه ليس أحد معارضًا لله أو منازعًا له في ملكه..

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الروم:٢٨-٢٩] ينصرونهم حين تَحِقُّ عليهم كلمةُ العذاب، وتنقطع بهم الوِصَل والأسباب.

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ * مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم:٣٠-٣٢]

يأمر تعالىٰ بـ: الإخلاص له في جميع الأحوال.. وإقامة دينه، فقال..

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ انصبه ووجهه..

﴿لِلدِّينِ﴾ إلىٰ الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بـ: أن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلىٰ **إقامة شرائع الدين الظاهرة**، كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها.. **وشرائعه الباطنة**، كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة.. **والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة**: بأن تعبد الله فيها كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.. **وخص الله إقامة الوجه**؛ لأن إقبال **الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب علىٰ الأمرين سَعْيُ البدن** ولهذا قال..

﴿حَنِيفٗاۚ﴾ مقبلًا علىٰ الله في ذلك، معرضًا عما سواه.. وهذا الأمر الذي أمرناك به هو..

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ ووضع في عقولهم حسنَها واستقباحَ غيرِها.. فإن **جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها**، فوضع في قلوبهم محبةَ الحق وإيثارَ الحق، **وهذا حقيقة الفطرة.. ومن خرج عن هذا الأصل**

فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١)..

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ لا أحد يبدِّل خلقَ الله، فيجعل المخلوق علىٰ غير الوضع الذي وضعه الله..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمرنا به..

﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ الطريق المستقيم، الموصل إلىٰ الله وإلىٰ كرامته.. **فإنَّ** من أقام وجهه للدين حنيفًا **فإنَّه** سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ **فلا يتعرفون الدين القيم وإن عرفوه لم يسلكوه..**

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإنَّ الإنابةَ إنابةُ القلب وانجذابُ دواعيه لمراضي الله تعالىٰ.. **ويلزم من ذلك:** حمل البدن بمقتضىٰ ما في القلب.. **فشمل ذلك:** العبادات الظاهرة والباطنة.. **ولا يتم ذلك إلا بترك** المعاصي الظاهرة والباطنة فلذلك قال..

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ **فهذا يشمل:** فعل المأمورات.. وترك المنهيات..

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وخص من المأمورات الصلاة؛ لكونها تدعو إلىٰ الإنابة والتقوىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فهذا إعانتها علىٰ التقوىٰ، ثم قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥] فهذا حثها علىٰ الإنابة.. **وخص من المنهيات أصلَها، والذي لا يُقبل معه عملٌ، وهو الشرك** فقال..

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾ لكون الشرك مضادًا للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه.. **ثم ذكر حالةَ المشركين، مُهجِّنًا لها ومُقبِّحًا** فقال..

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ مع أنَّ الدين واحدٌ، وهو إخلاص العبادة لله وحده.. **وهؤلاء المشركون فرَّقوه: منهم:** من يعبد الأوثان والأصنام، **ومنهم:** من يعبد الشمس والقمر، **ومنهم:** من يعبد الأولياء والصالحين، **ومنهم:** يهود، **ومنهم:** نصارىٰ.. ولهذا قال..

﴿وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ كل فِرقةٍ من فِرَق الشرك تألَّفت وتعصَّبت علىٰ نصر ما معها من

---

(١) أخرجه البخاري [١٣٥٩]، ومسلم [٢٦٥٨] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

الباطل، ومنابذةِ غيرهم ومحاربتهم..

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل..

﴿فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣٠-٣٢] به، يحكمون لأنفسهم بأنَّه الحق، وأنَّ غيرهم علىٰ باطل.. وفي هذا **تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم** فِرَقًا، كل فريق يتعصب لِمَا معه من حق وباطل، **فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق**، بل الدين واحد والرسول واحد والإله واحد.. **وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع** بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط، **فما بال ذلك كلِّه يُلغَىٰ ويُبْنَىٰ التفرق والشقاق بين المسلمين علىٰ مسائل خفية أو فروع خلافية**، يضلل بها بعضُهم بعضًا، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟! **فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان**، وأعظم مقاصده التي كاد بها للمسلمين؟ **وهل السعي في جمع كلمتهم** وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني علىٰ ذلك الأصل الباطل، **إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله**، وأفضل الأعمال المقرِّبة إلىٰ الله؟.. **ولما أمر تعالىٰ بالإنابة إليه** -وكان المأمور بها هي **الإنابة الاختيارية**، التي تكون في حَالَي العسر واليسر والسعة والضيق- **ذكر الإنابة الاضطرارية التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه**، فإذا زال عنه الضيق نبذها وراء ظهره وهذه غير نافعة فقال..

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم:٣٣-٣٥]

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ مرض أو خوف من هلاك ونحوه..

﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله..

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم..

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم و..

﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ يشركون به من لا دَفَع عنهم ولا أَغنَىٰ[1]، ولا أَفقر ولا أغنىٰ[2]..

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ وكلُّ هذا كفر بما آتاهم الله ومَنَّ به عليهم، حيث أنجاهم، وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلا قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام علىٰ الإخلاص له في جميع الأحوال؟

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾..

﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ حجة ظاهرة..

﴿فَهُوَ﴾ أي: ذلك السلطان..

﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾ [الروم:٣٣-٣٥] ويقول لهم: اثبتوا علىٰ شرككم واستمروا علىٰ شككم، فإنَّ ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل.. فهل ذلك السلطان موجود عندهم حتىٰ يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟! أم البراهين العقلية والسمعية والكتب السماوية والرسل الكرام وسادات الأنام، قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذَّروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟ **فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان**، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾ [الروم:٣٦-٣٧]

يخبر تعالىٰ عن **طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدة**..

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحة وغنىٰ ونصر ونحو ذلك..

﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ فرحوا بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله..

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ أي: حال تسوؤهم وذلك..

---

(١) يعني: ولا أغنىٰ عنهم.

(٢) يعني: ولا أغناهم.

﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من المعاصي..

﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ۝٣٦﴾ ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه.. وهذا جهل منهم وعدم معرفة..

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ **فالقنوط** بعد ما عُلِم أنَّ الخير والشر من الله، والرزق سعته وضيقه من تقديره، **ضائع ليس له محل.. فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب**، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣٧﴾ [الروم:٣٦-٣٧] فهم الذين **يعتبرون** بسط الله لمن يشاء وقبضه.. **ويعرفون** بذلك حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الروم:٣٨-٣٩]

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فأعط القريب منك -علىٰ حسب قربه وحاجته-..

﴿حَقَّهُۥ﴾ الذي أوجبه الشارع أو حض عليه، من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبر والسلام والإكرام، والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته..

﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ وكذلك آت المسكين، الذي أسكنه الفقرُ والحاجةُ ما تزيل به حاجَته، وتُدفع به ضرورتَه، من إطعامه وسَقيه وكِسوته..

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة؛ لأنه لا مال معه ولا كسب، قد دبَّر نفسه به في سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنَّه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد -في الغالب- أن يكون في حرفة أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصةً للمسكين وابن السبيل..

﴿ذَٰلِكَ﴾ إيتاء ذي القربىٰ والمسكين وابن السبيل..

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل..

﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ خير غزير، وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص.. فإن لم يرد به وجه الله لم يكن خيرا لِلمُعْطِي، وإن كان خيرًا ونفعا لِلمُعْطَىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن﴾ [النساء:١١٤]، مفهومها أن هذه المثبتات خير لنفعها المتعدي، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله..

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الفائزون بثواب الله، الناجون من عقابه.. ولما ذَكَر العمل الذي يُقصد به وجهه من النفقات، ذَكَر العملَ الذي يُقصد به مقصد دنيوي فقال..

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم..

﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ وقصدكم بذلك أن (يربوا) أي: يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها..

﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله؛ لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص.. ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند الله..

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المُعْطَىٰ..

﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك..

﴿وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم:٣٨-٣٩] أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربيها الله لهم، حتىٰ تكون شيئًا كثيرا.

🕮 الفوائد

دل قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أن **الصدقة مع اضطرار** من يتعلق بالمنفق، **أو مع دَيْنٍ عليه** لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة، أن **ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد**، ويُرَدُّ تصرفه

شرعـًا، كما قال تعالىٰ في الذي يَمدَح: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٨]، فليس مجرد إيتاء المال خيرًا **حتىٰ يكون بهذه الصفة**، وهو أن يكون **علىٰ وجه يتزكىٰ به المؤتي**.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم:٤٠]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يخبر تعالىٰ أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم..

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء..

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم:٤٠] فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟! فسبحانه وتعالىٰ وتقدس وتنزه وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم عليهم.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]

﴿ظَهَرَ﴾ استعلن..

﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك..

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ وذلك بسبب ما قدَّمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها.. هذه المذكورة..

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ليعلموا أنه المجازي علىٰ الأعمال، فعجَّل لهم نموذجـًا من جزاء أعمالهم في الدنيا..

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١] عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم.. فسبحان من أنعم ببلائه وتفضَّل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميعَ ما كسبوا ما ترك علىٰ ظهرها من دابة.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾ [الروم:٤٢]

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والأمر بالسير في الأرض **يدخل فيه** السير بالأبدان، والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين..

﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾..

﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾ [الروم:٤٢] **تجدون عاقبتهم شرَّ العواقب، ومآلهم شرَّ مآل،** عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم، يُحْذَىٰ بكم حذوهم، فإنَّ عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٥﴾ [الروم:٤٣-٤٥]

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ **أقبل بقلبك وتوجه بوجهك واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم..** فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك..

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن ردُّه، ولا يرجأ العاملون أن يستأنفوا العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزاء العمال..

﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتـًا متفاوتين، لِيُرَوْا أعمالهم..

﴿مَن كَفَرَ﴾ منهم..

﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ ويُعاقَب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرىٰ..

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ من الحقوق التي لله، أو التي للعباد الواجبة والمستحبة..

﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ لا لغيرهم..

﴿يَمۡهَدُونَ ﴾ يهيئون، ولأنفسهم يعمِّرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها..

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ ومع ذلك، جزاؤهم ليس مقصورًا علىٰ أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم.. وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب اللهُ عبدًا صبَّ عليه الإحسان صبًا، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة.. وهذا بخلاف الكافرين، فإنَّ الله لمَّا أبغضهم ومقتهم عاقبَهم وعذَّبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلهذا قال..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الروم:٤٣-٤٥]..

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الروم:٤٦]

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ **ومن الأدلة الدالة علىٰ**: رحمته.. وبعثه الموتىٰ.. وأنه الإله المعبود.. والملك المحمود..

﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أمام المطر..

﴿مُبَشِّرَٰتٖ﴾ بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فتُبشَّر بذلك النفوسُ قبل نزوله..

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطرًا تحيا به البلاد والعباد.. وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلىٰ الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة..

﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ﴾ في البحر..

﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ القدري..

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بالتصرف في معايشكم ومصالحكم..

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الروم:٤٦] من سخَّر لكم الأسباب، وسيَّر لكم الأمور.. فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالىٰ؛ ليزيدكم الله منها ويبقيها عليكم.. وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بدَّل نعمة الله كفرًا، ونعمته محنة، وهو معرِّض لها للزوال والانتقال منه إلىٰ غيره.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ في الأمم السابقين..

﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذَّبوا بالحق..

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلىٰ التوحيد والإخلاص والتصديق بالحق وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال.. وجاءوهم بالبينات والأدلة علىٰ ذلك، فلم يؤمنوا ولم يزولوا عن غيهم..

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل..

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧] أوجبنا ذلك علىٰ أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعيَّنة، ووعدناهم به، فلابد من وقوعه.. فأنتم أيها المكذِّبون لمحمد ﷺ إن بقيتم علىٰ تكذيبكم حلَّت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ٤٩ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [الروم:٤٨-٥٠]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي﴾ يخبر تعالىٰ عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه..

﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ من الأرض..

﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يمده ويوسعه..

﴿ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ علىٰ أي حالةٍ أرادها من ذلك ثم..

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ﴾ ذلك السحاب الواسع..

﴿كِسَفًا﴾ سحابـًا ثخينـًا قد طبق بعضُه فوق بعض..

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: السحاب، نقطـًا صغارًا متفرقة، لا تنزل جميعـًا، فتفسد ما أتت عليه..

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ بذلك المطر..

﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨﴾ يبشر بعضُهم بعضـًا بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه فلهذا قال..

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩﴾ آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال، صار له موقع عظيم عندهم وفرح واستبشار..

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها..

﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم:٤٨-٥٠] فقدرته تعالىٰ لا يتعاصىٰ عليها شيء، وإن تعاصىٰ علىٰ قدر خلقه ودق عن أفهامهم وحارت فيه عقولهم.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾ [الروم:٥١-٥٣]

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يخبر تعالىٰ عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله تعالىٰ، لو أرسلنا علىٰ هذا النبات الناشئ عن المطر وعلىٰ زروعهم ريحـًا مضرة متلفة أو منقصة..

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد تداعىٰ إلىٰ التلف..

﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾ فينسون النعم الماضية ويبادرون إلىٰ الكفر.. وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر..

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ وبالأولىٰ..

﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٥٢﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع، كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي..

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس منهم قابلية له..

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾ [الروم:٥١-٥٣] فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماعُ الهدىٰ المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المنقادون لأوامرنا، المسلمون لنا؛ لأن معهم الداعي القويِّ لقبول النصائح والمواعظ، وهو استعدادهم للإيمان بكلِّ آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [الروم:٥٤]

يخبر تعالىٰ عن: سعة علمه.. وعظيم اقتداره.. وكمال حكمته..

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ابتدأ خلق الآدميين من ضعف، وهو الأطوار الأُوَل من خلقه، من نطفة إلىٰ علقة إلىٰ مضغة، إلىٰ أن صار حيوانًا في الأرحام إلىٰ أن وُلِد، وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة..

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا حتىٰ بلغ سنَّ الشباب واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة..

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلىٰ الضعف والشيبة والهرم..

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلىٰ قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطغىٰ وبغىٰ وعتا..

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [الروم:٥٤] وليعلم العباد كمال **قدرة الله** التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم:٥٥-٥٧]

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يخبر تعالىٰ عن يوم القيامة وسرعة مجيئه وأنه إذا قامت الساعة..

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بالله أنهم..

﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا..

﴿غَيْرَ﴾ إلا..

﴿سَاعَةٍ ۚ﴾ وذلك اعتذار منهم، لعلَّه ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا.. ولما كان قولهم كذبا لا حقيقة له قال تعالىٰ..

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ما زالوا -وهم في الدنيا- يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا كذَّبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللُبث الطويل في الدنيا.. فهذا خُلُقُهم القبيح، والعبد يُبعث علىٰ ما مات عليه..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ مَنَّ الله عليهم بهما، وصارا وصفـًا لهم العلم بالحق، والإيمان المستلزم إيثار الحق.. وإذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقـًا للواقع، مناسبـًا لأحوالهم.. فلهذا قالوا الحق..

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه..

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ﴾ عمَّرتم عُمْرًا يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعتبر، حتىٰ صار البعث، ووصلتم إلىٰ هذه الحال..

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتـًا تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم..

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فإنَّ كذَّبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يُرَدُّون ولا يعودون لِمَا نُهوا عنه لم يُمَكَّنُوا، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم..

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ [الروم:٥٥-٥٧] يزال عَتَبُهم والعتابُ عنهم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم:٥٨-٦٠]

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا..

﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ تتضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتنقطع به الحجة.. **وهذا عام في الأمثال** التي يضربها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة.. **وفي الإخبار** بما سيكون وجلاء حقيقته حتىٰ كأنه وقع.. **ومنه في هذا الموضع** ذكر الله تعالىٰ ما يكون **يوم القيامة وحالة المجرمين فيه** وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.. ولكن أبىٰ الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال..

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ تدل علىٰ صحة ما جِئتَ به..

﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾ قالوا للحق: إنه باطل، وهذا من كفرهم وجراءتهم وطَبْعِ الله علىٰ قلوبهم، وجهلهم المفرط، ولهذا قال..

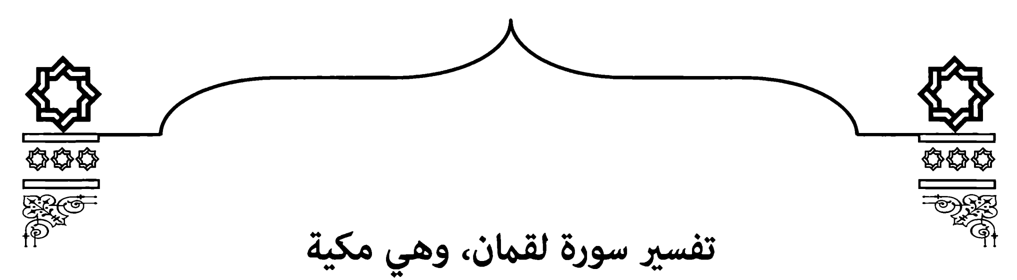
﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾ فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء علىٰ حقيقتها، بل ترىٰ الحقَّ باطلًا والباطلَ حقاً..

﴿فَٱصْبِرْ﴾ علىٰ ما أُمِرتَ به، وعلىٰ دعوتهم إلىٰ الله.. ولو رأيت منهم إعراضاً فلا يصدنك ذلك..

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لا شك فيه.. وهذا مما يعين علىٰ الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملًا، هان عليه ما يلقاه من المكاره، ويسر عليه كلُّ عسير،

واستقل من عمله كلَّ كثير..

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم:٥٨-٦٠] قد ضعف إيمانهم، وقلَّ يقينهم، فخفَّت لذلك أحلامُهُم، وقلَّ صبرهم.. فإياك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم منك على بال، وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي.. والنفس تساعدهم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة.. وهذا مما يدل على أن **كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر**، وكلُّ ضعيفِ اليقين ضعيفُ العقلِ خفيفه.. فالأول بمنزلة اللب، والآخَر بمنزلة القشور، فالله المستعان.



تفسير سورة لقمان، وهي مكية

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان:١-٥]

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ﴾ يشير تعالىٰ **إشارة دالة علىٰ التعظيم إلىٰ**..

﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير..

من إحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة علىٰ أجل المعاني وأحسنها..

ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف..

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح، يناقض ما دلت عليه..

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرًا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر فائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته..

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالحزم..

ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا اختلاف..

فكلَّما ازداد بها البصير تدبُّرًا، وأعمل فيها العقلُ تفكرًا، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزمًا لا يمترىٰ فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد..

ولكن -مع أنه حكيم- يدعو إلىٰ كل خلق كريم، وينهىٰ عن كل خلق لئيم، **أكثر الناس محرومون الاهتداء به**، معرضون عن الإيمان والعمل به، **إلا من وفقه الله تعالىٰ وعصمه، وهم المحسنون** في عبادة ربهم والمحسنون إلىٰ الخلق.. فإنه..

﴿هُدًى﴾ لهم، يهديهم إلىٰ الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم..

﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ وَرَحْمَة لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء..

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ صف المحسنين **بالعلم التام، وهو اليقين** الموجب للعمل، والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه.. **ووصفهم بالعمل**، وخص من العمل، عملين فاضلين: **الصلاة** المشتملة علىٰ الإخلاص، ومناجاة الله تعالىٰ، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة علىٰ سائر الأعمال.. **والزكاة** التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله علىٰ محبته للمال، فيخرجه محبوبه من المال، لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.. فـ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم المحسنون الجامعون بين العلم التام، والعمل..

﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ عظيم، كما يفيده التنكير.. وذلك الهدىٰ حاصل لهم، وواصل إليهم..

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي لم يزل يُربيهم بالنعم؛ ويدفع عنهم النِقَم.. وهذا الهدىٰ الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان:١-٥] الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسَلِموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا

كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾ [لقمان:٦-٩]

ولما ذكر تعالىٰ المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه.. **ذكر من أعرض عنه،** ولم يرفع به رأسـًا، وأنه عوقب علىٰ ذلك بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلىٰ الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدَلَ به أسفلَ قولٍ وأقبحه، فلذلك قال..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ هو محروم مخذول..

﴿يَشۡتَرِي﴾ يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء..

﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الأحاديث الملهية للقلوب، الصادَّة لها عن أجلِّ مطلوب، **فدخل في هذا:** كل كلام محرم.. وكل لغو، وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر، والفسوق، والعصيان.. ومن أقوال الرادين علىٰ الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق.. ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب.. ومن غناء ومزامير شيطان.. ومن الماجريات الملهية، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.. فهذا الصنف من الناس، يشتري لهو الحديث، عن هدي الحديث..

﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس..

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: بعدما ضلَّ بفعله، أضلَّ غيرَه، لأن الإضلال ناشئ عن الضلال.. **وإضلاله في هذا الحديث:** صدُّه عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم..

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ **ولا يتم له هذا** حتىٰ يقدح في الهدىٰ والحق، ويتخذ آيات الله هزوا ويسخر بها، وبمن جاء بها.. **فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق، والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه،** من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزءوا بآيات الله وكذَّبوا الحق الواضح.. ولهذا قال..

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها..

﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أدبَر إدبارَ مستكبر عنها، رادٍّ لها، ولم تدخل قلبَه، ولا أثَّرت فيه، بل أدبر عنها..

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بل..

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ صمماً لا تصل إليه الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته..

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم؛ وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة..

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه لا يقادر قدره ولا يدرىٰ بعظيم أمره، وهذه بشارة أهل الشر، فلا نِعْمَتِ البشارة.. وأما بشارة أهل الخير فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح..

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ بشارة لهم بما قدَّموه، وقِرىٰ لهم بما أسلفوه..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في جنات النعيم، نعيم القلب والروح، والبدن..

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ لا يمكن أن يُخلَف، ولا يغيَّر، ولا يتبدل..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [لقمان:٦-٩] كامل العزة، كامل الحكمة.. من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمُه فيهم وحكمتُه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾ [لقمان:١٠-١١]

يتلو تعالىٰ علىٰ عباده آثارًا من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونِعَماً من آثار رحمته، فقال..

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع علىٰ عظمها، وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها الهائل..

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ليس لها عُمُد، ولو كان لها عمد لرُئيت، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله تعالىٰ..

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا عظيمة، ركَّزها في أرجائها وأنحائها..لـ..

﴿أَن﴾ لا..

﴿تَمِيدَ بِكُمْ﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيها..

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ﴾ نشر في الأرض الواسعة، من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ولمصالحهم، ومنافعهم..

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ولما بثها في الأرض، علم تعالىٰ أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماءً مباركًا..

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ المنظر، نافع مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان..

﴿هَٰذَا﴾ خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسَوْقِ أرزاق الخلق إليهم..

﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له، كلٌّ مقر بذلك، حتىٰ أنتم يا معشر المشركين..

﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم.. يلزم علىٰ هذا أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه.. فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه، ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة.. ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يروه شيئًا من الخلق لها، لأن جميع المذكورات، قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثَمَّ شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تُعبد.. ولكن عبادتهم إيَّاها عن غير علمٍ وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال..

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان:١٠-١١] جَلِيٍّ واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ

وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٢-١٩]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يخبر تعالىٰ عن امتنانه علىٰ عبده الفاضل لقمان بالحكمة.. وهي العلم بالحق علىٰ وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، **فقد يكون الإنسان عالمـًا، ولا يكون حكيمـًا**.. وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فُسِّرَت الحكمةُ بالعلم النافع، والعمل الصالح..

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ ولمَّا أعطاه الله هذه المنة العظيمة، **أمره أن يشكره علىٰ ما أعطاه،** ليبارك له فيه، وليزيده من فضله..

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ وأخبره أن شكر الشاكرين، **يعود نفعه عليهم**..

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وأن من كفر فلم يشكر الله، **عاد وبال ذلك عليه**..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ والله غني عنه حميد فيما يقدره ويقضيه علىٰ من خالف أمرَه.. فغناه تعالىٰ من لوازم ذاته.. وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلىٰ الآخر، زيادة كمال إلىٰ كمال.. **واختلف المفسرون**: هل كان لقمان نبيـًا، أو عبدًا صالحا؟ والله تعالىٰ لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل علىٰ حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال..

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أو قال له قولًا به يعظه بالأمر والنهي، المَقرُون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له السبب في ذلك فقال..

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ ووجهُ كونِه عظيمًا، أنه لا أفظع وأبشع ممن سَوَّىٰ المخلوق من تراب، بمالك الرقاب، وسوَّىٰ الذي لا يملك من الأمر شيئًا، بمن له الأمر كله، وسوَّىٰ الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوَّىٰ من لم ينعم بمثقال ذرة من النِّعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوىٰ شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا.. **ولما أمر بالقيام بحقه،** بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، **أمر بالقيام بحق الوالدين** فقال..

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه..

﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال..

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ مشقة علىٰ مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة من الوحم، والمرض، والضعف، والثِقَل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.. ثم..

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل علىٰ ولده هذه الشدائد، مع شدة الحب، أن يؤكد علىٰ ولده، ويوصىٰ إليه بتمام الإحسان إليه؟! فقلنا له..

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي علىٰ معصيتي..

﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمئونتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.. فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن..

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ سترجع أيها الإنسان إلىٰ من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الوبيل؟

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ اجتهد والداك..

﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تظن أنَّ هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأن حق الله، مقدَّم علىٰ حق كل أحد، و(لا طاعة لمخلوق، في معصية الخالق).. ولم يقل: (وإن جاهداك علىٰ أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعقهما)، بل قال: ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه، ولهذا قال..

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ صحبة إحسان إليهما بالمعروف.. وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما..

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ وهم المؤمنون بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.. واتباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلىٰ الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلىٰ الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله، ويقرب منه..

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الطائع والعاصي، والمنيب، وغيره..

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ فلا يخفىٰ علىٰ الله من أعمالهم خافية..

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها..

﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ ﴾ أي: في وسطها..

﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أي جهة من جهاتهما..

﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ لَطَف في علمه وخبرته، حتىٰ اطَّلع علىٰ البواطن والأسرار، وخفايا القِفار والبحار.. **والمقصود من هذا:** الحث علىٰ مراقبة الله، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قَلَّ أو كَثُر..

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ حثه عليها.. وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية..

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم

بالمنكر لينهىٰ عنه.. والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله..

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ ومن كونه فاعلًا لما يأمر به، كافًّا لما ينهىٰ عنه.. فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.. ولما عُلِم أنَّه لابد أن يُبتلىٰ إذا أمر ونهىٰ، وأن في الأمر والنهي مشقة علىٰ النفوس، أمره بالصبر علىٰ ذلك فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه..

﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم..

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِلهُ وتعبس بوجهك الناس، تكبُّرًا عليهم، وتعاظمـًا..

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ بطرًا، فخرًا بالنعم، ناسيـًا المُنعِم، معجَبًا بنفسك..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾ في نفسه وهيئته وتعاظمه..

﴿فَخُورٖ ١٨﴾ بقوله..

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ امش متواضعـًا مستكينـًا، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت..

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ أدبـًا مع الناس ومع الله..

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أفظعها وأبشعها..

﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان:١٢-١٩] فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

🕮 الفـوائـد

هذه الوصايا التي وصىٰ بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، **وتستلزم ما لم يُذكر منها**، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلىٰ فعلها، إن كانت أمرًا، وإلىٰ تركها إن كانت نهيا.

وهذا يدل علىٰ ما ذكرنا في **تفسير الحكمة**، أنها العلم بالأحكام وحِكَمِها ومناسباتها.

فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له الموجب لتركه.

وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما.. ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما، ما لم يأمرا بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه علىٰ الشرك.

وأمره بمراقبة الله، وخوَّفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر، إلا أتىٰ بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر، والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كلُّ أمر، كما قال تعالىٰ.

فحقيق بمن أوصىٰ بهذه الوصايا أن يكون مخصوصـًا بالحكمة، مشهورًا بها..

ولهذا من منة الله عليه وعلىٰ سائر عباده، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان:٢٠-٢١]

يمتن تعالىٰ علىٰ عباده بنعمه.. ويدعوهم إلىٰ: شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها فقال..

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم..

﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد..

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزروع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]..

﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ عمّكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة، التي نعلم بها، والتي تخفىٰ علينا، نِعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار.. فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النِعَم، بمحبة المنعِم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة علىٰ طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها علىٰ معصيته..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ ولكن مع توالي هذه النعم، ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ لم يشكرها، بل كَفَرها، وكَفَر بمَن أَنعَم بها، وجَحَد الحقَّ الَّذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل..

﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ يجادل عن الباطل، ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده..

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ وهذا المجادل علىٰ غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك وشأنه، ويسمح له في الكلام..

﴿وَلَا هُدٗى﴾ يقتدي به بالمهتدين..

﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ غير مبين للحق، فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في الله مبني علىٰ تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين.. ولهذا قال..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ أيدي رسله، فإنه الحق، وبُيِّنَت لهم أدلتُه الظاهرة..

﴿قَالُواْ﴾ معارضين ذلك..

﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنًا من كان.. قال تعالىٰ في الرد عليهم وعلىٰ آبائهم..

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان:٢٠-٢١] فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة.. فهل هذا موجب لاتباعهم لهم، ومشيهم علىٰ طريقتهم؟! أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي علىٰ ضلالهم، وضلال من اتبعهم؟!.. وليس **دعوة الشيطان لآبائهم ولهم** محبة لهم ومودة، وإنما ذلك **عداوة لهم ومكر بهم**.. وبالحقيقة **أتباعه من أعدائه**، الذين تمكن منهم وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير، بقبول دعوته.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٢-٢٤]

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصـًا له دينه في ذلك الإسلام، بأن كان عمله مشروعًا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ.. أو: ومن يسلم وجهه إلىٰ الله، بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه.. أو ومن يسلم وجهه إلىٰ الله، بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلىٰ عباد الله، قائم بحقوقهم.. والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا فكلها متفقة علىٰ **القيام بجميع شرائع الدين، علىٰ وجه تقبل به وتكمل**، فمن فعل ذلك..

﴿فَقَدِ﴾ أسلم، و..

﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ﴾ بالعروة التي من تمسك بها توثق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير.. ومن لم يسلم وجهه لله أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقىٰ، وإذا لم يستمسك بالعروة الوثقىٰ لم يكن ثَمَّ إلا الهلاك والبوار..

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ رجوعها وموئلها ومنتهاها، فيحكم في عباده، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر..

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ﴾ لأنك أديت ما عليك من الدعوة والبلاغ، فإذا لم يهتد، فقد وجب أجرك علىٰ الله، ولم يبق للحزن موضع علىٰ عدم اهتدائه، لأنه لو كان فيه خير لهداه الله.. ولا تحزن أيضـًا علىٰ كونهم تجرأوا عليك بالعداوة، ونابذوك المحاربة، واستمروا علىٰ غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم، بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب.. فإن..

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور الله وأذىٰ رسله..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ التي ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر، وكان شهادة؟!

﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ في الدنيا، ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم..

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ أي: نلجئهم..

﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٢-٢٤] انتهىٰ في عِظَمِهِ، وكِبرِه، وفظاعته، وألمه، وشدته.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٥-٢٨]

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق..

﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ لعلموا أن أصنامهم ما خَلَقت شيئًا من ذلك..

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ ولبادروا بقولهم الله الذي خلقهما وحده.. فـ..

﴿قُلِ﴾ لهم ملزِمـًا لهم، ومحتجـًا عليهم بما أقروا به، علىٰ ما أنكروا..

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ الذي بيَّن النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم.. فلو كانوا يعلمون لجزموا أنَّ المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يُفرَد بالعبادة والتوحيد..

﴿بَلۡ﴾ ولكن..

﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه، علىٰ وجه الحيرة والشك، لا علىٰ وجه البصيرة، ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجا من سعة أوصافه، ليدعو عباده إلىٰ معرفته، ومحبته، وإخلاص الدين له..

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فذكر عمومَ ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض -وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي- أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام المَلِك القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد مماليك، مدبَّرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء..



﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ وأنه واسع الغِنىٰ، فلا يحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧].. وأن أعمال النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، لا تنفع الله شيئًا وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم، وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.. ثم أخبر تعالىٰ عن سعة حمده..

﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميدًا من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فَعَلَه وخَلَقَه يُحمَدُ عليه، وجميع ما أَمَرَ به ونَهىٰ عنه يُحمد عليه، وجميعُ ما حَكَم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه..
ثم أخبر عن سعة كلامه وعَظَمَة قوله، بشرحٍ يبلغ من القلوب كلَّ مبلغ، وتنبهر له العقول، وتُحَيَّر فيه الأفئدة، وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال..

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يُكتب بها..

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مدادًا يستمد بها..

﴿مَّا نَفِدَتْ﴾ لتكسرت تلك الأقلام ولفني ذلك المداد، ولم تنفد..

﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ.. **وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له**، بل لمَّا عَلِمَ تبارك وتعالىٰ أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعَلِمَ تعالىٰ أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصَّلُوها، وهي لا تمكن علىٰ وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله..

فنبههم تعالىٰ تنبيهـًا تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورُهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلىٰ ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك»، وإلا فالأمر أجلُّ من ذلك وأعظم..

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنىٰ، الذي لا يطاق الوصول إليه إلىٰ الأفهام والأذهان.. وإلا فالأشجار وإن تضاعفت علىٰ ما ذُكِر أضعافـًا كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة..

وأما كلام الله تعالىٰ، فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، علىٰ أنه لا نفاد له ولا منتهىٰ، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]..

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالىٰ وآخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالىٰ قبل ذلك إلىٰ غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد علىٰ ذلك من ساعد، بقلبه ولسانه، فالله تعالىٰ بعد ذلك إلىٰ غير غاية ولا نهاية..

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله.. فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا فالأمر أعظم وأجل.. ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاها للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به.. وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم، ودبرهم.. وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وُجِد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.. ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال..

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق -علىٰ كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة- كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء علىٰ الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.. ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المُبصِرات فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٥-٢٨]..

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان:٢٩-٣٠]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ وهذا فيه أيضا، انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدِهما علىٰ الآخر، فإذا دخل أحدُهما ذهب الآخر..

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام لم يختل منذ خلقهما، ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون وينتفعون.. و..

﴿كُلٌّ﴾ منهما..

﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما.. وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدئ الدار الآخرة..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من خير وشر..

﴿خَبِيرٌ ٢٩﴾ لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم علىٰ تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.. و..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بيَّن لكم من عظمته وصفاته، ما بيَّن..

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق..

﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لَمَا وُجِد، ولولا إمداده لَمَا بَقِي، فإذا كان باطلًا كانت عبادته أبطل وأبطل..

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا علىٰ الخلق فقهرهم..

﴿ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾ [لقمان:٢٩-٣٠] الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ٣٢﴾ [لقمان:٣١-٣٢]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ألم تر من آثار قدرته ورحمته، وعنايته بعباده، أن سخَّر البحر تجري فيه الفلك، بأمره القدري ولطفه وإحسانه..

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ففيها الانتفاع والاعتبار..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ فهم المنتفعون بالآيات، صبَّار علىٰ الضراء.. شكور علىٰ السراء.. صبار علىٰ طاعة الله وعن معصيته، وعلىٰ أقداره.. شكور لله، علىٰ نعمه الدينية والدنيوية..

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وذكر تعالىٰ حال الناس، عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظل فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة..

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين..

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله علىٰ وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.. وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال..

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي: غدار، ومن غَدره أنه عاهد ربه (لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين)، فغدر ولم يف بذلك..

﴿كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣١-٣٢] بنعم الله.. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يأمر تعالىٰ الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره، وترك زواجره..

﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كلُّ أحد لا يهمه إلا نفسه فـ..

﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا يزيد في حسناته ولا

ينقص من سيئاته، قد تمَّ علىٰ كلِّ عبد عملُه، وتحقق عليه جزاؤه.. فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهِّل عليه تقوىٰ الله.. وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين..

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال..

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن..

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان:٣٣] الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات.. فإنَّ لله علىٰ عباده حقًا، وقد وعدهم موعدًا يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه.. وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته، التي يسعىٰ إليها.. **ومن أعظم العوائق عنه** والقواطع دونه، **الدنيا الفتانة، والشيطان الموسوس المُسَوِّل**، فنهىٰ تعالىٰ عباده، أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان:٣٤]

قد تقرر أن الله تعالىٰ أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يُطلِعُ اللهُ عبادَه علىٰ كثيرٍ من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة، من الأمور التي طوىٰ علمُها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبيٌّ مرسل، ولا مَلَكٌ مقرَّب، فضلًا عن غيرهما، فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعلم متىٰ مرساها، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف:١٨٧] الآية..

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله..

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثىٰ..

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثىٰ؟ فيقضي الله ما يشاء..

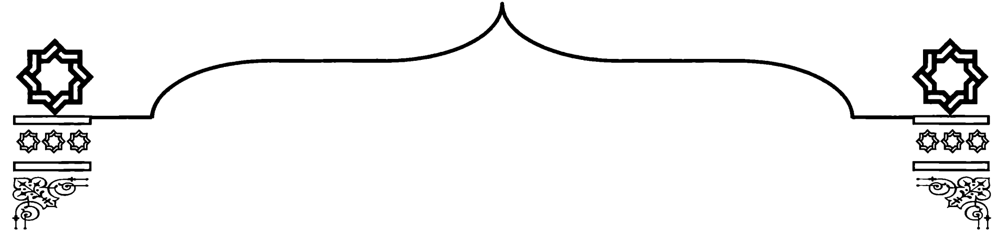
﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودنياها..

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالىٰ، هو المختص بعلم ذلك جميعه.. ولما خصص هذه الأشياء، عمَّم علمَه بجميع الأشياء فقال..

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤] محيط بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبايا والسرائر.. **ومن حكمته التامة** أن أخفىٰ علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفىٰ علىٰ من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة (لقمان) بفضل الله وعونه، والحمد لله





تفسير سورة السجدة، وهي مكية

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة:١-٣]

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ يخبر تعالىٰ أن هذا الكتاب الكريم، أنه تنزيل من رب العالمين، الذي ربَّاهم بنعمته.. ومن أعظم ما رباهم به هذا الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم.. وأنه لا ريب فيه، ولا شك، ولا امتراء.. ومع ذلك قال المكذِّبون -للرسول- الظالمون في ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه..

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وهذا من أكبر الجراءة علىٰ إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب، وقُدرَةِ الخلق علىٰ كلام مثل كلام الخالق، وكلٌّ واحد من هذه من الأمور العظائم.. قال الله - رادًا علىٰ من قال افتراه..

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد..

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد..

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ في حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول وإنزال الكتاب، لعدم النذير..

﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك..

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة:١-٣] من ضلالهم، فيعرفون الحق فيؤثرونه.

📖 الفـوائـد

هذه الأشياء التي ذكرها الله كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو:

كونه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:٢]..

وأنه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ [السجدة:٣] والحق مقبول على كل حال..

وأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة:٢] بوجه من الوجوه، فليس فيه ما يوجب الرِيبة، **لا بخبر** لا يطابق للواقع، **ولا بخفاء واشتباه** معانيه..

وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة..

وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة:٤-٩]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق..

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها، يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم..

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله..

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم، في أموركم، فينفعكم..

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم، إن توجه عليكم العقاب..

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسماوات، المستوي علىٰ العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم، وتوليكم، وله الشفاعة كلها.. هو المستحق لجميع أنواع العبادة..

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المتفرد بتدبيره.. نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير..

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ فَيُسْعِدُ بها ويُشْقِي، ويُغْنِي ويُفْقِرُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُكرِمُ ويُهِينُ، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويُنزل الأرزاق..

﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ الأمر ينزل من عنده، ويعرج إليه..

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ وهو يعرج إليه، ويصله في لحظة..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوىٰ علىٰ العرش العظيم، وانفرد بالتدابير في المملكة..

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ فبسعة علمه وكمال عزته وعموم رحمته أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها..

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ كل مخلوق خلقه الله فإنَّ الله أحسن خلقه، وخَلَقَه خلقًا يليق به، ويوافقه، فهذا عام.. ثم خص الآدميَّ لشرفه وفضله فقال..

﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾ وذلك بخلق آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أبي البشر..

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ ذرية آدم ناشئة..

﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾..

﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة..

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ بلحمه، وأعضائه، وأعصابه، وعروقه، وأحسن خِلقَته، ووضع كلَّ عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره..

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ بأن أرسل إليه المَلَك، فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيوانـًا، بعد أن كان جمادًا..

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ما زال يعطيكم من المنافع شيئًا فشيئًا، حتىٰ أعطاكم السمع والأبصار..

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة:٤-٩] الذي خلقكم وصوَّركم.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة:١٠-١١]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قال المكذبون بالبعث علىٰ وجه الاستبعاد..

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بَلِينَا وتمزقنا وتفرقنا في المواضع التي لا تُعْلَمُ..

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ لمبعوثون بعثًا جديدًا، بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقَدرِهم.. وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد، وكفر بلقاء ربهم، وجَحد، ولهذا قال..

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ فكلامهم عُلِم مصدره وغايته.. وإلا فلو كان قصدهم بيان الحق لَبَيَّنَ لهم من الأدلة القاطعة علىٰ ذلك، ما يجعله مشاهَداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر.. ويكفيهم، أنهم معهم عِلم أنهم قد ابتُدِئوا من العدم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، ينزل الله عليها المطر، فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها..

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ جعَلَه اللهُ وكيلًا علىٰ قبض الأرواح، وله أعوان..

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة:١٠-١١] فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا

كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة:١٢-١٤]

لمَّا ذكر تعالىٰ رجوعهم إليه يوم القيامة، **ذَكَر حالهم في مقامهم بين يديه** فقال..

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أصروا علىٰ الذنوب العظيمة..

﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين..

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ بان لنا الأمر، ورأيناه عيانًا، فصار عين يقين..

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به.. أي: لرأيت أمرًا فظيعًا، وحالًا مزعجة، وأقوامًا خاسرين، وسؤلًا غير مجاب؛ لأنه قد مضىٰ وقت الإمهال.. وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلَّىٰ بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلهذا قال..

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم علىٰ الهدىٰ، فمشيئتنا صالحة لذلك.. ولكن **الحكمة تأبىٰ أن يكونوا كلهم علىٰ الهدىٰ**، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ وجب، وثبت ثبوتًا لا تغير فيه..

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي..

﴿فَذُوقُوا﴾ يقال للمجرمين الذين مَلَكَهُم الذلُّ، وسألوا الرَّجعة إلىٰ الدنيا، ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم..

﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وهذا النسيان نسيان ترك، أي: **بما أعرضتم عنه**، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه، ولا ملاقيه..

﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نَسِيتُم نُسِيتُمْ..

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذاب غير المنقطع.. فإنَّ العذاب إذا كان له أجل وغاية،

كان فيه بعض التنفيس والتخفيف.. وأما عذاب جهنم -أعاذنا الله منه- فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها..

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة:١٢-١٤] من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥-١٧]

لما ذَكَّرَ تعالىٰ الكافرين بآياته، وما أَعَدَّ لهم من العذاب.. ذَكَّرَ المؤمنين بها، وَوَصَفَهم، وما أعدَّ لهم من الثواب، فقال..

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ إيمانًا حقيقيًا، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم..

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ بآيات ربهم، فتليت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح علىٰ أيدي رسل الله، ودُعُوا إلىٰ التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و..

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته..

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تَلَقَّوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلىٰ مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلىٰ الصراط المستقيم..

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، **إلىٰ ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم**، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالىٰ.. ولهذا قال..

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما..

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ جامعين بين الوصفين، خوفًا أن تُرد أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه..

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلًا كان أو كثيرًا..

﴿يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ ولم يَذكر قيدَ النفقة ولا المنفَقَ عليه؛ ليدل علىٰ العموم.. **فإنه يدخل فيه: النفقة الواجبة**: كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، **والنفقة المستحبة** في وجوه الخير.. والنفقة والإحسان المالي خير مطلقًا، **سواء وافق غنيًا أو فقيرًا**، قريبًا أو بعيدًا.. ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع.. فهذا عملهم.. وأما جزاؤهم، فقال..

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميعُ نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي.. أي: فلا يعلم أحد..

﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر».. فكما صلوا في الليل ودعوا وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفىٰ أجرهم، ولهذا قال..

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:١٥-١٧]..

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾ [السجدة:١٨-٢٠]

ينبِّه تعالىٰ العقولَ علىٰ ما تقرر فيها، من **عدم تساوي المتفاوتين المتباينين**، وأنَّ حكمَتَه تقتضي عدمَ تساويهما فقال..

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد عمَّر قلبَه بالإيمان، وانقادت جوارُحه لشرائعه، واقتضىٰ إيمانُه آثارَه وموجباتِه، من تركِ مساخط الله، التي يضر وجودها بالإيمان..

﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ قد خرَّب قلبَه، وتعطَّل من الإيمان.. فلم يكن فيه وازعٌ ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، مِن كلِّ إثمٍ ومعصية، وخَرَجَ بفسقه عن طاعة الله.. أفيستوي هذان الشخصان؟!

﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ ۝١٨﴾ عقلًا وشرعًا.. كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة.. وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة..

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من فروض ونوافل..

﴿فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ الجنات التي هي مأوىٰ اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلىٰ وجهه، وسماع خطابه..

﴿نُزُلَۢا﴾ لهم، أي: ضيافة، وقِرًىٰ..

﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٩﴾ فأعمالهم التي تفضَّل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية.. التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح.. ولا يتقرب إليها بشيء أصلا سوىٰ الإيمان والعمل الصالح..

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ﴾ مقرهم ومحل خلودهم..

﴿ٱلنَّارُۖ﴾ التي جمعت كلَّ عذابٍ وشقاءٍ، ولا يُفتَّرُ عنهم العقاب ساعة..

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ﴾ فكلما حدَّثتهُم إرادتُهم بالخروج، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ..

﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ رُدُّوا إليها، فذَهب عنهم روحُ ذلك الفَرَج، واشتدَّ عليهم الكرب..

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾ [السجدة:١٨-٢٠] فهذا عذابُ النار، الذي يكون فيه مقرُّهم ومأواهم.. وأمَّا العذاب الذي قَبل ذلك ومُقَدِّمَةٌ له وهو عذاب البرزخ، فقد ذُكِر بقوله..

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة:٢١]

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ ولنذيقن الفاسقين المكذبين، نموذجًا..

﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ وهو عذاب البرزخ.. فنذيقهم طرفًا منه **قبل أن يموتوا**: إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرىٰ لأهل بدر من المشركين، **وإما عند الموت**: كما في قوله

تعالىٰ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]..

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ثم يُكمِلُ لهم العذابَ الأدنىٰ في برزخهم.. ولمَّا كانت الإذاقة من العذاب الأدنىٰ في الدنيا قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالىٰ أنه يذيقهم ذلك..

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١] إليه ويتوبون من ذنوبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

📖 **الفـوائـد**

هذه الآية من الأدلة علىٰ **إثبات عذاب القبر**..

ودلالتها ظاهرة: فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة:٢١] أي: بعض وجزء منه، فدلَّ علىٰ أن ثَمَّ عذابًا أدنىٰ قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة:٢٢]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم، وأزيد تعديًا..

﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته علىٰ أيدي رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها، ولا اتبعها..

﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره.. فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النقمة، ولهذا قال..

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة:٢٢]..

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٢٥﴾ [السجدة:٢٣-٢٥]

لما ذكر تعالىٰ، آياته التي ذَكَّر بها عبادَه، وهو: القرآن الذي أنزله علىٰ محمد ﷺ.. ذَكَر أنَّه ليس بِبِدَعٍ من الكُتُب، ولا من جاء به بغريب من الرُّسل..

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقد آتىٰ اللهُ موسىٰ الكتابَ الذي هو التوراة المصدِّقة للقرآن، التي قد صدَّقها القرآن، فتطابق حقُّهما، وثبت برهانهما..

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ لأنه قد تواردت أدلةُ الحقِّ وبيِّناته، فلم يبق للشك والمِرية محل..

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه موسىٰ..

﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٣﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه، وشرائعُه موافقةً في ذلك الزمان لبني إسرائيل.. **وأما هذا القرآن الكريم**: فجعله الله هدايةً للناس كلهم؛ لِأنه هداية للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلىٰ يوم القيامة؛ وذلك لكماله وعلوه ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤]..

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ من بني إسرائيل..

﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: علماء بالشرع، وطرق الهداية.. مهتدين في أنفسهم، ويهدون غيرهم بذلك الهدىٰ.. فالكتاب الذي أنزل إليهم هدىٰ، والمؤمنون به منهم.. علىٰ قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.. **والقسم الأول**: أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصدِّيقين.. وإنما نالوا هذه الدرجة العالية..

﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ علىٰ التعلم والتعليم، والدعوة إلىٰ الله، والأذىٰ في سبيله، وكَفُّوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات..

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ وصلوا في الإيمان بآيات الله إلىٰ درجة اليقين.. وهو العلم التام الموجب للعمل.. وإنما وصلوا إلىٰ درجة اليقين لأنهم تعلَّموا تعلُّمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلَّتها المفيدة لليقين.. فما زالوا يتعلمون المسائل،

ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتىٰ وصلوا لذاك.. فبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامة في الدين.. وثَمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خَطَأً أو عمدًا، والله تعالىٰ..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥﴾ [السجدة:٢٣-٢٥]

وهذا القرآن يقص علىٰ بني إسرائيل بعضَ الذي يختلفون فيه.. فكلُّ خلاف وقع بينهم ووُجِد في القرآن تصديقٌ لأحد القولين فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾ [السجدة:٢٦-٢٧]

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أولم يتبين لهؤلاء المكذِّبين للرسول، ويهدهم إلىٰ الصواب..

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الذين سلكوا مسلكهم..

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ﴾ فيشاهدونها عيانًا، كقوم هود، وصالح، وقوم لوط..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ﴾ **يستدل بها علىٰ**: صدق الرُّسل التي جاءتهم.. وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر.. وعلىٰ أن من فعل مثل فعلهم فُعِلَ بهم كما فُعِلَ بأشياعه من قبل.. وعلىٰ أنَّ الله تعالىٰ مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد..

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾ آيات الله فيَعُونها، فينتفعون بها.. فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح لم يقيموا علىٰ حالةٍ يُجزم بها بالهلاك..

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ بأبصارهم نعمتنا، وكمال حكمتنا..

﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق اللهُ المطرَ الذي لم يكن قبل موجودًا فيها، فيفرغه فيها من السحاب، أو من الأنهار..

﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ نباتًا، مختلف الأنواع..

﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ وهو نبات البهائم..

﴿وَأَنفُسُهُمْ ۖ﴾ وهو طعام الآدميين..

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾ [السجدة:٢٦-٢٧] تلك المِنَّة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلىٰ الصراط المستقيم.. ولكن غَلَب عليهم العَمَىٰ، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرِّجال، وإنما نظروا إلىٰ ذلك نظر الغفلة، مجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة:٢٨-٣٠]

يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به علىٰ التكذيب، جهلا منهم ومعاندة..

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا، علىٰ زعمكم..

﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الرسل..

﴿صَٰدِقِينَ ۝٢٨﴾ في دعواكم..

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ الذي يحصل به عقابُكم لا تستفيدون به شيئًا، فلو كان إذا حَصَلَ، حَصَلَ إمهالُكُم لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمرُ عندكم يَقِينًا، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضىٰ الأمر، ولم يبق للمحنة محل فـ..

﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ لأنَّه صار إيمان ضرورة..

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩﴾ يمهلون، فيؤخَّر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم..

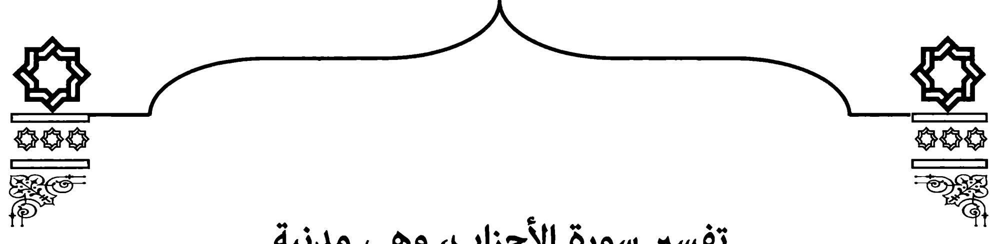
﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لمَّا وَصَل خطابُهم إلىٰ حالة الجهل، واستعجال العذاب..

﴿وَٱنتَظِرْ﴾ الأمر الذي يَحِلُّ بهم، فإنَّه لا بد منه.. ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر..

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة:٢٨-٣٠] بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوىٰ.

تم تفسير سورة (السجدة)

بحول الله ومنه فله تعالىٰ كمال الحمد والثناء والمجد



تفسير سورة الأحزاب، وهي مدنية

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ [الأحزاب:١-٣]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ يا أيها الذي منَّ الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق.. اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولىٰ بها من غيرك، والتي يجب عليك منها أعظم من سواك.. فامتَثِل أوامرَه ونواهيه، وبلِّغ رسالاته، وأدِّ إلىٰ عباده وحيَه، وابذل النصيحةَ للخلق..

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ﴾ ولا يصدَّنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كلَّ كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله.. ولا منافق، قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.. فهؤلاء هم الأعداء علىٰ الحقيقة، فلا تطعهم في بعض الأمور التي تنقض التقوىٰ وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، فيضلوك عن الصواب..

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾..

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾ ولكن ﴿ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾ فإنه هو الهدىٰ والرحمة، وَارْجُ بذلك ثواب ربك؛ فـ..

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر..

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ﴾ فإن وقع في قلبك أنك إن لم تطعهم في أهوائهم المضلة حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقصٌ في هداية الخلق.. فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه

ويقاوم غيرَه، وهو التوكل على الله.. بأن تعتمد على ربك **اعتمادَ من لا يملك لنفسه** ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أُمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ [الأحزاب:١-٣] تُوكَلُ إليه الأمور فيقوم بها، وبما هو أصلح للعبد.. وذلك لـ: علمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه، وأرأف به من كل أحد، خصوصًا خواص عبيده الذين لم يزل يربيهم ببره ويُدِرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة.. خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه، ووعده، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع.. وهناك ترى العبد الضعيف، الذي فوض أمره لسيده، قد **قام بأمور لا تقوم بها أمة من الناس،** وقد سهَّل الله عليه ما كان يصعب على فحول الرجال.. وبالله المستعان.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب:٤-٥]

يعاتب تعالى عبادَه عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال.. ولم يجعله الله تعالى كما قالوا، فإنَّ ذلك القول منكم كَذِبٌ وزور، يترتب عليه منكرات من الشرع.. وهذه **قاعدة عامة في التكلم في كل شيء،** والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى.. ولكن خصَّ هذه الأشياء المذكورة لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال..

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إنَّ له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخِلقة الإلهية..

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: (أنت عليَّ كظهر أمي أو كأمي) فما جعلهن الله..

﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أمُّك من ولدتك، وصارت أعظمَ النساء عليك حرمة وتحريمًا.. وزوجتك أحلُّ النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمر لا يجوز، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾ [المجادلة:٢]..

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾ والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدَّعيه وهو ليس له، أو يُدْعَىٰ إليه، بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية، وأول الإسلام.. فأراد الله تعالىٰ أن يبطله ويزيله، فقدَّم بين يدي ذلك بيانَ قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله، ولا يتصف به عباد الله.. يقول تعالىٰ: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم أو يُدعون إليكم أبناءكم، فإنَّ أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم، فلا جعل الله هذا كهذا..

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القول، الذي تقولون في الدَّعِيِّ: إنه ابن فلان الذي ادَّعاه، أو والدُه فلان..

﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾ قولٌ لا حقيقةَ له ولا معنىٰ له..

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ اليقين والصدق، فلذلك أمركم باتباعه علىٰ قوله وشرعه، فقوله حق، وشرعه حق..

﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته، لأنه لا يهدي إلا إلىٰ السبيل المستقيمة، والطرق الصادقة.. وإن كان ذلك واقعًا بمشيئته، فمشيئته عامة، لكل ما وجد من خير وشر.. ثم صرَّح لهم بترك الحالة الأولىٰ المتضمنة للقول الباطل فقال..

﴿ٱدْعُوهُمْ﴾ أي: الأدعياء..

﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين ولدوهم..

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أعدل، وأقوم، وأهدىٰ..

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ الحقيقيين..

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾ إخوتكم في دين الله، ومواليكم في ذلك.. فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاة علىٰ ذلك.. فترك الدعوة إلىٰ من تبناهم حتم، لا يجوز فعلها.. **وأما دعاؤهم لآبائهم:** فإن عُلِموا دُعوا إليهم، وإن لم يُعلَموا اقتصر علىٰ ما يُعلم منهم، وهو أُخُوَّة الدين والموالاة.. **فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم عذرٌ في دعوتهم إلىٰ من تبناهم؛** لأن المحذور لا يزول بذلك..

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ بـ: أن سَبَق علىٰ لسان أحدِكم دعوتُه إلىٰ من تبناه، فهذا غيرُ مؤاخَذٌ به.. أو عُلِم أبوه ظاهرًا، فدعوتموه إليه، وهو في الباطن غير أبيه.. فليس عليكم في ذلك حرج، إذا كان خطأً..

﴿وَلَٰكِن﴾ يؤاخذكم بـ..

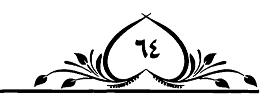
﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾ من الكلام، بما لا يجوز..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب:٤-٥] غفر لكم ورحمكم.. حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به.. ورحمكم حيث بيَّن لكم أحكامه التي تُصلِح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالىٰ.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ [الأحزاب:٦]

يخبر تعالىٰ المؤمنين خبرًا **يعرفون به حالة الرسول ﷺ** ومرتبته، **فيعاملونه بمقتضىٰ تلك الحالة** فقال..

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ أقرب ما للإنسان وأولىٰ ما له نفسه.. فالرسول أولىٰ به من نفسه.. لأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفُهم، فرسول الله أعظم الخلق مِنَّةً عليهم من كل أحد، فإنَّه لم يصل إليهم مثقالُ ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا علىٰ يديه وبسببه.. **فلذلك وجب عليهم:** إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول أن يُقدَّم مرادُ الرسول، وأن لا



يعارض قولَ الرسول بقول أحد كائنًا من كان، وأن يُفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته علىٰ الخلق كلهم، وألا يقولوا حتىٰ يقول، ولا يتقدموا بين يديه..

﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ فهو ﷺ أَبٌ للمؤمنين -كما في قراءة بعض الصحابة- يربيهم كما يربي الوالد أولاده.. **فترتب علىٰ هذه الأبوة**: أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمَحرَمية.. **وكأنَّ هذا مقدمة لما سيأتي في قصة (زيد بن حارثة)**، الذي كان قبل يُدْعَىٰ (زيد بن محمد)، حتىٰ أنزل الله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠] فقطع نسبه وانتسابه منه.. فأخبر في هذه الآية أن **المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد**، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة **فإنَّ النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن** ولا يأسف.. **وترتب علىٰ أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحللن لأحد من بعده**، كما الله صرح بذلك: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]..

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الأقارب، قَرُبوا أو بعدوا..

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه، فيرث بعضهم بعضًا، ويبر بعضهم بعضًا، فهم أولىٰ من الحلف والنصرة.. والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب دون ذوي الأرحام، فقطع تعالىٰ التوارث بذلك، وجعله للأقارب.. لطفًا منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر علىٰ العادة السابقة، لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير..

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإنَّ ذوي الأرحام مقدَّمون في ذلك.. وهذه الآية حجة علىٰ **ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات**، كولاية النكاح والمال، وغير ذلك..

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ ليس لهم حق مفروض، وإنَّما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعًا، وتعطوهم معروفًا منكم..

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور..

﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ [الأحزاب:٦] قد سُطِر، وكُتب، وقدَّره الله، فلا بد من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾ [الأحزاب:٧-٨]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ يخبر تعالىٰ أنه أخذ من النبيين عمومًا.. ومن أولي العزم -وهم هؤلاء الخمسة المذكورون- خصوصًا، ميثاقَهم الغليظ، وعهدهم الثقيل المؤكد..

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ علىٰ القيام بدين الله والجهاد في سبيله.. وأن هذا سبيل قد مشىٰ فيه الأنبياء المتقدِّمون، حتىٰ خُتِموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأُمِر الناسُ بالاقتداء بهم..

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾ [الأحزاب:٧-٨] **وسيسأل اللهُ الأنبياءَ وأتباعَهم عن هذا العهد الغليظ**: هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم.. أم كفروا؟ فيعذبهم العذاب الأليم.. قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ [الأحزاب:٢٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب:٩-١١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يُذكِّر تعالىٰ عبادَه المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم علىٰ شكرها..

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾..

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز **من فوقهم**..

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وأهل نجد **من أسفل** منهم.. وتعاقدوا وتعاهدوا علىٰ استئصال الرسول والصحابة، **وذلك في وقعة الخندق**.. ومالأتهم طوائف اليهود الذين

حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.. وخندق رسول الله ﷺ علىٰ المدينة.. فحصروا المدينة، واشتد الأمر، **وبلغت القلوب الحناجر،** حتىٰ بلغ الظنُّ من كثير من الناس كلَّ مبلغ لما رأوا من الأسباب المستحكمة والشدائد الشديدة.. فلم يزل الحصار علىٰ المدينة مدةً طويلة، والأمر كما وصف الله..

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ أي: الظنون السيئة، أنَّ الله لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته..

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة..

﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب:٩-١١] بالخوف والقلق والجوع.. ليتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم.. فظهر -ولله الحمد- من إيمانهم، وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.. وعندما اشتد الكرب وتفاقمت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].. وهنالك تبيَّن نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون قال تعالىٰ..

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥﴾ [الأحزاب:١٢-١٥]

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ وهذه **عادة المنافق عند الشدة والمحنة:** لا يثبت إيمانه.. وينظر بعقله القاصر إلىٰ الحالة القاصرة.. ويُصدِّق ظنه..

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين، بعد ما جزعوا وقلَّ صبرهم، وصاروا أيضًا من المخذولين.. فلا صَبَروا بأنفسهم، ولا تركوا الناسَ من شرهم.. فقالت هذه الطائفة..

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يريدون: (يا أهل المدينة) فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية،

فيه إشارة إلىٰ أن الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم علىٰ ذلك مجرد الخور الطبيعي.. ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾..

﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة.. وكانوا عسكروا دون الخندق، وخارج المدينة..

﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ إلىٰ المدينة.. فهذه **الطائفة تخذِّل عن الجهاد،** وتبيَّن أنهم **لا قوة لهم بقتال عدوِّهم،** ويأمرونهم بترك القتال، **فهذه الطائفة شر الطوائف وأضرها.. وطائفة أخرىٰ دونهم، أصابهم الجبن** والجزع، وأحبوا أن ينخزلوا عن الصفوف، **فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة،** وهم الذين قال الله فيهم..

﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غُيَّبٌ عنها، فَأْذَنْ لنا نرجع إليها فنحرسها.. وهم كذبة في ذلك..

﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾..

﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ ما قصدهم..

﴿إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام، وسيلةً وعذرًا لهم.. فهؤلاء قلَّ إيمانُهم، وليس له ثبوتٌ عند اشتداد المحن..

﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم﴾ المدينة..

﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها -لا كان ذلك-..

﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾ سُئِل هؤلاء..

﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلىٰ دين المستولين المتغلبين..

﴿لَأٓتَوۡهَا﴾ لأعطوها مبادرين..

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾ ليس لهم منعة ولا تَصلُّبٌ علىٰ الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم علىٰ كفرهم، هذه حالهم..

﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ﴾ والحال أنهم قد..

﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ [الأحزاب:١٢-١٥] سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه.. فما ظنهم إذًا بربهم؟!

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧﴾ [الأحزاب:١٦-١٧]

﴿قُل﴾ لهم، لائمًا على فرارهم، ومخبرًا أنهم لا يفيدهم ذلك شيئًا..

﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ فـ.. ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤].. **والأسباب تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر**، فإذا جاء القضاء والقدر تلاشى كلُّ سبب، وبطلت كلُّ وسيلة ظنها الإنسانُ تنجيه..

﴿وَإِذٗا﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدنيا فإنكم..

﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾ متاعًا لا يُسوى فرارَكم وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبديّ، في النعيم السرمدي.. ثم بيَّن أنَّ الأسباب كلَّها لا تغني عن العبد شيئًا إذا أراده الله بسوء، فقال..

﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم﴾ أي: يمنعكم..

﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا﴾ أي: شرًا..

﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ فإنَّه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو..

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع..

﴿وَلَا نَصِيرٗا ١٧﴾ [الأحزاب:١٦-١٧] ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.. فَليَمْتَثِلُوا طاعة المنفرد بالأمور كلِّها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته وَلِيٌّ ولا ناصر.. **ثم توَّعد تعالى المخذلين المعوقين، وتهددهم**، فقال..

﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ

أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب:١٨-٢٠]

﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ عن الخروج، لمن لم يخرجوا..

﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ الذين خرجوا..

﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾ ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ [الأحزاب:١٣].. وهم مع تعويقهم وتخذيلهم..

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم..

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ فهم أشدَّ الناس حرصًا علىٰ التخلف؛ لـ: عدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضىٰ للجبن، من النفاق، وعدم الإيمان..

﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ بأبدانهم عند القتال، وبأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم..

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ نظر المغشىٰ عليه..

﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ من شدة الجبن الذي خلع قلوبَهم، والقلق الذي أذهلهم.. وخوفًا من إجبارهم علىٰ ما يكرهون، من القتال..

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة..

﴿سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ خاطبوكم وتكلّموا معكم بكلام حديد، ودعاوىٰ غير صحيحة.. وحين تسمعهم تظنهم أهلَّ الشجاعة والإقدام..

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ الذي يراد منهم، وهذا **شرُّ ما في الإنسان**، أن يكون: شحيحًا بما أُمر به.. شحيحًا بماله أن ينفقه في وجهه.. شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلىٰ سبيل الله.. شحيحًا بجاهه.. شحيحًا بعلمه ونصيحته ورأيه..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة..

﴿لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ بسبب عدم إيمانهم، أحبط الله أعمالهم..

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.. وأما المؤمنون: فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم..

﴿يَحۡسَبُونَ﴾ يظنون أن هؤلاء..

﴿ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ الذين تحزبوا علىٰ حرب رسول الله ﷺ وأصحابه..

﴿لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ حتىٰ يستأصلوهم.. فخاب ظنهم، وبَطَل حسبانهم..

﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ لو أتىٰ الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة..

﴿يَوَدُّواْ﴾ ودَّ هؤلاء المنافقون..

﴿لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية..

﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم، ماذا حصل عليكم؟.. فتبًا لهم، وبُعدًا، فليسوا ممن يُبالىٰ بحضورهم..

﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب:١٨-٢٠] فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١]

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ حيث حَضَر الهيجاءَ بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل والبطل الباسل.. **فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ، بنفسه فيه؟!** فَتأَسَّوْا به في هذا الأمر وغيره.. **فالأسوة نوعان:** أسوة حسنة، وأسوة سيئة.. **فالأسوة الحسنة،** في الرسول ﷺ، فإن المتأسِّي به سالك الطريق الموصل إلىٰ كرامة الله، وهو الصراط المستقيم.. **وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة،** كقول الكفار حين دعتهم الرسل للتأسِّي بهم ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]..

﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ وهذه الأسوة الحسنة إنما يسلكها ويوَفَّق لها من

كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر، فإنَّ ما معه من الإيمان وخوف الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه، يحثه علىٰ التأسي بالرسول ﷺ..

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١]..

🕮 الفوائد

واستدل الأصوليون في هذه الآية علىٰ: **الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ**، وأنَّ الأصل أنَّ أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي علىٰ الاختصاص به..

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة، في الرسول ﷺ، فإن المتأسِّي به سالك الطريق الموصل إلىٰ كرامة الله، وهو الصراط المستقيم..

وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار حين دعتهم الرسل للتأسِّي بهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]..

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢]

لمَّا ذكر حالة المنافقين عند الخوف.. ذكر حال المؤمنين فقال..

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزَّبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهىٰ الخوف..

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]..

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ فإنَّا رأينا ما أَخبرَنا بِهِ..

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر..

﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ في قلوبهم..

﴿وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢] في جوارحهم، وانقيادًا لأمر الله.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب:٢٣-٢٤]

ولمَّا ذَكَر أنَّ المنافقين عاهدوا الله لا يولون الأدبار، ونقضوا ذلك العهد.. ذَكَرَ وفاءَ المؤمنين به، فقال..

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ وفُّوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجَهَم في مرضاته، وسبَّلوا أنفسهم في طاعته..

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: إرادته ومطلوبه، وما عليه من الحق.. فقُتل في سبيل الله، أو مات مؤديًا لحقه لم ينقصه شيئـًا..

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ تكميلَ ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه ووفاء نحبه ولمَّا يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك مجد..

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ كما بدَّل غيرُهم.. بل لم يزالوا علىٰ العهد، لا يلوون، ولا يتغيرون.. **فهؤلاء، الرجال علىٰ الحقيقة،** ومن عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال..

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ قدَّرنا ما قدَّرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزي الصادقين بصدقهم.. بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ [المائدة:١١٩] الآية..

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبُهم وأعمالُهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه..

﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبَهم.. بأن لم يشأ هدايتَهم، بل عَلِم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم..

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة.. وهذا هو الغالب علىٰ كرم الكريم.. ولهذا ختم الآية باسمين دالين علىٰ المغفرة، والفضل، والإحسان فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لذنوب المسرفين علىٰ أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب..

﴿رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب:٢٣-٢٤] بهم، حيث وفَّقهم للتوبة، ثم قَبِلَها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧]

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ﴾ ردَّهم خائبين، لم يحصل لهم الأمرُ الذي كانوا حَنِقِين عليه مغتاظين، جازمين بأنَّ لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأُعجبوا بتحزبهم، وفَرِحوا بِعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ.. فأرسل اللهُ عليهم ريحًا عظيمة، وهي ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوَّضت خيامهم، وكفأت قدورَهم، وأزعجتهم، وضربهم اللهُ بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين..

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادِيَّة والقدرية..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ لا يغالبه أحدٌ إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحدٌ إلا غَلَبَ، ولا يعجزه أمرٌ أراده، ولا ينفع أهلَّ القوة والعزة، قوَّتهم وعزتهم، إن لم يعنهم بقوته وعزته..

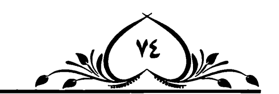
﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونوهم..

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود..

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أنزلهم من حصونهم، نزولًا مظفورًا بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام..

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ فلم يقووا علىٰ القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا..

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال المقاتلون..



﴿وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦﴾ مَنْ عداهم من النساء والصبيان..

﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ﴾ غنَّمكم..

﴿أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم..

﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ أرضًا كانت من قَبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله وخذلهم..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ۝٢٧﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧] لا يعجزه شيء.. ومن قُدرَتِه قدَّر لكم ما قدَّر.

📖 **الفـوائـد**

كانت هذه الطائفة من أهل الكتاب هم **بنو قريظة** من اليهود..

في قرية خارج المدينة، **غير بعيدة**..

وكان النبي ﷺ حين هاجر إلىٰ المدينة **وادعهم**، وهادنهم..

فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون علىٰ دينهم، **لم يُغَيِّر عليهم شيئًا**..

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا علىٰ رسول الله وكثرتهم، وقلة المسلمين، **وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين**، وساعد علىٰ ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم..

فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، **ومالؤوا المشركين** علىٰ قتاله..

فلما خذل الله المشركين **تفرَّغ رسول الله ﷺ لقتالهم**..

فحاصرهم في حصنهم، **فنزلوا علىٰ حكم سعد بن معاذ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبىٰ ذراريهم وتغنم أموالهم..

فأتم اللهُ لرسوله والمؤمنين المِنَّة، وأسبغ عليهم النعمة، وأَقَرَّ أعينَهم بخذلان من انخذل من أعدائهم، وقتلِ من قُتِلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩]

لمَّا اجتمع نساءُ رسول الله ﷺ في الغَيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة.. طلبن منه أمرًا لا يقدر عليه في كل وقت.. ولم يزلن في طلبهن متفقات، في مرادهن متعنتات.. شَقَّ ذلك علىٰ الرسول، حتىٰ وصلت به الحال إلىٰ أنه آلىٰ منهن شهرًا.. **فأراد اللهُ أن يسهل الأمرَ علىٰ رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويُذْهِبَ عنهنَّ كلَّ أمرٍ يُنقص أجرَهُنَّ، فَأَمَرَ رسولَه أن يُخَيِّرهُنَّ** فقال..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها، وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال..

﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ شيئـًا مما عندي، من الدنيا..

﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ أفارقكن..

﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾ من دون مغاضبة ولا مشاتمة، بل بسعة صدر، وانشراح بال، قبل أن تبلغ الحالُ إلىٰ ما لا ينبغي..

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لَكُنَّ الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩] رتَّب الأجرَ علىٰ وصفهن بالإحسان؛ لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإنَّ مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئًا مع عدم الإحسان.. فخيَّرهن رسول الله ﷺ في ذلك، **فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، كلهن** ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن.

🕮 الفـوائـد

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: **الاعتناء برسوله، وغَيرته عليه**، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه **يبقىٰ في حرية نفسه**، إن شاء أعطىٰ، وإن شاء منع ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب:٣٨].

ومنها: **تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا** علىٰ الله ورسوله، والدار الآخرة، وعن مقارنتها.

ومنها: **سلامة زوجاته** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُنَّ، عن الإثم، والتعرض لسخط الله ورسوله.. فحسم اللهُ بهذا التخيير عنهن التسخط علىٰ الرسول الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: **إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن**، وبيان علو هممهن.. أن كان الله ورسوله والدار الآخرة، مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار، للوصول إلىٰ خيار درجات الجنة، **وأن يَكُنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.**

ومنها: ظهور **المناسبة بينه وبينهن،** فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكمَّلات، طيبات مطيبات ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور:٢٦].

ومنها: أن **هذا التخيير داع وموجب للقناعة، التي يطمئن لها القلب**، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا **سببًا لزيادة أجرهن ومضاعفته**، وأن يَكُنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١﴾ [الأحزاب:٣٠-٣١]

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ لمَّا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذَكَرَ مضاعفةَ أجرِهن، ومضاعفةَ وزرِهن وإثمهن لو جرىٰ منهن؛ ليزداد حذرُهن، وشكرهن الله تعالىٰ.. فجعل من أتىٰ منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين..

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾..

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ أي: تطيع..

﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قليلًا أو كثيرًا..

﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مثل ما نعطي غيرها مرتين..

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب:٣٠-٣١] وهي الجنة.. فقنتن لله ورسوله، وعملن صالحًا، فعُلِم بذلك أجرُهن.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤]

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ خطاب لهن كلهن..

﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فإنكن بذلك تَفُقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكَمِّلَن التقوىٰ بجميع وسائلها ومقاصدها.. فلهذا أرشدهن إلىٰ قطع وسائل المُحرَّم، فقال..

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ في مخاطبة الرجال أو بحيث يسمعون، فتَلِنَّ في ذلك وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾..

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد ينظر، أدنىٰ محرك

يحركه، لأن قلبه غير صحيح.. ولما نهاهن عن الخضوع في القول، **فربَّما توَّهم أنَّهن مأمورات بإغلاظ القول،** دفع هذا بقوله..

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بِلَيِّنٍ خاضع..

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ..

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولىٰ، الذين لا علم عندهم ولا دين.. فكل هذا دفع للشر وأسبابه.. ولما أمرهن بالتقوىٰ عمومًا، وبجزئيات من التقوىٰ، نص عليها لحاجة النساء إليها.. كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصًا الصلاة والزكاة..

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كلُّ أحد.. وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات.. وفي الصلاة: الإخلاص للمعبود.. وفي الزكاة: الإحسان إلىٰ العبيد.. **ثم أمرهن بالطاعة عمومًا،** فقال..

﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله: كلُّ أَمرٍ أَمرَا به أَمرُ إيجاب أو استحباب..

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بِأَمرِكُنَّ بما أَمَرَكُنَّ به، ونَهيكُنَّ بما نهاكُنَّ عنه..

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ الأذىٰ، والشر، والخبث، يا..

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ حتىٰ تكونوا طاهرين مطهَّرين.. فاحمدوا ربَّكم واشكروه علىٰ هذه الأوامر والنواهي.. التي أخبركم بمصلحتها، وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجًا ولا مشقة، بل لتتزكىٰ نفوسُكم، ولتتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.. **ولما أمرهن بالعمل** الذي هو فعل وترك.. **أمرهن بالعلم، وبيَّن لهن طريقه،** فقال..

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله: القرآن.. والحكمة: أسراره وسنة رسوله.. **وأَمرُهُنَّ بذكره، يشمل:** ذِكرَ لفظه بتلاوته، وذِكر معناه بتدبره والتفكر فيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه، وذِكرَ العمل به وتأويله..

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤] يدرك أسرارَ الأمور، وخفايا

الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تَبين وتُسَر.. **فلُطفه وخِبرتُه يقتضي**: حثهن علىٰ الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله علىٰ تلك الأعمال.. **ومن معاني اللطيف**: الذي يسوق عبده إلىٰ الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقـًا له إلىٰ أعلىٰ الدرجات، وأرفع المنازل.

🕮 الفـوائـد

١- تأمَّل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، ولم يقل: (فلا تَلِنَّ بالقول)..

وذلك **لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يُطمَع فيه..**

بخلاف من تكلَّم كلامًا لينًا ليس فيه خضوع، بل ربَّمَا صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإنَّ هذا لا يَطمع فيه خصمُه..

ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال لموسىٰ وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

٢- دلَّ قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه علىٰ الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا..

أنه ينبغي للعبد إذا رأىٰ من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش لفعل المحرَّم عندما يرىٰ أو يسمع كلامَ من يهواه، ويجد دواعي طمعِه قد انصرفت إلىٰ الحرام، فَلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض..

فَلْيَجْتَهِدْ في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديَّة، ومجاهدة نفسه علىٰ سلامتها من هذا المرض الخَطِر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، **وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.**

٣- **إنَّ القلب الصحيح** ليس فيه شهوة لِمَّا حرَّم الله، فإنَّ ذلك لا تكاد تُمِيلُه ولا تحركه الأسباب؛ لصحة قلبه وسلامته من المرض..

بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر علىٰ ما يصبر عليه، فأدنىٰ سببٌ يوجد يَدعُوه إلىٰ الحرام يُجيبُ دعوَته، ولا يتعاصىٰ عليه.

٤- هذا دليل علىٰ أن **الوسائل لها أحكام المقاصد**: فإن الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلةً إلىٰ المحرَّم منع منه.. **ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلِينَ لهم القول.**

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب:٣٥]

لمَّا ذَكر تعالىٰ ثواب زوجات الرسول ﷺ، وعقابهن لو قُدِّر عدمُ الامتثال، وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.. ولما كان حكمهن والرجال واحدًا، جعل الحكم مشتركًا، فقال..

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها..

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله..

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المطيعين لله ولرسوله..

﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في مقالهم وفعالهم..

﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ الشدائد والمصائب..

﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصًا في عباداتهم، خصوصًا في صلواتهم..

﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فرضًا ونفلًا..

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ شَمَل ذلك الفرض والنفل..

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنا ومقدماته..

﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي: في أكثر الأوقات، خصوصًا أوقات الأوراد المقيَّدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات..

﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة.. التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر.. الذي من قام بهن فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.. فجازاهم علىٰ عملهم بالـ..

﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات..

﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب:٣٥] لا يُقَدِّر قَدرَه إلا الذي أعطاه.. مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب:٣٦]

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق، ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة..

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾ من الأمور، وحتَّما به وأَلزَما به..

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أنَّ الرسول أَولَىٰ به من نَفسِهِ.. فلا يجعل بعضَ أهواءِ نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله..

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب:٣٦] أي: بَيِّنًا، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلىٰ كرامة الله، إلىٰ غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم..

فَذَكَر أولًا السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله وهو الإيمان.. ثم ذَكَر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال علىٰ العقوبة والنكال.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب:٣٧]

وكان سبب نزول هذه الآيات: أن الله تعالىٰ أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح علىٰ من تبناهم، في نكاحهن..

وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير..

فأراد أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعلًا..

وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا..

وكان (زيد بن حارثة) يُدعىٰ (زيد بن محمد)، قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعىٰ إليه حتىٰ نزل ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ فقيل له: (زيد بن حارثة)..

وكانت تحته (زينب بنت جحش)، ابنة عمة رسول الله ﷺ، وكان قد وقع في قلب الرسول لو طلَّقها زيدٌ لتزوَّجها..

فقدَّر اللهُ أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضىٰ أن جاء (زيد بن حارثة) يستأذن النبيَّ ﷺ في فراقها.. قال الله..

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام..

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق حين جاءك مشاورًا في فراقها، فقلت له ناصحًا له ومخبراً بمصلحته، مع وقوعها في قلبك..

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ لا تفارقها، واصبر علىٰ ما جاءك منها..

﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوىٰ، تحث علىٰ الصبر، وتأمر به..

﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد، لتزوجها ﷺ..

﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك..

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا..

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها..

﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي..

﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل ينتسب إليك.. ولما كان قوله: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ عامًا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيَّد ذلك بقوله..

﴿إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾..

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب:٣٧] لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

🕮 الفـوائـد

وفي هذه الآيات المشتملات علىٰ هذه القصة، فوائد:

١- منها: **الثناء علىٰ زيد بن حارثة**، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الله **سمَّاه في القرآن**، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن الله **أخبر أنه أنعم عليه**، أي: بنعمة الإسلام والإيمان.. وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن، ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها، النعمة الخاصة.

٢- ومنها: أن المُعْتَق في نعمة المُعْتِق.

٣- ومنها: جواز **تزوج زوجة الدَّعِيّ**، كما صرح به.

٤- ومنها: **أن التعليم الفعلي أبلغ من القولي**، خصوصـًا إذا اقترن بالقول، فإنَّ ذلك نور علىٰ نور.

٥- ومنها: **أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته** ومملوكته ومحارمه، إذا لم يقترن

بها محذور، **لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته**، أن لو طلَّقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعىٰ في فُرقة بينهما، أو يتسبب بأيِّ سببٍ كان؛ **لأن اللهَ أخبرَ أنَّ الرسول ﷺ أخفىٰ ذلك في نفسه**(١).

٦- ومنها: أنَّ الرسولَ ﷺ، قد بلَّغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه، إلا وبلَّغه، حتىٰ هذا الأمر الذي فيه عتابه.. وهذا يدل علىٰ أنَّه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

٧- ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه -إذا استشير في أمر من الأمور- أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير، ولو كان له حظُّ نفس (٢)، فيُقدِّم مصلحة المستشير علىٰ هوىٰ نفسه وغرضه.

٨- ومنها: أنَّ من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يُؤمرُ بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

٩- ومنها: أنَّه يتعين أن يقدِّم العبدُ خشيةَ الله علىٰ خشية الناس، وأنَّها أحق منها وأولىٰ.

---

(١) حاشا لله أن يكون هذا ما أخفاه النبي ﷺ في نفسه، وما كان ﷺ خائن العين، وأن يخالف ظاهره باطنه..

وهذا الذي ذهب إليه المصنف ذهب إليه بعض المفسرين غيره، ولم يأتوا بدليلٍ علىٰ قولهم.. بل الدليل علىٰ خلافه..

وظني أنَّ الذي جرأهم علىٰ ذلك هو اعتقادهم بعدم عصمة الأنبياء في ما تحدثهم بهم أنفسهم، كما حدث مع يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ من همٍ لم يتجاوز حديث النفس..

إلا أنَّ هذا القول في حق النبي ﷺ في هذا الموطن تجاوز مجرد حديث النفس، كما تقدَّم في صدر هذا التعليق.. وقد تعقب هذا القول كثير من العلماء..

ولأني لا أريد الاستكثار في الرد علىٰ هذا.. فساقتصر علىٰ كلام ابن حجر في [الفتح/ ٨/ ٣٨٣] قال:
وَالْحَاصِلُ أَنَّ **الَّذِي كَانَ يُخْفِيهِ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ إِخْبَارُ اللهِ إِيَّاهُ أَنَّهَا سَتَصِيرُ زَوْجَتَهُ**، وَالَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ إِخْفَاءِ ذَلِكَ خَشْيَةَ قَوْلِ النَّاسِ: تَزَوَّجَ امْرَأَةَ ابْنِهِ، وَأَرَادَ اللهُ إِبْطَالَ مَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ التَّبَنِّي بِأَمْرٍ لَا أَبْلَغُ فِي الْإِبْطَالِ مِنْهُ، وَهُوَ تَزَوُّجُ امْرَأَةِ الَّذِي يُدْعَىٰ ابْنًا.. وَوُقُوعُ ذَلِكَ مِنْ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونَ أَدْعَىٰ لِقَبُولِهِمْ.. **وَإِنَّمَا وَقَعَ الْخَبْطُ فِي تَأْوِيلِ مُتَعَلَّقِ الْخَشْيَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ**.اهـ

(٢) هذا بناء علىٰ ما ذهب إليه المصنف، وتقدَّم الرد عليه، والفائدة صحيحه يستدل عليها بغير هذا الدليل.

١٠- ومنها: فضيلة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين، حيث تولىٰ اللهُ تزويجها من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك علىٰ أزواج رسول الله ﷺ، وتقول (زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات).

١١- ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتىٰ يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتىٰ تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها هي في عصمته، أو في حقه الذي له وطرٌ إليها، ولو من بعض الوجوه.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب:٣٨-٣٩]

هذا دفع لطعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا مطعن فيه، فقال..

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثم وذنب..

﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: قدَّر له من الزوجات، فإنَّ هذا قد أباحه اللهُ للأنبياء قبله، ولهذا قال..

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ لا بد من وقوعه.. ثم ذَكَر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعادتهم، وأنهم..

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فيتلون علىٰ العباد آيات الله، وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلىٰ الله..

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ وحده لا شريك له..

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ فإذا كان هذا **سنة في الأنبياء** المعصومين الذين وظيفتهم قد أدُّوها وقاموا بها أتمَّ القيام.. وهو **دعوة الخلق إلىٰ الله**، والخشية منه وحده التي تقتضي فعلَ كلِّ مأمور، وترك كل محظور.. دلَّ ذلك علىٰ أنه **لا نقص فيه بوجه**..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب:٣٨-٣٩] محاسِبًا عباده، مراقبًا أعمالهم.. وعُلِم من هذا **أنَّ النِّكاح من سنن المرسلين**.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب:٤٠]

﴿مَّا كَانَ﴾ لم يكن الرسول..

﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ..

﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيها الأمة.. فقطع انتساب (زيد بن حارثة) منه من هذا الباب.. ولمَّا كان هذا النفي عامًّا في جميع الأحوال إن حمل ظاهر اللفظ علىٰ ظاهره، أي: لا أبوَّة نسب ولا أبوة ادعاء.. وقد كان تقرر فيما تقدم أنَّ الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم وأزواجه أمهاتهم.. فاحترز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور، فقال..

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هذه مرتبته.. مرتبة المطاع المتبوع.. المُهتدىٰ به.. المؤمَنُ له.. الذي يجب تقديمُ محبته علىٰ محبة كلِّ أحد.. الناصحُ الذي لهم، أي: للمؤمنين.. مِن بِرِّه ونصحه كأنَّه أبٌ لهم..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب:٤٠] قد أحاط علْمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله، ومن لا يصلح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ يأمر تعالىٰ المؤمنين، بذِكره ذكرًا كثيرًا.. من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير، وغير ذلك من كلِّ قول فيه قُربة إلىٰ الله.. وأقل ذلك أن يلازم الإنسانُ أورادَ الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.. وينبغي مداومةَ ذلك في جميع الأوقات علىٰ جميع الأحوال؛ فإنَّ ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلىٰ محبة الله ومعرفته، وعون علىٰ الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح..

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] أول النهار وآخره، لفضلها، وشرفها، وسهولة العمل فيها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب:٤٣-٤٤]

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثنائه وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلىٰ نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل.. فهذه أعظمُ نِعمةٍ أنعم بها علىٰ العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرهَا، والإكثارَ من ذكر الله الذي لَطَفَ بهم ورحمهم.. وجعل حملة عرشه -أفضل الملائكة- ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧- ٩]..

﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ **فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.. وأما رحمته بهم في الآخرة:** فأجل رحمة، وأفضل ثواب، **وهو الفوز برضا ربهم وتحيته**، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه، إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال..

﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب:٤٣-٤٤]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ هذه الأشياء، التي وصف الله بها رسولَه محمدًا ﷺ هي

المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه..

﴿شَاهِدًا﴾ علىٰ أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء:٤١]، فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.. الثاني، والثالث: كونه ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾..

﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ **وهذا يستلزم:** ذِكرَ المبشَّر والمنذَّر، وما يبشِّر به وينذِر، والأعمال الموجبة لذلك.. **فالمبشَّر:** هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوي وديني رُتِّب علىٰ الإيمان والتقوىٰ، وفي الأخرىٰ بالنعيم المقيم، **وذلك كله يستلزم:** ذِكرَ تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوىٰ، وأنواع الثواب.. **والمنْذَر:** هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة علىٰ الجهل والظلم، وفي الأخرىٰ، بالعقاب الوبيل، والعذاب الطويل.. **وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة** المشتمل علىٰ ذلك.. **الرابع: كونه** ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾..

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أرسله الله يدعو الخلقَ إلىٰ ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها.. **وذلك يستلزم:** استقامته علىٰ ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلىٰ الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، **وإخلاص الدعوة إلىٰ الله لا إلىٰ نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام**، وذلك كلُّه بِإِذْنِ الله تعالىٰ له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.. **الخامس: كونه** ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾..

﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ **وذلك يقتضي:** أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدىٰ به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها، حتىٰ جاء اللهُ بهذا النبي الكريم، فأضاء اللهُ به تلك الظلمات، وعلَّم به من الجهالات، وهدىٰ به ضُلَّالًا إلىٰ الصراط المستقيم.. فأصبح أهل الاستقامة قد وَضَح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر، وأهلَ

السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة..

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ **ذكر في هذه الجملة المبشَّر،** وهم المؤمنون، **وعند ذكر الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال** الصالحة.. **وذَكَر المبشَّر به،** وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدَّارَّة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.. **وهذا مما ينشِّط العاملين،** أن يذكر لهم من ثواب الله علىٰ أعمالهم ما به يستعينون علىٰ سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع.. كما أن **من حِكَمِهِ أن يَذكر في مقام الترهيب العقوبات المترتبة علىٰ ما يُرَهَّب منه،** ليكون عونًا علىٰ الكفِّ عمَّا حرَّم الله.. **ولمَّا كان ثَمَّ طائفةٌ من الناس مستعدةٌ للقيام بصدِّ الداعين إلىٰ الله من الرسل وأتباعهم،** وهم المنافقون الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهرًا وباطنًا، **نهىٰ اللهُ رسولَه عن طاعتهم، وحذَّره ذلك** فقال..

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في كلِّ أمرٍ يصد عن سبيل الله، **ولكن لا يقتضي هذا أذاهم،** بل لا تطعهم..

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ فإنَّ ذلك جالب لهم وداع إلىٰ قبول الإسلام، وإلىٰ كفِّ كثير من أذيتهم له، ولأهله..

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٨] **تُوكَلُ إليه الأمور المهمة، فيقوم بها،** ويسهلها علىٰ عبده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب:٤٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يخبر تعالىٰ المؤمنين أنهم..

﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها أزواجهن عليهن..

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وأمرهم بتمتيعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرهن، لأجل فراقهن..

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب:٤٩] وأن يفارقوهن فراقًا جميلا من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا غير ذلك.

🕮 الفوائد

١- يستدل بهذه الآية على: أن الطلاقَ لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلَّقها قبل أن ينكحها، أو علَّق طلاقها على نكاحها، لم يقع.. لقوله ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩]، فجعل الطلاق بعد النكاح، فدلَّ على أنه قبل ذلك لا محل له.

٢- وإذا كان الطلاق -الذي هو فرقة تامة وتحريم تام- لا يقع قبل النكاح، **فالتحريم الناقص لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح**، كما هو أصح قَوْلي العلماء.

٣- ويدل على: **جواز الطلاق**؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلمهم عليه، ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

٤- وعلى: **جوازه قبل المسيس**، كما قال في الآية الأخرى ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦].

٥- وعلى: أن **المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها**، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع.

٦- وعلى: **أن عليها العدة بعد الدخول.**

٧- وهل **المراد بالدخول والمسيس** الوطء -كما هو مجمع عليه- أو **وكذلك الخلوة ولو لم يحصل معها وطء**، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون؟ وهو الصحيح، فمن دخل عليها -وطئها، أم لا- إذا خلا بها وَجَب عليها العدة.

٨- وعلىٰ: أن **المطلقة قبل المسيس تمتع** علىٰ الموسع قدره، وعلىٰ المقتر قدره.. ولكن هذا **إذا لم يفرض لها مهر**، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلَّق قبل الدخول تَنَصَّف المهر، وكفىٰ عن المتعة.

٩- وعلىٰ: أنه **ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلًا**، يَحمَد فيه كلٌّ منهما الآخر.. ولا يكون غير جميل، فإنَّ في ذلك من الشَّر المرتب عليه من قدح كلٍّ منهما بالآخر، شيء كثير.

١٠- وعلىٰ: أن **العدة حق للزوج**، لقوله ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾، **دلَّ مفهومه أنه** لو طلَّقها بعد المسيس كان له عليها عدة.

١١- وعلىٰ: أن **المفارقة بالوفاة تعتد مطلقًا**، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ **الآية**.

١٢- وعلىٰ: **أن من عدا غير المدخول بها** من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، **عليهن العدة**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب:٥٠]

يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ رسوله بـ: إحلاله له ما أحلَّ مما يَشترك فيه هو والمؤمنون، وما ينفرد به ويختص..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ **أي: أعطيتهن مهورهن** من الزوجات.. **وهذا من الأمور المشتركة** بينه وبين المؤمنين، فإن المؤمنين كذلك يباح لهم ما آتوهن أجورهن، من الأزواج..

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ وكذلك أحللنا لك ﴿ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، أي: الإماء التي مَلَكت..

﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، **وهذا أيضا مشترك**.. وكذلك من المشترك، قوله..

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ شَمَلَ العمَّ والعمَّة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حَصْرُ المُحَلَّلات.. **يؤخذ من مفهومه: أن ما عداهن من الأقارب غير محلَّل،** كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا، والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح..

﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قَيدٌ لحِلِّ هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية.. وأما غيره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقد عُلِم أنَّ هذا قيد لغير الصِّحة..

﴿وَٱمْرَأَةً﴾ وأحللنا لك امْرأَةً..

﴿مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ بمجرد هبتها نفسها..

﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ هذا تحت الإرادة والرغبة..

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إباحة المُوهِبَة.. وأما المؤمنون فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم..

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ قد علمنا ما علىٰ المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل، من الزوجات وملك اليمين، وقد علمناهم بذلك، وبيَّنا فرائضه.. فما في هذه الآية مما يخالف ذلك فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطابًا للرسول وحده بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلىٰ آخر الآية، وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.. وأبحنا لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع علىٰ غيرك..

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالىٰ برسوله ﷺ..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ [الأحزاب:٥٠] لم يزل متصفًا بالمغفرة والرحمة، وينزل علىٰ عباده من مغفرته ورحمته، وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ [الأحزاب:٥١]

وهذا أيضًا من **توسعة الله علىٰ رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القَسم بين زوجاته،** علىٰ وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه.. ومع ذلك فقد كان ﷺ يجتهد في القَسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»(١).. فقال هنا..

﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيتَ عندها..

﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ تضمها وتبيت عندها..

﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ ومع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ ﴾ أي: أن تؤويها..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ﴾ والمعنىٰ أن الخِيرَة بيدك في ذلك كله.. وقال كثير من المفسرين: **إنَّ هذا خاص بالواهبات،** له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم.. ثم بيَّن الحكمة في ذلك فقال..

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوسعة عليك، وكون الأمر راجعًا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعًا منك..

﴿أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجبًا ولم تفرط في حق لازم..

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ ﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق.. فلذلك شَرَع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوبُ زوجاتك..

(١) أخرجه ابن حبان في [صحيحه/ ٤٢٠٥] وغيره من حديث عائشة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝٥١﴾ [الأحزاب:٥١] أي: واسع العلم، كثير الحلم.. **ومن علمه:** أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم، وأكثر لأجوركم.. **ومن حلمه:** أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرَّت عليه قلوبكم من الشر.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأحزاب:٥٢]

وهذا **شكر من الله -الذي لم يزل شكورًا- لزوجات رسوله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.. حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.. أن رَحِمَهُن وقَصَر رسولَه عليهن فقال..

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ زوجاتك الموجودات..

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ ولا تطلق بعضَهُن، فتأخذ بدلها.. **فحصل بهذا: أمنُهُنَّ** من الضرائر، ومن الطلاق.. لأن الله قضىٰ أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة..

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ أي: حسن غيرهن، فلا يحللن لك..

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ أي: السراري، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأحزاب:٥٢] **مراقبًا** للأمور.. **وعالمًا** بما إليه تؤول.. **وقائمًا** بتدبيرها علىٰ أكمل نظام، وأحسن إحكام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٥٤﴾ [الأحزاب:٥٣-٥٤]

يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بـ: **التأدب مع رسول الله ﷺ، في دخول بيوته فقال..**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ **لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها، لأجل الطعام..**

﴿غَيۡرَ﴾ وأيضًا لا تكونوا..

﴿نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ منتظرين ومتأنين لانتظار (نضجه) أو (سعة صدر) بعد الفراغ منه..

والمعنىٰ: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ أي: قبل الطعام وبعده.. **ثم بيَّن حكمةَ النهي وفائدتَه فقال..**

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: انتظاركم الزائد علىٰ الحاجة..

﴿كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ **يتكَلَّفُ منه ويَشُقُّ عليه حبسُكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه..**

﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾ **أن يقول لكم: (اخرجوا).. كما هو جاري العادة، أن الناس** - وخصوصًا أهل الكرم منهم- يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم..

﴿وَٱللَّهُ﴾ ولكن الله..

﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن في تركه أدبـًا وحياءً، فإنَّ الحزم كلَّ الحزم اتباعُ الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء.. والله تعالىٰ لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفقُ لرسوله كائنًا ما كان، **فهذا أدبهم في الدخول في بيوته.. وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته،** فإنه إما أن يُحتاج إلىٰ ذلك، أو لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه..

﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ وإن احتيج إليه، كأن يسألن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها..

﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾ فإنَّهن يُسألن..

﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ يكون بينكم وبينهن ستر، يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.. **فصار النظر إليهن ممنوعًا بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل** الذي ذكره الله.. **ثم ذَكَر حِكمةَ ذلك بقوله..**

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ لأنَّه أبعد عن الريبة، وكلَّما بعُد الإنسانُ عن الأسباب الداعية إلىٰ الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.. فلهذا، من الأمور الشرعية التي بيَّن اللهُ كثيرًا من تفاصيلها، **أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة**، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.. ثم قال كلمةً جامعة وقاعدة عامة..

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء..

﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أذيةً قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به..

﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ هذا من جملة ما يؤذيه.. فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته بعده مخل بهذا المقام.. وأيضا، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، **والزوجية باقية بعد موته**، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته.. وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهىٰ الله عنه منه.. ولله الحمد والشكر..

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.. ثم قال تعالىٰ..

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾ أي: تظهروه..

﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب:٥٣-٥٤] يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب:٥٥]

لما ذَكَر أنهنَّ لا يُسألن متاعًا إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عامًا لكل أحد، احتيج **أن يستثنىٰ منه هؤلاء المذكورون من المحارم**، وأنه..

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم..

﴿فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ ولم يذكر فيها: الأعمام والأخوال: **لأنهن** إذا لم يحتجبن عمن هن عماته ولا خالاته من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولىٰ.. **ولأنَّ**

منطوق الآية الأخرىٰ المصرحة بذكر العم والخال مقدمة علىٰ ما يفهم من هذه الآية..

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن، أي: **اللاتي من جنسهن في الدين**، فيكون ذلك مخرجًا لنساء الكفار.. **ويحتمل** أن المراد **جنس النساء**، فإنَّ المرأة لا تحتجب عن المرأة..

﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكِها جميعُه.. ولما رفع الجناح عن هؤلاء، **شرط فيه وفي غيره لزومَ تقوىٰ الله**، وأن لا يكون في محذور شرعي فقال..

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ استعملن تقواه في جميع الأحوال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾ [الأحزاب:٥٥] يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرىٰ حركاتهم، ثم يجازيهم علىٰ ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦]

وهذا فيه تنبيه علىٰ كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره.. و..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ..

﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ يثني اللهُ عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلىٰ، لمحبته تعالىٰ له.. وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦] اقتداء بالله وملائكته.. وجزاء له علىٰ بعض حقوقه عليكم.. وتكميلًا لإيمانكم.. وتعظيمًا له ﷺ.. ومحبة وإكرامًا.. وزيادة في حسناتكم.. وتكفيرًا من سيئاتكم.. **وأفضل هيئات الصلاة عليه** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ما علم به أصحابه: «اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد».. وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨]

لمَّا أمَر تعالىٰ بتعظيم رسوله ﷺ، والصلاة والسلام عليه، **نهىٰ عن أذيته، وتوعد عليها** فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا يشمل كلَّ أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذىٰ..

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أبعدهم وطردهم.. ومن لعنهم في الدنيا أنه **يحتم قتل من شتم الرسولَ** وآذاه..

﴿وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ جزاءً له علىٰ أذاه أن يُؤذىٰ بالعذاب الأليم.. فأذية الرسول ليست كأذية غيره؛ لأنه ﷺ لا يؤمن العبد بالله حتىٰ يؤمن برسوله ﷺ.. وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك، أن لا يكون مثلَ غيره.. وإن كانت أذيَّةُ المؤمنين عظيمة وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها..

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير جناية منهم موجبة للأذىٰ..

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ علىٰ ظهورهم..

﴿بُهْتَٰنًا﴾ حيث آذوهم بغير سبب..

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨] حيث تعدُّوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.. ولهذا كان سبُّ آحاد المؤمنين، موجبًا للتعزير بحسب حالته وعلو مرتبته.. فتعزير من سبَّ الصحابة أبلغ.. وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٥٩-٦٢]

هذه الآية التي تسمىٰ **آية الحجاب**..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأمر الله نبيَّه أن يأمر النساء عمومًا.. **ويبدأ بزوجاته وبناته:** لأنهن آكد من غيرهن، ولأن الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦].. أن..

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه.. أي: **يغطين بها وجُوهَهُنَّ وصدورهنَّ**.. ثم ذَكَر حكمةَ ذلك، فقال..

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ **دلَّ علىٰ وجود أذية إن لم يحتجبن**، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن ربَّما ظُنَّ أنهن غير عفيفات، **فيتعرض لهن مَن في قلبه مرض**، فيؤذيهن، وربَّما استهين بهن، وظُنَّ أنهن إماء، **فتهاون بهن من يريد الشر**، **فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن**..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم، بـ: أن بيَّن لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام.. فهذا سد للباب من جهتهن، **وأما من جهة أهل الشر** فقد توعدهم بقوله..

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض **شك** أو **شهوة**..

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المُخَوِّفون، **المُرهِبُون**، الأعداء، المُحدِّثون بـ: كثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين.. ولم يذكر المعمولَ الذي ينتهون عنه؛ ليَعُمَّ ذلك كلَّ ما توحي به أنفسُهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة، من أمثال هؤلاء..

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم.. ثم إذا فعلنا ذلك، **لا طاقة لهم بك**، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال..

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ لا يجاورونك في المدينة إلا قليلًا، بأن تقتلهم أو تنفيهم.. وهذا **فيه دليل لنفي أهل الشر**، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإنَّ ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون..

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مبعدين..

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أين وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار..

﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾ يخشون أن يقتلوا، أو يُحبسوا، أو يعاقبوا..

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ أنَّ من تمادىٰ في العصيان وتجرأ علىٰ الأذىٰ ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبةً بليغة..

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب:٥٩-٦٢] أي: تغييرًا.. بل سنته تعالىٰ وعادته جارية **مع الأسباب المقتضية لمسبباتها**.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ [الأحزاب:٦٣-٦٨]

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ يستخبرك الناس عن الساعة: **استعجالًا** لها.. وبعضهم **تكذيبًا** لوقوعها، **وتعجيزًا** للذي أَخبَر بها..

﴿قُلْ﴾ لهم..

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيرىٰ بها علم.. ومع هذا فلا تستبطؤوها..

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ ومجرد مجيء الساعة قربـًا وبعدًا، ليس تحته نتيجة ولا فائدة.. وإنَّما النتيجة والخسار والربح والشقاْ والسعادة، هل يستحق العبدُ العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقَّها.. فوصف مستحقَّ العذاب، ووصف العذاب، **لأن الوصف المذكور منطبق علىٰ هؤلاء المكذبين بالساعة** فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله، وبما جاءوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفىٰ بذلك عقابًا..

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ نارًا موقدة، تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلىٰ أفئدتهم..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يُفتَّر عنهم ساعة.. و..

﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ فيعطيهم ما طلبوه..

﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلَّىٰ عنهم الوليُّ النصير، وأحاط بهم عذابُ السعير، وبلغ منهم مبلغًا عظيمًا، ولهذا قال..

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فيذوقون حرَّها، ويشتد عليهم أمرُها، ويتحسَّرون علىٰ ما أسلفوا..

﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ فسلِمنا من هذا العذاب، واستحقِقنا كالمطيعين جزيلَ الثواب.. ولكن أمنية فات وقتها فلم تفدهم إلا حسرة وندمًا، وهمًا، وغمًا، وألمًا..

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ وقلَّدناهم علىٰ ضلالهم..

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩] الآية.. ولما علموا أنَّهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا ممن أضلُّوهم، فقالوا..

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٣-٦٨] فيقول الله: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف:٣٨]، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذابُ بعضكم علىٰ بعض بحسب تفاوت الجُرم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب:٦٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ يُحذِّر تعالىٰ عباده المؤمنين عن أذيَّة رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم الرءوف الرحيم.. فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام.. وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذَوا موسىٰ بن عمران، كليم الرحمن..

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أَظهَر اللهُ لهم براءته..

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب:٦٩] والحال أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرَّبًا لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين. فلم يزجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره.. فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك.

📖 **الفـوائـد**

الأذيَّة المشار إليها:

هي قول بني إسرائيل عن موسىٰ لمَّا رأوا شدَّة حيائه وتستره عنهم: (إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر)، أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم..

فأراد اللهُ أن يبرئه منهم..

فاغتسل يومًا، ووضع ثوبه علىٰ حَجر، ففرَّ الحجرُ بثوبه، فأهوىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في طلبه..

فمرَّ به علىٰ مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يأمر تعالىٰ المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم، في السر والعلانية.. ويخص منها ويندب للقول السديد..

﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ وهو القول **الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر** اليقين.. من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم، وتعليمه، والحرص علىٰ إصابة الصواب في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.. **ومن القول السديد**: لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة، بما هو الأصلح.. **ثم ذكر ما يترتب علىٰ تقواه، وقول القول السديد** فقال..

﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يكون ذلك سببًا لصلاحها، وطريقًا لقبولها؛ لأن استعمال التقوىٰ تُتَقَبَّلُ به الأعمالُ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة:٢٧].. ويُوفَّق فيه الإنسانُ للعمل الصالح.. ويصلحُ اللهُ الأعمالَ -أيضًا- بحفظها عما يفسدها، وحفظِ ثوابها ومضاعفتِه.. كما أن الإخلالَ بالتقوىٰ والقولِ السديد سببٌ لفساد الأعمال، وعدمِ قبولها، وعدم تَرَتُّبِ آثارها عليها..

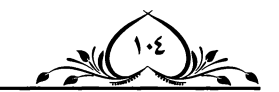
﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أيضًا..

﴿ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ التي هي السبب في هلاككم.. فالتقوىٰ تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال..

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]..

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣]

يعظِّم تعالىٰ شأنَ الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلَّفين.. التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية كحال العلانية.. وأنه تعالىٰ عرضها علىٰ المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال..



﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ عَرْض تخيير لا تحتيم.. **وأَنَّكِ إن قُمتِ بها وأدَّيتِهَا علىٰ وجهها فلك الثواب.. وإن لم تقومي بها ولم تؤديها فعليك العقاب..**

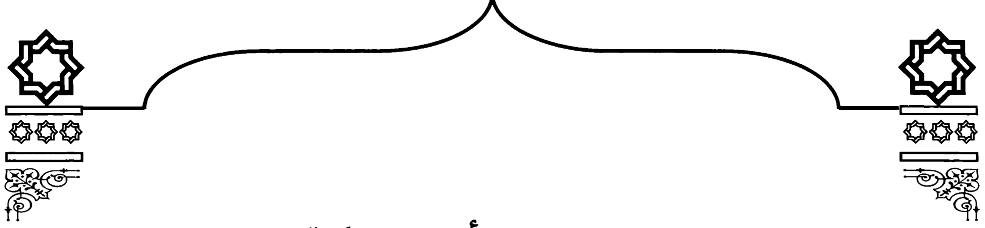
﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلنَ، لا عصيانًا لربهن، ولا زُهدًا في ثوابه..

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ وعرضها اللهُ علىٰ الإنسان علىٰ ذلك الشرط المذكور.. فقَبِلَها وحَمَلها مع ظُلمه وجَهله.. وحَمل هذا الحِملَ الثقيل.. **فانقسم الناس –بحسب قيامهم بها وعدمه– إلىٰ ثلاثة أقسام: منافقون:** أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا، **ومشركون:** تركوها ظاهرًا وباطنًا، **ومؤمنون:** قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.. فَذَكر اللهُ تعالىٰ أعمالَ هؤلاء الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب فقال..

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣] فله الحمد تعالىٰ، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين علىٰ تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده.. **مع أن المحكوم عليهم كثير منهم لم يستحق** المغفرة والرحمة؛ لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة (الأحزاب)، بحمد الله وعونه



تفسير سورة سبأ، وهي مكية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ:١-٢]

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الثناء بالصفات الحميدة، والأفعال الحسنة.. ف..

﴿لِلَّهِ﴾ تعالىٰ الحمد؛ لأن جميع صفاته يُحمد عليها، لكونها صفات كمال.. وأفعاله يحمد عليها؛ لأنها دائرة بين الفضل الذي يُحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يُحمد عليه ويُعترف بحكمته فيه..

﴿ٱلَّذِى﴾ وَحَمِد نفسه هنا، علىٰ أن..

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكـًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بحمده..

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأنَّ في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا..

فإذا قضىٰ اللهُ تعالىٰ بين الخلائق كلِّهم ورأىٰ الناسُ والخلقُ كلُّهم ما حَكَمَ بِهِ، وكمالَ عدلِه وقسطِه وحكمَتِه فيه، حَمدوه كلُّهم علىٰ ذلك..

حتىٰ أهل العقاب: ما دخلوا النارَ إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأنَّ هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حُكمه بعقابهم..

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب: فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليلُ السمعي والعقلي، فإنهم في الجنة يرون من توالي نعم الله وإدرار خيره وكثرة بركاته وسعة عطاياه التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا وقد أُعطي فوق ما

تمنىٰ وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيهم، ولم يخطر بقلوبهم، **فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال؟!..**

مع أنَّ في الجنة تضمحل العوارض والقواطع التي تقطع عن معرفة الله ومحبته والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلىٰ أهلها من كلِّ نعيم، وألذُّ عليهم من كلِّ لذة، **ولهذا إذا رأوا الله تعالىٰ وسمعوا كلامَه عند خطابه لهم أذهلهم ذلك عن كلِّ نعيم**، ويكون الذِّكر لهم في الجنة كالنَّفس، متواصلًا في جميع الأوقات.. هذا إذا أضفت ذلك إلىٰ أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كلَّ وقت من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله ما يوجب لهم كمالُ الحمد، والثناء عليه..

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في مُلكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه..

﴿ٱلۡخَبِيرُ ۝١﴾ المُطَّلع علىٰ سرائر الأمور وخفاياها.. ولهذا فَصَّل عِلمَه بقوله..

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من مطر، وبِذر، وحيوان..

﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ من أنواع النباتات، وأصناف الحيوانات..

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار..

﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك.. ولمَّا ذَكَر مخلوقاته وحكمته فيها، وعِلمَه بأحوالها.. ذَكَر مغفرته ورحمته لها، فقال..

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ:١-٢] الذي الرحمة والمغفرة وصفه.. ولم تزل آثارُهما تنزل علىٰ عباده كلَّ وقتٍ بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾ [سبأ:٤-٥]

لما بيَّن تعالىٰ عظمته بما وصف به نفسه.. وكان هذا موجبًا لتعظيمه وتقديسه والإيمان

به.. ذَكَر أنَّ من أصناف الناس طائفة لم تقدِّر ربَّها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمته.. بل كفروا به، وأنكروا قدرته علىٰ إعادة الأموات، وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وبرسله، وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم..

﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا..

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ **فأمر اللهُ رسولَه أن**: يردَّ قولَهم ويبطله، ويقسم علىٰ البعث، وأنه سيأتيهم.. واستدل علىٰ ذلك بدليل من أقرَّ به لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالىٰ الواسع العام، فقال..

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ الأمور الغائبة عن أبصارنا، وعن علمنا.. فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال..

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ لا يغيب عن علمه..

﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتىٰ أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها..

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ قد أحاط به علمُه، وجرىٰ به قلمُه، وتضمنه الكتابُ المبين الذي هو اللوح المحفوظ.. فالذي لا يخفىٰ عن علمه مثقالُ الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرضُ من الأموات وما يبقىٰ من أجسادهم، قادرٌ علىٰ بعثهم من باب أولىٰ، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.. **ثم ذكر المقصود من البعث** فقال..

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم، صدَّقوا اللهَ، وصدَّقوا رسلَه تصديقـًا جازمـًا..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ تصديقـًا لإيمانهم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم؛ بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كلُّ شر وعقاب..

﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كلُّ مطلوب ومرغوب وأمنية..

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ سعوا فيها كفرًا بها، وتعجيزا لمن جاء بها، وتعجيزا لمن أنزلها.. كما عجزوه في الإعادة بعد الموت..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾ [سبأ:٤-٥] مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ:٦]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ إنكارَ من أنكر البعثَ، وأنهم يرون ما أنزل علىٰ رسوله ليس بحق.. **ذَكَر حالةَ الموفَّقين من العباد، وهم أهل العلم..**

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ **إنَّهم يرون ما أَنزل اللهُ علىٰ** رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار..

﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الحقُّ منحصرٌ فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلىٰ درجة اليقين..

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ:٦] ويرون أيضا أنه في أوامره ونواهيه ﴿يَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾..

وذلك أنهم جزموا بصدق ما أَخبَر بِهِ من وجوه كثيرة:

من جهة علمهم بصدق من أخبر به، **ومن جهة** موافقته للأمور الواقعة والكتب السابقة، **ومن جهة** ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عيانا، **ومن جهة** ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، **ومن جهة** موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالىٰ وأوصافه..

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلىٰ الصراط المستقيم، **المتضمن للأمر** بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلىٰ عموم الخلق، ونحو ذلك، **وتنهىٰ** عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك والزنا والربا والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

🕮 الفـوائـد

هذه منقبة لأهل العلم وفضيلة..

وعلامة لهم..

وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين..

جعلهم اللهُ حجَّة علىٰ ما جاء به الرسول، احتجَّ اللهُ بهم علىٰ المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ [سبأ:٧]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ علىٰ وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد.. وذَكَر وجه الاستبعاد، أي: قال بعضُهم لبعض..

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون بذلك الرجلِ رسولَ الله ﷺ.. وأنه رجل أتىٰ بما يُستغرب منه، حتىٰ صار -بزعمهم- فُرجة يتفرَّجون عليه، وأُعجوبة يسخرون منه، وأنه..

﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ [سبأ:٧] كيف يقول ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [هود:٧] بعدما مزقكم البلىٰ، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ:٨-٩]

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل..

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فتجرَّأ عليه، وقال ما قال..

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ ؟ فلا يُستغرب منه، فإنَّ الجنون فنون.. وكلُّ هذا منهم علىٰ وجه العناد والظلم.. ولقد عَلِموا، أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم: أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه.. فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم -يا أهل العقول غيرَ الزاكية- أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، **فإنَّ المجنون**

لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قولُه منه كلَّ مبلغ.. ولولا عنادكم وظلمكم لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس] ولهذا قال تعالىٰ..

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة..

﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ أي: في الشقاء العظيم.. والضلال البعيد الذي ليس بقريب من الصواب.. وأيُّ شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله علىٰ البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأنَّ ما جاءوا به هو الحق؟! فرأوا الحقَّ باطلًا والباطلَ والضلالَ حقاً وهدىٰ.. **ثم نبههم علىٰ الدليل العقلي، الدال علىٰ عدم استبعاد البعث، الذي استبعدوه..**

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ إنَّهم لو نظروا إلىٰ ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض.. فرأوا من قدَّرة اللهُ فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمته ما يذهلُ العلماءَ الفحول، وأن خلقهما وعظمتهما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس -بعد موتهم- من قبورهم.. فما الحامل لهم علىٰ ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟!.. نعم! ذاك خبر غيبي إلىٰ الآن ما شاهدوه، فلذلك كذَّبوا به.. قال الله..

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ أي: من العذاب.. لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يعصِيا.. فاحذروا إصرارَكم علىٰ تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: خلق السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات..

﴿لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ:٨-٩] فكلَّما كان العبدُ أعظم إنابة إلىٰ الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم.. لأن المنيب مقبل إلىٰ ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غيرِ نافعة.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ:١٠-١١]

ولقد مننا علىٰ عبدنا ورسولنا داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ **وآتيناه فضلًا من**: العلم النافع.. والعمل الصالح.. والنعم الدينية والدنيوية..

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ ومن نعمه عليه ما خصَّه به، من أمره تعالىٰ الجمادات كالجبال، والحيوانات من الطيور، أن تُؤَوِّب معه، وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها، مجاوبة له..

وفي هذا من النعمة عليه: أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله **ولا بعده**..

وأنَّ ذلك يكون **منهضـًا له ولغيره علىٰ التسبيح**، إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده، كان ذلك مما يُهَيِّج علىٰ ذكر الله تعالىٰ..

ومنها: أن ذلك -كما قال كثير من العلماء- أنه **طرب لصوت داود**، فإنَّ الله تعالىٰ قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيرَه، وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجيِّ المطرب، طرب كلُّ من سمعه من الإنس والجن، حتىٰ الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربها..

ومنها: أنَّه لعلَّه **ليحصل له أجرُ تسبيحها**؛ لأنه سببُ ذلك، وتسبِّح تبعـًا له..

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ **ومن فضله عليه**: أن ألان له الحديد..

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ ليعمل الدروع السابغات..

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾ وعلَّمه تعالىٰ كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حِلَقـًا، ويصنعه كذلك، ثم يُدخل بعضَها ببعض، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]..

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ﴾ ولمَّا ذكر ما امتن به عليه وعلىٰ آله.. **أَمَره بـ**: شكره، وأن يعملوا صالحـًا.. ويراقبوا الله تعالىٰ فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات..

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ:١٠-١١] فإنَّه بصير بأعمالهم، مطلِّع عليهم، لا يخفىٰ عليه منها شيء.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ:١٢-١٤]

لمَّا ذكَر فضلَه علىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذكَر فضلَه علىٰ ابنه سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.. وأن الله سخر له الريح..

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ تجري بأمره.. وتحمله وتحمل جميع ما معه.. وتقطع المسافة البعيدة جدًا في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين..

﴿غُدُوُّهَا﴾ أول النهار إلىٰ الزوال..

﴿شَهْرٌ﴾..

﴿وَرَوَاحُهَا﴾ من الزوال، إلىٰ آخر النهار..

﴿شَهْرٌ﴾..

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ سخرنا له عين النُّحاس، وسهَّلنا له الأسبابَ في استخراج ما يُستخرج منها، من الأواني وغيرها..

﴿وَمِنَ الْجِنِّ﴾ وسخر اللهُ له أيضـًا الشياطين والجن..

﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾..

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره..

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ **وأعمالُهم**: كلُّ ما شاء سليمان عَمِلُوه..

﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ وهو كلُّ بِنَاء يُعقد وتُحكم به الأبنية.. فهذا فيه ذِكرُ **الأبنية الفخمة**..

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات.. من إتقان صنعتهم وقدرتهم علىٰ ذلك وعملهم لسليمان..

﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾ كالبرك الكبار.. يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنه يحتاج إلىٰ ما لا يحتاج إليه غيره..

﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ ويعملون له قدورًا راسيات، لا تزول عن أماكنها من عِظَمها.. فلمَّا ذَكَر منَّته عليهم أمرهم بشكرها، فقال..

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنَّة علىٰ الجميع، وكثيرٌ من هذه المصالح عائدٌ لكُلِّهم..

﴿شُكۡرٗاۚ﴾ لله علىٰ ما أعطاهم، ومُقَابَلَةٌ لِمَا أولاهم..

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالىٰ علىٰ ما أولاهم من نِعَمِهِ، ودَفَعَ عنهم من النِّقَم.. **والشكر**: **اعتراف** القلب بِمَنَّةِ اللهِ تعالىٰ، **وتلقيها** افتقارًا إليها، **وصرفِها** في طاعة الله تعالىٰ، **وصونها** عن صرفها في المعصية.. فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلَّ بِنَاء..

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ وكانوا قد مَوَّهوا علىٰ الإنس، **وأخبروهم أنهم**: يعلمون الغيب، ويطلعون علىٰ المكنونات، **فأراد الله تعالىٰ: أن يُرِيَ العبادَ كِذبَهُم** في هذه الدعوىٰ.. فمكثوا يعملون علىٰ عملهم، وقضىٰ اللهُ الموتَ علىٰ سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، واتَّكأ علىٰ عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها ظنوه حيًا وهابوه.. فغدوا علىٰ عملهم كذلك سَنَةً كاملة، علىٰ ما قيل.. حتىٰ سُلِّطَت دابةُ الأرض علىٰ عصاه، فلم تزل ترعاها حتىٰ باد وسقط، فسقط سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وتفرقت الشياطين..

﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ تبيَّنت الإنس أنَّ الجنَّ..

﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فلو علموا الغيب لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرص

شيء عليه؛ ليَسلَموا مما هم فيه..

﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ:١٢-١٤] وهو العمل الشاق عليهم.

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ:١٥-٢١]

سبأ: قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها (مأرب).. ومن نِعَم الله ولطفه بالناس عمومـاً وبالعرب خصوصـاً، أنَّه قصَّ في القرآن أخبارَ المهلكين والمعاقَبين، ممن كان يجاور العرب، ويُشاهد آثارُه، ويَتناقلُ الناسُ أخبارَه؛ ليكون ذلك أدعىٰ إلىٰ التصديق، وأقرب للموعظة فقال..

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه..

﴿ءَايَةٞۖ﴾ **والآية هنا:** ما أدرَّ الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم.. الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه.. ثم فسر الآية بقوله..

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدا مُحكَماً، يكون مجمعـاً للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه علىٰ بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله.. **وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار**

ما يكفيهم ويحصل لهم به الغبطة والسرور..

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة: **منها**: هاتان **الجنتان** اللتان غالب أقواتهم منهما..

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ **ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة**؛ لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.. **ومنها**: أن الله تعالىٰ **وَعدَهم -إن شكروه-** أن **يغفرَ لهم وَيرحمهم**، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾..

﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عن المنعِم وعن عبادته، وبَطروا النعمة، وملُّوها..

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرَّب سدهم، وأتلف جناتِهم، وخرَّب بساتِينَهم..

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ هذا كله شجر معروف.. فتبدَّلت تلك الجناتُ ذاتُ الحدائق المعجَبة والأشجارُ المثمرة.. وصارَ بَدَلها أشجار لا نفع فيها..

﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعـًا..

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ وهذا من جنس عملهم، فكما بدَّلوا الشُكر الحَسَن بالكفر القبيح، بُدِّلوا تلكَ النعمة بما ذُكر، ولهذا قال..

﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ جزاءَ العقوبة.. بدليل السياق..

﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ إلا من كَفَر بالله وبَطَر النعمة؟!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ **وكان من نعمه التي أدرَّها عليهم: أنَّ الله** لمَّا عَلِمَ احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلىٰ **الأرض المباركة**..

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ الظاهر أنها **قرىٰ صنعاء**، قاله غير واحد من السلف، **وقيل: إنها الشام**.. هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولُهم إليها بغاية السهولة، من الأمن وعدم الخوف وتواصلِ القرىٰ بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد..

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ سيرًا مقدَّرًا يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه..

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام، غير خائفين.. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أنَّ أمَّنهم من الخوف..

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ حتىٰ إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرىٰ، التي كان السير فيها متيَّسرا..

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته..

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ فعاقبهم الله تعالىٰ بهذه النعمة التي أطغتهم، فأبادها عليهم.. **فلما أصابهم ما أصابهم:** تفرَّقوا وتمزَّقوا بعد ما كانوا مجتمعين.. وجعلهم اللهُ أحاديث يُتحدَّث بهم، وأسمارًا للناس، وكان يُضرَب بهم المثل، فيقال: (تفرقوا أيدي سبأ)، فكلُّ أحد يتحدَّث بما جَرىٰ لهم.. ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ علىٰ المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها، بل يصبر عليها..

﴿شَكُورٖ ١٩﴾ لنعمة الله تعالىٰ، يُقِرُّ بها ويعترف، ويثني علىٰ من أولاها، ويصرفها في طاعته.. **فهذا إذا سمع بقصتهم وما جرىٰ منهم وعليهم:** عَرَفَ بذلك أنَّ تلك العقوبة جزاءٌ لكفرهم نعمةَ الله.. وأنَّ من فعل مثلهم فُعِلَ به كما فُعل بهم.. وأن شكر الله تعالىٰ حافظ للنعمة دافع للنقمة.. وأنَّ رسل الله صادقون فيما أَخبروا به.. وأن الجزاء حق كما رأىٰ أنموذجه في دار الدنيا.. **ثم ذَكَر أنَّ قومَ (سبأ) من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه..**

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ حيث قالَ لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]، وهذا ظن من إبليس لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأته خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين، إلا من استثنىٰ.. فهؤلاء وأمثالهم ممن صدَّق عليه إبليس ظنه، ودعاهم وأغواهم..

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ إلا فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ، **ممن لم يَكفُر بنعمة الله، فإنَّه** لم يدخل تحت ظن إبليس.. **ويحتمل:** أن قصةَ سبأ، انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم:٥]، **ثم ابتدأ فقال:** ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾..

﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾ أي: علىٰ جنس الناس، **فتكون الآية عامة في** كل من اتَّبعه.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ أي: لإبليس..

﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلط وقهر وقسر علىٰ ما يريده منهم..

﴿إِلَّا﴾ ولكنَّ حكمة الله تعالىٰ اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم..

﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ ليقوم سوقُ الامتحان، ويُعلم به الصادق من الكاذب، ويُعرف من كان إيمانه صحيحاً يثبت عند الامتحان والاختبار، وإلقاء الشبه الشيطانية ممن إيمانُه غيرُ ثابت، يتزلزل بأدنىٰ شبهة، ويزول بأقل داع يدعوه إلىٰ ضده.. فالله تعالىٰ جعله امتحاناً يمتحن به عباده، ويُظهر الخبيث من الطيب..

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ:١٥-٢١] يحفظ العباد.. ويحفظ عليهم أعمالهم.. ويحفظ تعالىٰ جزاءها، فيوفيهم إياها، كاملة موفرة.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ:٢٢]

﴿قُلِ﴾ يا أيها الرسول.. للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر.. ملزمًا لهم بعجزها، ومبيِّناً لهم بطلانَ عبادتها..

﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ زعمتموهم شركاءَ لله إن كان دعاؤكم ينفع.. فإنَّهم قد توفرت فيهم أسبابُ العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنىٰ مُلك فـ..

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ علىٰ وجه الاستقلال، ولا علىٰ وجه الاشتراك، ولهذا قال..

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم..

﴿فِيهِمَا﴾ في السماوات والأرض..

﴿مِن شِرْكٍ﴾ لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.. **بقي أن يقال:** ومع ذلك فقد يكونون أعواناً للمالك، ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعاً، لأنهم -بسبب حاجة الملِك إليهم- يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفىٰ تعالىٰ هذه المرتبة فقال..

﴿وَمَا لَهُ﴾ لله تعالىٰ الواحد القهار..

﴿مِنْهُم﴾ من هؤلاء المعبودين..

﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ:٢٢] معاون ووزير يساعده علىٰ المُلك والتدبير.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣]

فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله..

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ **يُحتمل: أن الضمير في هذا الموضع يعود إلىٰ المشركين**.. لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر أن تعود إلىٰ أقرب مذكور، **ويكون المعنىٰ**: إذا كان يوم القيامة وفُزِّع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسُئلوا -حين رَجعت إليهم عقولهم- عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقرون أنَّ ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأنَّ ما قال اللهُ وأَخبرت به عنه رسلُه هو الحق، فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وعلموا أنَّ الحق لله، واعترفوا بذنوبهم..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته فوق جميع مخلوقاته.. وقهره لهم.. وعلو قدره بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار.. **ومن علوه**: أن حكمه تعالىٰ يعلو وتذعن له النفوس، حتىٰ نفوس المتكبرين والمشركين..

﴿ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣] في ذاته وصفاته.. **وهذا المعنىٰ أظهر**، وهو الذي يدل عليه السياق..

ويحتمل: أن الضمير يعود إلىٰ الملائكة؛ وذلك أنَّ الله تعالىٰ إذا تكلَّم بالوحي سمعته الملائكة، فصُعِقوا، وخرُّوا لله سُجَّدًا، فيكون أوَّلُ من يرفع رأسَه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفَزع، فيسأل بعضُهم بعضًا عن ذلك الكلام الذي صُعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضُهم لبعض: قال الحق، إمَّا إجمالًا؛ لعلمهم أنه لا يقول إلا حقًا، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق..

فيكون المعنىٰ علىٰ هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة التي وصفنا لكم عجزها ونقصها وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صُدِفوا وصُرِفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم العلي الكبير، الذي -من عظمته وجلاله- أن الملائكة الكرام والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلّهم لله أنه لا يقول إلا الحق..

فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه.. فتعالىٰ العلي الكبير، عن شرك المشركين، وإفكهم، وكذبهم.

📖 **الفـوائـد**

هذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر وغيرهم..

قطعها اللهُ، وبيَّن بطلانها تبييناً حاسماً لمواد الشرك، قاطعاً لأصوله..

لأنَّ المشرك إنما يدعو ويعبدُ غيرَ الله لِمَا يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء هو الذي أوجبَ له الشرك..

فإذا كان من يدعوه غير الله: لا مالكاً للنفع والضر.. ولا شريكاً للمالك.. ولا عوناً وظهيرًا للمالك.. ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك..

كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالًا في العقل، باطلةً في الشرع..

بل ينعكس علىٰ المشرك مطلوبُه ومقصودُه، فإنَّه يريد منها النفع، فبيَّن الله بطلانه وعدمه، وبيَّن في آيات أخر ضرره علىٰ عابديه، وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، ومأواهم النار ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]..

والعجب: أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل بزعمه أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدىٰ عدو له وهو الشيطان.

﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ

هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[سبأ:٢٤-٢٧]

﴿قُلْ﴾ يأمر تعالىٰ، نبيَّه محمدًا ﷺ، أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه..

﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنهم لا بد أن يقروا أنه الله.. ولئن لم يقروا فـ..

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول.. فإذا تبيَّن أنَّ الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، وينبت لكم النبات، ويفجِّر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها لنفعكم ورزقكم، فلِمَ تعبدون معه من لا يرزقكم شيئًا، ولا يفيدكم نفعا؟!

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ إحدىٰ الطائفتين منا ومنكم..

﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ مستعلية عليه..

﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ منغمرة فيه.. **وهذا الكلام يقوله:** من تبيَّن له الحق، واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه، وبطلان ما عليه خصمه.. أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم ما به يُعلمُ علمًا يقينًا لا شك فيه مَن المحقُّ منَّا ومَن المبطل؟ ومَن المهتدي ومَن الضال؟ **حتىٰ إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه..**

فإنك إذا وازنت:

بين من يدعو إلىٰ عبادة: الخالق لسائر المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله، والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه، العلي الكبير في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال، وكل جلال، وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، **يدعو إلىٰ التقرب لمن هذا شأنه**، وإخلاص العمل له، **وينهىٰ عن عبادة من سواه..**

وبين من يتقرب إلىٰ أوثان وأصنام وقبور، لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لأنفسها ولا لمن عبدها نفعاً ولا ضرا ولا موتـاً ولا حياةً ولا نشورًا، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من المُلك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله، **فهو يدعو مَنْ هذا وصفه**، ويتقرب إليه مهما أمكنه، **ويعادي من أخلص الدين لله**، ويحاربه، ويكذب رسل الله، الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده..

تبيَّن لك: أي الفريقين المهتدي من الضال، والشقي من السعيد، **ولم يُحتَج إلىٰ أن يُعيَّنُ لك ذلك؛** لأن **وصف الحال أوضح من لسان المقال**..

﴿قُلْ﴾ لهم.. كلٌّ منَّا ومنكم له عمله.. أنتم..

﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا..

﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ونحن لا نُسأل عن أعمالكم.. **فليكن المقصود منَّا ومنكم**: طلبُ الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف.. **ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعا لكم من اتباع الحق؛** فإنَّ **أحكام الدنيا** تجري علىٰ الظواهر، ويُتبع فيها الحق، ويُجتنب الباطل..

وأما الأعمال: فلها دار أخرىٰ يَحكم فيها أحكمُ الحاكمين، ويَفصل بين المختَصِمين أعدلُ العادلين.. ولهذا قال..

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾..

﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يحكم بيننا حكمـاً يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين..

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾..

﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابَك..

﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلىٰ معرفتهم؟ وهل هم في الأرض أم في السماء؟.. فإنَّ عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس:١٨] الآية، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦].. وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكاً، فيا أيُّها المشركون! أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾.. **وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال..**

﴿كَلَّا﴾ ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد..

﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ الَّذي لا يستحق التأله والتعبد، إلا هو..

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كلَّ شيء.. فكل ما سواه فهو مقهور مسخَّر مدبَّر..

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ:٢٤-٢٧] الذي أتقن ما خَلَقَه.. وأحسن ما شَرَعه.. ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحبَّ ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهىٰ عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفىٰ بذلك برهاناً علىٰ كمال حكمته.. فكيف وجميع ما أمر به ونهىٰ عنه مشتمل علىٰ الحكمة؟!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ:٢٨-٣٠]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ **يخبر تعالىٰ أنَّه ما أرسل رسوله ﷺ إلا:** ليبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له.. فليس لك من الأمر شيء.. **وكل ما اقترح عليك أهلُ التكذيب والعناد فليس من وظيفتك،** إنما ذلك بيد الله تعالىٰ..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ليس لهم عِلمٌ صحيح.. بل إما جهال.. أو معاندون لم يعملوا بعلمهم فكأنهم لا عِلم لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدمَ الإجابة لِمَا اقترحوه علىٰ الرسول موجِباً لرد دعوته.. فمما اقترحوه، استعجالهم العذاب، الذي أنذرهم به فقال..

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا ظلمٌ منهم.. **فأيُّ ملازمةٍ**

بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟! وهل هذا إلا ردٌّ للحق، وسفهٌ في العقل؟!.. أليس النذير في أمر في أحوال الدنيا لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويَعدُّ لهم، فقال لهم: تركت عدوَّكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم، فلو قال بعضهم: إن كنتَ صادقاً فأخبرنا: بأية ساعة يصل إلينا؟ وأين مكانه الآن؟ فهل يُعدُّ هذا القائل عاقلًا؟! أم يُحكم بسفهه وجنونه؟! هذا! والمخبِر يمكن صدقُه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم.. فكيف بمَن كذَّب أصدقَ الخلق -المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوىٰ- بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه؟!.. أليس ردُّ خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه؟!

﴿قُل﴾ لهم -مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه-:..

﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ:٢٨-٣٠] فاحذروا ذلك اليوم، وأعدِّوا له عدَّته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ:٣١]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ: أنَّ ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله.. **ذَكَر هنا حالَهم في ذلك اليوم..**

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾..

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ وأنك لو رأيت حالَهم إذا وُقِفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمرًا عظيماً وهولًا جسيماً..

﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ ورأيت كيف يتراجع ويرجع بعضهم إلىٰ بعض القول، فـ..

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ وهم الأتباع..

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ وهم القادة..

﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۝٣١﴾ [سبأ:٣١] ولكنكم حُلتُم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر ان، فتبعناكم علىٰ ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب علىٰ الرؤساء دونهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٣٣﴾ [سبأ:٣٢-٣٣]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ مستفهمين لهم، ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم..

﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ﴾ بقوَّتِنا وقهرنا لكم..

﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢﴾ مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه.. وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم..

﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار..

﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ إذ تُحَسِّنون لنا الكفر، وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق وتهجِّنونه، وتزعمون أنه الباطل.. فما زال مكركم بنا، وكيدكم إيانا، حتىٰ أغويتمونا وفتنتمونا.. فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئًا، إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال..

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضُهم علىٰ بعضٍ لينجو من العذاب، وعَلِم أنه ظالم مستحق له.. فنَدِم كلٌّ منهم غايةَ الندم، وتَمنىٰ أن لو كان علىٰ الحق وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلىٰ هذا العذاب سرًا في أنفسهم؛ لخوفهم

من الفضيحة في إقرارهم علىٰ أنفسهم.. وفي بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهرًا ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨] الآيات، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك:١٠-١١]..

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه، كما قال تعالىٰ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧١- ٧٢] الآيات..

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في هذا العذاب والنكال وتلك الأغلال الثقال..

﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ:٣٢-٣٣] من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ:٣٤-٣٩]

يخبر تعالىٰ عن **حالة الأمم الماضية المكذِّبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذِّبين** لرسولهم محمد ﷺ..

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ وأنَّ الله إذا أرسل رسولًا..

﴿فِى قَرْيَةٍ﴾ من القرىٰ..

﴿مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ كَفَر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتُهم، وفخروا بها..

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ ممن اتبع الحق..

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ أولًا: لسنا بمبعوثين.. فإن بُعِثنا: فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا سيعطينا أكثرَ من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.. فأجابهم الله تعالىٰ بـ..

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أنَّ بَسطَ الرزقِ وتضييقه ليس دليلًا علىٰ ما زعمتم؛ فإنَّ الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بَسَطه لعبده، وإن شاء ضيَّقه..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾..

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ وليست الأموال والأولاد بالتي تقرِّب إلىٰ اللهِ زُلفىٰ وتدني إليه..

﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وإنما الذي يُقرِّب منه زلفىٰ: الإيمانُ بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالىٰ مُضاعَفًا، الحَسَنةُ بعشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعفٍ، إلىٰ أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله..

﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ آمنون من المكدرات والمنغصات، لِمَا هم فيه من اللَّذات وأنواع المشتهيات.. وآمنون من الخروج منها.. والحزن فيها..

في المنازل العاليات المرتفعات جدًا.. ساكنين فيها مطمئنين..

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ وأما الذين سعوا في آياتنا علىٰ وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب فـ..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾..

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي﴾ ثم أعاد تعالىٰ أنه..

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ﴾ ليرتب عليه قوله..

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ نفقة واجبة، أو مستحبة.. علىٰ قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم.. أو غير ذلك..

﴿فَهُوَ﴾ تعالىٰ..

﴿يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ فلا تتوهموا أنَّ الإنفاق مما ينقص الرِّزق، بل وَعَد بالخُلف للمُنفق الذي

يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر..

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ:٣٤-٣٩] فاطلبوا الرزق منه، واسعُوا في الأسباب التي أَمَرَكم بها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾ [سبأ:٤٠-٤٢]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه، من الملائكة..

﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ الله..

﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ علىٰ وجه التوبيخ لمن عَبدَهم..

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾ فتبرأوا من عبادتهم.. و..

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهـاً لك وتقديسـاً، أن يكون لك شريك، أو ند..

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ﴾ فنحن مفتقرون إلىٰ ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلىٰ عبادتنا؟ أم كيف نَصلُح لأن نُتخذ من دونك أولياء وشركاء؟!

﴿بَلْ﴾ ولكن هؤلاء المشركون..

﴿كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ أي: الشياطين، يأمرون بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك.. **وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة،** كما قال تعالىٰ مخاطباً لكلِّ من اتخذ معه آلهة ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس:٦٠-٦١]..

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ أي: مصدقون للجن، منقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.. فلما تبرأوا منهم قال تعالىٰ مخاطباً لهم..

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ تقطعت بينكم الأسباب وانقطع بعضكم من بعض..

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالكفر والمعاصي -بعد ما ندخلهم النار-..

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ:٤٠-٤٢] فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاءً لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ:٤٣-٤٥]

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يخبر تعالىٰ عن حالة المشركين عندما تتلىٰ عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات.. الدالة علىٰ كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، ومِنَّةٍ وصلت إليهم.. الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم..

﴿قَالُواْ﴾ أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي، ويكذبون من جاءهم بها ويقولون..

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله، لتتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم.. فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا برهانـًا، ولا شبهة.. فأي شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق، فادَّعوا أن إخوانهم الذين علىٰ طريقتهم لم يزالوا عليه؟! وهذه السفاهة ورد الحق بأقوال الضالين، إذا تأملت كلَّ حق رُدَّ فإذا هذا مآله، لا يُرَدُّ إلا بأقوال الضالين من المشركين والدهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين الله، المارقين، فهم أسوة كلّ من ردَّ الحق إلىٰ يوم القيامة.. ولما احتجوا بفعل آبائهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا بالحق..

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ﴾ أي: كذب افتراه هذا الرجل، الذي جاء به..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾ سحر ظاهر بيِّن لكلِّ أحد، تكذيباً بالحق، وترويجاً علىٰ السفهاء.. ولما بيَّن ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلا أن تكون حجة، ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلا فقال..

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ حتىٰ تكون عمدة لهم..

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ حتىٰ يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جئتهم به.. فليس عندهم علم، ولا أثارة من علم.. ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال..

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ﴾ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون..

﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم..

﴿رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ [سبأ:٤٣-٤٥] أي: إنكاري عليهم، وعقوبتي إياهم.. قد أعلَمَنا ما فَعَلَ بهم من النَّكال، وأنَّ منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالخسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء.. فاحذروا يا هؤلاء المكذِّبون أن تدوموا علىٰ التكذيب، فيأخذكم كما أخذ مَن قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم.

﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨﴾ [سبأ:٤٦-٤٨]

﴿۞ قُلۡ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدين لردِّ الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به..

﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلىٰ اتباع قولي، ولا إلىٰ ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي..

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ تنهضوا بِهِمَّة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله..

﴿مَثْنَىٰ﴾ مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين..

﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ كل واحد يخاطب نفسه بذلك.. فإذا قمتم لله مثنىٰ وفرادىٰ..

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ استعملتم فكركم، وأَجَلْتُمُوه..

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ وتدبرتم أحوالَ رسولكم، هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قَبِلُوا هذه الموعظةَ واستعملوها، لتبيَّن لهم أكثرُ من غيرهم: أنَّ رسول الله ﷺ ليس بمجنون؛ لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين في خنقهم واختلاجهم ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق أدباً وسكينة وتواضعاً ووقارًا، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلًا..

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتزكىٰ النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث علىٰ مكارم الأخلاق، وتحث علىٰ محاسن الشِيَم، وترهب عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رمقته العيون هيبةً وإجلالًا وتعظيماً..

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟!..

فكلُّ من تدَّبَر أحوالَه، ومقصِدُه استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبيَّه صدقاً، خصوصاً المخاطبين الذي هو صاحبهم، يعرفون أوَّلَ أمره وآخره..

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾..

وثَمَّ مانع للنفوس آخر عن اتباع الداعي إلىٰ الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرةً علىٰ دعوته.. فبيَّن اللهُ تعالىٰ نزاهةَ رسوله ﷺ عن هذا الأمر فقال..

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ علىٰ اتباعكم للحق..

﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ فأشهدكم أنَّ ذلك الأجر -علىٰ التقدير- أنه لكم..

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ۝٤٧﴾ محيطٌ علمُه بما أَدعُو إليه، فلو كنتُ كاذبـًا لأخذني بعقوبته.. وشهيدٌ أيضـًا علىٰ أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.. ولما بيَّن البراهين الدالة علىٰ صحة الحق وبطلان الباطل.. أخبر تعالىٰ أن هذه سنته وعادته أن ﴿نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]..

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنه بيَّن مَنِ الحق في هذا الموضع، وردَّ به أقوالَ المكذِّبين ما كان عبرةً للمعتبرين، وآيةً للمتأملين.. فإنَّك كما ترىٰ كيف اضمحلت أقوال المكذبين؟ وتبيَّن كَذِبُهم وعنادُهم، وظهر الحقُّ وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان..

﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝٤٨﴾ [سبأ:٤٦-٤٨] الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب، من الوساوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.. فيُعَلِّم بها عبادَه، ويبيِّنُها لهم، ولهذا قال..

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠﴾ [سبأ:٤٩-٥٠]

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه..

﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾ أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدئ ولا يعيد.. ولما تبيَّن الحقُّ بما دعا إليه الرسول، وكان المكذِّبون له يرمونه بالضلال، أَخبَرهم بالحق ووضَّحه لهم، وبيَّن لهم عجزَهم عن مقاومته، وأخبرهم أنَّ رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئـًا، ولا دافع ما جاء به..

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ وأنه إن ضل -وحاشاه من ذلك، لكن علىٰ سبيل التنزل في المجادلة- فإنَّما يضل علىٰ نفسه، أي: ضلاله قاصر علىٰ نفسه، غير متعد إلىٰ غيره..

﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ﴾ فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي..

﴿فَبِمَا﴾ وإنما هدايتي بما..

﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري..

﴿إِنَّهُۥ﴾ إنَّ ربي..

﴿سَمِيعٌ﴾ للأقوال والأصوات كلها..

﴿قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ [سبأ:٤٩-٥٠] ممن دعاه وسأله وعَبَدَه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ [سبأ:٥١-٥٤]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها الرسول ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين..

﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ حين رأوا العذاب، وما أخبَرَتْهم به الرسل، وما كذَّبوا به.. لرأيتَ أمرًا هائلًا ومنظرًا مفظعًا، وحالة منكرة، وشدة شديدة.. وذلك حين يحق عليهم العذاب..

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فليس لهم عنه مهرب ولا فوت..

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾ ليس بعيدًا عن محلِّ العذاب، بل يؤخذون، ثم يقذفون في النار..

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ في تلك الحال..

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بالله وصدَّقنا ما به كذَّبنا..

﴿وَأَنَّىٰ﴾ ولكن أنَّىٰ..

﴿لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي: تناول الإيمان..

﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة..

﴿وَقَدْ﴾ فلو أنَّهم آمنوا وقت الإمكان، لكان إيمانهم مقبولًا ولكنهم..

﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ﴾ أي: يرمون..

﴿بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ بقذفهم الباطل ليدحضوا به الحق.. ولكن لا سبيل إلىٰ ذلك، **كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلىٰ إصابة الغرض**.. فكذلك الباطل، من المحال

أن يغلب الحقَّ أو يدفعه، وإنما يكون له صولة، وقت غفلة الحق عنه، فإذا برز الحقُّ وقاوم الباطلَ قمعه..

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الشهوات، واللذات، والأولاد، والأموال، والخَدَم، والجنود.. قد انفردوا بأعمالهم، وجاءوا فُرادىٰ كما خُلِقوا، وتَركوا ما خَوَّلُوا وراء ظهورهم..

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ من الأمم السابقين، حين جاءهم الهلاك، حيل بينهم وبين ما يشتهون..

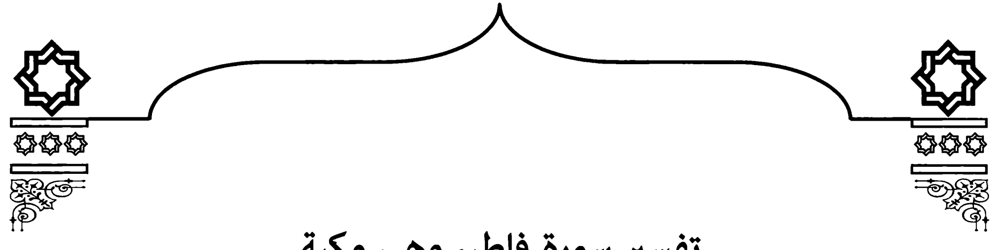
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥١-٥٤] أي: مُحدِث الريبة وقلق القلب، فلذلك لم يؤمنوا، ولم يُعتَبوا حين استُعتِبوا.

تم تفسير سورة (سبأ)

ولله الحمد والمنة، والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل، وبه الثقة







تفسير سورة فاطر، وهي مكية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:١-٢]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يمدح الله تعالىٰ نفسه الكريمة المقدسة.. علىٰ خلقه السماوات والأرض، وما اشتملتا عليه من المخلوقات.. لأن ذلك دليل علىٰ كمال قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته، وبديع حكمته، وإحاطة علمه.. **ولما ذَكَر الخلقَ، ذَكَر بعده ما يتضمن الأمر**، وهو: أنه..

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ في تدبير أوامره القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية.. وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا ولم يستثن منهم أحدًا، دليل علىٰ **كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره**، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].. ولما كانت الملائكة مدبِّراتٌ بإذن الله ما جعلهم الله موكَّلين فيه.. **ذَكَر قوَّتهم علىٰ ذلك وسرعةَ سيرهم**.. بأن جعلهم..

﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ تطير بها، فتسرع بتنفيذ ما أُمِرت به..

﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة، بحسب ما اقتضته حكمته..

﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يزيد بعضَ مخلوقاته علىٰ بعض في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذَّة النغمات..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١﴾ فقدرته تعالىٰ تأتي علىٰ ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء.. ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها علىٰ بعض.. **ثم ذكر انفراده تعالىٰ بالتدبير والعطاء والمنع فقال..**

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ من رحمته عنهم..

﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ فهذا يوجب التعلُّق بالله تعالىٰ، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يُدعىٰ إلا هو، ولا يُخاف ويُرجىٰ إلا هو..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قَهَر الأشياء كلها..

﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ [فاطر:١-٢] الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾ [فاطر:٣-٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يأمر تعالىٰ جميعَ الناس.. أن يذكروا نعمته عليهم..

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافًا.. وباللسان ثناء.. وبالجوارح انقيادًا.. فإنَّ ذكر نعمه تعالىٰ داع لشكره.. **ثم نبههم علىٰ أصول النِّعَم، وهي الخلق والرزق،** فقال..

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله، نتج من ذلك أن كان ذلك دليلًا علىٰ ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق..

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا أيها الرسول، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين..

﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ فأَهلَكَ المكذِّبون، ونجَّىٰ الله الرسل وأتباعهم..

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾ [فاطر:٣-٤]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ [فاطر:٥-٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء علىٰ الأعمال..

﴿حَقّٞۖ﴾ لا شكَّ فيه، ولا مِرية، ولا تردد.. قد دلت علىٰ ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية.. فإذا كان وعده حقـًا، فتهيئوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع..

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له..

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾ الذي هو الشَّيْطَانُ..

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة..

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ لتكن منكم عداوته علىٰ بال، ولا تهملوا محاربته كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائمـًا لكم بالمرصاد..

﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ هذا غايته ومقصوده ممن تبعه، أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.. ثم ذَكَر أنَّ الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلىٰ قسمين، وذَكَر جزاء كلٍّ منهما، فقال..

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب..

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبدًا..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم بما دعا اللهُ إلىٰ الإيمان به..

﴿وَعَمِلُواْ﴾ بمقتضىٰ ذلك الإيمان بجوارحهم الأعمالَ..

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم.. يزول بها عنهم الشرُّ والمكروه..

﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ [فاطر:٥-٧] يحصل به المطلوب.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فاطر:٨]

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عمله السيئ القبيح، زينه له الشيطان، وحسنه في عينه..

﴿فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ كمن هداه الله إلىٰ الصراط المستقيم، والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟! **فالأول**: عَمِل السيئَ، ورأىٰ الحقَّ باطلًا والباطلَ حقـًا.. **والثاني**: عمل الحسن، ورأىٰ الحقَّ حقـًا، والباطلَ باطلًا.. ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالىٰ..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾..

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ﴾ علىٰ الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصدَّهُم الشيطانُ عن الحقِّ..

﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله هو الذي يجازيهم بأعمالهم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فاطر:٨]..

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر:٩]

﴿وَٱللَّهُ﴾ يخبر تعالىٰ عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه..

﴿ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ فأنزله الله عليها..

﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات..

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها..

﴿ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر:٩] ينشر اللهُ الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم البلىٰ، فيسوق إليهم مطرًا كما ساقه إلىٰ الأرض الميتة، فينزله عليهم، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي اللهِ ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر:١٠]

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ يا من يريد العزة..

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ اطلبها ممن هي بيده، فإنَّ العزةَ بيد الله.. ، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله..

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكلِّ كلام حسنٌ طيب.. فيُرفع إلىٰ الله، ويُعرض عليه، ويُثني اللهُ علىٰ صاحبه بين الملأ الأعلىٰ..

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح..

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ الله تعالىٰ إليه أيضـًا، كالكلم الطيب.. **وقيل: والعملُ الصالح يرفعُ الكلمَ الطيب،** فيكون رفعُ الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلِمَه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح لم يُرفع له قولٌ إلىٰ الله تعالىٰ، فهذه الأعمال التي تُرفع إلىٰ الله تعالىٰ، ويَرفع اللهُ صاحبهَا ويعزه.. **وأما السيئات** فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعةَ بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولًا ولهذا قال..

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة..

﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر:١٠] أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئـًا؛ لأنَّه مكرٌ بالباطل، لأجل الباطل.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر:١١]

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ يذكر تعالىٰ خلقَه الآدمي، وتنَقُلِه في هذه الأطوار..

﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ من تراب إلىٰ نطفة وما بعدها..

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لم يزل ينقلكم طورًا بعد طور، حتىٰ أَوصَلكم إلىٰ أن كنتم

أزواجـًا، ذكرًا يتزوج أنثىٰ.. **ويراد بالزواج الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره، وعلمه..**

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ وكذلك أطوار الآدمي، كلُّها بعلمه وقضائه..

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: عُمْرِ الذي كان مُعمِّرًا عُمرًا طويلًا..

﴿إِلَّا﴾ بعلمه تعالىٰ.. **أو ما ينقص من عمر الإنسان** الذي هو بصدد أن يصل إليه، **لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر،** كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذُكِر أنَّها من أسباب قصر العمر.. **والمعنىٰ:** أنَّ طول العمر وقِصَره بسبب وبغير سبب كلُّه بعلمه تعالىٰ، وقد أثبت ذلك..

﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ حوىٰ ما يجري علىٰ العبد، في جميع أوقاته وأيام حياته..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [فاطر:١١] إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها.

🕮 الفـوائـد

هذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبَّه اللهُ عليها في هذه الآيات:

١- إحياءُ الأرض بعد موتها.. وأنَّ الذي أحياها سيُحيي الموتىٰ..

٢- وتَنَقُّل الآدميِّ في تلك الأطوار.. فالذي أوجده ونقله طبقـًا بعد طبق، وحالًا بعد حال، حتىٰ بلغ ما قُدِّر له.. فهو علىٰ إعادته وإنشائه النشأة الأخرىٰ أقدر، وهو أهون عليه..

٣- وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كلِّه في كتاب.

فالذي كان هذا نَعتُه يسيرًا عليه، فإعادته للأموات أيسر وأيسر.. فتبارك من كَثُرَ خيرُه، ونبَّه عبادَه علىٰ ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ

مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٢-١٤]

هذا إخبار عن **قدرته وحكمته ورحمته**.. **أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضيِّ كلِّهم**.. وأنَّه لم يسوِّ بينهما..

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ **لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتـًا سائغـًا شرابها**، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، **وأن يكون البحر مِلحـًا أجاجـًا؛ لئلَّا يفسد الهواء** المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، **ولأنه ساكن لا يجري**، فملوحته تمنعه من التغير، **ولتكون حيواناته أحسن وألذ**، ولهذا قال..

﴿وَمِن كُلٍّ﴾ من البحر الملح والعذب..

﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر..

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومَرجان وغيرِهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد..

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ومن المصالحِ أيضـًا: والمنافعِ في البحر أن سخره الله تعالىٰ يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحرَ وتشقه، فتسلك من إقليم إلىٰ إقليم آخر، ومن محل إلىٰ محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيءٌ كثير، ولهذا قال..

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾..

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ ومن ذلك أيضـًا: إيلاجه تعالىٰ الليل بالنهار والنهار بالليل، يُدخِل هذا علىٰ هذا، وهذا علىٰ هذا، كلما أتىٰ أحدهما ذهب الآخر،

ويزيد أحدَهما وينقص الآخرَ، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم..

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ وكذلك: ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، الضياء والنور، والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يُجفف، وغير ذلك مما هو من الضروريات، التي لو فُقِدَت لَلَحِقَ الناسَ الضررُ.

﴿كُلّٞ﴾ كلٌّ من الشمس والقمر..

﴿يَجۡرِي﴾ يسيران في فَلَكِهما ما شاء الله أن يسيرا..

﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ فإذا جاء الأجل وقرب انقضاء الدنيا انقطع سيرهما، وتعطَّل سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتثرت النجوم.. فلما بين تعالىٰ ما بيَّن من هذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من العبر الدالة علىٰ كماله وإحسانه، قال..

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الرب المألوه المعبود، الذي..

﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ كله..

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأصنام..

﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ لا يملكون شيئًا، لا قليلًا ولا كثيرًا، حتىٰ ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا **من تنصيص النفي وعمومه**.. فكيف يُدْعَوْنَ وهم غير مالكين لشيء من مُلك السماوات والأرض؟! ومع هذا..

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ لا يسمعوكم، لأنهم: ما بين جماد وأموات.. وملائكة مشغولين بطاعة ربهم..

﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ علىٰ وجه الفرض والتقدير..

﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ لأنهم: لا يملكون شيئًا.. ولا يرضىٰ أكثرُهم بعبادة مَن عَبَدَه.. ولهذا قال..

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ يتبرأون منكم، ويقولون: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ [سبأ:٤١]..

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ١٤﴾ [فاطر:١٢-١٤] لا أحدٌ ينبئك أصدق من الله العليم الخبير.. فاجزم بأنَّ هذا الأمر الذي نبَّأ به كأنَّه رَأْيُ عين، فلا تشك فيه ولا تمتر.

🕮 الفـوائـد

تضمنت هذه الآيات:

١- الأدلة والبراهين الساطعة الدالة علىٰ أنه تعالىٰ المألوه المعبود.

٢- الذي لا يستحق شيئـًا من العبادة سواه.

٣- وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئـًا.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ [فاطر:١٥-١٨]

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يخاطب تعالىٰ جميعَ الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم..

﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ **وأنهم فقراء إلىٰ الله من جميع الوجوه:**

فقراءٌ **في إيجادهم**، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا..

فقراءٌ **في إعدادهم** بالقوىٰ والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها لَمَا استعدوا لأيِّ عملٍ كان..

فقراءٌ **في إمدادهم** بالأقوات والأرزاق والنِّعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لَمَا حصل لهم من الرزق والنِعَم شيء..

فقراءٌ **في صرف النِّقم عنهم**، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد..

فقراءٌ إليه **في تربيتهم** بأنواع التربية، وأجناس التدبير..

فقراءٌ إليه في **تألههم له**، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاصِ العبادة له تعالىٰ، فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراءٌ إليه في **تعليمهم** ما لا يعلمون، **وعملهم بما يصلحهم**، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يَصلُحوا..

فهم فقراءٌ بالذات إليه: بكلِّ معنىٰ، وبكل اعتبار، سواء **شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا**..

ولكن الموفق منهم: الذي لا يزال **يشاهد فقرَه** في كلِّ حالٍ من أمور دينه ودنياه، **ويتضرع له، ويسأله** أن لا يكله إلىٰ نفسه طرفة عين، **وأن يعينه** علىٰ جميع أموره، **ويستصحب هذا المعنىٰ في كل وقت، فهذا أحرىٰ بالإعانة التامة من ربه وإلهه**، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها..

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ الذي له الغنىٰ التام من جميع الوجوه، فلا يَحتاج إلىٰ ما يَحتاج إليه خلقُه، ولا يَفتقر إلىٰ شيء مما يَفتقر إليه الخلق.. وذلك ل: كمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت وجلال.. **ومن غناه تعالىٰ**: أنَّ أغنىٰ الخلق في الدنيا والآخرة..

﴿ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ **في ذاته وأسمائه**؛ لأنها حسنىٰ.. **وأوصافه**؛ لكونها عُليا.. **وأفعالِه**؛ لأنَّها فضلٌ وإحسانٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ.. **وفي أوامره ونواهيه.. فهو الحميد علىٰ**: ما فيه، وعلىٰ ما منه.. **وهو الحميد في غناه، الغني في حمده**..

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦﴾ **يحتمل أن المراد**: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع لله منكم، **ويكون في هذا: تهديد لهم** بالهلاك والإبادة، وأنَّ مشيئته غير قاصرة عن ذلك.. **ويحتمل أن المراد بذلك**: إثبات البعث والنشور، وأنَّ مشيئة الله تعالىٰ نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقـًا جديدًا، ولكنَّ لذلك الوقت أَجَلٌ قدَّره اللهُ، لا يَتقدَّم عنه ولا يَتأخر..

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧﴾ أي: بممتنع، ولا معجز له.. **ويدل علىٰ المعنىٰ الأخير: ما ذكره بعده في قوله**..

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ في يوم القيامة، كلُّ أَحد يُجازىٰ بعمله، ولا يَحمل أحدٌ ذنبَ أحد..

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نفس..

﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالخطايا والذنوب..

﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ تستغيث بمن يحمل عنها بعضَ أوزارِها..

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ فإنَّه لا يحمل عن قريب.. فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميمُ حميمَه، والصديقُ صديقَه.. بل يوم القيامة يتمنىٰ العبدُ أن يكون له حقٌّ علىٰ أحد، ولو علىٰ والديه وأقاربه..

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هؤلاء الذين يقبلون النِّذارة وينتفعون بها..

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمَغيب..

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها.. لأنَّ الخشيةَ للهِ تستدعي من العَبدِ العملُ بما يَخشىٰ من تضييعه العقابَ، والهربُ مما يُخشىٰ من ارتكابه العذابَ.. والصلاة تدعو إلىٰ الخير، وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر..

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ ومَن زكَّىٰ نفسَه بالتنقِّي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة.. وتحلَّىٰ بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق..

﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ فإنَّ تزكيته يعودُ نفعُها إليه، ويصلُ مقصودُها إليه، لا يَضيع من عَمَلِهِ شيء..

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾ [فاطر:١٥-١٨] فيجازي الخلائقَ علىٰ ما أسلفوه.. ويحاسبهم علىٰ ما قدَّموه وعَمِلُوه.. ولا يُغادِر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ

وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:١٩-٢٤]

يخبر تعالىٰ أنه: **لا يتساوىٰ الأضداد**: في حُكمة الله، وفيما أودعه في فِطَر عِبادِهِ..

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ فاقد البصر..

﴿وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أنَّ هذه المذكورات لا تتساوىٰ.. فكذلك فلتعلموا أنَّ **عدم تساوي المتضادات المعنوية أولىٰ** وأولىٰ.. فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبينَ هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ.. فإذا عَلِمتَ المَرَاتب، وميَّزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يُتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازمُ لنفسه ما هو أولىٰ به وأحقَّها بالإيثار..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ سماعَ فهمٍ وقبول؛ لأنَّه تعالىٰ هو الهادي الموفِّق..

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أموات القلوب.. أو كما أنَّ دعاءك لا يفيد سكانَ القبور شيئـًا، كذلك لا يفيد المُعرِض المعانِد شيئـًا، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أُرسلت به، قُبِلَ مِنكَ أم لا.. ولهذا قال..

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: **مجرد إرسالنا إياك بالحق؛ لأن الله تعالىٰ بعثك علىٰ حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، واندراس من العلم، وضرورة عظيمة إلىٰ بعثك، فبعثك اللهُ** رحمة للعالمين.. **وكذلك ما بعثناك به من الدين** القويم والصراط المستقيم حق لا باطل.. **وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن** العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق..

﴿بَشِيرٗا﴾ لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل..

﴿وَنَذِيرٗاۚ﴾ لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل.. ولست ببدع من الرسل..

﴿وَإِن﴾ فما..

﴿مِّنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية..

﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر:١٩-٢٤] يقيم عليهم حجةَ الله ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾ [فاطر:٢٥-٢٦]

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون، فلست أولَّ رسول كُذِّب..

﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به..

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام..

﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥﴾ المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة.. فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم..

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنواع العقوبات..

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾ [فاطر:٢٥-٢٦] عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل.. فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر:٢٧-٢٨]

يُذَكِّر تعالى خَلقَه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفَرق ما هو مُشاهدٌ معروف.. ليَدُلَّ العبادَ على كمال قدرته وبديع حكمته..

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ **فمن ذلك**: أنَّ الله تعالىٰ أنزل من السماء ماءً..

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد والأرض واحدة..

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾ **ومن ذلك**: الجبال التي جعلها الله أوتادًا للأرض، تجدها جبالًا مشتبكة، بل جبلًا واحدًا، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض..

﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ وفيها طرائق صفر وحمر..

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ وفيها غرابيب سود، أي: شديدة السواد جدًا..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ **ومن ذلك**: الناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهودٌ للنُّظَّار، والكلُّ من أصل واحد ومادة واحدة.. **فتفاوتها دليل عقلي علىٰ: مشيئة الله تعالىٰ**، الَّتي خَصَصَّت ما خصصت منها بلونه، ووصفه.. **وقدرة الله تعالىٰ**، حيث أوجدها كذلك.. **وحكمته ورحمته**، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت فيه من المصالح والمنافع ومعرفة الطرق ومعرفة الناس بعضهم بعضـاً ما هو معلوم.. **وذلك أيضـاً دليلٌ علىٰ**: سِعَةِ عِلم اللهِ تعالىٰ.. وأنَّه يَبعث مَن في القبور.. **ولكن الغافل**: ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظرَ غفلة، لا تُحدِث له التَّذَكر.. **وإنما ينتفع بها**: من يخشىٰ اللهَ تعالىٰ، ويعلم بفكره الصائبِ وجهَ الحكمة فيها.. ولهذا قال..

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ فكلُّ من كان بالله أعلم، كان أكثرَ له خشية.. **وأوجبت له خشيةُ الله**: الانكفافَ عن المعاصي، والاستعدادَ للقاء من يخشاه.. **وهذا دليل علىٰ**: فضيلة العلم، فإنه داع إلىٰ خشية الله.. **وأهل خشيته هم أهل كرامته**، كما قال تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة.. ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات..

﴿غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٧-٢٨] لذنوب التائبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر:٢٩-٣٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يتبعونه في أوامره: فيمتثلونها.. وفي نواهيه: فيتركونها.. وفي أخباره: فيصدقونها ويعتقدونها.. ولا يُقَدِّمون عليه ما خالفه من الأقوال.. ويتلون أيضاً ألفاظه: بدراسته.. ومعانيه: بتتبعها واستخراجها..

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم خص من التلاوة بعد ما عمَّ (الصلاة) التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام..

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ والنفقة علىٰ الأقارب والمساكين واليتامىٰ وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات..

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ في جميع الأوقات..

﴿يَرۡجُونَ﴾ بذلك..

﴿تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها.. ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.. وهذا فيه أنهم يخلصون بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.. وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال..

﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أي: أجور أعمالِهم، علىٰ حَسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه..

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ زيادة عن أجورهم..

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر:٢٩-٣٠] غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر:٣١-٣٥]

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يذكر تعالىٰ أن الكتاب الذي أوحاه إلىٰ رسوله..

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من **كثرة** ما اشتمل عليه من الحق، كأنَّ الحقَّ **منحصر** فيه.. فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تتبرموا منه، ولا تستهينوا به.. فإذا كان هو الحق، لزم أن كلَّ ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه..

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسل؛ لأنها أَخبَرت به، فلمَّا وُجِد وظَهر، ظَهر به صدقُها، فهي بشرت به وأَخبَرت، وهو صدَّقها.. ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبدًا؛ لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ فيعطي كلَّ أمةٍ وكلَّ شخص ما هو اللائق بحاله.. **ومن ذلك:** أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها.. **ولهذا،** ما زال الله يرسل الرسلَ رسولًا بعد رسول، حتىٰ ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلىٰ يوم القيامة، ويَتكفَّل بما هو الخير في كل وقت.. **ولهذا،** لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولًا وأحسنهم أفكارًا، وأرقهم قلوبًا، وأزكاهم أنفسًا، اصطفاهم الله تعالىٰ، واصطفىٰ لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن علىٰ سائر الكتب، ولهذا قال..

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة..

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالمعاصي، التي هي دون الكفر..

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مقتصر علىٰ ما يجب عليه، تارك للمحرم..

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ سارع فيها واجتهد، فسبق غيره.. وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.. **فكلهم اصطفاه الله تعالىٰ** لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتىٰ الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب، وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه..

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ راجع إلىٰ (السابق إلىٰ الخيرات)، لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلىٰ الخيرات إلا بتوفيق الله تعالىٰ ومعونته.. فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليه..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٣٢﴾ أي: وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفىٰ تعالىٰ من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأَجَلُّ النِّعم علىٰ الإطلاق وأكبر الفضل وراثة هذا الكتاب.. ثم ذَكَر جزاءَ الَّذين أورثهم كتابَه فقال..

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جنات مشتملات علىٰ الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد.. **والعدن**: الإقامة، فـ (جنات عدن) أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة لأن الإقامة والخلود وصفُها ووصفُ أهلها..

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهو الحلي الذي يُجعل في اليدين، علىٰ ما يحبون ويَرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء..

﴿وَلُؤْلُؤًاۖ﴾ ويحلون فيها لُؤْلُؤًا، يُنظَم في ثيابهم وأجسادهم..

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ٣٣﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر..

﴿وَقَالُواْ﴾ ولما تمَّ نعيمهم، وكملت لذتهم قَالُوا..

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ﴾ وهذا يشمل كلَّ حزن.. فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيدًا، وهو في تزايد أبد الآباد..

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات..

﴿شَكُورٌ ٣٤﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا.. فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب..

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار..

﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال..

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله لما وصلنا إلىٰ ما وصلنا إليه..

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥﴾ [فاطر:٣١-٣٥] لا تعب في الأبدان، ولا في القلب والقوىٰ، ولا في كثرة التمتع.. وهذا يدل علىٰ أن الله تعالىٰ يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة علىٰ الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.. ويدل علىٰ أنهم **لا ينامون في الجنة**، لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ حالَ أهل الجنة ونعيمِهم.. **ذَكَر حالَ أهلَ النَّار وعذابِهم**، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم..

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب..

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت..

﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ فيستريحوا..

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ فشدَّة العذاب وعِظَمه مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات..

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون..

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أنَّ الله عَدَلَ فيهم.. ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم..

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ دهرًا وعُمرًا..

﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ يتمكن فيه من أراد التَّذكر من العمل.. متعناكم في الدنيا، وأدررنا عليكم الأرزاق، وقيَّضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العُمر، وتابعنا عليكم الآيات..

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وأوصلنا إليكم النُّذر، وابتليناكم بالسَّراء والضراء.. لتنيبوا إلينا وترجعوا إلينا.. فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخَّرنا عنكم العقوبة.. حتىٰ إذا انقضت آجالكم، وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشر الحالات، ووصلتم إلىٰ هذه الدار، دار الجزاء علىٰ الأعمال، سألتم الرجعة؟! هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونَسِيَكم أهلُ الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلَّدين، وفي العذاب مُهَانِين، ولهذا قال..

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر:٣٦-٣٧] ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٣٨﴾ [فاطر:٣٨]

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لما ذكر تعالىٰ جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين.. أخبر تعالىٰ عن سعة علمه، واطلاعه علىٰ غيب السماوات والأرض، الَّتي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم..

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾ [فاطر:٣٨] وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر، والزكاء وغيره، فيعطي كُلًّا ما يستحقه، وينزل كلَّ أحد منزلته.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾ [فاطر:٣٩]

يخبر تعالىٰ عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه..

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ قدَّر بقضائه السابق أن يَجعل بعضَهم يخلُف بعضًا في الأرض، ويُرسل لكلِّ أمَّةً من الأمم النُّذر، فينظر كيف يعملون..

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بالله وبما جاءت به رسله..

﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ فإنَّ كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد..

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ﴾ ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له، وبغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟!

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾ [فاطر:٣٩] يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة.. فالكافر لا يزال في زيادة من: الشقاء، والخسران، والخزي عند الله وعند خلقه، والحرمان.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠﴾ [فاطر:٤٠]

يقول تعالىٰ مُعجِّزًا لآلهة المشركين، ومبيِّنًا نقصها، وبطلانَ شركهم من جميع الوجوه..

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم..

﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ أخبروني عن شركائكم..

﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فـ..

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحرًا، أم خَلقوا جبالًا، أو خلقوا حيوانًا، أو

خلقوا جمادًا؟ سيقرون أنَّ الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالىٰ..

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أَمْ لشركائكم شِرْكَةٌ..

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في خلقها وتدبيرها؟! سيقولون: ليس لهم شركة.. فإذا لم يخلقوا شيئًا، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فَلِمَ عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟! **فانتفىٰ الدليل العقلي علىٰ صحة عبادتهم**، ودلَّ علىٰ بطلانها.. **ثمَّ ذَكَر الدليلَ السمعي**، وأنَّه أيضًا منتف، فلهذا قال..

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان..

﴿فَهُمْ﴾ في شركهم..

﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ من ذلك الكتاب، الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟ ليس الأمر كذلك؟ فإنَّهم ما نزل عليهم كتابٌ قبل القرآن، ولا جاءهم نذيرٌ قبل رسول الله محمد ﷺ.. ولو قُدِّرَ نزولُ كتابٍ إليهم، وإرسالِ رسولٍ إليهم، وزعموا أنَّه أمرهم بشركهم، فإنَّا نجزم بكذبهم، لأنَّ الله قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] فالرسل والكتب، كلها متفقة علىٰ الأمر بإخلاص الدين لله تعالىٰ، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].. **فإن قيل**: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلَّا علىٰ بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين علىٰ الشرك وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟! **أجاب تعالىٰ** بقوله..

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر:٤٠] ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة.. فإنَّما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمانيّ مَنَّاها الشيطان، وزيَّن لهم سوء أعمالهم.. فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسَّر انفصالها، فحصَل ما حصل من الإقامة علىٰ الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر:٤١]

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ يخبر تعالىٰ عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالىٰ يمسك السماوات والأرض عن الزوال..

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحدٌ من الخلق، ولعجزت قُدَرُهم وقُوَاهُم عنهما.. **ولكنه تعالىٰ قضىٰ أن يكونا كما وُجِدَا:** ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالًا وتعظيماً ومحبةً وتكريماً، وليعلموا كمالَ حلمه ومغفرته بإمهال المذنبين وعدم معالجته للعاصين، مع أنه لو أَمر السماء لحصبتهم، ولو أَذِن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرتُه وحلمُه وكرمُه..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر:٤١]..

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر:٤٢-٤٣]

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وأقسم هؤلاء الذين كذَّبوك يا رسول الله، قَسَماً اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة..

﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ ﴾ أهدىٰ من اليهود والنصارىٰ أهل الكتب.. فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود..

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدىٰ من إحدىٰ الأمم، بل لم يدوموا علىٰ ضلالهم الذي كان، بل..

﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ ذلك..

﴿إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ وزيادة ضلال وبغي وعناد..

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوفِّقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض علىٰ الخلق، وعلىٰ الحق، وبهرجة في كلامهم هذا..

﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾ يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون علىٰ طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون..

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ باطل..

﴿إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم.. وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات أنهم كَذَبة في ذلك مُزَوِّرُون.. فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحورهم، وردَّ الله كيدهم في صدورهم..

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين..

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر:٤٢-٤٣] التي لا تُبَدَّل ولا تُغَيَّر: أنَّ كلَّ من سار في الظلم والعناد والاستكبار علىٰ العباد، أن يحلَّ به نِقمَتَه، وتُسلَب عنه نِعمَتَه، فَليَتَرَّقب هؤلاء ما فُعِل بأولئك.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤]

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يحض تعالىٰ علىٰ السير في الأرض.. في القلوب والأبدان.. للاعتبار، لا لمجرد النظر والغفلة..

﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وأن ينظروا إلىٰ عاقبة الذين من قبلهم ممن كذَّبوا الرسل..

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ وكانوا أكثر منهم أموالًا وأولادًا وأشد قوة، وعمَّروا الأرضَ أكثر مما عَمَرَهَا هؤلاء.. فلما جاءهم العذاب لم تنفعهم قوتهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ونفذت فيهم قدرةُ الله ومشيئته..

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لكمال علمه وقدرته..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤]..

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥]

ثم ذكر تعالىٰ كمالَ حلمه، وشدَة إمهاله وإنظاره أربابَ الجرائم والذنوب، فقال..

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب..

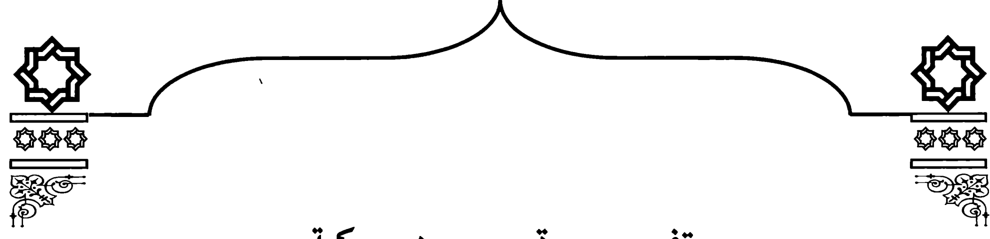
﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لاستوعبت العقوبةُ حتىٰ الحيوانات غير المكلَّفة..

﴿وَلَٰكِن﴾ يمهلهم تعالىٰ ولا يهملهم، و..

﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥] فيجازيهم بحَسَب ما عَلِمَه منهم، من خير وشر.

تم تفسير سورة (فاطر)، والحمد لله رب العالمين





تفسير سورة يس، وهي مكية

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس:١-٦]

﴿يسٓ ۝١﴾..

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ **هذا قَسَمٌ من الله تعالىٰ بالقرآن الحكيم، الذي وَصفُه الحِكمَة..** وهي وَضعُ كلِّ شيءٍ موضعه، وضع الأمر والنهي في الموضع اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلهما اللائق بهما.. فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة علىٰ غاية الحكمة.. **ومن حكمة هذا القرآن،** أنه يجمع بين ذِكرِ الحُكمِ وحِكمَتِه، فينبِّه العقولَ علىٰ المناسباتِ والأوصاف المقتضية لترتيب الحُكم عليها..

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ **هذا المُقسَمُ عليه.. وهو رسالة محمد ﷺ، وإنَّك من جملة المرسلين،** فلستَ بِبِدَعٍ من الرسل.. وأيضـًا فجئت بما جاءَ به الرُّسُل من الأصول الدينية.. وأيضـًا فَمَن تأمَّل أحوالَ المرسلين وأوصافهم، وعَرَفَ الفَرقَ بينهم وبين غيرهم، عَرَف أنَّك من خيار المرسلين، بما فيك من الصفات الكاملة، والأخلاق الفاضلة.. ولا يخفىٰ ما بين المُقسَم به وهو القرآن الحكيم وبين المقسم عليه وهو رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال، وأنَّه **لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم، لكفىٰ به دليلًا** وشاهدًا علىٰ رسالة محمد ﷺ، بل **القرآنُ العظيم أقوىٰ الأدلة المتصلة المستمرة علىٰ رسالة الرسول،** فأدِلَّة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.. **ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة علىٰ رسالته،** وهو أنه..

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ معتدل.. موصِل إلىٰ الله، وإلىٰ دار كرامته.. وذلك الصراط

المستقيم مشتمل علىٰ أعمال، وهي الأعمال الصالحة، المصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة، المزكية للنفس، المطهرة للقلب، المنمية للأجر.. فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول ﷺ، ووصف دينه الذي جاء به.. فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، **كيف جمع بين القَسَم بأشرف الأقسام، علىٰ أجلِّ مقسَم عليه**.. وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالىٰ أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع علىٰ صحة ما أقسم عليه من رسالة رسوله ما نبهنا عليه، وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه.. وهذا الصراط المستقيم..

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقـًا لعباده، موصلًا لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتىٰ أوصلتهم إلىٰ دار رحمته.. ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: (العزيز)، (الرحيم).. فلما أقسم تعالىٰ علىٰ رسالته وأقام الأدلة عليها، **ذَكَر شدة الحاجة إليها، واقتضاء الضرورة لها** فقال..

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس:١-٦] وهم العرب الأُميُّون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلىٰ سفههم عقولَ العالمين.. فأرسل الله إليهم رسولًا من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.. فينذر العرب الأميين، ومن لَحِق بهم من كلِّ أُمِّيٍّ.. ويُذَكِّر أهلَ الكتب بما عندهم من الكتب.. **فنعمةُ اللهِ به علىٰ العرب خصوصـًا، وعلىٰ غيرهم عمومـًا**، ولكن هؤلاء الذين بُعثتَ فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم، **انقسموا قسمين: قسم ردَّ ما جئت به، ولم يقبل النذارة**، وهم الذين قال الله فيهم..

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس:٧-١٠]

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا

يزالون في كفرهم وشركهم.. وإنما حق عليهم القول بعد أن عَرَضَ عليهم الحقَّ فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع علىٰ قلوبهم.. **وذَكَر الموانعَ من وصول الإيمان لقلوبهم**، فقال..

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ وهي جمع (غُلّ)، و(الغُلُّ) ما يُغَلُّ به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرِجل..

﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ وهذه الأغلال التي في الأعناق عظيمة، قد وصلت إلىٰ أذقانهم، ورفعت رءوسَهم إلىٰ فوق..

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ رافعو رءوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها..

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ حاجزًا يحجزهم عن الإيمان..

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة..

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس:٧-١٠] وكيف يؤمن من طُبِع علىٰ قلبه، ورأىٰ الحقَّ باطلًا والباطلَ حقـًا؟!.. **والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة**، وقد ذَكَرَهم بقوله..

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس:١١-١٢]

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنما تنفع نذارتُك، ويتعظ بنصحك..

﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ مَن قَصدُه اتِّباع الحقِّ وما ذُكِّرَ بِهِ..

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ من اتصف بهذين الأمرين، **القصد الحسن** في طلب الحق، **وخشية الله تعالىٰ**، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك.. وهذا الذي وُفِّق لهذين الأمرين..

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه..

﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة..

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم علىٰ الأعمال..

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم..

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.. فكلُّ خير عمل به أحدٌ من الناس بسبب عِلم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو عِلمٌ أودعه عند المتعلِّمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عَمِل خيرًا من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقتَدىٰ به غيره، أو عَمِل مسجدًا، أو مَحَلًّا من المَحَال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، **فإنها من آثاره التي تكتب له.. وكذلك عمل الشر**، ولهذا: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة»(١).. وهذا الموضع يبيِّن لك: **علوَّ مرتبة الدعوة إلىٰ الله**، والهداية إلىٰ سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلىٰ ذلك.. **ونزولَ درجة الداعي إلىٰ الشر**، الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدهم جرمـًا، وأعظمهم إثمـًا..

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأعمال والنيَّات وغيرها..

﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس:١١-١٢] أي: كتاب، هو أم الكتب، وإليه مرجع الكتب التي **تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.**

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا

---

(١) أخرجه مسلم [١٠١٧] وغيره من حديث جرير.

تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس:١٣-١٩]

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ واضرب لهؤلاء المكذِّبين برسالتك، الرادين لدعوتك..

﴿مَّثَلًا﴾ يعتبرون به، ويكون لهم موعظةً إن وفِّقوا للخير.. وذلك المَثَل..

﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ وما جرىٰ منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرىٰ عليهم من عقوبته ونكاله..

﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ من الله تعالىٰ يأمرونهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي..

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ قوَّيناهما بثالث، فصاروا ثلاثةَ رسل، اعتناءً من الله بهم، وإقامةً للحجة بتوالي الرُّسل إليهم..

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لهم..

﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورا عند من ردَّ دعوة الرسل: فـ..

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فما الذي فضَّلكم علينا وخصَّكم من دوننا؟! قالت الرسل لأممهم: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [إبراهيم:١١]..

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ أنكروا عمومَ الرسالة.. ثم أنكروا أيضــًا المخاطبين لهم، فقالوا..

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾..

﴿قَالُواْ﴾ فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة..

﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ فلو كنَّا كاذبين لأظهر اللهُ خزيَنا، ولبادرنا بالعقوبة..

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ أي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها.. وما عدا هذا: من آيات الاقتراح، ومن سرعة العذاب، فليس إلينا.. وإنما

وظيفتنا -التي هي البلاغ المبين- قمنا بها، وبيناها لكم، فإن اهتديتم فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتم، فليس لنا من الأمر شيء..

﴿قَالُوٓاْ﴾ فقال أصحاب القرية لرسلهم..

﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ لم نَر علىٰ قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر.. وهذا من أعجب العجائب، أن يُجعل من قدِم عليهم بأجَلِّ نِعمة يُنعِم اللهُ بها علىٰ العباد، وأجلِّ كرامة يكرمهم بها، وضرورتُهم إليها فوق كل ضرورة، قد قَدِم بحالة شر، زادت علىٰ الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها.. ولكنَّ الخذلان وعدمَ التوفيق يصنع بصاحبه أعظمَ مما يصنعُ به عدوُّه.. ثم توَّعَدُوهُم فقالوا..

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ نقتلنكم رجمـًا بالحجارة، أشنع القتلات..

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾..

﴿قَالُواْ﴾ فقالت لهم رسلهم..

﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ وهو ما معهم من الشرك والشر، المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة..

﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم..

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس:١٣-١٩] متجاوزون للحد، متجرهمون في قولكم.. فلم يزدهم دعاؤهم إلا نفورًا واستكبارًا.

🕮 الفــوائـد

تعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة لعيَّنها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم..

ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار..

ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه..

وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم..

من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها، ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها..

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلًا للمخاطبين.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس: ٢٠-٢٧]

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ حِرصًا علىٰ نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم..

﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم علىٰ ذلك، وشَهِدَ لهم بالرسالة.. ثم ذَكر تأييدًا لِمَا شَهِدَ به ودعا إليه، فقال..

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ اتبعوا من نَصَحَكُم نُصحًا يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم، ولا أجرًا علىٰ نصحه لكم، وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.. **بقي أن يقال:** فلعلَّه يدعو ولا يأخذ أجرة، ولكنه ليس علىٰ الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله..

﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا يُنهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.. فكأنَّ قومه لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لائمين له علىٰ اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده، فقال..

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة، لأنه الذي فطرني، وخلقني، ورزقني..

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ وإليه مآل جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم.. فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن يعبد، ويثنىٰ عليه ويُمَجَّد، دون من لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا عطاءً ولا منعًا، ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا، ولهذا قال..

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لأنَّه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا تُغني شفاعتهم عني شيئًا..

﴿وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ وَلا هُمْ يُنْقذون من الضُرِّ الذي أراده اللهُ بي..

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ إن عَبدتُ آلهةً هذا وصفُها..

﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾ **فجمع في هذا الكلام بين:** نصحهم.. والشهادة للرسل بالرسالة.. والاهتداء.. والإخبار بِتعيُّن عبادة الله وحده.. وذكر الأدلة عليها.. وأن عبادة غيره باطلة.. وذكر البراهين عليها.. والإخبار بضلال من عبدها.. والإعلان بإيمانه جهرًا، مع خوفه الشديد من قتلهم، فقال..

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ فقتله قومه لمَّا سَمِعوا منه، وراجعهم بما راجعهم به.. ف..

﴿قِيلَ﴾ له في الحال..

﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ ف..

﴿قَالَ﴾ مخبِرًا بما وصل إليه من الكرامة علىٰ توحيده وإخلاصه، **وناصحًا لقومه بعد وفاته،** كما نصح لهم في حياته..

﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ بأي شيء غفر لي، فأزال عَنِّي أنواعَ العقوبات..

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس:٢٠-٢٧] بأنواع المثوبات والمسرَّات.. أي: لو وَصَل علمُ ذلك إلىٰ قلوبهم لم يقيموا علىٰ شركهم.

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس:٢٨-٣٠]

قال الله في عقوبة قومه..

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ما احتجنا أن نتكلَّف في عقوبتهم، فنُنزِل جُندًا من السماء لإتلافهم..

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ لعَدَمِ الحاجة إلىٰ ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالىٰ، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنىٰ شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم..

﴿إِن كَانَتۡ﴾ عقوبتهم..

﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صوتـًا واحدًا، تكلَّم به بعضُ ملائكة الله..

﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ قد تقطَّعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم.. **قال الله متوجعـًا للعباد..**

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم..

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس:٢٨-٣٠] حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكلِّ شقاء وعذاب ونكال.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس:٣١-٣٢]

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمَن قَبلَهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالىٰ وأوقع بها عقابها..

﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ وأنَّ جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلىٰ الدنيا، ولن يرجع إليها..

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس:٣١-٣٢] وسيعيد اللهُ الجميعَ خلقًا جديدًا، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالىٰ، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس:٣٣-٣٦]

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ علىٰ البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالىٰ للجزاء علىٰ الأعمال، هذه..

﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أنزل الله عليها المطر..

﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ فأحياها بعد موتها..

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم..

﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾..

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في تلك الأرض الميتة..

﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين، فيها أشجارٌ كثيرة..

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وخصوصـًا النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار..

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض..

﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل والأعناب..

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قوتًا وفاكهة، وأدْمًا ولذةً..

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ والحال أن تلك الثمار (مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ)، وليس لهم فيه صنع ولا عمل.. إن هو إلا صَنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين.. وأيضـًا فلم تعمله أيديهم بطبخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار غير محتاجة لطبخ ولا شيّ، تُؤخذ من أشجارها فتُؤكل في الحال..

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾ من ساقَ لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم.. أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأنبت فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها لذيذ الثمار، وأظهر ذلك الجَنىٰ من تلك الغصون، وفجَّر الأرض اليابسة الميتة بالعيون، بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ؟ بل إنه علىٰ كل شيء قدير..

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف كلها..

﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ فنوَّع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده..

﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فنوعهم إلىٰ ذكر وأنثىٰ، وفاوت بين خلقهم وخُلُقِهِمْ، وأوصافهم الظاهرة والباطنة..

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس:٣٣-٣٦] من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تُخلق بعد.. فسبحانه وتعالىٰ أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سَمِيٌّ، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريده.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٣٧ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس:٣٧-٤٠]

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ علىٰ نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتىٰ بعد موتهم..

﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نُزيل الضياءَ العظيم الذي طبق الأرض، فنبدله بالظلمة، ونحلها محله..

﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٣٧﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس فتضيء الأقطار، وينتشر الخلقُ لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال..

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ دائماً تجري لمستقر لها قدَّره الله لها، لا تتعداه ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها، ولا استعصاء علىٰ قدرة الله تعالىٰ..

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي بعزته دبَّر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير، وأحسن نظام..

﴿ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨﴾ الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم..

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ ينزل بها.. كلّ ليلة ينزل منها واحدة..

﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ يصغر جدًا، فيعود..

﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ أي: عرجون النخلة، الذي مِن قِدَمِه نَشَّ وصَغُر حجمه وانحنىٰ، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئًا فشيئًا، حتىٰ يتم نوره ويتسق ضياؤه.. وَكُلٌّ من الشمس والقمر والليل والنهار قدَّره الله تقديرًا لا يتعدَّاه، وكلٌّ له سلطان ووقت، إذا وُجِدَ عُدِمَ الآخر، ولهذا قال..

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل..

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه..

﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر والنجوم..

﴿فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس:٣٧-٤٠] يترددون علىٰ الدوام، فكلٌّ هذا دليلٌ ظاهر وبرهان باهر علىٰ عظمة الخالق وعظمة أوصافه.. خصوصًا وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ۝٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٤٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٤٥ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤٦﴾ [يس:٤١-٤٦]

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ﴾ ودليل لهم وبرهان، علىٰ أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعم، الصارف للنقم، الذي من جملة نعمه..

﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم..

﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾..

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ للموجودين من بعدهم..

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ من مثل ذلك الفُلك، أي: جنسه..

﴿مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ به.. فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن؛ لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية..

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ لا أحدٌ يصرخ لهم فيعاونهم على الشدَّة، ولا يزيل عنهم المشقة..

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ مما هم فيه..

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ حيث لم نغرقهم، لطفاً بهم، وتمتيعاً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات..

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأسا، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال..

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي **إضافة الآيات إلى ربهم** دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بياناً.. وإن **من جملة تربية الله لعباده** أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم، في دينهم ودنياهم..

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس:٤١-٤٦]..

🕮 الفوائد

هذا الموضع من أشكل المواضع عليَّ في التفسير:

فإنَّ ما ذكره كثير من المفسرين **مِن أنَّ المراد بالذرية الآباء**، مما لا يُعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يأباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده..

وثَمَّ احتمالٌ أحسن من هذا: وهو **أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم**؛ لأنهم هم من ذرية بني آدم..

ولكن ينقض هذا المعنىٰ قوله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرًا للمعنىٰ، تأباه فصاحة القرآن..

فإن أريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ **الإبل،** التي هي سفن البر، **استقام المعنىٰ** واتضح..

إلا أنه يبقىٰ أيضـًا: أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنَّه لو أريد هذا المعنىٰ، لقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنىٰ.

إلا أن يقال: الضمير عائد إلىٰ الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال..

فلما وصلت في الكتابة إلىٰ هذا الموضع، ظهر لي معنىٰ ليس ببعيد من مراد الله تعالىٰ وذلك:

أنَّ من عَرَفَ جلالةَ كتابِ الله، **وبيانَه التام من كل وجه للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة،** وأنَّه يَذكر مِن كُلِّ معنىٰ أعلاه، وأكملَ ما يكون من أحواله..

وكانت **الفلك من آياته تعالىٰ** ونعمه علىٰ عباده، من حين أنعم عليهم بِتَعَلُّمِها إلىٰ يوم القيامة، **ولم تزل موجودة في كل زمان،** إلىٰ زمان المواجَهين بالقرآن..

فلمَّا خاطبهم الله تعالىٰ بالقرآن، وذكر حالة الفلك، **وعَلِمَ تعالىٰ أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم وفي غير زمانهم،** حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها، والنارية، والجوية السابحة في الجو كالطيور، ونحوها.. **والمراكب البرِّيَّة مما كانت الآية العظمىٰ فيه لم توجد إلا في الذرية، نبَّه في الكتاب علىٰ أعلىٰ نوع من أنواع آياتها** فقال:﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوء ركبانـًا وأمتعةً.. فحَمَلَهم الله تعالىٰ، ونجَّاهم بالأسباب التي علَّمَهم اللهُ بها من الغرق..

و لهذا **نَبَّههم علىٰ نِعمَته عليهم حيثُ أنجاهم مع قدرته علىٰ ذلك،** فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس:٤٧-٥٠]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الرزق الذي منَّ به اللهُ عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ معارضين للحق، محتجين بالمشيئة..

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾..

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون..

﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ حيث تأمروننا بذلك.. وهذا مما يدل علىٰ جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم.. فإن المشيئة ليست حجة لعاص أبدًا، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالىٰ مكَّن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون علىٰ فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أُمِروا به كان ذلك اختيارًا منهم، لا جبرًا لهم ولا قهرًا..

﴿وَيَقُولُونَ﴾ علىٰ وجه التكذيب والاستعجال..

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ قال الله تعالىٰ: لا يستبعدوا ذلك، فإنه عن قريب..

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نفخة الصور..

﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ تصيبهم..

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وهم لاهون عنها، لم تخطر علىٰ قلوبهم في حال خصومتهم وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة.. وإذا أَخَذَتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا يُنظَرون ولا يُمهَلون..

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ لا قليلة ولا كثيرة..

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس:٤٧-٥٠]..

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ [يس:٥١-٥٤]

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث والنشور.. والنفخة الأولىٰ هي نفخة الفزع والموت.. فإذا نفخ في الصور..

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ خرجوا من الأجداث والقبور..

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأنِّي والتأخر..

﴿قَالُوا۟﴾ وفي تلك الحال يحزن المكذِّبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون..

﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ من رقدتنا في القبور.. لأنه وَرَدَ في بعض الأحاديث أنَّ لأهل القبور رقدة قُبيل النفخ في الصور.. فيُجَابون، فيقال لهم..

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقُهم رَأْيَ عين..

﴿إِن كَانَتْ﴾ البعثة من القبور..

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد..

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ الأولون والآخرون، والإنس والجن، ليحاسبوا علىٰ أعمالهم..

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزاد في سيئاتها..

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ [يس:٥١-٥٤] من خير أو شر، فمن وجد خيرا فليحمد الله علىٰ ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

🕮 الفـوائـد

لا تحسب أنَّ ذِكرَ (الرحمن) في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار

بأنه في ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦]، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨]، ونحو ذلك مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٥-٥٨]

لما ذكر تعالى أنَّ كلَّ أحدٍ لا يجازى إلا ما عمله.. ذَكَر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة..

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ﴾ وأخبر أنهم في ذلك اليوم..

﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ في شغل مفكه للنفس، مُلِذٍّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه المتمنون.. ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات، كما قال..

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ من الحور العين، اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق..

﴿فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن..

﴿مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة..

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين ورمان، وغيرها..

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.. ولهم أيضا..

﴿سَلَٰمٌ﴾ حاصل لهم..

﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٥-٥٨]..

🕮 الفوائد

في هذا: **كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم**.. وأكده بقوله: ﴿قَوْلًا﴾..

وإذا سلَّم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه..

وحصلت لهم التحية التي لا تحية أعلىٰ منها، ولا نعيم مثلها..

فما ظنك بتحية ملك الملوك الرب العظيم الرءوف الرحيم لأهل دار كرامته؟! الذي أحلَّ عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا..

فلولا أن الله تعالىٰ قدَّر أن لا يموتوا أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور لحصل ذلك..

فنرجو ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلىٰ وجهه الكريم.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾ [يس:٥٩-٦٤]

لما ذكر تعالىٰ جزاء المتقين.. **ذكر جزاء المجرمين**..

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ وأنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿امْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾، أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا علىٰ حِدة.. ليوبخهم ويقرعهم علىٰ رءوس الأشهاد قبل أن يُدخلهم النار، فيقول لهم..

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ آمركم وأوصيكم، علىٰ ألسنة رسلي، وأقول لكم:..

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ **يدخل فيه التوبيخ** عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له..

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه..

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾ وأمرتكم ﴿أَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾ **بامتثال أوامري وترك زواجري**..

﴿هَٰذَا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان..

﴿صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ۝٦١﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله **ترجع إلىٰ هذين الأمرين**..

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، فـ﴿أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ أي: خلقاً كثيرًا..

﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢﴾ فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدىٰ الأعداء لكم وليـاً، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك.. فإذا أطعتم الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم بلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب فـ..

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفزع الأكبر.. ثم يكمِّل ذلك بأن يؤمر بهم إلىٰ النار، ويقال لهم..

﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤﴾ [يس:٥٩-٦٤] ادخلوها علىٰ وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرُّها، ويبلغ منكم كلَّ مبلغ بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسل الله.

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ۝٦٧﴾ [يس:٦٥-٦٧]

قال الله تعالىٰ في بيان وصفهم الفظيع في دار الشقاء..

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرون علىٰ إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب..

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٦٥﴾ تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء..

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ بأن نُذهِبَ أبصارهم، كما طمسنا علىٰ نطقهم..

﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلىٰ الوصول إلىٰ الجنة..

﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ۝٦٦﴾ وقد طُمِست أبصارهم..

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ لأذهبنا حركتهم..

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ إلىٰ الأمام..

﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس:٦٥-٦٧] إلىٰ ورائهم ليبعدوا عن النار.. **والمعنىٰ:** أنَّ هؤلاء الكفار حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.. وفي ذلك الموطن ما ثَمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور علىٰ الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم.. وأما هؤلاء فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار، فإن شاء طمس أعينهم وأبقىٰ حركتهم، فلم يهتدوا إلىٰ الصراط لو استبقوا إليه وبادروه.. وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر.. **المقصود:** أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس:٦٨]

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ من بني آدم..

﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ يعود إلىٰ الحالة التي ابتدأ، حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة..

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس:٦٨] أنَّ الآدمي ناقص من كلِّ وجه، فيتداركوا قوَّتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس:٦٩-٧٠]

ينزه تعالىٰ نبيه محمدا ﷺ عمَّا رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال..

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أن يكون شاعرًا.. أي: **هذا من جنس المحال أن يكون شاعرًا: لأنه** رشيد مهتد، والشعراء غاوون يتبعهم الغاوون، **ولأن** الله تعالىٰ حسم جميع الشبه التي يتعلق بها الضالون علىٰ رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له..

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب جميعَ المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم اشتمال، وهو يذكر العقولَ ما ركَّز اللهُ في فِطَرها من الأمر بكلِّ حسن، والنهي عن كل قبيح..

﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾ مبين لما يُطلَب بيانُه.. ولهذا حذف المعمول؛ ليدل علىٰ أنه مبين **لجميع الحق** بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه.. أنزله الله كذلك علىٰ رسوله..

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو علىٰ هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية..

﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ [يس:٦٩-٧٠] لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنىٰ عذر وشبهة يُدْلُونَ بها.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [يس:٧١-٧٣]

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ يأمر تعالىٰ العباد بالنظر إلىٰ ما سخَّر لهم من الأنعام وذللها، وجعلهم مالكين لها، مُطَاوِعةً لهم في كل أمر يريدونه منها.. وأنه جعل لهم فيها منافعَ كثيرة، مِن حَملهم وحَمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعتهم من مَحلٍّ إلىٰ محل.. ومن أكلهم منها.. وفيها دفء.. ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثـًا ومتاعـًا إلىٰ حين.. وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها..

﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [يس:٧١-٧٣] الله تعالىٰ الذي أنعم بهذه النعم.. ويخلصون له العبادة.. ولا يتمتعون بها تمتعـًا خاليـًا من العبرة والفكرة.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥﴾ [يس:٧٤-٧٥]

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤﴾ هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي اتخذوها مع الله تعالىٰ، ورجوا نَصرَها وشفعَها، فإنها في غاية العجز..

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا أنفسهم ينصرون.. فإذا كانوا لا يستطيعون نصرَهم فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة (والقدرة)[1]، فإذا استطاع يبقىٰ: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فَنَفْيُ الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما..

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥﴾ [يس:٧٤-٧٥] أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟!

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾ [يس:٧٦]

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ فلا يحزنك يا أيها الرسول قولُ المكذبين.. والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.. أي: فلا تشغل قلبَك بالحزن عليهم..

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾ [يس:٧٦] فنجازيهم علىٰ حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئًا.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ

(١) زيادة من هامش ب، ويبدو -والله أعلم- أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقية كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدل علىٰ ذلك.اهـ من تعليقات الطبعة الأصل.

لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس:٧٧-٨٣]

هذه الآيات الكريمات فيها: ذِكر **شبهة** منكري البعث.. **والجواب عنها** بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالىٰ..

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمرًا يفيده اليقين التام بوقوعه..

﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ وهو ابتداء خلقه..

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئـًا فشيئـًا، حتىٰ كبر وشب، وتم عقله واستتب..

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ بعد أن كان ابتداءُ خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أنَّ الذي أنشأه من العدم قادر علىٰ أن يعيده بعد ما تفرق وتمزق، من باب أولىٰ..

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه.. وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد علىٰ قدرة المخلوق مستبعد علىٰ قدرة الخالق..

﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقه بعد أن لم يكن شيئـًا مذكورًا فوُجِد عيانـًا لم يضرب هذا المثل.. فَسَّرَ هذا المثل بقوله..

﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان..

﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ هل أحد يحييها؟! استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعد ما بَليت وتلاشت.. **هذا وجه الشبهة والمثل**، وهو أنَّ هذا أمر في غاية البعد علىٰ ما يعهد من قدرة البشر.. فأجاب تعالىٰ عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف، فقال..

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا بمجرد تصوره يُعلَمُ به علمـًا يقينـًا لا شبهة فيه أنَّ الذي أنشأها أول مرة قادر علىٰ الإعادة ثاني مرة، وهو أهون علىٰ القدرة إذا تصوره المتصور..

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ هذا أيضا **دليل ثان من صفات الله تعالىٰ**.. وهو أن عِلمَه تعالىٰ محيطٌ بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات.. ويَعلَم ما تنقصُ الأرضُ من أجساد الأموات وما يَبقىٰ.. ويَعلم الغيبَ والشهادةَ.. فإذا أقرَّ العبدُ بهذا العلم العظيم عَلِمَ أنه أعظم وأجلُّ من إحياء الله الموتىٰ من قبورهم.. **ثم ذكر دليلا ثالثا**..

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ **فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر** الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادهما وشدة تخالفهما، **فإخراجه الموتىٰ من قبورهم مثل ذلك.. ثم ذكر دليلا رابعـًا** فقال..

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ علىٰ سعتهما وعظمهما..

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: أن يعيدهم بأعيانهم..

﴿بَلَىٰ﴾ قادر علىٰ ذلك، فإنَّ خَلْقَ السماوات والأرض أكبرُ من خلق الناس..

﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ **وهذا دليل خامس**.. فإنه تعالىٰ الخلاق الذي جميع المخلوقات متقدِّمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلُّها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنَّه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.. فإعادته للأموات، فرد من أفراد آثار خلقه، ولهذا قال..

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعمّ كلّ شيء..

﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ في الحال من غير تَمانُع..

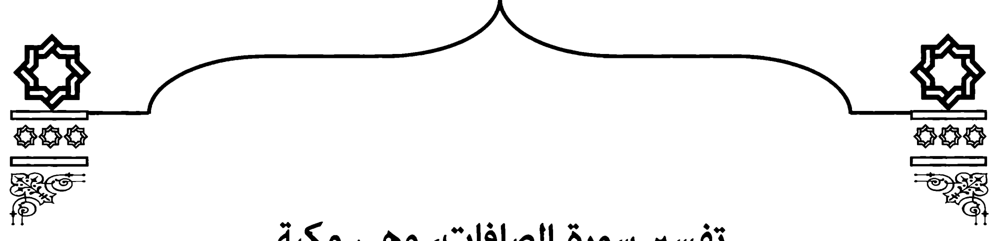
﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ **وهذا دليل سادس**.. فإنه تعالىٰ هو المَلِك المَالِك لكلِّ شيء، الذي جميع ما سَكَن في العَالَمِ العلوي والسفلي مِلكٌ له، وعبيد مسخَّرون ومدبَّرون، يتصرف فيهم بأقداره الحُكمِيَّة، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية.. فإعادته إياهم بعد موتهم لينفذ فيهم حكمُ الجزاء من تمام ملكه، ولهذا قال..

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس:٧٧-٨٣] من غير امتراء ولا شك؛ لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة علىٰ ذلك.. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدىٰ والشفاء والنور.

تم تفسير سورة (يس)

فلله تعالىٰ الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله

وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وسلم



تفسير سورة الصافات، وهي مكية

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١﴾ [الصافات:١-١١]

هذا قَسَمٌ منه تعالىٰ بالملائكة الكرام، في حال عبادتها وتدبيرها ما تُدَبِّره بإذن ربها، علىٰ ألوهيته تعالىٰ وربوبيته، فقال..

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١﴾ صفوفـًا في خدمة ربهم، وهم الملائكة..

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ وهم الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله..

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالىٰ.. فلما كانوا متألهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أَقسم بهم علىٰ ألوهيته فقال..

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ ليس له شريك في الإلهية، فَأخلِصوا له الحبَّ والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة..

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها.. فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته.. وكثيرًا ما يقرر تعالىٰ توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنه دال عليه.. وقد أقرَّ به أيضـًا المشركون في العبادة، فيلزمهم بما أقروا به علىٰ ما أنكروه.. **وخص الله المشارق بالذكر**؛ لدلالتها علىٰ المغارب، **أو لأنها مشارق النجوم** التي سيذكرها، فلهذا قال..

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨﴾ **ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين: إحداهما:** كونها زينة للسماء، إذ لولاها لكانت السماء جرمًا مظلمًا لا ضوء فيها، ولكن زيَّنها فيها لتستنير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.. **والثانية**: حراسة السماء عن كلِّ شيطان مارد يصل بتمرده إلىٰ استماع الملأ الأعلىٰ، وهم الملائكة، فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب..

﴿دُحُورٗاۖ﴾ طردًا لهم، وإبعادًا عن استماع ما يقول الملأ الأعلىٰ..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩﴾ دائم، مُعَدٌّ لهم؛ لتمردهم عن طاعة ربهم.. ولولا أنَّه تعالىٰ استثنىٰ، لكان ذلك دليلًا علىٰ أنَّهم لا يستمعون شيئًا أصلًا ولكن قال..

﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة علىٰ وجه الخفية والسرقة..

﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلىٰ أوليائه، فينقطع خبر السماء.. وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.. ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال..

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ اسأل منكري خلقهم بعد موتهم..

﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم أشد خلقا وأشق..

﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ من هذه المخلوقات؟! فلابد أن يقروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فيلزمهم إذًا الإقرار بالبعث.. بل لو رجعوا إلىٰ أنفسهم وفكروا فيها لعلموا أنَّ ابتداء خلقهم من طين لازب أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال..

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١﴾ [الصافات:١-١١] أي: قوي شديد، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر:٢٦].

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا

ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات:١٢-٢١]

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان من تكذيب من كذب بالبعث، بعد أن أُرِيتُهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة.. وهو حقيقة محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار..

﴿وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وأعجب من إنكارهم وأبلغ منه أنهم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث.. فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتىٰ زادوا السخرية بالقول الحق..

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ ومن العجب أيضـًا أنهم ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا۟ ﴾ ما يعرفون في فِطَرهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه..

﴿لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ذلك.. فإن كان جهلًا فهو من أدلِّ الدلائل علىٰ شدة بلادتهم العظيمة، حيث ذَكَروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال.. وإن كان تجاهلًا وعنادًا فهو أعجب وأغرب..

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ **ومن العجب أيضا**: أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة وذَكَروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال وألباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون..

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ **ومن العجب أيضا**: قولهم للحق لما جاءهم..

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ فجعلوا أعلىٰ الأشياء وأجلها وهو الحق، في رتبة أخس الأشياء وأحقرها.. **ومن العجب أيضا**: قياسهم قدرةَ رب الأرض والسماوات علىٰ قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادًا وإنكارًا..

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ولمَّا كان هذا منتهىٰ ما عندهم وغاية ما لديهم، أَمَرَ اللهُ رسولَه أن يجيبهم بجواب مشتمل علىٰ ترهيبهم فقال..

﴿قُلْ نَعَمْ ﴾ ستبعثون، أنتم وآباؤكم الأولون..

﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون علىٰ قدرة الله..

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور..

﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبعوثون من قبورهم..

﴿يَنظُرُونَ ۝١٩﴾ كما ابتُدئ خلقُهم، بُعِثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلًا، وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور..

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠﴾ فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يستهزءون.. فيقال لهم..

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق..

﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ [الصافات:١٢-٢١]..

﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات:٢٢-٢٤]

إذا أحضروا يوم القيامة وعاينوا ما به يكذِّبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلىٰ النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال..

﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي..

﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الذين من جنس عملهم، كلٌّ يُضَمُّ إلىٰ من يجانسه في العمل..

﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعا..

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ سوقوهم سَوقـًا عنيفـًا إلىٰ جهنم.. وبعد ما يتعين أمرُهم إلىٰ النار، ويَعرفون أنهم من أهل دار البوار، يقال..

﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾ قبل أن توصلوهم إلىٰ جهنم..

﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات:٢٢-٢٤] عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر علىٰ رءوس الأشهاد كَذِبُهم وفضيحتهم.. فيقال لهم..

﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصافات:٢٥-٢٦]

﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ ما الذي جرىٰ عليكم اليوم؟! وما الذي طَرَقكُم لا ينصر بعضُكم بعضـًا، ولا يغيث بعضُكم بعضاً بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع

عنكم العذاب، وتغيثكم وتشفع لكم عند الله.. فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال؛ لأنهم قد علاهم الذلُّ والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأُبلسوا فلم ينطقوا.. ولهذا قال..

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات:٢٥-٢٦]..

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الصافات:٢٧-٣٩]

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ لمَّا جُمِعُوا هم وأزواجهم وآلهتهم، وهُدوا إلىٰ صراط الجحيم، ووَقَفُوا، فسُئِلوا، فلم يجيبوا.. وأقبلوا فيما بينهم، يلوم بعضُهم بعضاً علىٰ إضلالهم وضلالهم..

﴿قَالُوٓاْ﴾ فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء..

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ بالقوة والغلبة، فتضلونا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين..

﴿قَالُواْ﴾ لهم..

﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ما زلتم مشركين، كما نحن مشركون، فأيَّ شيء فضَّلكم علينا؟ وأيُّ: شيءٍ يوجب لومنا؟!

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ والحال أنه ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: قهر لكم علىٰ اختيار الكفر..

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ متجاوزين للحد..

﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ﴾ نحن وإياكم..

﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١﴾ العذاب.. أي: حق علينا قَدَرُ ربنا وقضاؤه، أنَّا وإياكم سنذوق العذاب، ونشترك في العقاب..

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾ فـ لذلك ﴿ أَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾ أي: دعوناكم إلىٰ طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.. قال تعالىٰ..

﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم القيامة..

﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم.. كما اشتركوا في الدنيا علىٰ الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال..

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾.. ثم ذَكَر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال..

﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فدُعوا إليها، وأُمِروا بترك إلهية ما سواه..

﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥﴾ عنها وعلىٰ من جاء بها..

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها..

﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا..

﴿لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ لـ قول ﴿ شَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾.. يعنون محمدًا ﷺ.. فلم يكفهم -قبحهم الله- الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبِه، حتىٰ حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعرًا مجنونـًا، وهم يعلمون أنَّه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وَصفُه وصفُهم، وأنَّه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأيـًا.. ولهذا قال تعالىٰ ناقضـًا لقولهم..

﴿بَلۡ جَآءَ﴾ محمَّدٌ..

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مجيئُه حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق..

﴿وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧﴾ ومجيئُه صدَّق المرسلين.. فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله؛ لأنَّهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك علىٰ أممهم.. فلما

جاء ظهرَ صدقُ الرُّسل الذين قبله، وتبيَّن كذبُ من خالفهم.. فلو قُدِّر عدمُ مجيئه وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.. وصدَّق أيضا المرسلين بـ أن جاء بما جاءوا به، ودعا إلىٰ ما دَعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.. ولما كان قولهم السابق ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ قولًا صادرًا منهم يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالىٰ بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالىٰ، فقال..

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ المؤلم الموجع..

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ في إذاقة العذاب الأليم..

﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الصافات:٢٧-٣٩] فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم.. ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً، والمراد به المشركون، استثنىٰ تعالىٰ المؤمنين فقال..

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات:٤٠-٤٩]

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم؛ لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ غير مجهول، وإنَّما هو رزق عظيم جليل، لا يُجهل أمرُه، ولا يبلغ كنهه.. فسَّره بقوله..

﴿فَوَٰكِهُ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها..

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لا مهانون محتقرون، بل مُعظَّمون مُجَلُّون موَقَّرون.. قد أكرم بعضُهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرَمَهم أكرمُ الأكرمين، وَجَادَ عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان..

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها.. وذلك لما جمعته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.. وسلمت من كل مخل بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغصات.. ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضِهم بعضـًا، أنهم..

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة، المزخرفة المجمَّلة، فهم متكئون عليها، علىٰ وجه الراحة والطمأنينة، والفرح..

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ فيما بينهم، قد صَفَت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض.. **فإن مقابلة وجوههم تدلُّ علىٰ تقابل قلوبهم**، وتأدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره، أو يجعله إلىٰ جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل..

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾﴾ يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأشربة اللذيذة، **بالكاسات الجميلة المنظر**، (المُتْرَعَة)[1] من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر.. وتلك الخمر تخالف خمرَ الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها..

﴿بَيۡضَآءَ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها..

﴿لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يتلذذ شاربها بها وقت شربها وبعده..

﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وأنها سالمة من غول العقل وذهابه، ونزفه، ونزف مال صاحبها.. وليس فيها صداع ولا كدر.. فلمَّا ذَكَر طعامهم وشرابهم ومجالسهم -وعموم النعيم وتفاصيله داخلة في قوله: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، لكن فصَّل هذه الأشياء لتُعلم، فتشتاق النفوس إليها- ذَكَر أزواجَهم فقال..

﴿وَعِندَهُمۡ﴾ وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة..

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف.. إما أنها قصرت طرفها علىٰ زوجها، **لعفتها** وعدم مجاوزته لغيره، **ولجمال زوجها** وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به.. وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل علىٰ **كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها.. وقصر الطرف أيضـًا**

---

(١) المملوءة.

يدل علىٰ: قصر النفس والمحبة عليها، **وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح**.. وكلُّ هذا يدل علىٰ **جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً**، محبة لا يطمح إلىٰ غيره، **وشدة عفتهم** كلهم، **وأنه لا حسد فيها ولا تباغض**، ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه..

﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ حسان الأعين جميلاتها، ملاح الحدق..

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ الحور..

﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات:٤٠-٤٩] مستور.. وذلك من حسنهن وصفائهن، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كَدَرٌ ولا شَين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٥٠-٦١]

لما ذَكَر تعالىٰ نعيمهم، وتمام سرورهم بالمآكل والمشارب، والأزواجِ الحسان، والمجالسِ الحسنة.. ذَكَر تذاكرهم فيما بينهم..

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتىٰ أفضىٰ ذلك بهم إلىٰ أن..

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات:٥٠-٥١] في الدنيا، ينكر البعث، ويلومني علىٰ تصديقي به..و..

﴿يَقُولُ﴾ لي..

﴿أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مجازون بأعمالنا؟!

أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد الذي في غاية الاستغراب.. وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً أننا نُبعث ونُعاد، ثم نحاسب ونجازىٰ بأعمالنا؟! ".. أي: يقول صاحبُ

الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمناً مصدقاً، وهو ما زال مكذِّباً منكرًا للبعث، حتىٰ متنا ثم بعثنا، فَوَصَلت أنَّا إلىٰ ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلىٰ العذاب.. فـ..

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ لننظر إليه، فنزداد غبطة وسرورا بما نحن فيه، ويكون ذلك رَأْيَ عين؟.. والظاهر من حال أهل الجنة وسرور بعضهم ببعض وموافقة بعضهم بعضاً أنهم أجابوه لما قال.. وذهبوا تَبَعاً له للاطلاع علىٰ قرينه..

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾ فرأىٰ قرينه..

﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.. فـ..

﴿قَالَ﴾ له لائماً علىٰ حاله، وشاكرًا لله علىٰ نعمته أن نجَّاه من كيده..

﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ تهلكني بسبب ما أدخلتَ عليَّ من الشُّبَه بزعمك..

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ علىٰ أن ثبتني علىٰ الإسلام..

﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ في العذاب معك..

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ استفهام بمعنىٰ الإثبات والتقرير.. أي: يقول لقرينه المعذَّب: أفتزعم أننا لسنا نموت..

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ سوىٰ الموتة الأولىٰ..

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ ولا بعث بعدها ولا عذاب.. يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة الله علىٰ أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب.. فلمَّا ذكر تعالىٰ نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوَّق العاملين، وحثَّهم علىٰ العمل فقال..

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوىٰ النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كلُّ محذور ومكروه..

﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فهل فوز يطلب فوقه؟! أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات؟! حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته وَاسْتَرُّوا برؤيته، وطربوا لكلامه..

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٥٠-٦١] فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس

الأنفاس.. وأولىٰ ما شمَّر إليه العارفون الأكياس.. والحسرة كل الحسرة أن يمضي علىٰ الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار.. فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلىٰ دار البوار؟!

📖 **الفـوائـد**

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وحُذِف المعمول.. والمقام مقام لذة وسرور.. فدلَّ ذلك علىٰ أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن **لذة أهل العلم** بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، **فلهم من هذا النوع النصيب الوافر**، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه..

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات:٦٢-٧٤]

﴿أَذَٰلِكَ﴾ النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة..

﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟! فأي الطعامين أولىٰ؟! الذي وصف في الجنة..

﴿أَمْ﴾ طعام أهل النار؟! وهو..

﴿شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾ عذاباً ونكالاً..

﴿لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي..

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ وَسَطِه.. فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، وشر المغرس، يدل علىٰ شر الغراس وخسته.. ولهذا نبهنا الله به علىٰ شرِّها بما ذَكَر أين تنبت، وبما ذَكر من صفة ثمرتها..

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ﴾ وأنها كـ..

﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل.. ولهذا قال..

﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم.. ثم ذكر شرابهم فقال..

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ علىٰ أثر هذا الطعام..

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ ماءً حارًا قد انتهىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]..

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مآلهم ومقرهم ومأواهم..

﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ ليذوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء.. وكأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلىٰ هذه الدار؟ فقال..

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟﴾ وجدوا..

﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلىٰ ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلىٰ ما حذرتهم عنه الكتب، ولا إلىٰ أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]..

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المخاطبين..

﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وقليل منهم آمن واهتدىٰ..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ينذرونهم عن غيهم وضلالهم..

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة.. فليحذر هؤلاء أن يستمروا علىٰ ضلالهم، فيصيبهم مثلُ ما أصابهم.. ولما كان المنذرون

ليسوا كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين لله، استثناه الله من الهلاك فقال..

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات:٦٢-٧٤] الذين أخلصهم الله، وخصَّهم برحمته لإخلاصهم، فإنَّ عواقبهم صارت حميدة.. ثم ذَكَر أنموذجًا من عواقب الأمم المكذبين فقال..

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات:٧٥-٨٢]

يخبر تعالىٰ عن عبده ورسوله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أول الرسل..

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أنه لما دعا قومه إلىٰ الله تلك المدة الطويلة فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، أنه نادىٰ ربَّه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] الآية، وقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠].. فاستجاب الله له، ومدح تعالىٰ نفسه فقال..

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لدعاء الداعين، وسماع تبَتُّلِهم وتضرعهم.. أجابه إجابة طابق ما سأل..

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ وأغرق جميع الكافرين..

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وأبقىٰ نسله وذريته متسلسلين.. فجميع الناس من ذرية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ وجعل له ثناءً حسنًا مستمرًا إلىٰ وقت الآخرين..

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلىٰ الخلق.. وهذه سنته تعالىٰ في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء علىٰ حسب إحسانهم..

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات:٧٥-٨٢]..

📖 الفـوائـد

دلَّ قوله ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أن الإيمان أرفع منازل العباد.. وأنه مشتمل علىٰ جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه.. لأنَّ الله مدح به خواص خلقه.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات:٨٣-٩٠]

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ وإن من شيعة نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ومن هو علىٰ طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلىٰ الله، وإجابة الدعاء..

﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ الخليل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ..

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ من الشرك والشُبه.. والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به.. وإذا كان قلب العبد سليماً سَلِم من كلِّ شر، وحصل له كلُّ خير.. ومن سلامته أنه سليم من غِشِّ الخلق وحَسَدِهِم، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلقَ في الله، وبدأ بأبيه وقومه فقال..

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ هذا استفهام بمعنىٰ الإنكار، وإلزام لهم بالحجة..

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أتعبدون من دونه آلهةً كذباً، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة..

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيرَه؟! وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب علىٰ الإقامة علىٰ شركهم.. وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتىٰ جعلتم له أندادا وشركاء؟!.. فأراد عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أن يكسِّر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهز الفرصة في حين غفلة منهم لمَّا ذهبوا إلىٰ عيد من أعيادهم، فخرج معهم..

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلا ثلاث كذبات: قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]،

وقوله عن زوجته (إنها أختي)».. والقصد أنه تخلف عنهم ليتم له الكيد بآلهتهم..

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات:٨٣-٩٠] فـ لهذا تولَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ.. فلمَّا وجد الفرصة..

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات:٩١-٩٣]

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أسرع إليها على وجه الخِفية والمراوغة..

﴿فَقَالَ﴾ متهكِّماً بها..

﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فكيف يليق أن تعبد وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟! فهذه جماد لا تأكل ولا تكلم..

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات:٩١-٩٣] جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتى جعلها ﴿جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨].

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات:٩٤-٩٨]

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ يسرعون ويهرعون، أي: يريدون أن يوقعوا به، بعدما بحثوا، وقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥٩] ، وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠]، يقول: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء:٥٧]، فوبخوه ولاموه، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣- ٦٦] الآية.. و..

﴿قَالَ﴾ هنا..

﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥﴾ أي: تنحتونه بأيديكم وتصنعونه؟! فكيف تعبدونهم وأنتم الذين صنعتموهم؟!

﴿وَٱللَّهُ﴾ وتتركون الإخلاص لله الذي..

﴿خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾..

﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾ عاليـًا مرتفعـًا، وأوقِدوا فيها النار..

﴿فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧﴾ جزاءً علىٰ ما فعل، من تكسير آلهتهم..

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ ليقتلوه أشنع قِتلة..

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٩٨﴾ [الصافات:٩٤-٩٨] ردَّ اللهُ كيدَهم في نحورهم، وجعل النَّار علىٰ إبراهيم بردًا وسلامـًا.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾ [الصافات:٩٩-١٠٧]

﴿وَقَالَ﴾ ولما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، قال..

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ مهاجر إليه، قاصد إلىٰ الأرض المباركة، أرض الشام..

﴿سَيَهۡدِينِ ۝٩٩﴾ يدلني إلىٰ ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي.. وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾ [مريم]..

﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾ ولدًا يكون..

﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ وذلك عندما أَيِسَ من قومه، ولم ير فيهم خيرًا، دعا اللهَ أن يهب له غلامـًا صالحـًا، ينفع اللهُ به في حياته، وبعد مماته، فاستجاب الله له، وقال..

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ﴾ وهذا إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلا شك، فإنَّه ذُكِر بعده البشارة بإسحاق.. ولأن الله تعالىٰ قال في بشراه بإسحاق ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فدل علىٰ أن إسحاق غيرُ الذبيح..

﴿حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ وَصَفَ اللهُ إسماعيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالحلم، وهو يتضمن: الصبرَ، وحسنَ الخلق، وسعةَ الصدر، والعفوَ عمَّن جنىٰ..

﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلامُ..

﴿مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: أدرك أن يسعىٰ معه، وبلغ سِنًّا يكون -في الغالب- أحبَ ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، فـ..

﴿قَالَ﴾ له إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ قد رأيت في النوم والرؤيا أنَّ اللهَ يأمرني بذبحك.. ورؤيا الأنبياء وحي..

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإنَّ أَمْرَ الله تعالىٰ لا بد من تنفيذه..

﴿قَالَ﴾ إسماعيلُ صابرًا محتسبًا مرضيًا لربِّه، وبارًا بوالده..

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ امض لِمَا أَمَرَكَ اللهُ..

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ أخبر أباه أنَّه موطن نفسه علىٰ الصبر، وقَرَنَ ذلك بمشيئة الله تعالىٰ؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالىٰ..

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازمًا بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالًا لأمر ربه، وخوفًا من عقابه.. والابن قد وطَّن نفسه علىٰ الصبر، **وهانت عليه** في طاعة ربه، ورضا والده..

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ تلَّ إبراهيمُ إسماعيلَ علىٰ جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكبَّ لوجهه؛ لئلا ينظر وقتَ الذبح إلىٰ وجهه..

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش..

﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قد فَعلتَ ما أُمِرت به، فإنك وطَّنت نفسك علىٰ ذلك، وفعلت كلَّ سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين علىٰ حلقه..

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥﴾ في عبادتنا، المقدِّمين رضانا علىٰ شهوات أنفسهم..

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ الواضح، الذي تبيَّن به صفاءُ إبراهيم، وكمالُ محبته لربه وخُلَّتُه.. فإنَّ إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا وهبه الله لإبراهيم أحبه حبًا شديدًا، وهو خليل الرحمن، والخُلَّة أعلىٰ أنواع المحبة، وهو مَنصِب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميعُ أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالىٰ أن يُصفِّي وُدَّه ويختبر خُلَّته، فأمره أن يذبح من زاحم حبَّه حبَّ ربه، فلما قدَّم حبَّ الله، وآثره علىٰ هواه، وعَزَم علىٰ ذبحه، وزال ما في القلب من المُزاحم، بقي الذبحُ لا فائدة فيه.. فلهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾..

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات:٩٩-١٠٧] أي: صار بدلُه ذِبحٌ من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم.. فكان عظيماً: **من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلىٰ يوم القيامة.**

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾ [الصافات:١٠٨-١١١]

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨﴾ وأبقينا عليه ثناءً صادقاً في الآخِرين، كما كان في الأوَّلين.. فكلُّ وقت بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنَّه فيه محبوبٌ معظَّم مُثنىٰ عليه..

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ تحيته عليه، كقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩]..

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرجِّ عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة، والثناء الحسن..

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾ [الصافات:١٠٨-١١١] بما أمر الله بالإيمان به، الذين بَلَغ بهم الإيمانُ إلىٰ درجة اليقين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات:١١٢-١١٣]

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب.. فبُشِّر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين.. فهي بشارات متعددة..

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما.. فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق..

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات:١١٢-١١٣] منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم، الذي تبيَّن ظلمُه بكفره وشركه.. ولعلَّ هذا من باب دفع الإيهام، فإنَّه لمَّا قال: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ اقتضىٰ ذلك البركةَ في ذريتهما، وأنَّ من تمام البركة، أن تكون الذرية كلُّهم محسنين، فأخبر الله تعالىٰ أنَّ منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات:١١٤-١٢٢]

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ يذكر تعالىٰ مِنَّتهُ علىٰ عبديه ورسوليه: موسىٰ وهارون ابني عمران، بـ: النبوة، والرسالة، والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ..

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ ونجاتِهما وقومِهما من عدوِّهما فرعون..

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ ونصرِهما عليه، حتىٰ أغرقه الله وهم ينظرون..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ وإنزالِ الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيلُ كلِّ شيء..

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ وأنَّ الله هداهما الصراطَ المستقيم، بـ: أن شرَعَ لهما دينـًا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلىٰ الله، ومَنَّ عليهما بسلوكه..

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أبقىٰ عليهما ثناءً حسنـًا، وتحيةً في الآخِرين، ومن باب أولىٰ وأحرىٰ في الأوَّلين..

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات:١١٤-١٢٢]..

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات:١٢٣-١٢٦]

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ يمدح تعالىٰ عبدَه ورسولَه إلياس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بـ: النبوة، والرسالة، والدعوة إلىٰ الله..

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ وأنه أَمرَ قومه بالتقوىٰ وعبادة الله وحده..

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات:١٢٣-١٢٦] ونهاهم عن عبادتهم صنمـًا لهم يقال له (بعل) وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة.. وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه، إلىٰ عبادة صنم لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق.. بل لا يأكل ولا يتكلم؟! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغي؟!

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات:١٢٧-١٣٢]

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له.. قال الله متوعدًا لهم..

﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ يوم القيامة في العذاب.. ولم يَذكُر لهم عقوبةً دنيوية..

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ الذين أخلصهم اللهُ، ومنَّ عليهم باتِّبَاع نبيهم.. فإنَّهم غيرُ محضَرين في العذاب، وإنما لهم من اللهِ جزيلُ الثواب..

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ علىٰ إلياس..

﴿فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ ثناءً حسناً..

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ تحية من الله، ومن عباده عليه..

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات:١٢٧-١٣٢] فأثنىٰ الله عليه كما أثنىٰ علىٰ إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٣-١٣٨]

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ وهذا ثناء منه تعالىٰ علىٰ عبده ورسوله (لوط) بالنبوة والرسالة، ودعوته إلىٰ الله قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة..

﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ فلما لم ينتهوا نجّاه الله وأهله أجمعين، فَسَرُوا ليلًا فنجوا..

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ الباقين المعذَّبين، وهي زوجة (لوط)، لم تكن علىٰ دينه..

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ بأن قلبْنا عليهم ديارَهم ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢] حتىٰ همدوا وخمدوا..

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ علىٰ ديار قوم لوط..

﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ في هذه الأوقات، يكثر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية..

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٣-١٣٨] الآيات والعِبَر، وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟!

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٨]

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ وهذا ثناء منه تعالىٰ، علىٰ عبده ورسوله (يونس بن مَتَّىٰ)، كما أثنىٰ علىٰ إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلىٰ الله.. وذَكَر تعالىٰ عنه أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال..

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ من رَبِّه مغاضِباً له، ظَآنّاً أنه لا يُقَدِّرُ عليه ويحبسه في بطن الحوت.. ولم يذكر اللهُ ما غَاضَبَ عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه؛ لعدم فائدتنا بذكره.. وإنما فائدتنا بما ذُكِّرنا عنه أنه أذنب وعَاقَبَهُ اللهُ مع كونه من الرسل الكرام، وأنَّه نجَّاه بعد ذلك وأزال عنه الملام، وقيَّض له ما هو سببَ صلاحه.. فلمَّا أَبَقَ لَجَأَ..

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ بالركاب والأمتعة.. فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلىٰ إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا علىٰ أنَّ من قرع وغلب أُلقي في البحر، عدلًا من أهل السفينة.. وإذا أراد اللهُ أمرًا هيَّأَ أسبابه..

﴿فَسَاهَمَ﴾ فلما اقترعوا أصابت القرعةُ يونسَ..

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ المغلوبين.. فأُلقِيَ في البحر..

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ﴾ وقت التقامه..

﴿مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه..

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ في وقته السابق، بكثرة عبادته لربه، وتسبيحه، وتحميده.. وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]..

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله نجَّاه الله تعالىٰ، وكذلك ينجي اللهُ المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد..

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بأن قذفه الحوتُ من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كلِّ أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال..

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ قد سقُم ومرِض بسبب حبسه في بطن الحوت، حتىٰ صار مثلَ الفرخ الممعوط من البيضة..

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ تظله بظلها الظليل؛ لأنها بادرة [1] باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به، وبِرِّه..

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ ثم لَطَف به لطفاً آخر، وامْتَنَّ عليه مِنَّةً عظمىٰ، وهو أنه أرسله..

﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ من الناس..

﴿أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ عنها.. والمعنىٰ: أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا، فدعاهم إلىٰ الله تعالىٰ..

﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم..

﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٨] بأن صَرَفَ اللهُ عنهم العذابَ بعدما انعقدت أسبابه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الصافات:١٤٩-١٥٧]

يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

(١) البادرة من النبات: أول ما يتفطَّر منه.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ اسأل المشركين بالله غيرَه، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله.. فجمعوا بين: الشرك بالله، ووصفه بما لا يليق بجلاله..

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝١٤٩﴾ هذه قسمة ضيزىٰ، **وقول جائر: من جهة**: جعلهم الولد لله تعالىٰ.. **ومن جهة**: جعلهم أردأ القِسمين وأخسهما له، وهو البنات، التي لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال في الآية الأخرىٰ ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧].. **ومن جهة** جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك.. قال تعالىٰ في بيان كَذِبهم..

﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾ خَلقَهُم؟ أي: ليس الأمرُ كذلك، فإنَّهم ما شَهِدُوا خَلقَهُم، فدلَّ علىٰ أنَّهم قالوا هذا القولَ بلا علم، بل افتراءً علىٰ الله، ولهذا قال..

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾ أي: كذبهم الواضح..

﴿لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾..

﴿أَصۡطَفَى﴾ اختار..

﴿ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝١٥٤﴾ هذا الحكمَ الجائرَ..

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥﴾ وتميِّزون هذا القول الباطل الجائر، فإنَّكم لو تذكرتم لم تقولوا هذا القول..

﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦﴾ أي: حجة ظاهرة علىٰ قولكم من كتاب أو رسول.. وكل هذا غير واقع، ولهذا قال..

﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾ [الصافات:١٤٩-١٥٧] فإن من يقول قولًا لا يقيم عليه حجةً شرعية فإنه كاذب متعمد، أو قائل علىٰ الله بلا علم.

﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠﴾ [الصافات:١٥٨-١٦٠]

﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾ جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجِنَّة نسبـًا.. حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم (سروات الجن)[1]..

---

(١) سادتهم ورؤساؤهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم، عبادًا أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا كذلك..

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الملك العظيم، الكامل الحليم..

﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ عما يصفه به المشركون من كلِّ وصف أوجبه كفرهم وشركهم..

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات:١٥٨-١٦٠] فإنَّه لم ينزه نفسه عمَّا وصفوه به؛ لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلَصين.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات:١٦٢-١٦٣]

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون..

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ ومن عبدتموه مع الله..

﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدًا..

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات:١٦٢-١٦٣] إلا من قضىٰ اللهُ أنَّه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي.. **والمقصود من هذا:** بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالىٰ.. أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات:١٦٤-١٦٦]

هذا فيه **بيان براءة الملائكة** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ **عما قاله فيهم المشركون**، وأنَّهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين..

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ فما منهم من أحد إلا له مقام وتدبير قد أَمَره الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء..

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ في طاعة الله وخدمته..

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات:١٦٤-١٦٦] لله عما لا يليق به.. فكيف -مع هذا- يصلحون أن يكونوا شركاء لله؟! تعالىٰ الله!

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات:١٦٧-١٨٢]

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧﴾ يخبر تعالىٰ أنَّ هؤلاء المشركين يظهرون التمني، ويقولون..

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨﴾ لو جاءنا من الذِكر والكتب ما جاء الأولين..

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩﴾ لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين علىٰ الحقيقة.. وهم كَذَبة في ذلك..

﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ﴾ فقد جاءهم أفضلُ الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون علىٰ الحق..

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾ العذاب حين يقع بهم..

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ ولا يحسبوا أيضـًا أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمةُ الله التي لا مردَّ لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين..

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢﴾ أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم، نصرًا عزيزًا، يتمكنون فيه من إقامة دينهم..

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ **وهذه بشارة عظيمة** لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور..

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤﴾ ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا، ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يَحِلُّ بهم من العذاب، ولهذا قال..

﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥﴾ مَن يَحِل به النَّكال، فإنَّه سيحل بهم..

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦﴾..

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ نَزَلَ عليهم، وقريباً منهم..

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧﴾ لأنَّه صباح الشر والعقوبة، والاستئصال..

﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٨﴾ ثم كرر الأمر بالتَّولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب..

﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩﴾.. ولما ذَكَر في هذه السورة كثيرًا من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزَّه نَفسَه عنها فقال..

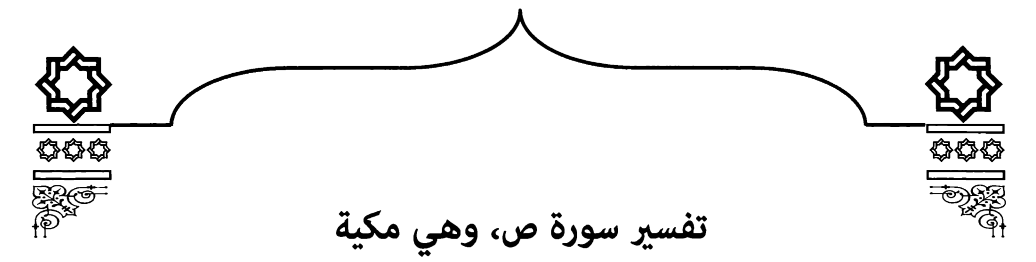
﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ تنزه وتعالىٰ..

﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ الَّذي عزَّ فقهر كلَّ شيء، واعتز عن كلِّ سوء يصفونه به..

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامةِ ما وَصَفُوا به فاطرَ الأرضِ والسماوات..

﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات:١٦٧-١٨٢] الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربَّىٰ بها العالمين، وأدرَّ عليهم فيها النِّعم، وصَرَف عنهم بها النِّقَم، ودبَّرهم تعالىٰ في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلُّها لله تعالىٰ، فهو المقدَّس عن النَّقص، المحمود بكلِّ كمال، المحبوب المعظَّم، ورسله سالمون مسلَّم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة.. وأعداؤه لهم الهلاك والعَطَب في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة (الصافات)



تفسير سورة ص، وهي مكية

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:١-٥]

هذا بيانٌ من الله تعالىٰ لحال القرآن، وحال المكذِّبين به مَعَه ومع من جاء به، فقال..

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ ذِي القَدرِ العظيم والشرف، المُذَكِّرِ للعباد: كلَّ ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.. **وهنا لا يحتاج إلىٰ ذكر المقسم عليه**، فإنَّ حقيقة الأمر أنَّ **المقسم به وعليه شيء واحد**، وهو هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، عُلِم ضرورةُ العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تَلقِّيه بالإيمان والتصديق، والإقبال علىٰ استخراج ما يُتَذَكَّر به منه.. فهدىٰ الله من هدىٰ لهذا، وأبىٰ الكافرون..

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ به وبمن أنزله، وصار معهم..

﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به..

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذِّبة بالرسل..

﴿فَنَادَوا۟﴾ وأنهم حين جاءهم الهلاك نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن..

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم.. فَليَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا علىٰ عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم..

﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ عَجَب هؤلاء المكذِّبون في أمرٍ ليس مَحَلِّ عجب..

﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ليتمكنوا من التلقي عنه.. وليعرفوه حقَّ المعرفة.. ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه.. فهذا مما يوجب الشكر عليهم، وتمام الانقياد له.. ولكنهم عكسوا القضية، فتعجَّبوا تعجب إنكار..

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وَقَالُوا من كفرهم وظلمهم..

﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ وذنبه -عندهم- أنه..

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ كيف ينهىٰ عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده..

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به..

﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:١-٥] يُقضىٰ منه العجب [(١)]، لبطلانه وفساده.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص:٦-٨]

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم.. محرِّضين قومهم علىٰ التمسك بما هم عليه من الشرك..

﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلىٰ عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها، صاد..

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها..

﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ يُقصد.. أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا علىٰ السفهاء، فإنَّ من دعا إلىٰ قول حق أو غير حق، لا يَرَدُّ قولُه بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يُرَدُّ بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الحجج والبراهين.. وهم قصدهم أنَّ محمدًا ما دعاكم إلىٰ ما دعاكم إلا ليرأس فيكم، ويكون معظَّمـًا عندكم، متبوعـًا..

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ القولِ الَّذي قاله، والدِّين الذي دعا إليه..

---

(١) يعني: أغلبه يسبب العجب.. كما تقول: يقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهِ في الدَّرْسِ.

﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه.. فامضوا علىٰ الذي مضىٰ عليه آباؤكم، فإنَّه الحق..

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ وما هذا الذي دعا إليه محمدٌ إلا اختلاق اختلقه، وكَذِبٌ افتراه.. وهذه أيضـًا شبهة من جنس شبهتهم الأولىٰ، حيث ردوا الحقَّ بما ليس بحجةٍ لردِّ أدنىٰ قول، وهو أنَّه قولٌ مخالف لِمَا عليه آباؤهم الضالون، فأين في هذا ما يدل علىٰ بطلانه؟!

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ما الذي فضَّله علينا، حتىٰ ينزل الذِّكر عليه من دوننا، ويخصه اللهُ به؟!.. وهذه أيضا شبهة.. أين البرهان فيها علىٰ رد ما قاله؟!.. وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف، يَمُنُّ الله عليهم برسالته، ويأمرهم بدعوة الخلق إلىٰ الله..

﴿بَل﴾ لمَّا كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لردِّ ما جاء به الرسول، أخبر تعالىٰ من أين صدرت، وأنهم..

﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ ليس عندهم عِلمٌ ولا بيِّنة.. فلما وقعوا في الشك وارتضوا به، وجاءهم الحقُّ الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم علىٰ شكِّهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحقِّ، لا عن بيِّنَة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الائتفاك منهم.. ومن المعلوم أن من هو بهذه الصفة يتكلم عن شكٍّ وعناد، إنَّ قوله غير مقبول، ولا قادح أدنىٰ قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب فقال..

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص:٦-٨] قالوا هذه الأقوال وتجرأوا عليها حيث كانوا ممتعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه لم يتجرأوا.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ [ص:٩-١١]

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ فيعطون منها من شاءوا، ويمنعون منها من شاءوا، حيث قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥].. أي: هذا فضله تعالىٰ ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتىٰ يتحجروا علىٰ الله..

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بحيث يكونون قادرين علىٰ ما يريدون..

﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠﴾ الموصلة لهم إلىٰ السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله، فكيف يتكلمون وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟! أم قصدهم التحزب والتجند والتعاون علىٰ نصر الباطل وخذلان الحق؟! وهو الواقع، فإنَّ هذا المقصود لا يتمُّ لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم، ولهذا قال..

﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١﴾ [ص:٩-١١]..

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص:١٢-١٦]

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ يحذِّرهم تعالىٰ أن يَفعل بهم ما فَعل بالأمم مِن قَبلهم، الذين كانوا أعظمَ قوةً منهم، وتحزُّباً علىٰ الباطل..

﴿قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ﴾ قومُ هود..

﴿وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢﴾ أي: الجنود العظيمة، والقوة الهائلة..

﴿وَثَمُودُ﴾ قومُ صالح..

﴿وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾ أي: الأشجار والبساتين الملتفة، وهم قوم شعيب..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعَدَدِهمْ وعُدَدِهمْ علىٰ ردِّ الحق، فلم تغن عنهم شيئاً..

﴿إِن كُلٌّ﴾ من هؤلاء..

﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم..

﴿عِقَابِ ۝١٤﴾ الله..

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم..

﴿إِلَّا﴾ أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك.. فلينتظروا..

﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾ من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم إن أقاموا علىٰ ما هم عليه..

﴿وَقَالُواْ﴾ قال هؤلاء المكذِّبون من جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب..

﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قِسطَنَا، وما قُسِم لنا من العذاب عاجلًا..

﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص:١٢-١٦] ولَجُّوا في هذا القول.. وزعموا أنك يا محمد إن كنت صادقـًا فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.. فقال لرسوله..

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص:١٧-٢٠]

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل.. فإنَّ قولهم لا يضر الحقَّ شيئـًا، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم..

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ لمَّا أمر اللهُ رسولَه بالصبر علىٰ قومه، أَمَره أن يستعين علىٰ الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرىٰ ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ [طه:١٣٠].. ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ..

﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أي: القوة العظيمة علىٰ عبادة الله تعالىٰ، في بدنه وقلبه..

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ رجَّاع إلىٰ الله في جميع الأمور بالإنابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء، رجاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع والتوبة النصوح..

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾ ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه، تسبح معه بحمد ربِّها..

﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ أوَّلُ النَّهار وآخره..

﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ وسخر ﴿ ٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ معه، مجموعة..

﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير..

﴿لَّهُۥٓ﴾ لله تعالىٰ..

﴿أَوَّابٌ ١٩﴾ امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].. فهذه مِنَّةُ اللهِ عليه بالعبادة.. ثم ذَكَر منته عليه بالمُلك العظيم فقال..

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوَّيناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرةِ العَدَد والعُدَدِ التي بها قوَّىٰ اللهُ مُلكه.. ثم ذَكَر منته عليه بالعِلم فقال..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوة والعلم العظيم..

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾ [ص:١٧-٢٠] أي: الخصومات بين الناس.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ٢٦﴾ [ص:٢١-٢٦]

لمَّا ذكر تعالىٰ أنه آتىٰ نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفًا بذلك مقصودًا.. ذَكَر تعالىٰ نبأ خَصمين اختصما عنده في قضية، جعلهما اللهُ فتنةً لداود، وموعظةً لخلل ارتكبه.. فتابَ اللهُ عليه، وغفر له.. وقيَّض له هذه القضية.. فقال لنبيه محمد ﷺ..

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فإنَّه نبأ عجيب..

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ علىٰ داود..

﴿ٱلۡمِحۡرَابَ ۝٢١﴾ محل عبادته، من غير إذن ولا استئذان..

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ لم يدخلوا عليه مع باب، فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، فـ..

﴿قَالُواْ﴾ له..

﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ نحن..

﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ بالظلم..

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ بالعدل، ولا تَمَل مع أحدِنا..

﴿وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢﴾ **والمقصود من هذا: أنَّ الخصمين قد عُرِف أنَّ قصدهما الحق** الواضح الصرف، وإذا كان ذلك فسيقصان عليه نبأهما بالحق.. فلم يشمئز نبيُّ اللهِ داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.. فقال أحدهما..

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ نصٌّ علىٰ الأخوة في الدِّين أو النَّسب أو الصَّداقة؛ لاقتضائها عدمُ البغي، وأنَّ **بغيه الصادر منه أعظم** من غيره..

﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أي: زوجة.. وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله..

﴿وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فطمع فيها..

﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ دعها لي، وخلها في كفالتي..

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ۝٢٣﴾ غلبني في القول، فلم يزل بي حتىٰ أدركها أو كاد.. فقال داود لما سمع كلامه.. -ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما أنَّ هذا هو الواقع، فلهذا لم يُحتج أن يتكلَّم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: (لم حكم داود، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ؟)-..

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال..

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ لأنَّ الظلم من صفة النفوس..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّ ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم..

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ كما قال تعالىٰ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]..

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ حين حَكَم بينهما..

﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ اختبرناه ودبَّرنا عليه هذه القضية ليتنبَّه..

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لِمَا صَدَر منه..

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجدًا..

﴿وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ لله تعالىٰ بالتوبة النصوح والعبادة..

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ الذي صدر منه.. وهذا الذنب الذي صدر من داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلىٰ ذكره، فالتعرض له من باب التكلف.. وإنما الفائدة: ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنَّه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.. وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال..

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ منزلة عالية، وقربةً منا..

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: مرجع..

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تُنفِذ فيها القضايا الدينية والدنيوية..

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: العدل.. **وهذا لا يتمكن منه إلا**: بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة علىٰ تنفيذ الحق..

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فتميل مع أحدٍ؛ لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر..

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوىٰ..

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خصوصـًا المتعمدين منهم..

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢١-٢٦] فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوىٰ الفاتن.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٧-٢٩]

يخبر تعالىٰ عن تمام **حكمته في خلقه** السماوات والأرض..

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ لم يخلقهما باطلًا، أي: عبثًا ولَعِبًا من غير فائدة ولا مصلحة.. وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليَعلم العبادُ كمالَ عِلمه وقدرته وسعةِ سلطانه، وأنه تعالىٰ وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر..

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله..

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ فإنها التي تأخذ الحقَّ منهم، وتبلغ منهم كلَّ مبلغ.. ولا يظنُّ الجاهلُ بحكمةِ اللهِ أن يُسوِّي اللهُ بينهما في حكمه، ولهذا قال..

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا..

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدىً من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكلُّ حُكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية علىٰ كل مطلوب، ما كان به أجلَّ كتاب طَرَق العالَمَ منذ أنشأه الله..

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناسُ آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحِكَمِهَا.. فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره.. **وهذا يدل علىٰ**: الحث علىٰ تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة علىٰ التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود..

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٧-٢٩] أي: أولو العقول الصحيحة.. يتذكرون بتدبرهم لها كلَّ علم ومطلوب.. فدلَّ هذا علىٰ أنه بحسب لُبِّ الإنسان وعقله يحصل له التَّذَكُرُ والانتفاعُ بهذا الكتاب.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص:٣٠-٣٣]

لمَّا أثنىٰ تعالىٰ علىٰ داود، وذَكَر ما جَرىٰ له ومِنه.. أثنىٰ علىٰ ابنه سليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ فقال..

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ﴾ أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه..

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو..

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ رجَّاع إلىٰ الله في جميع أحواله، بالتأله، والإنابة، والمحبة، والذكر، والدعاء، والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها علىٰ كل شيء..

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ ولهذا، لمَّا عُرِضَت عليه الخَيل **الجياد السبق الصافنات**.. أي: التي مِن وَصفِها **الصُفُون، وهو رفع إحدىٰ قوائمها عند الوقوف**، وكان لها منظر رائق، وجمال معجب، خصوصـًا للمحتاج إليها، كالملوك..

﴿فَقَالَ﴾ ندمـًا علىٰ ما مضىٰ منه، وتقرُّبـًا إلىٰ الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديمـًا لحبِّ الله علىٰ حبِّ غيره..

﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ وضمن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ معنىٰ (آثرت) أي: آثرت حبَّ الخير، الذي هو المال عمومـًا، وفي هذا الموضع المراد الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾..

﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ فما زالت تُعرَض عليه **حتىٰ غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء** وذِكره..

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّۖ﴾ فردوها..

﴿فَطَفِقَ﴾ فيها..

﴿مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص:٣٠-٣٣] جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ

رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص:٣٤-٤٠]

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه، بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية..

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ أي: شيطانـًا قضىٰ اللهُ وقدَّر أن يجلس علىٰ كرسي مُلكه، ويتصرف في المُلك في مدةِ فتنة سليمان..

﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ سليمان إلىٰ الله تعالىٰ وتاب.. فـ..

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ فاستجاب الله له وغفر له، وردَّ عليه مُلكَه..

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ وزاده مُلكـًا لم يحصل لأحدٍ من بعده، وهو: تسخير الشياطين له يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر يستخرجون الدرَّ والحليَّ، ومن عصاه منهم قَرَنَه في الأصفاد وأوثقه.. وقلنا له..

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ فقَرَّ بِه عَينـًا..

﴿فَٱمْنُنْ﴾ علىٰ من شئت..

﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ من شئت..

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ لا حرج عليك في ذلك ولا حساب؛ لِعلمِه تعالىٰ بِكمال عدله، وحسن أحكامه.. ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم.. ولهذا قال..

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص:٣٤-٤٠] هو من المقرَّبين عند الله، المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل في ما تبيَّن لنا من الفوائد والحِكَم في قصة (داود) و(سليمان) عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

١- فمنها: أن الله تعالىٰ يقصُّ علىٰ نبيِّه محمدٍ ﷺ أخبارَ من قَبله؛ **ليثبِّت فؤادَه**، وتطمئن نفسُه.. ويذكر له من عباداتهم وشدةِ صبرهم وإنابتهم ما **يشوِّقه إلىٰ منافستهم**، والتقرب إلىٰ الله الذي تقرَّبوا له.. **والصبر علىٰ أذىٰ قومه**؛ ولهذا -في هذا الموضع- لمَّا ذَكَر اللهُ ما ذَكَر من أذيَّة قومِهِ وكلامهم فيه وفي ما جاء به، أمره بالصبر، وأن يَذكر عَبدَه (داود) فيتسلىٰ به.

٢- ومنها: أن الله تعالىٰ يمدح ويحب القوة في طاعته، **قوة القلب والبدن**، فإنه **يحصل منها من آثار الطاعة** وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة.. وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها.. **وعدم الركون إلىٰ الكسل** والبطالة المخلة بالقوىٰ المضعفة للنفس.

٣- ومنها: أن **الرجوع إلىٰ الله في جميع الأمور** من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه.. كما أثنىٰ الله علىٰ (داود) و(سليمان) بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

٤- ومنها: ما أكرم الله به نبيه (داود) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من **حسن الصوت العظيم**، الذي جعل اللهُ بسببه الجبالَ الصُمَّ، والطيور البُهم، يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

٥- ومنها: **أن من أكبر نعم الله علىٰ عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحُكمَ والفَصل بين الناس**.. كما امتن الله به علىٰ عبده (داود) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٦- ومنها: **اعتناء الله تعالىٰ بأنبيائه وأصفيائه** عندما يقع منهم بعضُ الخلل، بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلىٰ أكمل من حالتهم الأولىٰ، كما جرىٰ لـ (داود) و(سليمان) عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

٧- ومنها: أن **الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون** من الخطأ فيما يبلِّغون عن الله تعالىٰ؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعضُ مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكنَّ اللهَ يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

٨- ومنها: أن (داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان في **أغلب أحواله ملازمًا محرابه** لخدمةِ ربه.. ولهذا تسوَّر الخصمانُ عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، **فلم يجعل كلَّ وقته للناس،** مع كثرة ما يَرِد عليه من الأحكام، بل جَعَل له وقتـًا يخلو فيه بربه، وتَقَر عينُه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

٩- ومنها: أنه ينبغي **استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم**.. فإن الخَصمَين لما دخلا على (داود) في حالةٍ غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غيرَ لائق بالحال.

١٠- ومنها: أنه **لا يمنع الحاكمَ من الحُكم بالحقِّ سوءُ أدب الخَصم** وفِعلِه ما لا ينبغي.

١١- ومنها: **كمالُ حلم (داود)** عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّه ما غَضِبَ عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو المَلِك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

١٢- ومنها: **جواز قول المظلوم لمن ظلمه** (أنت ظلمتني)، أو (يا ظالم) ونحو ذلك، أو (باغ عليَّ)؛ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٣- ومنها: **أن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبيرَ القدر، جليلَ العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب،** ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر.. فإنَّ الخصمين نصحا (داود) فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصِرف.

١٤- ومنها: **أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي بينهم،** وبَغْي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأنَّ هذا من أقل شيء في الناس.

١٥- ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصـًا **الصلاة، من مكفرات الذنوب،** فإنَّ الله رتَّب مغفرة ذنب (داود) على استغفاره وسجوده.

١٦- ومنها: إكرام الله لعبده (داود) و(سليمان) بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يُظن أنَّ ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلَصين، أنه **إذا غفر لهم وأزال أَثَرَ ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى** ما يقع

في **قلوب الخلق**، فإنَّهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولُهم عن درجتهم الأولىٰ، فأزال الله تعالىٰ هذه الآثار، وما ذاك بعزيز علىٰ الكريم الغفار.

١٧- ومنها: أن **الحكم بين الناس مرتبة دينية**، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوىٰ.. فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي.. فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

١٨- ومنها: أنه **ينبغي للحاكم أن يحذر الهوىٰ**، ويجعله منه علىٰ بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كلَّ محبة أو بغض لأحد الخصمين.

١٩- ومنها: أن **(سليمان)** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **من فضائل (داود)**، ومن مِنَن الله عليه، حيث وَهَبه له، وأنَّ **من أكبر نعم الله علىٰ عبده أن يهب له ولدًا صالحًا**، فإن كان عالمـًا كان نورا علىٰ نور.

٢٠- ومنها: **ثناء الله تعالىٰ علىٰ (سليمان)**، ومدحُه في قوله ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

٢١- ومنها: كثرةُ خير الله وبرُّه بعبيده: أن **يمنَّ عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها**، وهو المتفضل الوهاب.

٢٢- ومنها: تقديم (سليمان) محبة الله تعالىٰ علىٰ محبة كل شيء.

٢٣- ومنها: **أنَّ كلَّ ما أشغل العبدَ عن الله، فإنه مشئوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه** وليُقْبِل علىٰ ما هو أنفع له.

٢٤- ومنها: القاعدة المشهورة **(من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه)**.. فـ (سليمان) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديمـًا لمحبة الله، فعوَّضه الله خيرًا من ذلك، بأن سخَّر له الريحَ الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلىٰ حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين أهل الاقتدار، علىٰ الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

٢٥- ومنها: **أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد (سليمان)** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٢٦- ومنها: أن (سليمان) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **كان مَلِكـًا نبيـًا**، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل.. بخلاف النبيِّ العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص:٤١-٤٢]

﴿وَٱذْكُرْ﴾ في هذا الكتاب ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾..

﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بأحسن الذِّكر، وأثن عليه بأحسن الثناء..

﴿إِذْ﴾ حين أصابه الضُرُّ، فصبر علىٰ ضُرِّه، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه.. فـ..

﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ داعيـًا، وإليه لا إلىٰ غيره شاكيـًا، فقال: رب..

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ بأمر مشق متعب معذِّب.. وكان سلَّط علىٰ جسده، فنفخ فيه حتىٰ تَقَرَّح، ثم تقيَّح بعد ذلك واشتدَّ به الأمرُ، وكذلك هلك أهلُه ومالُه.. فقيل له..

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص:٤١-٤٢] اضرب الأرضَ بها.. لينبع لك منها عينٌ تغتسل منها وتشرب.. فيذهب عنك الضرُّ والأذىٰ.. ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالىٰ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤٣-٤٤]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ قيل: إن الله تعالىٰ أحياهم له..

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالًا عظيمـًا..

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر، فأثبناه من رحمتنا ثوابـًا عاجلًا وآجلًا..

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ ولِيَتَذَكَّر أولو العقول بحالة (أيوب) ويعتبروا، فيعلموا أنَّ من صبر علىٰ الضُّر أنَّ الله تعالىٰ يثيبه ثوابـًا عاجلًا وآجلًا، ويستجيب دعاءه إذا دعاه..

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حزمةَ شماريخ..

﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ قال المفسرون: وكان في مرضه وضره قد غضب علىٰ زوجته في بعض الأمور، فحلف لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله وكانت امرأته صالحةً محسنة إليه، رحمها اللهُ ورحمه، فأفتاه أن يضربها بضِغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه..

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾ أي: أيوب..

﴿صَابِرًا﴾ ابتليناه بالضُّر العظيم، فصبر لوجه الله تعالىٰ..

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ الذي كمَّل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء..

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤٣-٤٤] كثيرُ الرجوع إلىٰ الله في مطالبه الدينية والدنيوية.. كثيرُ الذِّكر لربِّه، والدعاء والمحبة والتأله.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٥-٤٧]

﴿وَٱذْكُرْ﴾ ذكرًا حسناً..

﴿عِبَٰدَنَآ﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة

﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل..

﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ وابنه (إِسْحَاقَ)، وَابن ابنه ﴿وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ أي: القوة علىٰ عبادة الله تعالىٰ..

﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: البصيرة في دين الله.. فوصفهم بالعِلم النافع، والعمل الصالح الكثير..

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي..

﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ جعلنا (ذكرىٰ الدار الآخرة) في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم (ذكرىٰ الدار) يتذكَّرُ بأحوالهم المُتذكِّر، ويعتبر بهم المعتَبِر، ويُذكَرون بأحسن الذِّكر..

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفاهم اللهُ من صفوة خلقه..

﴿ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٥-٤٧] الذين لهم كلُّ خُلقٍ كريم، وعملٍ مستقيم.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص:٤٨]

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذِّكر، وأثن عليهم أحسن الثناء..

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص:٤٨] فإنَّ كلًا منهم من الأخيار الذين اختارهم اللهُ من الخَلق، واختار لهم أكملَ الأحوال من الأعمال والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السديدة.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص:٤٩-٥٤]

﴿هَٰذَا﴾ أي: ذِكر هؤلاء الأنبياء الصفوة، وذِكر أوصافهم..

﴿ذِكْرٌ ۚ﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلىٰ الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويُعرف ما منَّ الله عليهم به من الأوصاف الزَّكية، وما نَشر لهم من الثناء بين البرية.. فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير.. ومن أنواع الذِّكر، ذِكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال..

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة..

﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ لمآبًا حسنًا، ومرجعًا مستحسنًا.. ثم فسَّره وفصَّله فقال..

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة، لا يبغي صاحبُها بدلًا منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرَجين..

﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ مفتحة لأجلهم أبوابَ منازلها ومساكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون.. وهذا دليل أيضا علىٰ **الأمان التام**، وأنه ليس في جنات عدن، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها..

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ علىٰ الأرائك المزينات، والمجالس المزخرفات..

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ يأمرون خدامهم أن يأتوا..

﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١﴾ من كل ما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم.. وهذا يدل علىٰ: كمال النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة، وتمام اللذة..

﴿۞ وَعِندَهُمۡ﴾ من أزواجهم الحور العين..

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ علىٰ أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن.. لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلًا ولا عنه عِوضـًا..

﴿أَتۡرَابٌ ۝٥٢﴾ علىٰ سِنٍّ واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه..

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المتقون..

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣﴾ جزاء علىٰ أعمالكم الصالحة..

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا﴾ الَّذي أوردناه علىٰ أهل دار النعيم..

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [ص:٤٩-٥٤] أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآنات.. وليس هذا بعظيم علىٰ الرب الكريم، الرءوف الرحيم، البَرِّ الجواد الواسع الغني الحميد اللطيف الرحمن الملك الديان الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تُحصىٰ نِعَمُه، ولا يُحاط ببعض بِرِّه.

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١﴾ [ص:٥٥-٦١]

﴿هَٰذَاۚ﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه..

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ المتجاوزين للحدِّ في الكفر والمعاصي..

﴿لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥﴾ لشر مَرجع ومُنقَلب.. ثم فصَّله فقال..

﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جَمَع فيها كلَّ عذاب، واشتدَّ حرُّها، وانتهىٰ قرها..

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل..

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ المعد لهم مسكناً ومستقرًا..

﴿هَٰذَا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والخزي والفضيحة والنكال..

﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ ماء حار، قد اشتد حره، يشربونه فيَقَطعُ أمعاءهم..

﴿وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قيح وصديد، مر المذاق، كريه الرائحة..

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من نوعه..

﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.. وعند تواردهم علىٰ النار يشتم بعضهم بعضا، ويقول بعضهم لبعض..

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ النار..

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟﴾ أي: الفوج المقبِل المقتحم..

﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: العذاب..

﴿لَنَا ۖ﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم، وتسببكم..

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.. ثم دَعُوا علىٰ المغوين لهم، فـ..

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص:٥٥-٦١] وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص:٦٢-٦٤]

﴿وَقَالُوا۟﴾ وهم في النار..

﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ كنا نزعم أنهم من الأشرار المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تَفقِدُهم أهلُ النار -قبحهم الله- هل يرونهم في النار؟!

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ **عدمُ رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا** غالطون في عَدِّنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالىٰ لأهل النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون:١٠٩-١١٠].. **والأمر الثاني**: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذَّبون، ولكن تجاوَزَتهم أبصارُنا.. فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار تمكنت من قلوبهم، وصارت صبغةً لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.. ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موَّهوا في الدنيا موَّهوا حتىٰ في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩].. قال تعالىٰ مؤكدًا ما أَخبر به، وهو أصدق القائلين..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم..

﴿لَحَقٌّ﴾ ما فيه شك ولا مرية..

﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص:٦٢-٦٤]..

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص:٦٥-٧٠]

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك..

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فلله تعالىٰ، ولكني آمركم وأنهاكم وأحثكم علىٰ الخير وأزجركم عن الشر، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الزمر: ٤١]..

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ما أحد يُؤلَّه ويُعبد بحق إلا الله..

﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ هذا تقرير لألوهيته بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالىٰ وقهره لكل شيء.. **فإنَّ القَهر ملازمٌ للوحدة**، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبدًا.. فالذي

يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحدُه، كما كان قاهرًا وحده، وقرر ذلك أيضـًا بتوحيد الربوبية فقال..

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خالقهما، ومربيهما، ومدبِّرُها بجميع أنواع التدابير..

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له القوَّة، الَّتي بها خَلَقَ المخلوقات العظيمة..

﴿ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ لجميع الذنوب، صغيرها، وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها.. فهذا الذي يحب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئا، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار..

﴿قُلْ﴾ لهم، مخوِّفـًا ومحذرًا، ومنهِّضـًا لهم، ومنذرًا..

﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء علىٰ الأعمال خبر عظيم، ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله.. ولكن..

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ كأنَّه ليس أمامكم حسابٌ ولا عقاب ولا ثواب.. فإن شككتم في قولي وامتريتم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا عِلم لي بها ولا درستها في كتاب، فإخباري بها علىٰ وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل علىٰ حق ما جئتكم به، ولهذا قال..

﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ أي: الملائكة..

﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ لولا تعليم الله إياي، وإيحاؤه إلي، ولهذا قال..

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص:٦٥-٧٠] ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.. ثم ذكر اختصام الملأ الأعلىٰ فقال..

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص:٧١-٧٤]

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ علىٰ وجه الإخبار..

﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ مادته من طين..

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ سويت جسمه وتم..

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ فوطَّن الملائكةُ الكرامُ أنفسهم علىٰ ذلك حين يتم خلقُه ونفخُ الروح فيه، امتثالًا لربهم، وإكرامًا لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.. فلمَّا تمَّ خلقه في بدنه وروحه، وامتحن اللهُ آدمَ والملائكةَ في العِلم، وظهرَ فضلُه عليهم، أمرهم اللهُ بالسُّجُود..

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد..

﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ عن أمر ربه، واستكبر علىٰ آدم..

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص:٧١-٧٤] في علم الله تعالىٰ.. فـ..

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص:٧٥-٧٨]

﴿قَالَ﴾ الله..

﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ موبخًا ومعاتبًا..

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدمُ التكبر عليه..

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك..

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ﴾ إبليسُ معارضًا لربه ومناقضًا..

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ وبزعمه: أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد.. فإنَّ عنصر النار: مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة.. وعنصر الطين: مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النارَ ويطفئها.. والنار: تحتاج إلىٰ مادة تقوم بها.. والطين: قائم بنفسه..

فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمرَ الشفاهي من الله، قد تبيَّن غاية بطلانه وفساده.. **فما بالك بأقيسة التلاميذ** الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟! فإنها كلها أعظم بطلانًا

وفسادا من هذا القياس.. فـ..

﴿قَالَ﴾ الله له..

﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ من السماء والمَحَلِّ الكريم..

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧﴾ مُبعَد مدحور..

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ طردي وإبعادي..

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [ص:٧٥-٧٨] دائمـًا أبدًا.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص:٧٩-٨٣]

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾ لشدَّة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدَّر اللهُ أن يغويه.. فـ..

﴿قَالَ﴾ الله مجيبـًا لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك..

﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾ حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.. فلمَّا عَلم أنه مُنظَر، بادىٰ ربَّه -من خبثه- بشدة العداوة لربِّه ولآدم وذريته، فـ..

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ **يُحتمل**: أنَّ الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين..

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص:٧٩-٨٣] عَلِمَ أنَّ الله سيحفظهم من كَيده.. **ويحتمل**: أن **الباء للاستعانة**، وأنه لما عَلِم أنَّه عاجز من كلِّ وجه، وأنه لا يضل أحدًا إلا بمشيئة الله تعالىٰ، **فاستعان بعزة الله علىٰ** إغواء ذرِّية آدم، هذا وهو عدوُّ الله حقـًا..

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون المقرون لك بكلِّ نعمة، ذرية من شرفته وكرمته، **فنستعين** بعزتك العظيمة، وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكلِّ مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها، ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم..

أن تعيننا علىٰ محاربته وعداوته، والسلامة من شره وشركه.. **ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا**، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا، ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤].

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٨٤-٨٨]

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ..

﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ الحق وصفي، والحق قولي..

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فلمَّا بيَّن الرسولُ للناس الدليل، ووضَّح لهم السبيل، قال الله له..

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ علىٰ دعائي إياكم..

﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أَدَّعِي أمرًا ليس لي، وأَقْفُو ما ليس لي به عِلم، لا أتبع إلا ما يوحىٰ إليَّ..

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الوحي والقرآن..

﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يتذكرون به كلَّ ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم.. فيكون شرفاً ورفعة للعامِلين به، وإقامة حجة علىٰ المعاندين.

🕮 الفوائد

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أي: خبره..

﴿بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٨٤-٨٨] وذلك حين يقع عليهم العذاب وتتقطع عنهم الأسباب.

هذه السورة العظيمة مشتملة علىٰ:

الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، علىٰ من كذَّب بالقرآن وعارضه، وكذَّب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين..

فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين..

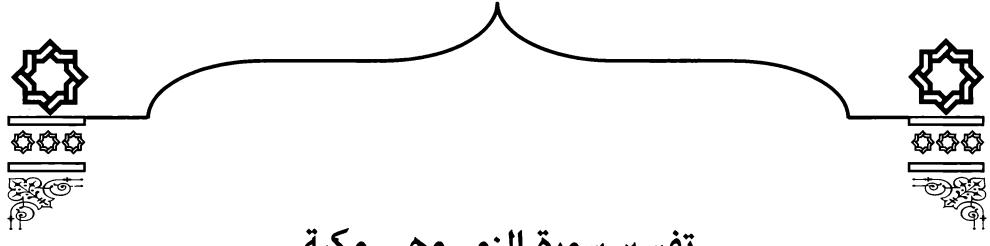
وأَكثَرَ التَذكِير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ﴾، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ﴾..

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، **نسيان غفلة ونسيان ترك**[1].

تم تفسير سورة (ص) بمنه تعالىٰ وعونه

---

(١) ومن أهم ما اشتملت عليه السورة صبر وعزيمة المشركين وشيخهم علىٰ إضلال بني آدم، فاستفتح به السورة ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ﴾.. وختم به عندما قصَّ علينا ما قاله إبليس من استعانته بالله علىٰ إضلالنا ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.. وما بين أوَّل السورة وآخرها ذَكَر: تأثر الأنبياء بمكر إبليس تأثُّرًا شديدًا، حتىٰ سألوا اللهَ المغفرة علىٰ ما وقع منهم بسبب ذلك.. فكأن السورة تحفيز للمسلمين علىٰ التمسك بالوحي والاعتصام به، والاستعانة بالله علىٰ ذلك، فهم أولىٰ بذلك من إبليس وجنوده.. ولذلك قابلَ اللهُ بين الفريقين في أوَّل السورة فقال: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.. وختَم بِهما ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.. والله تعالىٰ وحده الأعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

تفسير سورة الزمر وهي مكية

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر:١-٣]

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالىٰ عن عَظَمَة القرآن، وجلالةِ من تكلَّم به ونَزَل منه، وأنَّه نزل من الله.. الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله..

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ **والعزة**: التي قهر بها كلَّ مخلوق، وذلَّ له كلُّ شيء.. **والحكمةُ**: في خلقه وأمره.. فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، **والكلام وصفٌ للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف**، فكما أنَّ الله تعالىٰ هو الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كلِّ وجه لا مثيل له، فهذا وحده كاف في وصف القرآن، دال علىٰ مرتبته..

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ولكنه -مع هذا - زاد بيانًا لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق.. فعُلِم أنَّه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق.. فنزل بالحق الذي لا مرية فيه لإخراج الخلق من الظلمات إلىٰ النور، ونزل مشتملًا علىٰ الحقِّ في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فكلُّ ما دلَّ عليه فهو أعظم أنواع الحق من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحقِّ إلا الضلال.. ولما كان نازلًا من الحق، مشتملًا علىٰ الحقِّ لهداية الخلق علىٰ أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلَّت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال..

﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ أخلص لله تعالىٰ جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة، الإسلام والإيمان والإحسان.. بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه،

لا غير ذلك من المقاصد..

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالىٰ كما أنه له الكمال كله وله التفضل علىٰ عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب.. فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به.. لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.. وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة.. فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنىٰ الشركاء عن الشرك.. وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهىٰ عن الشرك به، **وأخبر بذم من أشرك به** فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتذرين عن أنفسهم وقائلين..

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا.. أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرأوا علىٰ أعظم المحرمات وهو الشرك..

وقاسوا الذي ليس كمثله شيء الملك العظيم بالملوك، وزعموا -بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم- أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالىٰ كذلك..

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلًا ونقلًا وفطرة..

فإنَّ الملوك: إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمه لهم، ويحتاجون إلىٰ الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم، مراعاة لهم، ومداراة لخواطرهم، وهم أيضا فقراء، قد يمنعون لِمَا يخشون من الفقر..

وأما الرب تعالىٰ: فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالىٰ أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلىٰ الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني الذي له الغنىٰ التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه فأعطىٰ كلا منهم ما سأل وتمنىٰ لم ينقصوا من غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط.. وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها..

فبهذه الفروق: يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراءتهم عليه.. **ويعلم** أيضا الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالىٰ، لأنه يتضمن القدح في الله تعالىٰ.. ولهذا قال حاكماً بين الفريقين، المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ وقد عُلِم أن حُكمه: أنَّ المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ لا يوفق للهداية إلىٰ الصراط المستقيم..

﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾ [الزمر:١-٣] وَصفُه الكذب أو الكفر، بحيث تأتيه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدها ويكفر بها ويكذب، فهذا أنَّىٰ له الهدىٰ وقد سدَّ علىٰ نفسه الباب؟! وعوقب بأن طبع اللهُ علىٰ قلبه، فهو لا يؤمن.

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر:٤]

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق..

﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ لاصطفىٰ بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاءه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلىٰ اتخاذ الصاحبة..

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون..

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضىٰ أن يكون شبيها له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه..

﴿ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر:٤] لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهورًا، ولكان له إدلال علىٰ أبيه ومناسبة منه.. **ووحدته تعالىٰ وقهره متلازمان**، فالواحد لا يكون إلا قهارًا، والقهار لا يكون إلا واحدا، وذلك ينفي الشَّرِكةَ له من كلِّ وجه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ [الزمر:٥]

يخبر تعالىٰ أنه..

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم..

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يُدخِلُ كُلًا منهما علىٰ الآخر، ويحله محله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتىٰ أحدُهما انعزل الآخر عن سلطانه..

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بتسخير منظم، وسير مقنن..

﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر..

﴿يَجْرِى﴾ متأثرًا عن تسخيره تعالىٰ..

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسَها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة، ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار..

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب.. القاهر لكل شيء.. الذي لا يستعصي عليه شيء.. الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره..

﴿ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ [الزمر:٥] لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].. الغفار لمن أشرك به بعد ما رأىٰ من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.. ومن عزته أن..

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر:٦-٧]

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ على كثرتكم وانتشاركم في أنحاء الأرض..

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة..

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: خلقها بقَدَر نازلٍ منه، رحمةً بكم..

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ﴾.. وخصها بالذكر مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرَها، لـ: كثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها كالأضحية والهَدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.. ولمَّا ذَكَر خلق أبينا وأمنا، ذَكَر ابتداء خلقنا، فقال..

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ طورًا بعد طور، وأنتم في حال لا يَدَّ مخلوق تَمسُّكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد ربَّاكم في ذلك المكان الضيق..

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن.. ثم ظلمة الرحم.. ثم ظلمة المشيمة..

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم..

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ المألوه المعبود، الذي رباكم ودبركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته، لا شريك له، ولهذا قال..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالىٰ للإخلاص وحده، إلىٰ عبادة الأوثان التي لا تدبر شيئـًا، وليس لها من الأمر شيء.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم..

﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ لكمال إحسانه بهم، وعلمِه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يَسعَدون بعدها.. ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خَلَقَ لها الخلق، فلا يرضىٰ أن يَدعوا ما خلقهم لأجله..

﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ لله تعالىٰ بتوحيده، وإخلاص الدين له..

﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله.. وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر..

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ في يوم القيامة..

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ﴾ إخبارًا أحاط به علمه، وجرىٰ عليه قلمه، وكتبته عليكم الحَفَظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلا منكم ما يستحقه..

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [الزمر:٦-٧] بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور.. والمقصود من هذا: الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزمر:٨]

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ يخبر تعالىٰ عن كرمه بعبده وإحسانه وبره.. وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضرُّ، من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة بَحْرٍ أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا الله، فيدعوه متضرعـًا منيبـًا، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلحُّ في ذلك..

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ الله..

﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة..

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ نسي ذلك الضرَّ الذي دعا الله لأجله، ومرَّ كأنه ما أصابه ضرٌّ، واستمر علىٰ شركه..

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ليضل بنفسه، ويضل غيره.. لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأتىٰ بالملزوم ليدل علىٰ اللازم..

﴿قُلْ﴾ لهذا العاتي، الذي بدل نعمة الله كفرا..

﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ [الزمر:٨] فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار، ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٩﴾ [الزمر:٩]

هذه مقابلة بين: العامل بطاعة الله وغيره.. وبين العالم والجاهل.. وأنَّ هذا من الأمور التي تقرر في العقول تباينها، وعِلمٌ عَلِمَا يقيناً تفاوتها..

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ فليس المعرضُ عن طاعة ربِّه المتبِّع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل.. فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء.. وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة علىٰ ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله.. فوصفه بالعمل الظاهر والباطن..

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم، ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم..

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ شيئاً من ذلك؟! لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار..

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذُكِّروا..

﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر:٩] أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، فيؤثرون العلمَ علىٰ الجهل، وطاعةَ الله علىٰ مخالفته، لأن لهم عقولا ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾ [الزمر:١٠]

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون..

﴿ٱتَّقُواْ﴾ آمرًا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوىٰ..

﴿رَبَّكُمْۚ﴾ ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقوىٰ.. وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه.. ومن ذلك ما مَنَّ الله عليهم به من الإيمان، فإنه موجب للتقوىٰ، كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل.. **وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا** فقال..

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعبادة ربهم..

﴿حَسَنَةٞۗ﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٞ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل:٩٧]..

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ إذا مُنِعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلىٰ غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم..

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾ [الزمر:١٠] وهذا عام في جميع أنواع الصبر.. الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها.. والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها.. والصبر علىٰ طاعته حتىٰ يؤديها.. فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار.. وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين علىٰ كل الأمور.

🕮 الفـوائـد

١- لما قال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ ﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه **كل من أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض**

يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك.. دفع هذا الظن بقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

٢- هنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله «لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك»(١)، تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنَّه تعالىٰ أخبر أن أرضه واسعة، فمهما مُنِعتم من عبادته في موضع فهاجروا إلىٰ غيرها..

وهذا عام في كل زمان ومكان، **فلا بدَّ أن يكون لكلِّ مهاجرٍ ملجأٌ من المسلمين يلجأ إليه، وموضعٌ يتمكن من إقامة دينه فيه.**

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١١-١٦]

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس..

﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]..

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ لأني الداعي الهادي للخلق إلىٰ ربهم.. فيقتضي أني أول من ائتمر بما آمر به، وأول من أسلم.. وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، وممن زعم أنه من أتباعه، **فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة**، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة..

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام..

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصىٰ..

---

(١) أخرجه مسلم [١٩٢١] وغيره من حديث المغيرة.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:١-٦]..

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ حقيقة، هم..

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث حَرَمُوها الثواب، واستحقت بسببهم وخيمَ العقاب..

﴿وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: فرّق بينهم وبينهم، واشتَّد عليهم الحزنُ وعَظُمَ الخسران..

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٥﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر لا ربح بعده، بل ولا سلامة.. ثم ذَكَر شدةَ ما يحصل لهم من الشقاء فقال..

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطع عذاب، كالسحاب العظيم..

﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار سوط يسوق الله به عباده إلىٰ رحمته..

﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزمر:١١-١٦] جعل ما أعدَّه لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلىٰ التقوىٰ، وزاجرًا عما يوجب العذاب.. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم علىٰ سلوكها، ورغبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذرهم من العمل لغيره غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر:١٧-١٨]

لما ذكر حال المجرمين ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها.. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم؛ لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها..

﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلىٰ عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلىٰ التوحيد والطاعات..

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ التي لا يقادر قدرها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم بها.. **وهذا شامل للبشرىٰ في الحياة الدنيا**: بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة.. **ولهم البشرىٰ في الآخرة**: عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرىٰ ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.. ولما أخبر أنَّ لهم البشرىٰ، أَمَره اللهُ ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال..

﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾ وهذا جنس يشمل كلَّ قول.. فهم يستمعون جنسَ القول ليميزوا بين ما ينبغي إيثارُه مما ينبغي اجتنابه..

﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ فلهذا، من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه علىٰ الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر:٢٣] الآية..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال..

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر:١٧-١٨] أي: العقول الزاكية.. ومن لُبِّهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره، علىٰ ما سواه.. وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوىٰ ذلك، فإنَّ الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعـًا لشهوته فلم يُؤْثِر الأحسنَ كان ناقصَ العقل.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية نكتة، وهي: أنه لمَّا أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه.. كأنه قيل: **هل من طريق إلىٰ معرفة أحسنه** حتىٰ نتصف بصفات أولي الألباب، وحتىٰ نعرف أنَّ مَن آثره عَلِمنَا أنه من أولي الألباب؟ قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر:٢٣] الآية.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر:١٩-٢٠]

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أفمن وجبت عليه كلمة العذاب، باستمراره علىٰ غيه وعناده وكفره..

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة..

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ لكن الغِنىٰ كلّ الغنىٰ، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم، ما لا يُقَادَر قدرُه..

﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ منازل عالية مزخرفة، من حسنها وبهائها وصفائها أنه يُرىٰ ظاهرُها من باطنها وباطنُها من ظاهرها.. ومن علوها وارتفاعها، أنها تُرىٰ كما يُرىٰ الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال:..

﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ بعضها فوق بعض..

﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر..

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة..

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر:١٩-٢٠] وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به.. فليوفوا بخصال التقوىٰ، ليوفيهم أجورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر:٢١]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُذَكِّر تعالىٰ أولي الألباب ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعـًا، يُستخرج

بسهولة ويُسر..

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ من بُرٍّ وذرة وشعير وأرز، وغير ذلك..

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكماله، أو عند حدوث آفة فيه..

﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ متكسرًا..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر:٢١] يذكرون بها عناية ربهم ورحمته بعباده.. حيث يسَّر لهم هذا الماء، وخزَّنه بخزائن الأرض تبعًا لمصالحهم.. ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتىٰ، كما أحيا الأرض بعد موتها.. ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.. اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢]

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحًا قرير العين، علىٰ بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله..

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله..

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلىٰ غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢] وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وَلِيّه؟! ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل علىٰ كل ما يضره؟!

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣]

﴿ٱللَّهُ﴾ يخبر تعالىٰ عن كتابه الذي نزله أنه..

﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ **علىٰ الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله.. وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن عُلِم أنَّ ألفاظه: أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه: أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه..**

﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ **في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه.. حتىٰ إنه كلما تدبره المتدبر وتفكر فيه المتفكر، رأىٰ من اتفاقه -حتىٰ في معانيه الغامضة- ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم..**

﴿مَّثَانِيَ﴾ **تُثنىٰ فيه القصصُ والأحكامُ، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير وصفات أهل الشر، وتثنىٰ فيه أسماء الله وصفاته.. وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالىٰ لما عَلِم احتياجَ الخلق إلىٰ معانيه المُزكِيَّة للقلوب، المكمِّلة للأخلاق.. وأنَّ تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة.. فكذلك القلب يحتاج دائمـًا إلىٰ تكرر معاني كلام الله تعالىٰ عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنىٰ مرة واحدة في جميع القرآن لم يقع منه موقعـًا، ولم تحصل النتيجة منه.. ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثَّر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالىٰ..**

﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ **لِمَا فيه من التخويف والترهيب المزعج..**

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ **عِندَ ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر..**

﴿ذَٰلِكَ﴾ **الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم..**

﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ **هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم..**

﴿يَهۡدِي بِهِۦ﴾ **بسبب ذلك..**

﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ **من عباده.. ويحتمل: أن المراد بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.. ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي لا طريق يوصل إلىٰ الله إلا منه.. ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام:٨٨] ممن حسُن قصده، كما قال تعالىٰ ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦]..**

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣] **لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيقُ للإقبال علىٰ كتابه.. فإذا لم يحصل هذا فلا سبيل إلىٰ الهدىٰ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.**

📖 الفوائد

١- هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع.. وأما في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] فالمراد بها، **التي تشتبه علىٰ فهوم كثير من الناس**، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلىٰ المحكم.. ولهذا قال:﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابها، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣] وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضُه بعضـًا، كما ذكرنا.

٢- ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾.. ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم اقتداء بما هو تفسير له.. فلا تجد فيه الحَوالة علىٰ موضع من المواضع، بل كلُّ موضع تجد تفسيره كامل المعنىٰ، **غير مراع لِمَا مضىٰ مما يُشبهه**، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة.. وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير، ونفع غزير.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر:٢٤-٢٦]

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته.. كمن كان في الضلال واستمر علىٰ عناده حتىٰ قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم.. فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنىٰ شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه **قد غُلَّت يداه ورجلاه..**

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم، بالكفر والمعاصي، توبيخاً وتقريعاً..

﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾..

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كما كذَّب هؤلاء..

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون..

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك العذاب..

﴿ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فافتُضِحوا عند الله وعند خلقه..

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر:٢٤-٢٦] فليحذر هؤلاء من المُقَام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر:٢٧-٣١]

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يخبر تعالىٰ أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال.. أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكلِّ مثل يقرب حقائق الأشياء.. والحكمة في ذلك..

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عندما نوضح لهم الحقَّ، فيعلمون ويعملون..

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ جعلناه قرآناً عربياً، واضح الألفاظ، سهل المعاني، خصوصاً علىٰ العرب..

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه.. وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١- ٢]..

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الله تعالىٰ، حيث سهلنا عليهم طرق التقوىٰ العلمية والعملية بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كلِّ مَثَل.. **ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد** فقال..

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ عبدًا..

﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ فهم كثيرون.. وليسوا متفقين علىٰ أمرٍ من الأمور وحالة من الحالات حتىٰ تمكن راحته.. بل هم..

﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخرُ غيرَه.. فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟!

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ خالصـًا له، قد عَرف مقصودَ سيده، وحصلت له الراحة التامة..

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ هذان الرجلان..

﴿مَثَلًاۚ﴾ ؟! لا يستويان.. **كذلك المشرك**، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع.. **والموحد** مخلص لربه، قد خلَّصه الله من الشَّركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [هود:٢٤]..

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ علىٰ تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال..

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾..

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كلكم لا بد أن يموت ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤]..

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر:٢٧-٣١] فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كُلا ما عمله ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة:٦].

﴿۞ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر:٣٢-٣٥]

﴿۞ فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أنّه لا أظلم وأشد ظلمـًا..

﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إمَّا بـ: نسبته إلىٰ ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأنَّ الله تعالىٰ قال (كذا) أو أخبر بـ (كذا) أو حكم بـ (كذا) وهو كاذب.. فهذا داخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩] إن كان جاهلًا وإلا فهو أشنع وأشنع..

﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ ما أظلم ممن جاءه الحقُّ المؤيَّد بالبينات فكذَّبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه؛ لأنه ردُّ الحق بعد ما تبين له، فإنَّ كان جامعـًا بين الكذب علىٰ الله والتكذيب بالحق، كان ظلمـًا علىٰ ظلم..

﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر، ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣].. ولمَّا ذَكَر الكاذبَ المكذِّبَ وجنايته وعقوبته.. **ذَكَر الصادقَ المصدِّق وثوابَه**، فقال..

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ في قوله وعمله.. **فدخل في ذلك**: الأنبياء، ومن قام مقامَهم ممن صدَق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصِّدق..

﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق ولكن قد لا يُصدق به.. **بسبب**: استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتىٰ به.. فلابد في المدح من الصدق والتصديق.. **فصدقه يدل علىٰ**: علمه وعدله.. **وتصديقه يدل علىٰ**: تواضعه وعدم استكباره [1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وُفِّقوا للجمع بين الأمرين..

﴿هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾ فإنَّ جميع خصال التقوىٰ ترجع إلىٰ الصدق بالحق والتصديق به..

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ من الثواب، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.. فكلُّ ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم -من أصناف اللذات والمشتهيات- فإنه حاصل لهم، مُعَد مُهَيأ..

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾ الذين يعبدون اللهَ كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم..

---

(١) ويدخل في من جاء بالصدق ولم يصدق به المنافقون، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون]، فقد جاءوا بالصدق، ولكن لم يصدقوا به، ولذلك كذَّبهم الله في قولهم الصادق الذي لم يصدقوه بعملهم وقلوبهم.. والله تعالىٰ أعلم.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤﴾ إلىٰ عباد الله..

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ **عَمَلُ الإنسان له ثلاث حالات**: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.. **والقسم الأخير**: قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، **والأسوأ**: المعاصي كلها، **والأحسن**: الطاعات كلها.. فبهذا التفصيل يتبين معنىٰ الآية، وأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم..

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾ [الزمر:٣٢-٣٥] أي: بحسناتهم كلِّها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾ [الزمر:٣٦-٣٧]

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ أليس من كرمه وجوده وعنايته بعبده.. الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره واجتنب نهيه.. خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ.. فإنَّ الله تعالىٰ سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء..

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء.. وهذا من غيهم وضلالهم..

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ﴾ لأنه تعالىٰ الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن..

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كلَّ شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم..

﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾ [الزمر:٣٦-٣٧] ممن عصاه.. فاحذروا موجبات نقمته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَـٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر:٣٨]

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلا من أنفسهم، فقلت..

﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ لم يُثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئـًا..

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ الذي خلقها وحده..

﴿قُلۡ﴾ لهم مُقرِّرًا عجز آلهتهم، بعد ما تبينت قدرة الله:..

﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ أخبروني..

﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أيَّ ضُرٍّ كان..

﴿هَلۡ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلىٰ حال؟!

﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي..

﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَـٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ ومانعاتها عني؟! سيقولون: لا يكشفون الضرَّ ولا يمسكون الرحمة..

﴿قُلۡ﴾ لهم بعد ما تبيَّن الدليلُ القاطع علىٰ أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأنَّ غيره عاجز -من كل وجه- عن الخلق والنفع والضر، مستجلبـًا كفايته، مستدفعـًا مكرهم وكيدهم..

﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر:٣٨] عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم.. فالذي بيده -وحده- الكفاية هو حسبي، سيكفيني كلَّ ما أهمَّني وما لا أهتم به.

﴿قُلۡ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَـٰمِلٌۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر:٣٩-٤٠]

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أيها الرسول..

﴿يَـٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ علىٰ حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من

لا يستحق من العبادة شيئًا، ولا له من الأمر شيء..

﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده..

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ لمن العاقبة، و..

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا..

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الأخرى..

﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر:٣٩-٤٠] لا يحول عنه ولا يزول.. وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر:٤١]

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أَخبارِه وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية، وبلاغٌ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين..

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بنوره واتبع أوامره..

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فإن نفع ذلك يعود إلى نفسه..

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بعد ما تبيَّن له الهدى..

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا يضر اللهَ شيئًا..

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر:٤١] تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلِّغ تؤدي إليهم ما أُمِرت به.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر:٤٢]

يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال..

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرىٰ، وفاة الموت..

﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وهذه الموتة الصغرىٰ.. أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها..

﴿فَيُمْسِكُ﴾ من هاتين النفسين النفس..

﴿ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ وهي نفس من كان مات، أو قضي أن يموت في منامه..

﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس..

﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ استكمال رزقها وأجلها..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر:٤٢] علىٰ كمال اقتداره، وإحيائه الموتىٰ بعد موتهم.

📖 الفوائد

١- إخباره أنه يتوفىٰ الأنفس **وإضافة الفعل إلىٰ نفسه، لا ينافي أنَّه قد وكَّل بذلك مَلكَ الموت وأعوانَه**، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١].. لأنه تعالىٰ يضيف الأشياء إلىٰ نفسه باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلىٰ أسبابها باعتبار أن مِن سُنَنِه تعالىٰ وحكمَتِه أن جعل لكلِّ أمرٍ من الأمور سبباً.

وفي هذه الآية دليل علىٰ:

٢- أن **الروح والنفس جسم قائم بنفسه**، مخالف جوهره جوهر البدن.

٣- وأنها **مخلوقة مدبرة**، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال.

٤- وأن **أرواح الأحياء والأموات تتلاقىٰ في البرزخ**، فتجتمع، فتتحادث، فيرسل اللهُ أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ ينكر تعالىٰ، علىٰ من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم..

﴿قُلۡ﴾ لهم مبينـاً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئـاً من العبادة..

﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ﴾ أي: من اتخذتم من الشفعاء..

﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر..

﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣﴾ بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به؛ لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إنَّ لمن اتخذها عقلًا؟! أم هو من أضلِّ الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلما؟!

﴿قُل﴾ لهم..

﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ لأنَّ الأمر كلَّه لله، وكلُّ شفيعٍ فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه.. فإذا أراد رحمةَ عبده أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمةً بالاثنين.. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله..

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات.. **فالواجب**: أن تُطلب الشفاعةُ ممن يملكها، وتُخلص له العبادة..

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾ [الزمر:٤٣-٤٤] فيجازي المخلصَ له بالثواب الجزيل، ومن أشرك به بالعذاب الوبيل.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾[الزمر:٤٥-٤٦]

يذكر تعالىٰ حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم..

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ توحيدًا له، وأُمِر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه..

﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أنهم يشمئزون وينفرون، ويكرهون ذلك أشد الكراهة..

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلىٰ عبادتها ومدحها..

﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾ بذلك، فرحـًا بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقـًا لأهوائهم، وهذه الحال أشر الحالات وأشنعها.. ولكن موعدهم يوم الجزاء، فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئا؟! ولهذا قال..

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خالقهما ومدبرهما..

﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا..

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي نشاهده..

﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ [الزمر:٤٥-٤٦] **وإنَّ من أعظم الاختلاف: اختلاف الموحدين** المخلصين القائلين إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنىٰ في الآخرة دون غيرهم، **والمشركين** الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسووا فيك من لا يُسوىٰ شيئـًا، وتَنَقَّصوك غايةَ التنقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمأزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم علىٰ الحق وغيرهم علىٰ الباطل، وأن لهم الحسنىٰ..

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧]، وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١﴾ [الحج: ١٩- ٢١] إلىٰ أن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج:٢٣]..

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]، ففي هذه الآية بيان **عمومِ** خلقه تعالىٰ **وعموم** علمه **وعموم حُكمه** بين عباده، فقدرتُه التي نشأت عنها **المخلوقات، وعلمُه** المحيطُ بكلِّ شيءٍ، دالٌّ علىٰ **حُكمِهِ** بين عباده وبعثهم، **وعِلمِه** بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائِها، **وخلقُه دال علىٰ عِلمِه** ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر:٤٧]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ أنَّه الحاكم بين عباده، وذكر مقالةَ المشركين وشناعتها.. كأنَّ النفوس تشوَّقت إلىٰ ما يَفعل اللهُ بهم يوم القيامة..

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فأخبر أن -علىٰ الفرض والتقدير- لو كان لهم ما في الأرض جميعـًا، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها..

﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ثم بذلوه يوم القيامة..

﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾ ليفتدوا به وينجوا..

﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: أشدُّه وأفظعه، كما قالوا أشدَّ الكفر وأشنَعه..

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ما قُبِل منهم، ولا أغنىٰ عنهم من عذاب الله شيئـًا، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]..

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر:٤٧] **أي: يظنون من السخط العظيم والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.**

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر:٤٨]

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ **أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم..**

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر:٤٨] من الوعيد والعذاب الذي نَزَلَ بهم، وما حلَّ عليهم العقاب.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر:٤٩-٥٢]

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾ يخبر تعالىٰ عن حالةِ الإنسان وطبيعته، أنَّه حين يمسه ضر من مرض أو شدة أو كرب..

﴿دَعَانَا﴾ مُلِحًّا في تفريج ما نَزَل به..

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ فكشفنا ضُرَّه وأزلنا مشقته، عاد بربه كافرًا، ولمعروفه مُنكرًا.. و..

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عِلم من الله، أنِّي له أهل، وأني مستحق له؛ لأني كريم عليه، أو علىٰ عِلم منِّي بطُرقِ تحصيله.. قال تعالىٰ..

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ يبتلي اللهُ بِهِ عبادَه، لينظر من يشكره ممن يكفره...

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فلذلك يعدُّون الفتنة مِنحةً، ويشتبه عليهم الخيرُ المَحضُ بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.. قال تعالىٰ..

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قولهم ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [القصص:٧٨] فما زالت متوارثة عند المكذِّبين، لا يُقرُّون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دَأبُهم حتىٰ أُهلِكوا..

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ ولم يغن..

﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ حين جاءهم العذاب..

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ والسيئات في هذا الموضع (العقوبات)، لأنها تسوء الإنسانَ وتُحزنه..

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥١﴾ فليسوا خيرًا من أولئك، ولم يُكتب لهم براءة في الزُبُر.. ولمَّا ذَكَر أنَّهم اغتروا بالمال، وزَعَموا – بجهلهم– أنَّه يَدُلُّ علىٰ حُسنِ حَالِ صَاحِبِه.. أَخبرهم تعالىٰ: أن رزقه لا يدل علىٰ ذلك..

﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده، سواءً كان صالحـًا أو طالحـًا..

﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ الرزق، أي: يُضَيِّقُه علىٰ من يشاء، صالحـًا أو طالحـًا، فرزقه مشترك بين البَرِيَّة، والإيمان والعمل الصالح يخصُّ به خيرَ البرية..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: بسط الرزق وقبضه..

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الزمر:٤٩-٥٢] لِعلمِهم أنَّ مرجعَ ذلك عائدٌ إلىٰ الحِكمة والرحمة.. وأنَّه أعلم بحال عبيده، فقد يُضيِّقُ عليهم الرزقَ لُطفـًا بهم؛ لأنَّه لو بَسَطَه لَبَغُوا في الأرض، فيكونُ تَعالىٰ مَراعِيـًا في ذلك صَلاحِ دِينِهِم الَّذي هو مَادَة سعادتهم وفَلاحِهِم.. والله أعلم.

﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزمر:٥٣-٥٦]

يخبر تعالىٰ عباده المُسرفين بسعةِ كَرمه، ويَحثُّهم علىٰ الإنابة قبل أن لا يُمكِنُهُم ذلك، فقال..

﴿۞ قُلۡ﴾ يا أيها الرسول.. ومن قام مَقامه، من الدعاة لدين الله.. مخبراً للعباد عن ربهم..

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ باتِّباع ما تدعوهم إليه أنفُسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علَّام الغيوب..

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسوا منها، فتُلقوا بأيديكم إلىٰ التهلكة، وتقولوا قد كَثرت ذنوبُنا وتراكمت عيوبُنا، فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مَصِرِّين علىٰ العصيان، متزوِّدين ما يُغضب عليكم الرحمنُ.. ولكن اعرفوا ربَّكم بأسمائه الدالة علىٰ كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعـًا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ وَصفُه المغفرة والرحمة، وَصفَان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاتُه عنهما، ولم تزل آثارُهما سارِيَةُ في الوجود، مالئةً للموجود، تسُحُّ يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النِّعمَ علىٰ العباد، والفواضلَ في السرِّ والجِهار، والعطاءُ أحبُّ إليه من المنع، والرحمةُ سَبَقتِ الغَضَبَ وغَلَبَته.. ولِكِن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسبابٌ، إن لم يأت بها العبد فقد أَغلَق علىٰ نفسه بابَ الرحمة والمغفرة.. أعظمها وأجلُّها - بل لا سبب لها غيره- الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد.. فَهَلُمّ إلىٰ هذا السبب الأجَل، والطريق الأعظم.. ولهذا أمر تعالىٰ بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال..

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم..

﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ بجوارحكم.. إذا أُفرِدَت الإنابة دخلت فيها أعمالُ الجوارح.. وإذا جُمِع بينهما -كما في هذا الموضع- كان المعنىٰ ما ذكرنا.. وفي قوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤] دليل علىٰ الإخلاص، وأنه **من دون إخلاص لا تفيد الأعمال** الظاهرة والباطنة شيئـًا..

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مَجيئـًا لا يُدفع..

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فكأنَّه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالُها؟ فأجاب تعالىٰ بقوله..

﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مِمَّا أَمَركم من **الأعمال الباطنة**: كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك..

ومن الأعمال الظاهرة: كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أَمَر الله به، **وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا**.. فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم..

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾ وكل هذا حثٌّ على المبادرة وانتهاز الفرصة.. ثم حذَّرهم..

﴿أَن﴾ يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يَندمون فيه، ولا تنفع الندامة.. و..

﴿تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في جانب حقه..

﴿وَإِن كُنتُ﴾ في الدنيا..

﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزمر:٥٣-٥٦] في إتيان الجزاء، حتى رأيتُه عِيانـًا.

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر:٥٧-٥٩]

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾ و(لو) في هذا الموضع للتمنِّي، أي: ليت أنَّ الله هداني فأكون مُتَّقِيًا له، فَأَسلم من العقاب، وأَستحِق الثَّواب.. **وليست (لو) هنا شرطية**؛ لأنها لو كانت شرطية لكانوا مُحتجِّين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كلُّ حجة باطلة..

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده..

﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا..

﴿فَأَكُونَ﴾ لكنت..

﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾ قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أماني باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لَوْ رُدَّ بيانٌ بعد البيان الأول..

﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ الدالة دلالةً لا يُمترى فيها على الحق..

﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ عن اتِّباعِها..

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر:٥٧-٥٩] فسؤال الردِّ إلىٰ الدُّنيا نوعُ عبَث، ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾ [الزمر:٦٠-٦١]

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ **الكذبُ علىٰ الله يشمل: الكذبَ عليه** باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، **والإخبار عنه** بما لا يليق بجلاله، **أو** ادِّعاء النبوة، **أو** القول في شرعه بما لم يَقُله، والإخبار بأنه قَالَه وشَرَعَه.. فيُخبر تعالىٰ عن خِزي الَّذين كَذَبوا عليه، وأنَ وُجُوهَهُم يومَ القيامة مُسوَدَّة كَأنَّها الليلُ البَهيم، يَعرفُهُم بذلك أهلُ الموقف، فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سَوَّدوا وَجه الحقِّ بالكذب، سوَّد اللهُ وجوهَهُم، جزاء من جنس عملهم.. فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال..

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ عن الحقِّ، وعن عبادة ربهم، المفترين عليه؟! بلىٰ والله، إنَّ فيها لعقوبة وخِزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبِّرين كلَّ مَبلغ، ويُؤخذُ الحقُّ منهم بها.. ولمَّا ذَكَر حالةَ المتكبرين، ذَكر حالةَ المتقين، فقال..

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بِنَجَاتِهم، وذلك لأنَّ معهم آلةُ النَّجاة، وهي تقوىٰ الله تعالىٰ، الَّتي هي العِدَّة عند كُلِّ هول وشدة..

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: العذاب الذي يسوؤهم..

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾ [الزمر:٦٠-٦١] فنفىٰ عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.. فلهم الأمن التام، يصحبهم حتىٰ يوصلهم إلىٰ دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتَجري عليهم نَضرةُ النَّعيم، ويقولون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾ [الزمر:٦٢-٦٣]

يخبر تعالىٰ عن عظمته وكماله، الموجبُ لخُسران مَن كَفَر به، فقال..

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ هذه العبارة وما أشبهها مما هو كثير في القرآن تدلُّ علىٰ أنَّ جميع الأشياء -غير الله- مخلوقة.. فإنَّ الله تعالىٰ أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ وأنه علىٰ كل شيء وكيل، **والوكالة التامة لابُدَّ فيها: من عِلم** الوكيل بما كان وكيلًا عليه، **وإحاطته** بتفاصيله، **ومن قُدرةٍ** تامة علىٰ ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، **ومن حفظٍ** لما هو وكيل عليه، **ومن حكمة** ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها علىٰ ما هو الأليق، **فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله**، فما نقص من ذلك، فهو نقص فيها.. **ومن المعلوم المتقرر**: أن الله تعالىٰ منزه عن كل نقص في صفة من صفاته، **فإخباره بأنه علىٰ كل شيء وكيل، يدل علىٰ**: إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته علىٰ تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها..

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: مفاتيحها، علما وتدبيرا، فـ ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].. فلمَّا بيَّن من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوبُ له إجلالًا وإكرامـًا، ذَكَر حالَ من عَكَس القضيَّة فلم يُقدِّره حقَّ قَدرِه، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ الحق اليقين والصراط المستقيم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾ [الزمر:٦٢-٦٣] خسروا ما به **تصلح القلوبُ** من التأله والإخلاص لله، وما به **تصلح الألسن** من إشغالها بذكر الله، وما **تصلح به الجوارح** من طاعة الله.. وتعوَّضوا عن ذلك كلَّ مفسد للقلوب والأبدان.. وخسروا جنات النعيم.. وتعوَّضوا عنها بالعذاب الأليم.

🕮 الفـوائـد

فيها **ردٌّ علىٰ كلِّ من قال بِقَدَم بعض المخلوقات**، كالفلاسفة القائلين بِقِدَم الأرض والسماوات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه..

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأنَّ الكلام صفة المتكلم، والله تعالىٰ بأسمائه وصفاته أولٌ ليس قبله شيء.. فَأَخْذُ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق من أعظم الجهل..

فإنَّه تعالىٰ لم يَزَل بأسمائه وصفاته، ولم يُحدِث له صفة من صفاته، ولم يكن مُعَطَّلًا عنها بوقت من الأوقات.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٤-٦٦]

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلىٰ عبادة غير الله..

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم عِلم بأن الله تعالىٰ الكامل من جميع الوجوه مُسدي جميع النعم هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصًا من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك.. وذلك لأن الشرك بالله مُحبطٌ للأعمال، مفسدٌ للأحوال، ولهذا قال..

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من جميع الأنبياء..

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ **هذا مفرد مضاف**، يعم كلَّ عمل.. ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالىٰ في سورة الأنعام لمَّا عدد كثيرًا من أنبيائه ورسله، قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]..

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ دينَك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنَّكال.. ولمَّا أَخبر أنَّ الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أَمره بالإخلاص فقال..

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ أَخلِص له العبادةَ وحده لا شريك له..

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ [الزمر:٦٤-٦٦] لله علىٰ توفيق الله تعالىٰ.. فكما أنه تعالىٰ يُشكَر علىٰ النِّعَم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك.. كذلك يشكر ويثنىٰ عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوىٰ.. بل نعم الدين هي النعم علىٰ الحقيقة.. وفي تدبر أنها من الله تعالىٰ والشكر لله عليها، سلامة من آفة العُجب التي تعرض لكثير من العاملين بسبب جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر:٦٧]

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ وما قَدَر هؤلاء المشركون ربهم حقَّ قَدرِه، ولا عظَّموه حق تعظيمه.. بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئًا.. فسووا هذا المخلوقَ الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن..

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ وأن السماوات -علىٰ سعتها وعِظَمها- مطويات بيمينه، فلا عَظَّمَه حقَّ عَظَمَتِهِ مَن سَوَّىٰ به غيرَه، ولا أظلمَ منه..

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر:٦٧] أي: تنزَّه وتعاظم عن شركهم به.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر:٦٨-٧٠]

لمَّا خوَّفهم تعالىٰ من عَظَمَتِهِ، خوَّفَهُم بأحوال يوم القيامة، ورَغَّبهم ورَهَّبهم، فقال..

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو قَرنٌ عظيم، لا يَعلم عظمَته إلا خالقُه ومَن أطلَعه اللهُ علىٰ عِلمه من خَلقه.. فينفخ فيه إسرافيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أحدُ الملائكة المقربين، **وأحد حملة عرش الرحمن..**

﴿فَصَعِقَ﴾ غشي أو مات، علىٰ اختلاف القولين..

﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلهم، لمَّا سمعوا نفخةَ الصور أزعجتهم من شدتها وعِظَمِها، وما يعلمون أنَّها مُقدِّمة له..

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ممن ثبَّته اللهُ عند النفخة، فلم يُصعق.. كالشهداء أو بعضِهم، وغيرهم.. وهذه النفخة الأولىٰ، نفخة الصعق، ونفخة الفزع..

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ النفخة الثانية: نفخة البعث..

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم.. قد تمت منهم الخِلقة الجسدية والأرواح، وشَخِصَت أبصارُهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ ماذا يفعل الله بهم؟!..

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ **عُلِم من هذا:** أنَّ الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل.. وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور، والقمر يخسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلىٰ وينزل للفصل بينهم.. وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَقْوَوْنَ علىٰ أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضا من رؤيته، وإلا فنوره تعالىٰ عظيم، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه..

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وُضِع ونُشر ليُقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا

﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ [الكهف].. ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤]..

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أممهم، ويشهدوا عليهم..

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض..

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم.. لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء.. وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا علىٰ ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب..

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩﴾ فيحصل حُكمٌ يُقِر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظَمَته وعِلمه وحِكمَته ورحمَته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تُعبِّر عنه ألسنتُهم، ولهذا قال..

﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر:٦٨-٧٠]..

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر:٧٢-٧٤]

لمَّا ذكر تعالىٰ حُكمَه بين عباده، الذين جمعَهم، في خلقه ورزقه وتدبيره.. واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة.. فرقهم تعالىٰ عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا

بالإيمان والكفر، والتقوىٰ والفجور، فقال..

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقـًا عنيفـًا، يُضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلىٰ شَرِّ مَحبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جَمَعَت كلَّ عذاب، وحضرها كلُّ شقاء، وزال عنها كلُّ سرور، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] أي: يُدفعون إليها دَفعـًا، وذلك لامتناعهم من دخولها.. ويساقون إليها..

﴿زُمَرًاۖ﴾ فِرَقـًا متفرقة.. كلُّ زمرة مع الزمرة التي تناسب عَمَلها، وتشاكل سعيَهَا.. يلعن بعضُهم بعضاً، ويَبرأ بعضُهم من بعض..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وَصلوا إلىٰ ساحتها..

﴿فُتِحَتۡ﴾ لهم.. أي: لأجلهم..

﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾ لقدومهم، وقِرًىٰ لنزولهم..

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.. وموبخين لهم علىٰ الأعمال التي أوصلتهم إلىٰ هذا المحل الفظيع..

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ من جنسكم، تعرفونهم وتعرفون صدقَهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟!..

﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة علىٰ الحق اليقين بأوضح البراهين..

﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ وهذا يوجب عليكم اتباعهم، والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال..

﴿قَالُواْ﴾ مُقِرِّين بذنبهم، وأنَّ حُجة الله قامت عليهم..

﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته.. وبيَّنوا لنا غاية التبيين.. وحذَّرونا من هذا اليوم..

﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون.. فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.. ف..

﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال..

﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أبدا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا يُنظرون..

﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ بئس المقر، النار مقرهم.. وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي.. ثم قال عن أهل الجنة..

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وَفْدا على النجائب..

﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة، التي تناسب عملها وتشاكله..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحُها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها..

﴿وَفُتِحَتۡ﴾ لهم..

﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها..

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ تهنئة لهم وترحيبا..

﴿سَلَٰمٌ﴾ من كل آفة وشر حال..

﴿عَلَيۡكُمۡ﴾..

﴿طِبۡتُمۡ﴾ طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته..

﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ فبسبب طيبكم ﴿ ٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾، لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون..

﴿وَقَالُواْ﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم..

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ وعدنا الجنة على ألسنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوفَّى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما منَّانا..

﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض الجنة..

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ ننزل منها أيَّ مكان شئنا، ونتناول منها أيَّ نعيم أردنا، ليس ممنوعـًا عنا شيءٌ نريده..

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٢-٧٤] الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمنٍ قليلٍ منقطع، فنالوا بذلك خيرًا عظيمـًا باقيـًا مستمرًا.. وهذه الدار التي تستحق المدح علىٰ الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلا وبنىٰ أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته، ما ببعضُه يُفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصفاء.

🕮 الفـوائـد

١- قال في النار ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ وفي الجنة ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ بالواو..

إشارة إلىٰ: أن أهل النار بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم وعلىٰ وصولهم أعظم لحرها، وأشد لعذابها..

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتىٰ بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلىٰ الله بمحمد ﷺ، حتىٰ يشفع، فيشفعه الله تعالىٰ.

وفي الآيات دليل علىٰ:

٢- أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق.

٣- وأن لكل منهما خزنة.

٤- وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر:٧٥]

﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي..

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ في ذلك اليوم العظيم..

﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله..

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ﴾ ينزهونه عن كلِّ ما لا يليق بجلاله، مما نَسب إليه المشركون وما لم ينسبوا..

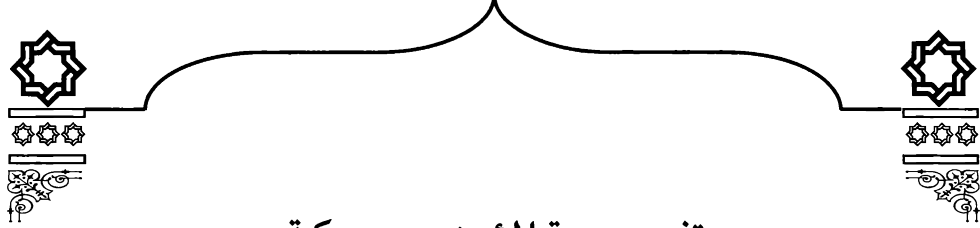
﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الأولين والآخرين من الخلق..

﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق..

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر:٧٥] لم يُذكر القائل من هو، ليدلَّ ذلك علىٰ أنَّ **جميع الخلق نطقوا بحمدِ ربهم** وحكمتِه علىٰ ما قضىٰ به علىٰ أهل الجنة وأهل النار.. حمدُ فضلٍ وإحسان، وحمدُ عدل وحكمة.

تم تفسير سورة (الزمر) بحمد الله وعونه





تفسير سورة المؤمن، وهي مكية

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:١-٣]

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالىٰ عن كتابه العظيم.. وبأنه صادر ومنزَّل من الله، المألوه المعبود.. لكماله وانفراده بأفعاله..

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي قهر بعزته كلَّ مخلوق..

﴿ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ بكل شيء..

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمذنبين..

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ من التائبين..

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ علىٰ من تجرأ علىٰ الذنوب ولم يتب منها..

﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.. فلما قرر ما قرر من كماله وكان ذلك موجبًا لأن يكون وحده المألوه الذي تخلُص له الأعمال قال..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:١-٣]..

📖 الفـوائـد

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف:

أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.. فإن القرآن:

إما إخبار عن **أسماء الله، وصفاته، وأفعاله**، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال..

وإما إخبار عن **الغيوب** الماضية والمستقبلة، فهي من تعليم العليم لعباده..

وإما إخبار عن **نعمه العظيمة**، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلىٰ ذلك، من الأوامر،

فذلك يدل عليه قوله: ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ ﴾..

وإما إخبار عن **نقمه الشديدة**، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾..

وإما **دعوة للمذنبين إلىٰ التوبة والإنابة**، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾..

وإما إخبار بأنه **وحده المألوه المعبود**، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية علىٰ ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوىٰ الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية علىٰ فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾..

وإما إخبار عن **حُكمه الجزائي** العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾..

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر:٤-٦]

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يخبر تبارك وتعالىٰ أنه ما يجادل في آياته..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ **والمراد بالمجادلة هنا**: المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار.. **وأما المؤمنون**: فيخضعون لله تعالىٰ الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل.. ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل علىٰ محبته له، وأنه علىٰ الحق ولهذا قال..

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ﴾ ترددهم..

﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾ بأنواع التجارات والمكاسب.. بل **الواجب علىٰ العبد**: أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلىٰ الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا

علم ولا عقل له.. ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم..

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الذين تحزبوا وتجمعوا علىٰ الحق ليبطلوه، وعلىٰ الباطل لينصروه..

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ وأنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلىٰ أنه ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم..

﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: يقتلوه، وهذا أبلغ ما يكون، الرسل الذين هم قادة أهل الخير الذين معهم الحق الصِرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، همُّوا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟!

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.. ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية..

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم وتحزبهم..

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرضَ أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم فإذا هم خامدون..

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كما حقت علىٰ أولئك، حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال..

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر:٤-٦]..

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر:٧]

يخبر تعالىٰ عن كمال لطفه تعالىٰ بعباده المؤمنين، وما قيَّض لأسباب سعادتهم، من الأسباب الخارجة عن قَدرِهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم.. وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقُربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله؛ لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالىٰ، الذي وسع الأرض والسماوات والكرسي.. وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالىٰ بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم.. واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل علىٰ أنهم **أفضل أجناس الملائكة** عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧]..

﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة..

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالىٰ، وخصوصًا التسبيح والتحميد.. **وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده**، لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالىٰ، **بل الحمد هو العبادة لله تعالىٰ**.. وأما قول العبد: (سبحان الله وبحمده) فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات..

﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾..

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًا، أنَّ الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.. ثم ولمَّا كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها -غير ما يتبادر إلىٰ كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غايته مجرد مغفرة الذنوب- ذكر تعالىٰ صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال..

﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفىٰ عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالىٰ ووسعتهم، ووصل إلىٰ ما وصل إليه خلقه..

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الشرك والمعاصي..

﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك..

﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر:٧] أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر:٨-٩]

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ علىٰ ألسنة رسلك..

﴿وَمَن صَلَحَ﴾ بالإيمان والعمل الصالح..

﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم..

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلىٰ كل خير..

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.. فلا نسألك يا ربنا أمرا تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك التي أخبرت بها علىٰ ألسنة رسلك واقتضاها فضلك المغفرة للمؤمنين..

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الأعمال السيئة وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها..

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة..

﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة علىٰ العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقيته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحَسَن..

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة..

﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر:٨-٩] الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

🕮 الفوائد

قد تضمن هذا الدعاء من الملائكة:

١- كمال معرفتهم بربهم.

٢- والتوسل إلىٰ الله بأسمائه الحسنىٰ، التي يحب من عباده التوسل بها إليه.

٣- والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه: فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصَها واقتضاءَها لِمَا اقتضته من المعاصي، ونحوِ ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط اللهُ بها عِلمًا، توسلوا بالرحيم العليم.

٤- وتضمن كمالَ أدبهم مع الله تعالىٰ بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُدْلِي علىٰ ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

٥- وتضمن **موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال** التي هي العبادات التي قاموا بها، واجتهدوا اجتهاد المحبين، **ومن العمال** الذين هم المؤمنون، الذين يحبهم الله تعالىٰ من بين خلقه، فسائر الخلق المكلَّفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، **لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل علىٰ محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.**

٦- وتضمن ما شرحه الله وفصَّله من دعائهم بعد قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ **التنبيه اللطيف علىٰ كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصرًا علىٰ مجرد معنىٰ اللفظ بمفرده**، بل ينبغي له أن يتدبر معنىٰ اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا علىٰ وجهه، نظر بعقله إلىٰ ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه، وما لا يتم إلا به، وما يتوقف عليه، **وجزم بأنَّ الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنىٰ الخاص**، الدال عليه اللفظ..

والذي يوجب له الجزم بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنىٰ والمتوقف عليه..

والثاني: عِلمه بأن الله بكل شيء عليم، وأنَّ اللهَ أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.. وقد علم تعالىٰ ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأنَّ كتابه هُدىٰ ونور وتبيان لكلِّ شيء، وأنَّه أفصح الكلام وأجَلُّه إيضاحًا..

فبذلك يَحصُل للعبد من العِلم العظيم والخير الكثير بحسب ما وفقه الله له..

وقد كان في تفسيرنا هذا كثير مِن هذا، مَنَّ به الله علينا.. وقد يخفىٰ في بعض الآيات مأخذُه علىٰ غير المتأمل صحيح الفكرة.. ونسأله تعالىٰ أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما

يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين..

فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآنَّات، وفي جميع اللحظات.. ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنه الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها.

٧- وتضمن ذلك: أن المقارن من زوج وولد وصاحب يسعد بقرينه، ويكون اتصالُه به سببًا لخير يحصُل له، خارجٌ عن عمله وسبب عمله، كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.. وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾، فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٠-١٢]

يخبر تعالىٰ عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فـ..

﴿يُنَادَوْنَ﴾ عند ذلك، ويقال لهم..

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم..

﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلىٰ الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من

الكريم حَالًّا بكم، حتىٰ آلت بكم الحال إلىٰ ما آلت.. فاليوم حلَّ عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و..

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ يريدون الموتة الأولىٰ، وما بين النفختين، علىٰ ما قيل.. أو العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعد ما أوجدهم..

﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الحياة الدنيا، والحياة الأخرىٰ..

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع.. ووُبِخوا علىٰ عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم..

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾ إذا دُعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونُهِيَ عن الشرك به..

﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ به، واشمأزت لذلك قلوبُكم ونفرتم غاية النفور..

﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوَّأكم هذا المَقيل والمَحل.. أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر.. ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.. تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف:١٤٦]..

﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ﴾ الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.. **ومن علو قدره:** كمال عدله تعالىٰ، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار..

﴿ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٠-١٢] الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه وصفاته وأفعاله.. المتنزه عن كلِّ آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحُكم له تعالىٰ وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، فحُكمُه لا يُغيَّر ولا يُبدَّل.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٣-١٦]

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يذكر تعالىٰ نِعَمَه العظيمة علىٰ عباده، بتبيين الحقِّ من الباطل، بما يُرِي عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية، الدالة علىٰ كلِّ مطلوب مقصود، الموضحة للهدىٰ من الضلال، بحيث لا يبقىٰ عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنىٰ شك في معرفة الحقائق.. وهذا من أكبر نعمه علىٰ عباده، حيث لم يُبْقِ الحقَّ مشتبهًا ولا الصوابَ ملتبسًا.. بل نوَّع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.. وكُلَّما كانت المسائل أجلَّ وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثرَ وأيسرَ.. فانظر إلىٰ التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبَّه علىٰ جملة من أدلتها فقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.. ولما ذكر أنه يُرِي عباده آياته، نبَّه علىٰ آية عظيمة فقال..

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ﴾ أي: مطرًا، به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل علىٰ أنَّ النِّعم كلها منه، فمنه **نعم الدين**، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. **والنعم الدنيوية** كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد.. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه -وحده- المنعم..

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها..

﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ إلىٰ الله تعالىٰ، بالإقبال علىٰ محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.. ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر علىٰ ذلك بالفاء الدالة علىٰ السببية فقال..

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.. والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالىٰ في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده، أي: أخلصوا لله تعالىٰ في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه..

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يُثْنِكُم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].. ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال..

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: العلي الأعلىٰ، الذي استوىٰ علىٰ العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدرُه، وجلت أوصافه، وتعالت ذاته.. أن يُتَقَرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص.. الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه.. ثم ذكر نعمته علىٰ عباده بالرسالة والوحي، فقال..

﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالىٰ ﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ ﴾..

﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم..

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل الذين فضَّلهم اللهُ واختصهم اللهُ لوحيه ودعوة عباده.. **والفائدة في إرسال الرسل:** هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال..

﴿لِيُنذِرَ﴾ من ألقىٰ الله إليه الوحي..

﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم علىٰ الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.. وسماه ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم..

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون علىٰ الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر..

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال..

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في المُلك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ المُلك..

﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه..

﴿ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٣-١٦] لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧]

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير..

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ علىٰ أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧] أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم فإنه آت، وكل آت قريب.. وهو أيضا سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة؛ لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٨-٢٠]

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾، **ثم وصفها بهذه الأوصاف، المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم**، لاشتمالها علىٰ الترغيب والترهيب.. يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ..

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلىٰ أهوالها وقلاقلها وزلازلها..

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوبُ من الروع والكرب إلىٰ الحناجر، شاخصة أبصارهم..

﴿كَٰظِمِينَ﴾ لا يتكلمون إلا من أَذِنَ له الرحمنُ وقال صوابا.. وكاظمين علىٰ ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة..

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب ولا صاحب..

﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالىٰ لا يرضىٰ شفاعتهم، فلا يقبلها..

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة..

﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالىٰ يعلم ذلك الخفيَّ، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولىٰ وأحرىٰ..

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق.. وهو المحيط علمًا وكتابةً وحفظًا بجميع الأشياء.. وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب.. وهو الذي يقضي قضاءَه القدري، الذي إذا شاء شيئًا كان، وما لم يشأ لم يكن.. وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءَه وأحبابه..

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهذا شامل لكلِّ ما عُبِد من دون الله..

﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات..

﴿ٱلْبَصِيرُ ⑳﴾ [غافر:١٩-٢٠] بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العبادُ وما لا يعلمون.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ㉑ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ㉒﴾ [غافر:٢١-٢٢]

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار..

﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شرَّ العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد..

﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كانوا أشدَّ قوة من هؤلاء في العَدَد والعُدَد وكِبَر الأجسام..

﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأشد ﴿ءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، من البناء والغرس.. وقوة الآثار تدل علىٰ: قوة المؤثر فيها، وعلىٰ تمنعه بها..

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعقوبته..

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ حين أصروا واستمروا عليها..

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ㉑ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾..

﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ㉒﴾ [غافر:٢١-٢٢] فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئًا.. بل من أعظم الأمم قوة قوم عاد، الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ﴾ [فصلت:١٥]، أرسل اللهُ إليهم ريحًا أضعفت قواهم، ودمرتهم كلَّ تدمير.. ثم ذكَر نموذجًا من أحوال المكذِّبين بالرسل، وهو فرعون وجنوده فقال..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ㉓ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ㉔ فَلَمَّا جَآءَهُم

بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٥]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ إلىٰ جنس هؤلاء المكذبين..

﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران..

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية علىٰ حَقِيَّة ما أُرسل به، وبطلان ما عليه مَن أُرسل إليهم من الشرك وما يتبعه..

﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي: حجة بينة، تتسلط علىٰ القلوب فتذعن لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات التي أيد الله بها موسىٰ، ومَكنه مما دعا إليه من الحق..

﴿إِلَىٰ﴾ والمبعوث إليهم..

﴿فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره..

﴿وَقَٰرُونَ﴾ الذي كان من قوم موسىٰ، فبغىٰ عليهم بماله.. وكلهم ردوا عليه أشدَّ الرد..

﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلىٰ أن..

﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم لم يقووا، وبقوا في رِقهم وتحت عبوديتهم..

﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٥] فما كيدهم إلا في ضلال.. حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضدُّ ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

📖 الفـوائـد

تدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالىٰ:

إذا كان السياق في قصة معينة أو علىٰ شيء معين، وأراد الله أن يحكم علىٰ ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذِكرُ الحُكم، **وعَلَّقه علىٰ الوصف العام؛ ليكون أعم**، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلامُ لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحُكم بذلك المعين..

فلهذا لم يقل (وما كيدهم إلا في ضلال)، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٦-٢٧]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبراً متجبراً مغررًا لقومه السفهاء..

﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: زعم -قبحه الله- أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه.. ثم ذكر الحامل له علىٰ إرادة قتله، وأنه نُصحٌ لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال..

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه..

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤]..

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعينًا بربه..

﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور..

﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٦-٢٧] أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب علىٰ الشر والفساد.. يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريبًا في القاعدة.. فمنعه الله تعالىٰ بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شرَّ فرعون وملئه.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا

فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر:٢٨-٢٩]

﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ ومن جملة الأسباب هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون.. من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة.. وخصوصًا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم **يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر**، كما منع اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم، موافقًا لهم علىٰ دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع.. فقال ذلك الرجل المؤمن الموفَّق العاقل الحازم، مقبِّحًا فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه..

﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه أنه يقول ربي الله.. ولم يكن أيضـًا قولا مجردًا عن البينات، ولهذا قال..

﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ لأنَّ بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.. فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلىٰ برهانه، فبينكم وبين حِل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.. ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كلَّ عاقل، بأي حالة قدرت، فقال..

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ أي: موسىٰ بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها.. فإن كان كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه.. وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذَّبكم اللهُ عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، فإنه لابد أن يصيبكم بعضُ الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.. **وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسىٰ**، حيث أتىٰ بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر

دائرًا بين تينك الحالتين، وعلىٰ كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.. ثم انتقل -رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه- إلىٰ أمرٍ أعلىٰ من ذلك، وبيان قرب موسىٰ من الحق فقال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال علىٰ الباطل..

﴿كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلىٰ الله.. فهذا لا يهديه الله إلىٰ طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم.. أي: وقد رأيتم ما دعا موسىٰ إليه من الحق، وما هداه الله إلىٰ بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية.. فالذي اهتدىٰ هذا الهدىٰ لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليل علىٰ كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.. ثم حذَّر قومه ونصحهم، وخوَّفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالمُلك الظاهر، فقال..

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا..

﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم..

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه..

﴿إِن جَآءَنَا﴾ ؟!.. وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾، ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضىٰ لهم ما يرضىٰ لنفسه.. فـ..

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضـًا له في ذلك، ومغرِّرًا لقومه أن يتبعوا موسىٰ..

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وصَدَق في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ولكن ما الذي رأىٰ؟! رأىٰ أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحقَّ معه، بل رأىٰ الحق مع موسىٰ، وجحد به مستيقنًا له..

﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر:٢٨-٢٩] وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فإن هذا قَلبٌ للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا علىٰ كفره وضلاله، لكان الشرُّ أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣﴾ [غافر:٣٠-٣٣]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ، لا يزالون يدعون إلىٰ ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتوٌّ من دَعوه عن تكرار الدعوة، فقال لهم..

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠﴾ يعني الأممَ المكذبين، الذين تحزَّبوا علىٰ أنبيائهم، واجتمعوا علىٰ معارضتهم، ثم بينهم فقال..

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة..

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جُرم أسلفوه.. ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال..

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢﴾ أي: يوم القيامة: حين ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ [الأعراف:٤٤] إلىٰ آخر الآيات، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠].. وحين ينادي أهلُ النار مَالكًا ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف:٧٧]، فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].. وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، فيجيبهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].. وحين يقال للمشركين: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ [القصص:٦٤].. فخوفهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا علىٰ شركهم بذلك، ولهذا قال..

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: قد ذُهب بكم إلىٰ النار..

﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ ﴾ [الطارق: ٩- ١٠]..

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [غافر:٣٠-٣٣] لأن الهُدىٰ بيد الله تعالىٰ.. فإذا مَنع عبدَه الهدىٰ لِعلمِه أنه غير لائق به لخبثه، فلا سبيل إلىٰ هدايته.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر:٣٤-٣٥]

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب عليهما السلام..

﴿مِن قَبۡلُ﴾ إتيان موسىٰ..

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة علىٰ صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له..

﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ في حياته..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم، و..

﴿قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالىٰ.. فإنه تعالىٰ لا يترك خلقه سدىٰ، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، وظنُ أن الله لا يرسل رسولا ظنٌّ ضلال، ولهذا قال..

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسىٰ ظلماً وعلوًّا.. فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلىٰ الضلال.. وهم الكذبة حيث نسبوا ذلك إلىٰ الله، وكذَّبوا رسوله.. فالذي وصفه السَرَف والكذب لا ينفك عنهما، لا يهديه الله ولا يوفقه للخير؛ لأنه ردَّ الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي

﴿طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].. ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بينت الحقَّ من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها علىٰ وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها..

﴿بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي: بغير حجة وبرهان.. وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا..

﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل..

﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فالله أشدُّ بغضـًا لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغضُ اللهِ لها ولمن اتصف بها..

﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وكذلك عباده المؤمنون، يَمقتون علىٰ ذلك أشد المقت؛ موافقةً لربهم.. وهؤلاء خواص خلق الله تعالىٰ، فمقتهم دليل علىٰ شناعة من مقتوه..

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما طبع علىٰ قلوب آل فرعون..

﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ في نفسه علىٰ الحق برده وعلىٰ الخلق باحتقارهم..

﴿جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر:٣٤-٣٥] بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٦-٣٧]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لموسىٰ ومكذبًا له في دعوته إلىٰ الإقرار برب العالمين.. الذي علىٰ العرش استوىٰ، وعلىٰ الخلق اعتلىٰ..

﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعـًا..

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ والقصد منه..

﴿فَأَطَّلِعَ﴾ لعلي أطلع..

﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ في دعواه أنَّ لنا ربـًا، وأنه فوق السماوات.. ولكن فرعون يريد أن يحتاط، ويختبر الأمر بنفسه.. قال الله تعالىٰ في بيان الذي حمله علىٰ هذا القول..

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فزُيِّن له العملُ السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتىٰ رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين..

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له..

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسىٰ مبطل..

﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر:٣٦-٣٧] أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر:٣٨-٤٠]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه..

﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنَّه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد..

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يُتَمَتَّعُ بها ويُتَنَعَّمُ قليلًا ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خُلقتم له..

﴿وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملًا يسعدكم فيها..

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان..

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لا يجازىٰ إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء..

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان..

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر:٣٨-٤٠] يُعطَونَ أجرَهم بلا حدٍّ ولا عدٍّ، بل يعطيهم اللهُ ما لا تبلغه أعمالُهم.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤﴾ [غافر:٤١-٤٤]

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ بما قلت لكم..

﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾ بترك اتباع نبي الله موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. ثم فسر ذلك فقال..

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول علىٰ الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها..

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء..

﴿ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾ الذي يسرف العبادُ علىٰ أنفسهم ويتجرؤون علىٰ مساخطه.. ثم إذا تابوا وأنابوا إليه كفَّر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية..

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا يقينًا..

﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ لا يستحق من الدعوة إليه، والحث علىٰ اللجأ إليه..

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لعجزه ونقصه.. وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا..

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ، فسيجازي كلَّ عامل بعمله..

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣﴾ وهم الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم بالتجرؤ علىٰ ربهم بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.. فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم..

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مَغَبَّة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتُحرَمون جزيل الثواب..

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلَّها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤﴾ [غافر:٤١-٤٤] يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شرَّكم، ويعلم أحوالكم.. فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليَّ فبحِكْمةٍ منه تعالىٰ، وعن إرادته ومشيئته صَدَر ذلك.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٥-٤٦]

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ وقىٰ اللهُ القويُّ الرحيمُ ذلك الرجلَ المؤمنَ الموفَّقَ عقوبات ما مكرَ فرعونُ وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه.. لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعاهم إلىٰ ما دعاهم إليه موسىٰ.. وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيدًا.. فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم علىٰ أنفسهم..

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥﴾ أغرقهم الله تعالىٰ في صبيحة واحدة عن آخرهم.. وفي البرزخ..

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٥-٤٦] فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر:٤٧-٤٩]

يخبر تعالىٰ عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضـًا، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك، فقال..

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين..

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ أي: الأتباع للقادة..

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ علىٰ الحق، ودعوهم إلىٰ ما استكبروا لأجله..

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر..

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ولو قليلا..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع..

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ وجعل لكلٍّ قسطَه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حَكَم به الحكيم..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ من المستكبرين والضعفاء..

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر:٤٧-٤٩] لعله تحصل بعض الراحة.. فـ..

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر:٥٠]

﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم موبِّخين ومبيِّنين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا..

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ التي تبينتم بها الحقَّ والصراط المستقيم، وما يقرِّب من الله وما يبعد منه؟!

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحقَّ بعد ما تبيَّن..

﴿قَالُواْ﴾ أي: الخزنة لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة..

﴿فَٱدْعُواْ﴾ أنتم، ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئا أم لا؟ قال تعالىٰ..

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر:٥٠] أي: باطل لاغ؛ لأن الكفر محبط لجميع الأعمال، صادٌّ لإجابة الدعاء.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١-٥٢]

لمَّا ذَكَر عقوبةَ آل فرعون في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة.. وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله وحاربوهم، قال..

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجة والبرهان والنصر..

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ في الآخرة بالحُكم لهم ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العقاب..

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ حين يعتذرون..

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١-٥٢] أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر:٥٣-٥٥]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ لمَّا ذكر ما جرىٰ لموسىٰ وفرعون.. وما آل إليه أمرُ فرعون وجنوده.. ثم ذَكَر الحُكم العامَّ الشامل له ولأهل النار.. ذكر أنه أعطىٰ موسىٰ..

﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الآيات والعلم، الذي يهتدي به المهتدون..

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣﴾ أي: جعلناه متوارَثًا بينهم، من قرن إلىٰ آخر.. وهو التوراة..

﴿هُدًى﴾ وذلك الكتاب مشتمل علىٰ الهدىٰ، الذي هو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها..

﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وعلىٰ التذكر للخير بالترغيب فيه، وعن الشر بالترهيب عنه.. وليس ذلك لكلِّ أحد، وإنما هو..

﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾..

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول كما صبر مَن قَبلك من أولي العزم المرسلين..

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ليس مشكوكًا فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتىٰ يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدىٰ الصِرف، الذي يَصبِر عليه الصابرون، ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.. فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس:٥٥] من الأسباب التي تحث علىٰ الصبر علىٰ طاعة اللهِ وعن ما يَكرَه اللهُ..

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك.. فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور..

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وبالتسبيح بحمد الله تعالىٰ.. خصوصًا..

﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر:٥٣-٥٥] اللَّذَين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما.. لأن في ذلك عونًا علىٰ جميع الأمور.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ [غافر:٥٦]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالىٰ: أنَّ من جادل في آياته ليبطلها بالباطل..

﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ بغير بينة من أمره ولا حجة..

﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ إنَّ هذا صادر من كِبر في صدورهم علىٰ الحق وعلىٰ من جاء به، يريدون الاستعلاءَ عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم..

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ ولكنَّ هذا لا يتم لهم وليسوا ببالغيه.. فهذا نص صريح وبشارة بـ: أن كلَّ من جادل الحقَّ أنه مغلوب، وكلَّ من تكبَّر عليه فهو في نهايته ذليل..

﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ اعتصم والجأ..

﴿بِٱللَّهِۖ﴾ ولم يذكر ما يَستعيذُ؛ إرادة للعموم.. أي: استعذ بالله من الكِبر الذي يوجب التكبر علىٰ الحق.. واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن.. واستعذ بالله من جميع الشرور..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات علىٰ اختلافها..

﴿ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر:٥٦] بجميع المرئيات، بأي مَحل وموضع وزمانٍ كانت.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾ [غافر:٥٧-٥٨]

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يخبر تعالىٰ بما تقرر في العقول، أن خلق السماوات والأرض، علىٰ عِظَمهما وسعتهما..أعظم و..

﴿أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ فإنَّ الناس بالنسبة إلىٰ خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون.. فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر علىٰ إعادة الناس بعد موتهم من باب أولىٰ وأحرىٰ.. **وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة علىٰ البعث** دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها يستدل بها استدلالًا لا يقبل الشكَّ والشبهة بوقوع ما أَخبرت به الرسل من البعث.. وليس كل أحدٍ يجعل فِكرَه لذلك، ويُقبل بتدبره، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم علىٰ بال.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمىٰ والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبرًا علىٰ عبادة ربه مقدِمًا علىٰ معاصيه، ساعيًا في مساخطه..

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر:٥٧-٥٨] أي: تذكركم قليل، وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة عليه.. لآثرتم النافع علىٰ الضار، والهدىٰ علىٰ الضلال، والسعادة الدائمة، علىٰ الدنيا الفانية.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر:٥٩]

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق.. ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلىٰ مراتب الصدق.. وقامت عليها الشواهد المرئية، والآيات الأفقية..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق والإذعان..

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر:٥٩]..

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠]

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ هذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة.. حيث دعاهم إلىٰ ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.. وأَمَرهم بدعائه دعاء العبادة، ودعاء المسألة.. ووعدهم أن يستجيب لهم.. وتوَّعد من استكبر عنها، فقال..

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠] أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء علىٰ استكبارهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦١-٦٥]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ لأجلكم جعلَ اللهُ الليلَ مظلماً..

﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ من حركاتكم، التي لو استمرت لضرت.. فتأوون إلىٰ فُرُشِكم، ويُلقي اللهُ عليكم النوم الذي يستريح به القلبُ والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه.. ويسكن أيضـاً كلُ حبيب إلىٰ حبيبه.. ويجتمع الفكرُ.. وتقلُّ الشواغل..

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ وجعل تعالىٰ ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ منيرًا بالشمس المستمرة في الفُلك.. فتقومون من فرشكم إلىٰ أشغالكم الدينية والدنيوية.. هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم، كما يدل عليه التنكير..

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصَرضف عنهم النِّقَمَ.. وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ بسبب جهلهم وظلمهم، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله، ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه..

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الَّذي فَعَل ما فَعَل..

﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية.. لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته.. وإيجابها للشكر من ألوهيته..

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تقرير لربوبيته..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده، لا شريك له.. ثم صرح بالأمر بعبادته فقال..

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ كيف تُصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعد ما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل؟!

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: عقوبة علىٰ جحدهم لآيات الله وتعديهم علىٰ رُسُله، صُرِفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:١٢٧]..

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ قارة ساكنة، مهيأة لكلِّ مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها، والبناء عليها، والسفر، والإقامة فيها..

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سَقفًا للأرض التي أنتم فيها.. قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات، التي يُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر..

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].. وإذا أردت أن تعرف حُسن الآدمي وكمال حِكمة الله تعالىٰ فيه، فانظر إليه عضوًا عضوًا، هل تجد عضوًا من أعضائه يليق به، ويصلح أن يكون في غير محله؟! وانظر أيضًا إلىٰ المَيل الذي في القلوب، بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدمين؟ وانظر إلىٰ ما خصَّه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور..

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ وهذا شامل لكلِّ طيب، من مأكل، ومشرب، ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يَسَّرها اللهُ لعباده، ويسر لهم أسبابها.. ومنعهم من الخبائث التي تضادها، وتضر أبدانهم، وقلوبهم، وأديانهم..

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي دبَّر الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم..

﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: تعاظم، وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه..

﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها.. كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك، من صفات كماله، ونعوت جلاله..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق، إلا وجهه الكريم..

﴿فَٱدْعُوهُ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة..

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجهَ الله تعالىٰ.. فإنَّ الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]..

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦١-٦٥] أي: جميع المحامد والمدائح والثناء **بالقول**: كنطق الخلق بذكره، **والفعل**: كعبادتهم له.. كل ذلك لله تعالىٰ وحده لا شريك له؛ لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

🕮 الفوائد

تَدَبَّر هذه الآيات الكريمات، الدالة علىٰ:

سعة رحمة الله تعالىٰ..

وجزيل فضله..

ووجوب شكره..

وكمال قدرته..

وعظيم سلطانه..

وسعة ملكه..

وعموم خلقه لجميع الأشياء..

وكمال حياته..

واتصافه بالحمد علىٰ: كل ما اتصف به من الصفات الكاملة.. وما فعله من الأفعال الحسنة..

وتمام ربوبيته، وانفراده فيها..

وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي، في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالىٰ، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء.

فينتج من ذلك: أنه تعالىٰ المألوه **المعبود وحده**، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئًا، كما لم يستحق من الربوبية شيئًا..

وينتج من ذلك: امتلاء القلوب **بمعرفة الله تعالىٰ** ومحبته وخوفه ورجائه.

وهذان الأمران -وهما معرفته وعبادته-: هما اللذان خلق اللهُ الخلقَ لأجلهما.. وهما الغاية المقصودة منه تعالىٰ لعباده.. وهما الموصلان إلىٰ كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخروية.. وهما أشرف عطايا الكريم لعباده.. وهما أشرف اللذات علىٰ الإطلاق.. وهما اللذان إن فاتا فات كل خير، وحضر كل شر..

فنسأله تعالىٰ: أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته.. وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة، خالصة لوجهه.. تابعة لأمره.. إنه لا يتعاظمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر:٦٦]

لمَّا ذَكَر الأمرَ بإخلاص العبادة لله وحده.. وذَكَر الأدلَّةَ علىٰ ذلك والبينات.. **صرح بالنهي عن عبادة ما سواه** فقال..

﴿۞ قُلْ﴾ يا أيها النبي..

﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله.. ولستُ علىٰ شك من أمري، بل علىٰ يقين وبصيرة، ولهذا قال..

﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر:٦٦] بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره.. وهذا أعظم مأمور به علىٰ الإطلاق، كما أنَّ النهي عن عبادة ما سواه، أعظم مَنْهِيٍّ عنه، علىٰ الإطلاق.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر:٦٧-٦٨]

ثمَّ قَرر هذا التوحيد بـ: أنه الخالق لكم، والمطور لخلقتكم.. **فكما خلقكم وحده، فاعبدوه وحده**، فقال..

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني، ما دام في بطن أمه.. فنبَّه بالابتداء علىٰ بقية الأطوار..

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ فالمضغة.. فالعظام.. فنفخ الروح..

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخِلقة الإلهية حتىٰ تبلغوا أشدَّكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة..

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾..

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ بلوغ الأشد..

﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ بهذه الأطوار المقدرة..

﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ تنتهي عنده أعماركم..

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أحوالكم.. فتعلمون أنَّ المطوِّر لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنَّه الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلا له، وأنَّكم ناقصون من كُلِّ وجه..

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفسٌ بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١]..

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ جليلًا أو حقيرًا..

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ [غافر:٦٧-٦٨] لا ردَّ في ذلك، وَلَا مَثْنَوِيَّةٍ[1]، ولا تمنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾ [غافر:٦٩-٧٦]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الواضحة البيِّنة متعجباً من حالهم الشنيعة..

﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩﴾ أي: كيف ينعدلون عنها؟! وإلىٰ أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟! هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟! لا والله.. أم يجدون شُبهاً توافق أهواءهم ويصولون بها لأجل باطلهم؟!

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ﴾ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب، الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رُسلَه، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولًا.. فهؤلاء لا جزاء لهم سوىٰ النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال..

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾..

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة..

﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ التي يقرنون بها، هم وشياطينهم..

---

(١) يعني: لا تُثنىٰ ولا تتكرر حتىٰ تكون.

﴿يُسۡحَبُونَ ٧١﴾..

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ الماء الذي اشتد غليانه وحره..

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم، فيَصلَون بها..

﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ ثم يوبَّخون علىٰ شركهم وكَذِبهم.. ويقال..

﴿لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ هل نفعوكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟!

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا.. ثم إنهم أنكروا فقالوا..

﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ **يحتمل أن مرادهم بذلك:** الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم.. **ويحتمل -وهو الأظهر- أن مرادهم بذلك:** الإقرار علىٰ بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ..

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكلِّ أحد، حتىٰ إنهم بأنفسهم، يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [يونس:٦٦].. ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر:١٤]، ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥] الآيات.. ويقال لأهل النار..

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب، الذي نُوِّعَ عليكم..

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل وتمرحون علىٰ عباد الله، بغيًا وعدوانًا وظلمًا وعصيانًا، كما قال تعالىٰ في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر:٨٣]، وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص:٧٦].. وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]، وهو الفرح بالعلم النافع، والعمل الصالح..

﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل بطبقة من طبقاتها، علىٰ قدر عمله..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ لا يخرجون منها أبدًا..

﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٦﴾ [غافر:٦٩-٧٦] مثوىٰ يُخزون فيه، ويهانون، ويُحبسون، ويُعذَّبون، ويَترددون بين حَرِّها وزمهريرها.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر:٧٧]

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا أيها الرسول علىٰ دعوة قومك، وما ينالك منهم من أذىٰ.. واستعن علىٰ صبرك بإيمانك..

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ سينصر دينه، ويُعْلِي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة.. واستعن علىٰ ذلك أيضًا بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال..

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ في الدنيا فذاك..

﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عقوبتهم..

﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر:٧٧] فنجازيهم بأعمالهم، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم:٤٢].. ثم سلَّاه وصبَّره، بذكر إخوانه المرسلين فقال..

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ [غافر:٧٨]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ كثيرين إلىٰ قومهم، يدعونهم ويصبرون علىٰ أذاهم..

﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ خبرهم..

﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ وكل الرسل مدبَّرون، ليس بيدهم شيء من الأمر..

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما كان لأحد منهم..

﴿أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية..

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته وأمره.. فاقتراح المقترحين علىٰ الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعنت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة علىٰ صدقهم وصحة ما جاءوا به..

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح..

﴿قُضِىَ﴾ بينهم..

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، ولهذا قال..

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت القضاء المذكور..

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾ [غافر:٧٨] الذين وَصفُهم الباطل.. وما جاءوا به من العلم والعمل باطل.. وغايتهم المقصودة لهم باطلة.. فَلْيَحْذَر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا علىٰ باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾ [غافر:٧٩-٨١]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يمتن تعالىٰ علىٰ عباده، بما جعل لهم من الأنعام، التي بها جملة من الإنعام: منها: منافع الركوب عليها، والحمل.. ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.. ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة، من أصوافها، وأوبارها وأشعارها.. إلىٰ غير ذلك من المنافع..

﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلىٰ الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها..

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠﴾ أي: علىٰ الرواحل البرية، والفلك البحرية، يحملكم الله الذي سخرها، وهيأ لها ما هيأ من الأسباب، التي لا تتم إلا بها..

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة علىٰ وحدانيته، وأسمائه، وصفاته، وهذا من أكبر نعمه،

حيث أشهد عباده، آياته النفسية، وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعدَّدَها عليهم، ليعرفوه، ويشكروه، ويذكروه..

﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر:٧٩-٨١] أي آية من آياته لا تعترفون بها؟! فإنكم قد تقرر عندكم أن جميع الآيات والنعم منه تعالىٰ، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهاد في طاعته، والتبتل في خدمته، والانقطاع إليه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٢-٨٥]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحث تعالىٰ المكذبين لرسولهم، علىٰ السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم، وسؤال العالمين..

﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال..

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من الأمم السالفة، كعاد، وثمود وغيرهم، ممن..

﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كانوا أعظم منهم قوة، وأكثر أموالًا، وأشد آثارًا في الأرض، من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة..

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.. ثم ذكر جُرمهم الكبير فقال..

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدي من الضلال، والحق من الباطل..

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ المناقض لدين الرسل.. ومن المعلوم أن فرحهم به يدل علىٰ شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقًا.. وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل.. ومن أحقها بالدخول في هذا علوم الفلسفة والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدرَه في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية، لا تفيد شيئًا من اليقين، ويُقدِم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله، والمعارضة لها، والمناقضة، فالله المستعان..

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل..

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾ من العذاب..

﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار..

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل، من علم أو عمل..

﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ أي: في تلك الحال، وهذه..

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ وعادته..

﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ أنَّ المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجيًا لهم من العذاب.. وذلك لأنه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة.. وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب..

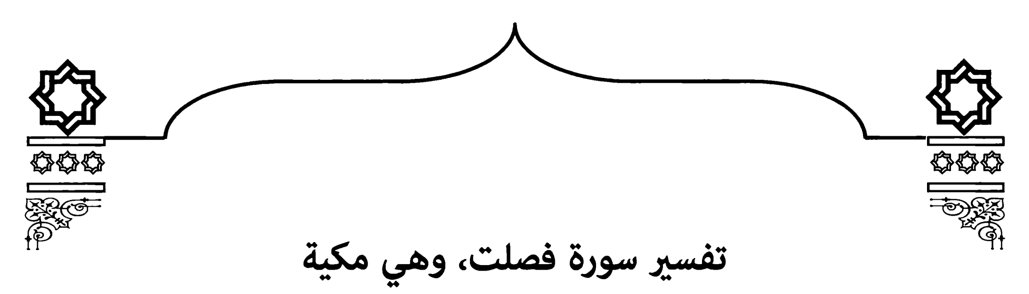
﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت الإهلاك، وإذاقة البأس..

﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [غافر:٨٢-٨٥] دينَهم ودنياهَم وأخراهم.. ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يُشِقي في العذاب الشديد، والخلود فيه دائمـًا أبدًا.

تم تفسير سورة (المؤمن)

بحمد الله ولطفه ومعونته، لا بحولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء





تفسير سورة فصلت، وهي مكية

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت:١-٥]

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ﴾ يخبر تعالىٰ عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر..

﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ الذي وسعت رحمته كلَّ شيء..

﴿كِتَٰبٌ﴾ الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدىٰ والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه علىٰ العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.. ثم أثنىٰ علىٰ الكتاب بتمام البيان فقال..

﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فصَّل كلَّ شيء من أنواعه علىٰ حِدَته.. وهذا يستلزم: البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق..

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ باللغة الفصحىٰ، أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربيًا..

﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه، كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدىٰ من الضلال، والغَيِّ من الرشاد.. وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدىٰ إلا ضلالا، ولا البيان إلا عمًىٰ، فهؤلاء لم يُسَقِ الكلامُ لأجلهم، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]..

﴿بَشِيرًا﴾ بالثواب العاجل والآجل..

﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب العاجل والآجل.. وذَكر تفصيلهما، وذَكر الأسباب والأوصاف

التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتَلَقَّىٰ بالقبول، والإذعان، والإيمان، والعمل به..

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ولكن أعرض أكثرُ الخلق عنه، إعراض المستكبرين..

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعـًا تقوم عليهم به الحجة الشرعية..

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسدِّ الأبواب الموصلة إليه..

﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطية مغشاة..

﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صمم فلا نسمع لك..

﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك.. **القصد من ذلك**: أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا..

﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت:١-٥] أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا.. وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدىٰ، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت:٦-٨]

﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها النبي..

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ هذه صفتي ووظيفتي، أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم، وميَّزني، وخصَّني، بالوحي الذي أوحاه إليَّ وأمرني باتباعه، ودعوتكم إليه..

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلىٰ الله تعالىٰ، بتصديق الخبر الذي أَخبر به، واتباع الأمر، واجتناب النهي.. هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام علىٰ ذلك.. وفي قوله: ﴿ إِلَيْهِ ﴾ تنبيه علىٰ الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل

مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها الوصول إلىٰ الله، وإلىٰ دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصـًا صالحـًا نافعـًا، وبفواته يكون عمله باطلا.. ولما كان العبد -ولو حرص علىٰ الاستقامة- لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أَمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال..

﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ ثم توَّعد من ترك الاستقامة فقال..

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعـًا ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا.. ودنسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا.. فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخَلق بالزكاة وغيرها..

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة والنار.. فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا علىٰ ما أقدموا عليه، مما يضرهم في الآخرة.. ولما ذكر الكافرين، ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان..

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة..

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: عظيم..

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت:٦-٨] غير مقطوع ولا نافد، بل هو مستمر مدىٰ الأوقات، متزايد علىٰ الساعات، مشتمل علىٰ جميع اللذات والمشتهيات.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت:٩-١١]

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ يُنكر تعالىٰ ويَعجب من كُفر الكافرين به.. الذين جعلوا معه أندادًا..

﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الكثيفة العظيمة..

﴿فِى يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم..

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩﴾ ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم..

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوۡقِهَا﴾ ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، تُرسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار..

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ فكَمُل خلقُها، ودحاها، وأخرجَ أقواتَها وتوابعَ ذلك..

﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ عن ذلك، فلا ينبئك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص..

﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض..

﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ أي: قصد..

﴿إِلَى﴾ خلق..

﴿ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ قد ثار علىٰ وجه الماء..

﴿فَقَالَ لَهَا﴾ ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله..

﴿وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ أي: انقادا لأمري، طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه..

﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت:٩-١١] ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت:١٢]

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوۡمَيۡنِ﴾ فتَمَّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.. مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة..

﴿وَأَوۡحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين..

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ هي: النجوم، يستنار بها، ويهتدىٰ، وتكون زينة وجمالًا للسماء ظاهرًا، وجمالًا لها باطنًا، بجعلها رجومًا للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها..

﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾..

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها..

﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي عزته، قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات..

﴿ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت:١٢] الذي أحاط علمه بالمخلوقات، الغائب والشاهد.

📖 **الفـوائـد**

اعلم أنَّ ظاهر هذه الآية مع قوله تعالىٰ في النازعات لمَّا ذكر خلق السماوات قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، يظهر منهما التعارض، مع أن كتاب الله، لا تعارض فيه ولا اختلاف..

والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أنَّ خلق الأرض وصورتها متقدم علىٰ خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾ [النازعات] متأخر عن خلق السماوات، كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا﴾ [النازعات: ٣٠- ٣١] إلىٰ آخره، ولم يقل: (والأرض بعد ذلك خلقها).

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾ [فصلت:١٣-١٤]

فَتَرْكُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قَدَرُه، من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أندادًا يسوونهم به وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب.. ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية، فلهذا خوَّفهم بقوله..

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ فإن أعرض هؤلاء المكذِّبون بعد ما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم..

﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ﴾ أي: عذابًا يستأصلكم ويجتاحكم..

﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم..

﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ حيث ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [فصلت:١٤]، أي: يتبع بعضهم بعضا متوالين، ودعوتهم جميعًا واحدة..

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ يأمرونهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردُّوا رسالتهم وكذبوهم..

﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ وأما أنتم فبشر مثلنا..

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾ [فصلت:١٣-١٤] وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين من الأمم، وهي من أوهىٰ الشُّبَهِ، فإنه ليس من شرط الإرسال، أن يكون المرسل مَلَكًا، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل علىٰ صدقه، فَلْيَقْدَحُوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلىٰ ذلك سبيلا.

﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ [فصلت:١٥-١٦]

هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد، وثمود..

﴿فَأَمَّا عَادٞ﴾ فكانوا مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله..

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم..

﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ قال تعالىٰ ردًا عليهم، بما يعرفه كل أحد..

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا، فلو نظروا إلىٰ هذه الحال نظرًا صحيحًا، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة، تناسب قوتهم، التي اغتروا بها..

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾..

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ ريحًا عظيمة، من قوتها وشدتها لها صوت مزعج، كالرعد القاصف.. فسخرها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]..

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].. وقال هنا..

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة..

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦] لا يُمنعون من عذاب الله، ولا ينفعون أنفسهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٧-١٨]

وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحِجر وحواليه.. الذين أرسل الله إليهم صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يدعوهم إلىٰ توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك.. وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شِرب ولهم شِرب يوم معلوم، يشربون لبنها يومًا، ويشربون من الماء يومًا، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا..

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾ هداية بيان.. وإنَّما نصَّ عليهم وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليهم الحجة، وحصل لهم البيان.. لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكَرَهُم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدىٰ..

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ولكنهم من ظلمهم وشرهم.. استحبوا العمىٰ الذي هو الكفر والضلال.. علىٰ الهدىٰ، الذي هو العلم والإيمان..

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ لا ظلمًا من الله لهم..

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٧-١٨] أي نجىٰ الله صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك، والمعاصي.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصلت:١٩-٢٠]

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالىٰ عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم.. وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون..

﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾ أي: يُرَدُّ أوَلُهم علىٰ آخِرِهم، ويَتبَع آخرُهم أولَهم.. ويساقون إليها سوقـاً عنيفـاً، لا يستطيعون امتناعـاً.. ولا يَنصُرون أنفسهم، ولا هم يُنصرون..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ حتىٰ إذا وَرَدُوا علىٰ النار، وأرادوا الإنكار.. أو أنكروا ما عملوه من المعاصي..

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ عموم بعد خصوص[(١)]..

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصلت:١٩-٢٠] أي: شهد عليهم كلُّ عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا.. وخصَّ هذه الأعضاءَ الثلاثة؛ لأن أكثر الذنوب، إنما تقع بها، أو بسببها.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾ [فصلت:٢١-٢٤]

فإذا شهدت عليهم **عاتبوها**..

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ﴾ هذا دليل عل أن الشهادة تقع من كلِّ عضو كما ذكرنا..

---

(١) لعلَّ المراد بالعموم (الجلود) التي هي كناية عن (جميع الأعضاء)، يدل عليه: قول المصنف في الآية بعدها: [(وقالوا لجلودهم) هذا دليل عل أن الشهادة تقع من كلِّ عضو كما ذكرنا].اهـ

﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ونحن ندافع عنكن؟!

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أَنطقنا الذي لا يَستعصي عن مشيئته أَحد..

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم.. خلق أيضاً **صفاتكم**.. ومن ذلك **الإنطاق**..

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ في الآخرة.. فيجزيكم بما عملتم.. ويحتمل أن المراد بذلك **الاستدلال علىٰ البعث بالخلق الأول**، كما هو طريقة القرآن..

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تَختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تُحاذرون من ذلك..

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بإقدامكم علىٰ المعاصي..

﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر.. وهذا الظنُّ صار سببَ هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال..

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الظنَّ السيئ، حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله..

﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أهلككم..

﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم.. بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنُّكم القبيحُ بربكم.. فحقَّت عليكم كلمةُ العقاب والشقاء، وَوَجَبَ عليكم الخلودُ الدائم في العذاب، الذي لا يُفتَّر عنهم ساعة..

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فلا جَلَدَ عليها ولا صبر، وكلُّ حالةٍ قُدِّر إمكانُ الصبرِ عليها، فالنار لا يمكن الصبرُ عليها.. وكيف الصبر علىٰ نار قد اشتد حرها، وزادت علىٰ نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ؟!..

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يطلبوا أن يزال عنهم العَتَب، ويرجعوا إلىٰ الدنيا، ليستأنفوا العمل..

﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت:٢٣-٢٤] لأنَّه ذهب وقته، وعمَّروا ما يعمر فيه من تذكر، وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم.. مع أن استعتابهم كذب منهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت:٢٥]

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق..

﴿قُرَنَآءَ﴾ من الشياطين..

﴿فَزَيَّنُوا۟﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، أي: تزعجهم إلىٰ المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا..

﴿لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ **فالدنيا:** زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلىٰ لذاتها وشهواتها المحرمة حتىٰ افتُتِنوا.. فأقدموا علىٰ معاصي الله، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله.. **والآخرة:** بَعَّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرَها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه بعدم وقوعها.. فترحَّل خوفُها من قلوبهم، فقادوهم إلىٰ الكفر والبدع والمعاصي.. **وهذا التسليط** والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، **بسبب إعراضهم** عن ذكر الله وآياته، **وجحودهم** الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦- ٣٧]..

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم..

﴿فِىٓ﴾ جملة..

﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت:٢٥] لأديانهم وآخرتهم.. ومن خسر فلا بد أن يَذِلَّ ويَشقىٰ ويُعذَّب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت:٢٧-٢٩]

يخبر تعالىٰ عن إعراض الكفار عن القرآن، وتواصيهم بذلك، فقال..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أعرضوا عنه بأسماعكم.. وإياكم أن تلتفتوا أو تصغوا إليه ولا إلىٰ من جاء به.. فإن اتفق أنكم سمعتموه أو سمعتم الدعوة إلىٰ أحكامه، فـ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾..

﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أي: تكلَّموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تُمَكِّنوا -مع قدرتكم- أحدًا يملك عليكم الكلامَ به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، **هذا لسان حالهم.. ولسان مقالهم**، في الإعراض عن هذا القرآن..

﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ إن فعلتم ذلك..

﴿تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ **وهذه شهادة من الأعداء**، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء.. فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك.. **ومفهوم كلامهم**: أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يَغلبون.. فإنَّ الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحابُ الحق وأعداؤه.. ولمَّا كان هذا ظُلماً منهم وعنادًا، **لم يبق فيهم مطمعٌ للهداية**، فلم يبق إلا عذابُهم ونكالُهم، ولهذا قال..

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها.. فالجزاء بالعقوبة إنما هو علىٰ عمل الشرك ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]..

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه.. بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجالدة..

﴿ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون، وذلك..

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾ فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: الأتباع منهم -بدليل ما بعده- علىٰ وجه الحنق، علىٰ من أضلهم..

﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أي: الصنفين اللَّذَين قادانا إلىٰ الضلال والعذاب، من شياطين الجن وشياطين الإنس، الدعاة إلىٰ جهنم..

﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت:٢٧-٢٩] أي: الأذلين المهانين.. كما أضلونا وفتنونا وصاروا سببًا لنزولنا.. **ففي هذا:** بيان حنق بعضهم علىٰ بعض، وتبرِّي بعضهم من بعض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت:٣٠-٣٢]

يخبر تعالىٰ **عن أوليائه.. وفي ضمن ذلك: تنشيطهم، والحث علىٰ الاقتداء بهم**، فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترفوا ونطقوا.. ورضوا بربوبية الله تعالىٰ.. واستسلموا لأمره..

﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ علىٰ الصراط المستقيم، علماً وعملًا.. فلهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة..

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام.. أي: يتكرر نزولهم عليهم -مبشرين لهم- عند الاحتضار..

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ علىٰ ما يُستقبل من أمركم..

﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ علىٰ ما مضىٰ.. فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل..

﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا.. ويقولون لهم -أيضا- مثبِّتين لهم ومبشرين..

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير.. ويزينونه لهم.. ويرهبونهم عن الشر.. ويقبحونه في قلوبهم.. ويدعون الله لهم.. ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف..

﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ وخصوصًا عند الموت وشِدَّته.. والقبر وظلمته.. وفي القيامة وأهوالها.. وعلىٰ الصراط.. وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم.. ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].. ويقولون لهم أيضا..

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الجنة..

﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ قد أُعِد وهُيئ..

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه، من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر..

﴿نُزُلًا﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نُزُلٌ وضيافة..

﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ غفَر لكم السيئات..

﴿رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قَبِلها منكم.. **فبمغفرته:** أزال عنكم المحذورَ.. **وبرحمته:** أنالَكم المطلوبَ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت:٣٣]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ هذا استفهام بمعنىٰ النفي المتقرر.. أي: لا أحد أحسن قولًا.. أي: كلاماً وطريقةً وحالةً..

﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بتعليم الجاهلين.. ووعظ الغافلين والمعرضين.. ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن.. والزجر عما نهىٰ الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه.. خصوصاً من هذه الدعوة إلىٰ أصل دين الإسلام وتحسينه.. ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن.. والنهي عما يضاده من

الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلىٰ الله، بادر هو بنفسه إلىٰ امتثال أمر الله، بالعمل الصالح الذي يُرْضِي ربه..

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت:٣٣] المنقادين لأمره، السالكين في طريقه.. **وهذه المرتبة تمامها للصديقين،** الذين عملوا علىٰ تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل.. كما أنَّ **من أشر الناس قولًا** من كان من دعاة الضالين السالكين لسبله.. **وبين هاتين المرتبتين** المتباينتين اللتين ارتفعت إحداهما إلىٰ أعلىٰ عليين، ونزلت الأخرىٰ إلىٰ أسفل سافلين **مراتب، لا يعلمها إلا الله،** وكلها معمورة بالخلق ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٣٢].

📖 **الفـوائـد**

من الدعوة إلىٰ الله: تحبيبه إلىٰ عباده، بذكر تفاصيل نِعَمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلىٰ الله: الترغيب في **اقتباس العلم والهدىٰ من كتاب الله وسنة رسوله،** والحث علىٰ ذلك بكلِّ طريق موصل إليه.

ومن ذلك: الحث علىٰ مكارم الأخلاق، والإحسان إلىٰ عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك: الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال.

إلىٰ غير ذلك: مما لا تنحصر أفراده، مما تشمله **الدعوة إلىٰ الخير كله، والترهيب من جميع الشر.**

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالىٰ.. ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه.. ولا يستوي الإحسان إلىٰ الخلق ولا الإساءة إليهم.. لا في ذاتها ولا في وصفها ولا في جزائها، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] **ثم أمر بإحسان خاص،** له موقع كبير، وهو **الإحسان إلىٰ من أساء إليك،** فقال..

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإذا أساء إليك مسيء من الخلق -خصوصًا من له حق كبير- عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل.. فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلهُ، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلَّم فيك غائبًا أو حاضرًا فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول الليِّن، وإن هجرك وترك خطابك فَطيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام.. **فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة..**

﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ كأنه قريب شفيق..

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ وما يُوَفَّق لهذه الخصلة الحميدة..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ نفوسهم علىٰ ما تكره، وأجبروها علىٰ ما يحبه الله.. فإنَّ النفوس مجبولة علىٰ مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟!.. فإذا صبَّر الإنسانُ نفسه وامتثل أمرَ ربه، وعرف جزيلَ الثواب، وعَلِم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيده شيئًا، ولا يزيد العداوةَ إلا شدة، وأن إحسانَه إليه ليس بواضعٍ قدرَه، بل من تواضع لله رفعه.. **هان عليه الأمر، وفعل ذلك متلذذًا مستحليًا له..**

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] لكونها من **خصال خواص الخلق..** التي ينال بها العبدُ **الرِّفعةَ** في الدنيا والآخرة.. التي هي من **أكبر خصال مكارم الأخلاق.**

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت:٣٦-٣٨]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ ما يُقابَلُ به العدوَّ من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان.. **ذَكضر ما يُدفعُ به العدوَّ الجِنيِّ**، وهو الاستعاذة بالله، والاحتماء من شره فقال..

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ أي: أيّ وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشر.. وتكسيله عن الخير.. وإصابة ببعض الذنوب.. وإطاعة له ببعض ما يأمر به..

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ اسأله -مفتقرًا إليه- أن يعيذك ويعصمك منه..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فإنَّه يسمع قولَك وتضرعك..

﴿ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾ ويعلم حالك واضطرارك إلىٰ عصمته وحمايته.. ثم ذكر تعالىٰ أن﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾..

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾ **الدالة علىٰ**: كمال قدرته.. ونفوذ مشيئته.. وسعة سلطانه.. ورحمته بعباده.. وأنه الله وحده لا شريك له..

﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ هذا بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه.. وهذا بمنفعه ظلمه، وسكون الخلق فيه..

﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ اللذان لا تستقيم معايش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما.. وبهما من المصالح ما لا يُحصىٰ عددُه..

﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ فإنهما مدبَّران مسخران مخلوقان..

﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم.. ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه؛ فإن ذلك ليس منه، وإنما هو مِن خالِقه، تبارك وتعالىٰ..

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝٣٧﴾ فخصُّوه بالعبادة وإخلاص الدين له..

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن عبادة الله تعالىٰ، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا اللهَ شيئًا، واللهُ غني عنهم.. وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال..

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين..

﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت:٣٦-٣٨] لا يملون من عبادته؛ لقوتهم، وشدة الداعي القويِّ منهم إلىٰ ذلك.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ **الدالة علىٰ:** كمال قدرته.. وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية..

﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ لا نبات فيها..

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ أي: المطر..

﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تحركت بالنبات..

﴿وَرَبَتۡۚ﴾ ثم: أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد..

﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ بعد موتها وهمودها..

﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ من قبورهم إلىٰ يوم بعثهم، ونشورهم..

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩] فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتىٰ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٠-٤٢]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ **الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب** بأي وجه كان، إما بإنكارها وجحودها وتكذيب من جاء بها، **وإما بتحريفها** وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان لها ما أرادها الله منها.. **فتوعَّد تعالىٰ من ألحد فيها بـ:** أنه لا يخفىٰ عليه، بل هو مطَّلع علىٰ ظاهره وباطنه، وسيجازيه علىٰ إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال..

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله..

﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ من عذاب الله، مستحقًا لثوابه؟! من المعلوم أن هذا خير.. لمَّا تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك، قال..

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرُّشد الموصلة إلىٰ رضا ربكم وجنته.. وإن شئتم فاسلكوا طريق الغيِّ المسخطة لربكم، الموصلة إلىٰ دار الشقاء..

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].. ثم قال تعالىٰ..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ يجحدون القرآن الكريم المُذَكِّر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المُعلي لقدر من اتبعه..

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم علىٰ يد أفضل الخلق وأكملهم..

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ والحال ﴿إِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ جامع لأوصاف الكمال..

﴿عَزِيزٌ ۝٤١﴾ منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال..

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن.. لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص.. فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]..

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كلَّ شيء موضعه، وينزله منزله..

﴿حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت:٤٠-٤٢] علىٰ ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلىٰ ما له من العدل والإفضال.. فلهذا كان كتابه مشتملًا علىٰ تمام الحِكمة، وعلىٰ تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ
إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝٤٣﴾ [فصلت:٤٣]

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة، ممَّن كذَّبك وعاندك..

﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من جنسها.. بل: ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كـ: تعجب جميع الأمم المكذِّبة للرسل من دعوتهم إلىٰ الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس:١٥]، واقتراحهم علىٰ رسلهم الآيات التي لا يَلزَمُهم الإتيان بها، ونحوِ ذلك من أقوال أهل التكذيب.. لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم.. وصبر الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علىٰ أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر مَن قبلَك.. ثم دعاهم إلىٰ التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار علىٰ الغيّ فقال..

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة، يمحو بها كلَّ ذنب لمن أقلع وتاب..

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت:٤٣] لِمَن أصرَّ واستكبر.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤]

يخبر تعالىٰ عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتاباً عربياً علىٰ الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم.. وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له، والتسليم..

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ وأنه لو جَعَله قرآناً أعجمياً بِلُغَة غير العرب..

﴿لَّقَالُوا۟﴾ لاعترض المكذِّبون وقالوا..

﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ هلَّا بُيِّنت آياته، ووضِّحت وفسِّرت..

﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: كيف يكون محمدٌ عربيًا والكتاب أعجمي؟! هذا لا يكون.. فنفىٰ الله تعالىٰ كلَّ أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد.. ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.. ولهذا قال..

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلِّمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة.. وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام

القلبية، لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث علىٰ التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب..

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن..

﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صمم عن استماعه، وإعراض..

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالًا.. فإنهم إذا رَدُّوا الحقَّ ازدادوا عَمىٰ إلىٰ عماهم، وغيًّا إلىٰ غيِّهم..

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ إلىٰ الإيمان ويُدعون إليه، فلا يستجيبون..

﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤] بمنزلة الذي ينادي وهو في مكان بعيد، لا يُسمع داعيًا ولا يُجيب مناديًا.. **والمقصود**: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرًا؛ لأنهم سدوا علىٰ أنفسهم أبواب الهدىٰ، بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٥-٤٦]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ كما آتيناك الكتاب.. فصنع به الناسُ ما صنعوا معك..

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدىٰ وانتفع.. ومنهم من كذَّبه ولم ينتفع به..

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وإنَّ الله تعالىٰ، لولا حِلمُه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلىٰ أجل مسمىٰ لا يُتَقَدَّم عليه ولا يُتأَخَّر..

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال؛ لأن سبب الهلاك قد وَجَب وحُق..

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ قد بلغ بهم إلىٰ الريبُ الذي يقلقهم، فلذلك كذَّبوه وجحدوه..

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو العملُ الذي أَمَر اللهُ به، ورسولُه..

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعُه وثوابُه في الدنيا والآخرة..

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضررُه وعقابُه في الدنيا والآخرة، **وفي هذا:** حثٌّ علىٰ فعل الخير وترك الشر.. وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة.. وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ..

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٥-٤٦] فيُحمِّل أحدًا فوق سيئاتهم.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ [فصلت:٤٧-٤٨]

هذا إخبارٌ عن سِعَة علمه تعالىٰ، **واختصاصه بالعلم** الذي لا يطلع عليه سواه فقال..

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: جميع الخلق تَرُدُّ علمَهَا إلىٰ الله تعالىٰ، ويُقرِّون بالعجز عنه، الرسل والملائكة وغيرهم..

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه.. وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري.. فلا تَخرُج ثَمَرةُ شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها علماً تفصيلياً..

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات..

﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثىٰ حملَها..

﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ فكيف سوَّىٰ المشركون به تعالىٰ من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟!

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة.. توبيخاً وإظهارًا لكذبهم، فيقول لهم..

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم، وجادلتم علىٰ ذلك، وعاديتم الرسل لأجلهم؟!

﴿قَالُوٓا۟﴾ مقرين ببطلان إلاهيتهم وشركتهم مع الله..

﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا، أنه..

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ۝٤٧﴾ ما منا أحدٌ يشهد بصحة إلاهيتهم وشركتهم، فكلُّنا الآن قد رجعنا إلىٰ بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال..

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ﴾ من دون الله.. أي: ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم علىٰ عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئًا..

﴿وَظَنُّواْ﴾ أيقنوا في تلك الحال..

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٤٨﴾ [فصلت:٤٧-٤٨] أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث، ولا ملجأ.. فهذه **عاقبة من أشرك بالله** غيره، بيَّنها اللهُ لعباده **ليحذروا** الشرك به.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت:٤٩-٥١]

هذا إخبار عن **طبيعة الإنسان من حيث هو**، وعدم صبره وجَلَده، لا علىٰ الخير ولا علىٰ الشر.. إلا من نقله الله من هذه الحال إلىٰ حال الكمال، فقال..

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ لا يمل دائمـًا من دعاء الله في الغِنىٰ والمال والولد وغير ذلك من مطالب الدنيا.. ولا يزال يعمل علىٰ ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها.. فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالبًا للزيادة..

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ المكروه: كالمرض، والفقر، وأنواع البلايا..

﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ ييأس من رحمة الله تعالىٰ، ويظن أنَّ هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب علىٰ غير ما يحب ويطلب.. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب شكروا الله تعالىٰ، وخافوا أن تكون نعمُ الله عليهم استدراجًا وإمهالًا، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم

صبروا، ورجوا فضلَ ربهم، فلم ييأسوا.. ثم قال تعالىٰ..

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي: الإنسان الذي يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيئوس قنوط..

﴿رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ بعد ذلك الشر الذي أصابه.. بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره..

﴿لَيَقُولَنَّ﴾ فإنه لا يشكر الله تعالىٰ، بل يبغىٰ، ويطغىٰ، ويقول..

﴿هَٰذَا لِي﴾ أتاني لأني له أهل، وأنا مستحق له..

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وهذا: إنكار منه للبعث.. وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له..

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: علىٰ تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلىٰ ربي..

﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة.. وهذا من أعظم الجراءة والقول علىٰ الله بلا علم.. فلهذا توعده بقوله..

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ شديد جدًا..

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ بصحة، أو رزق، أو غيرهما..

﴿أَعْرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره..

﴿وَنَأَىٰ﴾ ترفع..

﴿بِجَانِبِهِ﴾ عُجبًا وتكبرًا..

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ المرض، أو الفقر، أو غيرهما..

﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت:٤٩-٥١] كثير جدًا، لعدم صبره.. فلا صبر في الضراء.. ولا شكر في الرخاء.. إلا من هداه الله ومنَّ عليه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت:٥٢-٥٤]

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن، المسارعين إلىٰ الكفران..

﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن..

﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ من غير شك ولا ارتياب..

﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ أي: معاندة لله ولرسوله.. لأنه تبين لكم الحقُّ والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلىٰ حق، بل إلىٰ باطل وجهل، فإذًا تكونون أضلَّ الناس وأظلمهم..

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ فإن قلتم أو شككتم بصحته وحقيقته، فسيقيم الله لكم ويريكم من آياته في الآفاق، كالآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يُحدِثُه الله تعالىٰ من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر علىٰ الحق..

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم، من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته.. وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين، ونصر المؤمنين..

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ من تلك الآيات، بيانًا لا يقبل الشك..

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ وما اشتمل عليه حق.. وقد فعل تعالىٰ، فإنه أرىٰ عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق.. ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء..

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾ أولم يكفهم علىٰ أن القرآن حق، ومن جاء به صادق..

﴿بِرَبِّكَ﴾ بشهادة الله تعالىٰ..

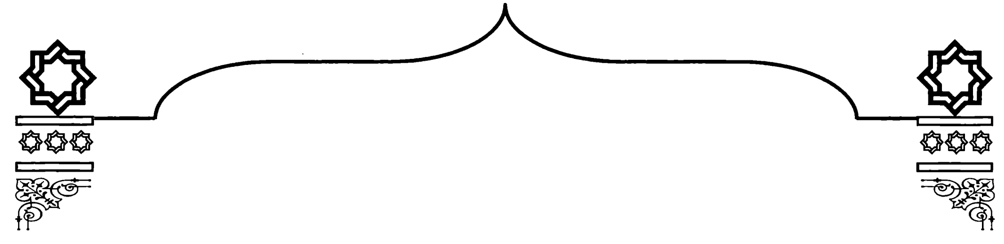
﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين.. وأيده ونصره نصرًا متضمنًا لشهادته القولية.. عند من شكَّ فيها..

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوىٰ الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها..

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾ [فصلت:٥٢-٥٤] علمـًا وقدرة وعِزَّة.

تم تفسير سورة (فصلت)

بمنه تعالىٰ



تفسير سورة الشورى، وهي مكية

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ [الشورى:١-٦]

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ﴾ يخبر تعالىٰ أنه أوحىٰ هذا القرآن العظيم إلىٰ النبي الكريم..

﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ كما أوحىٰ إلىٰ مَن قبله من الأنبياء والمرسلين.. ففيه: بيان فضله بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقًا ولاحقًا.. وأن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين، وما جاء به يشابه ما جاءوا به، لأن الجميع حق وصدق..

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ وهو تنزيل من اتصف بالألوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة..

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي..

﴿وَهُوَ﴾ وأنه..

﴿ٱلۡعَلِىُّ﴾ بذاته وقدره وقهره..

﴿ٱلۡعَظِيمُ ۝٤﴾ الذي من عظمته..

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ علىٰ عظمها وكونها جمادا..

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته..

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال..

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه..

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ مع أنه تعالىٰ..

﴿هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.. **وفي وصفه تعالىٰ بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحىٰ إلىٰ الرسل كلهم عمومـًا، وإلىٰ محمد - صلىٰ الله عليهم أجمعين- خصوصـًا:** إشارة إلىٰ أن هذا القرآن الكريم فيه من الأدلة والبراهين والآيات الدالة علىٰ كمال الباري تعالىٰ، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة، الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالىٰ، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلىٰ الله في جميع أحوالهم.. ولهذا عقبه بقوله..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء علىٰ الحقيقة..

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها..

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾ [الشورىٰ:١-٦] فتُسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ، أديت وظيفتك.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾ [الشورىٰ:٧-٩]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ثمَّ ذكر منته علىٰ رسوله وعلىٰ الناس، حيث أنزل الله..

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ بيِّن الألفاظ والمعاني..

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي مكة المكرمة..

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من قرىٰ العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلىٰ سائر الخلق..

﴿وَتُنذِرَ﴾ الناس..

﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ الذي يجمع الله به الأوَّلين والآخرين، وتخبرهم أنه..

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين..

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين..

﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين..

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ومع هذا ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾..

﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ لجعل الناس..

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ علىٰ الهدىٰ؛ لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء..

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ ولكنه أراد أن يُدخِلَ في رحمته من شاء من خوآص خلقه..

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأما الظالمون الذين لا يَصلُحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فـ..

﴿مَا لَهُم﴾ من دون الله..

﴿مِّن وَلِىٍّ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب..

﴿وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ يدفع عنهم المكروه..

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والذين ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غَلَطوا أقبح غلط..

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولاه عبدُه بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات.. ويتولىٰ عباده عموماً بتدبيره، ونفوذ القدر فيهم.. ويتولىٰ عباده المؤمنين خصوصاً، بإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم..

﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [الشورىٰ:٧-٩] أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى:١٠]

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه..

﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ يُردُّ إلىٰ كتابه، وإلىٰ سنة رسوله، فما حَكَما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل..

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ فكما أنَّه تعالىٰ الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالىٰ الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم..

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقـًا به تعالىٰ في الإسعاف بذلك..

﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى:١٠] أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلىٰ طاعته وعبادته.

📖 الفـوائـد

١- مفهوم **الآية الكريمة**: أن اتفاق الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالىٰ لم يأمرنا أن نردَّ إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه يكفي اتفاق الأمة عليه؛ لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقُها موافقـًا لِمَا في كتاب الله وسنة رسوله..

٢- هذان الأصلان -التوكل والإنابة- كثيرًا ما يذكرهما الله في كتابه؛ لأنهما يحصل بمجموعهما كمالُ العبد، ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾ [الشورى:١١-١٢]

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته..

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل..

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرًا وأنثىٰ، لتبقىٰ وتنمو لمنافعكم الكثيرة.. ولهذا عدَّاها باللام الدالة علىٰ التعليل.. أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال..

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبثكم ويكثركم ويكثر مواشيكم، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم وجعل لكم من الأنعام أزواجًا..

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ليس يشبهه تعالىٰ ولا يماثله شيء من مخلوقاته.. لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.. لأن أسماءه كلها حسنىٰ، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالىٰ أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه..

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات..

﴿الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ يرىٰ دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، علىٰ الصخرة الصماء، ويرىٰ سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة..

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة.. فكل الخلق مفتقرون إلىٰ الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء.. والله تعالىٰ هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢].. ولهذا قال هنا..

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء..

﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق علىٰ من يشاء، حتىٰ يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكلُّ هذا تابع لعلمه وحكمته، فلهذا قال..

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورىٰ:١١-١٢] فيعلم أحوالَ عباده، فيعطي كلًا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

📖 **الفـوائـد**

١- هذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.

٢- وفيها رد علىٰ المشبِّهة في قوله: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾، وعلىٰ المعطلة في قوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورىٰ:١٣]

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ هذه أكبر مِنَّة أنعمَ اللهُ بها علىٰ عباده، أن شَرَع لهم من الدين خيرَ الأديان وأفضلِها، وأزكاها وأطهرِها، دين الإسلام..

﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ الذي شَرَعه الله للمصطَفَين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين، المذكورون في هذه الآية، أعلىٰ الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه.. فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون **مناسبًا لأحوالهم**، موافقًا لكمالهم.. بل إنما **كمَّلهم الله واصطفاهم بسبب قيامهم به**، فلولا الدين الإسلامي ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحىٰ الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.. ولهذا قال..

﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين، أصولِه وفروعِه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته علىٰ غيركم، وتعاونون علىٰ البر والتقوىٰ، ولا تعاونون علىٰ الإثم والعدوان..

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق علىٰ أصول الدين وفروعه.. واحرصوا علىٰ أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابًا، وتكونون شيعًا يعادي بعضكم بعضًا مع اتفاقكم علىٰ أصل دينكم..

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلىٰ الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥] وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]..

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبىٰ هذه الأمة وفضَّلها علىٰ سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها..

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ:١٣] هذا السبب الذي من العبد يتوصل به إلىٰ هداية الله تعالىٰ، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدًا وجهه، **فحُسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية** من أسباب التيسير لها، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

🕮 الفـوائـد

١- من أنواع **الاجتماع علىٰ الدين وعدم التفرق فيه**: ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج، والأعياد، والجُمَع، والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

٢- في هذه الآية: أن الله ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾، مع قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان:١٥] ، مع العلم بأحوال الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وشدة إنابتهم، **دليل علىٰ أن قولهم حجة**، خصوصـًا الخلفاء الراشدين، رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أجمعين.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ

﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى:١٤-١٥]

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ لمَّا أَمر تعالىٰ باجتماع المسلمين علىٰ دينهم، ونهاهم عن التفرق.. أخبرهم: أنكم **لا تغتروا بما أَنزل اللهُ عليكم من الكتاب**.. فإنَّ أهلَ الكتاب لم يتفرَّقوا حتىٰ أَنزل اللهُ عليهم الكتابَ الموجِبَ للاجتماع.. ففعلوا ضدَّ ما يأمر به كتابُهم..

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وذلك كلُّه بغياً وعدواناً منهم، فإنَّهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنةُ والعداوةُ، فوقع الاختلاف.. فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم..

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير العذاب القاضي..

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولكن حكمته وحلمه اقتضىٰ تأخيرَ ذلك عنهم..

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين ورثوهم وصاروا خَلَفاً لهم ممن ينتسب إلىٰ العلم منهم..

﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعنادًا، فإنَّ خَلَفَهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم..

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل اللهُ به كتبَه وأرسل رسله..

﴿فَادْعُ﴾ إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه، من لم يقبله..

﴿وَاسْتَقِمْ﴾ بنفسك..

﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالا لأوامر الله، واجتناباً لنواهيه، علىٰ وجه الاستمرار علىٰ ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلىٰ ذلك.. ومن المعلوم أنَّ أَمْرَ الرسول ﷺ أَمْرٌ لأمته، إذا لم يرد تخصيص له..

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين.. إما باتباعهم علىٰ بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلىٰ الله، أو بترك الاستقامة.. فإنك إن اتبعت ﴿أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].. ولم يقل: (ولا تتبع دينهم) لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم

يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا..

﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم..

﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتكن مناظرتك لهم مبنيَّة علىٰ هذا الأصل العظيم، **الدال علىٰ**: شرف الإسلام وجلالته وهيمنته علىٰ سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليه جزء من الإسلام..

وفي هذا إرشاد إلىٰ: أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنيَّة علىٰ الإيمان ببعض الكتب أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك؛ لأنَّ الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدِّقًا بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسىٰ وعيسىٰ والتوراة والإنجيل التي أخبر بها وصدَّق بها، وأخبر أنها مصدِّقة له ومقرة بصحته..

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسىٰ وعيسىٰ، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم..

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم فيما اختلفتم فيه.. فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم.. ومن العدل في الحكم بين أهل الأقوال المختلفة من أهل الكتاب وغيرهم، أن يُقبل ما معهم من الحق، ويُردُّ ما معهم من الباطل..

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ هو رب الجميع، لستم بأحق به منا..

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ من خير وشر..

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: بعد ما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل.. لأن المقصود من الجدال إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد ولتقوم الحجة علىٰ الغاوي.. وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يُجادَلون، كيف والله يقول: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا﴾ [العنكبوت:٤٦].. وإنما المراد ما ذكرنا..

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورىٰ:١٤-١٥] يوم القيامة، فيجزي كلًا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورى:١٦]

وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم.. فأخبر هنا..

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة، والشُبه المتناقضة..

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول، لمَّا بُيِّنَ لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين..

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ باطلة مدفوعة..

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لأنها مشتملة علىٰ رد الحق، وكلُّ ما خالف الحق فهو باطل..

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيِّناته وتكذيبها..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورى:١٦] هو أثر غضب الله عليهم.. فهذه عقوبة كلِّ مجادلٍ للحق بالباطل.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ ١٨﴾ [الشورى:١٧-١٨]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ أنَّ **حُجَجَه** واضحةً بيِّنة، بحيث استجاب لها كلُّ من فيه خير، **ذَكَر أصلهَا وقاعدَتها**، بل جميع الحجج التي أوصلها إلىٰ العباد، فقال..

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل علىٰ الحق والصدق واليقين.. وكله آيات بينات، وأدلة واضحات، علىٰ جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل..

﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ وأما الميزان: فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح.. فكل الدلائل العقلية من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحِكَم، **داخلة في الميزان** الذي أنزله الله تعالىٰ ووضعه بين عباده..

ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صِدقَ ما أَخبر به وأَخبَرت رسلُه..

مما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه..

يعرف ذلك من خَبَر المسائلَ ومآخذَها، وعَرَفَ التمييزَ بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرقَ بين الحجج والشبه..

وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلىٰ المعنىٰ المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوِفَاقُه وخِلافُه سِيان.. ثم قال تعالىٰ مخوِّفـًا للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال..

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ١٧﴾ ليس بمعلوم بعدها، ولا متىٰ تقوم؟.. فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوَّف وَجْبَتُهَا..

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادًا وتكذيبـًا، وتعجيزًا لربهم..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون؛ لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال.. وخوفهم لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالُهم منجيةً لهم ولا مُسعِدة.. ولهذا قال..

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه..

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ بعد ما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعَهم بإثباتها..

﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ١٨﴾ [الشورىٰ:١٧-١٨] فهم في **شقاق** بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق.. وأيُّ بعد أبعد ممن كذَّب بالدار التي هي الدار علىٰ الحقيقة؟!.. وهي الدار التي خُلِقَت للبقاء الدائم والخلود السرمد.. وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدلَه وفضلَه.. وإنما هذه الدار بالنسبة إليها كراكب قَالَ في ظلِّ شجرة ثم رحل وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.. فصدَّقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذَّبوا بالدار الآخرة.. التي تواترت بالإخبار عنها الكتبُ الإلهية، والرسل الكرام وأتباعُهم، الذين هم أكمل الخلق عقولًا وأغزرهم علمـًا، وأعظمهم فطنة وفهما.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورى:١٩-٢٠]

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يخبر تعالىٰ بلطفه بعباده؛ لـ: يعرفوه، ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه.. **واللطف من أوصافه تعالىٰ معناه:** الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده -وخصوصا المؤمنين- إلىٰ ما فيه الخير لهم، من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون..

فمن لطفه بعبده المؤمن: أن هداه إلىٰ الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسَّر له من الأسباب الداعية إلىٰ ذلك، من فطرته علىٰ محبة الحق والانقياد له، وإيزاعه تعالىٰ لملائكته الكرام أن يثبِّتوا عباده المؤمنين، ويَحُثُّوهم علىٰ الخير، ويُلقوا في قلوبهم من تَزيينِ الحق ما يكون داعياً لاتباعه..

ومن لطفه: أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوىٰ عزائمُهم وتنبعث هممُهم، ويحصل منهم التنافُس علىٰ الخير والرغبةُ فيه، واقتداءُ بعضهم ببعض..

ومن لطفه: أن قيَّض لعبده كلَّ سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتىٰ إنه تعالىٰ إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، وتَقطَعُ عبدَه عن طاعته، أو تَحمِلُه علىٰ الغفلة عنه، أو علىٰ معصية، صَرَفَها عنه، وقدَّر عليه رزقه.. ولهذا قال هنا..

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه..

﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ الَّذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.. ثم قال تعالىٰ..

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدَّق، وسعىٰ لها سعيها..

﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء:١٩] ، ومع ذلك فنصيبه من الدنيا لابد أن يأتيه..

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدِّم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها..

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسَم له..

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:١٩-٢٠] قد حُرِم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.. وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] إلىٰ آخر الآيات.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى:٢١-٢٢]

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ يخبر تعالىٰ أن المشركين اتخذوا شركاءَ يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس الدعاة إلىٰ الكفر..

﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.. مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالىٰ، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه.. فالأصل: الحَجر علىٰ كلِّ أحد أن يشرِّع شيئًا ما جاء عن الله وعن رسوله.. فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم علىٰ الكفر؟!..

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: لولا الأجل المسمىٰ الذي ضربه الله فاصلًا بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه..

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل؛ لأن المقتضي للإهلاك موجود..

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.. وفي ذلك اليوم..

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي..

﴿مُشۡفِقِينَ﴾ خائفين وَجِلين..

﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أن يُعَاقَبوا عليه.. ولمَّا كان الخائفُ قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه﴿ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ ﴾..

﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ العقاب الذي خافوه؛ لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعـًا فات فيه الإنظار والإمهال..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وما جاءوا به..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشمل: كلَّ عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء..

﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ أي: الروضات المضافة إلىٰ الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه.. فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد علىٰ طول المدىٰ إلا حسنا وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقا إلىٰ لذاتها ووِدادًا..

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر..

﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾ [الشورىٰ:٢١-٢٢] وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالىٰ، والتنعم بقربه في دار كرامته؟!

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣﴾ [الشورىٰ:٢٣]

﴿ذَٰلِكَ﴾ هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر علىٰ الإطلاق..

﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ بشَّر بها الرحيم الرحمن، علىٰ يد أفضل خلقه.. لـ..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ أهل الإيمان والعمل الصالح.. فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل..

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: علىٰ تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلىٰ أحكامه..

﴿أَجۡرًا﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض..

﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ **يحتمل أن المراد:** لا أسألكم عليه أجرًا، إلا أجرًا واحدًا هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القرابة، أي: لأجل القرابة، **ويكون علىٰ هذا:** المودة الزائدة علىٰ مودة الإيمان، فإنَّ مودة الإيمان بالرسول وتقديم محبته علىٰ جميع المحاب بعد محبة الله فرض علىٰ كل مسلم، وهؤلاء طُلِب منهم زيادة علىٰ ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتىٰ إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد إلا ولرسول الله ﷺ فيه قرابة..

ويحتمل أن المراد: إلا مودة الله تعالىٰ الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلىٰ الله، والتوسل بطاعته الدالة علىٰ صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورىٰ:٢٣]، أي: **في التقرب إلىٰ الله..**

وعلىٰ كلا القولين: فهذا الاستثناء دليل علىٰ أنه لا يسألهم عليه أجرًا بالكلية، إلا أن يكون شيئًا يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، وقولهم: (ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك)..

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلىٰ الخلق..

﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ بـ: أن يشرح الله صدره.. وييسر أمره.. وتكون سببًا للتوفيق لعمل آخر.. ويزداد بها عمل المؤمن.. ويرتفع عند الله وعند خلقه.. ويحصل له الثواب العاجل والآجل..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر الذنوبَ العظيمةَ، ولو بلغت ما بلغت، عند التوبة منها..

﴿شَكُورٌ ۝٢٣﴾ [الشورى:٢٣] يشكر على العمل القليل بالأجر الكثير.. **فبمغفرته:** يغفر الذنوب ويستر العيوب.. **وبشكره:** يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٢٤﴾ [الشورى:٢٤]

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم يقول المكذِّبون للرسول ﷺ جرأةً منهم وكذبًا..

﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة، والنسبة إلى الله ما هو بريء منه.. وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح؟!.. بل تجرأوا بذلك على الله تعالى، فإنَّه قدحٌ في الله، حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة -على موجب زعمهم- أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه..

﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها.. وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ، فلا يعي شيئًا ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمرُ كله وانقطع.. فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر..

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ولهذا، من حكمته ورحمته وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال..

﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق.. وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبته في القلوب، وتبصر أولي الألباب.. حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبيناته، فظهر من نوره وهداه ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكلِّ أحد، ويظهر الحق كلَّ الظهور لكلِّ أحد..

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٢٤﴾ [الشورى:٢٤] أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكنته ولم تبده.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى:٢٥-٢٨]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هذا بيان لكمال كرم الله تعالىٰ وسعة جوده وتمام لطفه.. بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون علىٰ أن لا يعاودوها.. إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سبباً للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية..

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات.. ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءًا قط، ويحبه ويوفقه لما يقرِّبه إليه.. ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله..

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فالله تعالىٰ دعا جميع العباد إلىٰ الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا -بحسب الاستجابة له- إلىٰ قسمين: مستجيبين، وَصَفَهم بقوله..

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: يستجيبون لربهم لمَّا دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبُّون دعوته؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم علىٰ ذلك، فإذا استجابوا له شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور..

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً علىٰ العمل.. وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالُهم من الثواب والفوز العظيم.. وأما غير المستجيبين لله..

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، فـ..

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝٢٦﴾ في الدنيا والآخرة.. ثم ذَكَر أنَّ من لطفه بعباده أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال..

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا علىٰ التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب علىٰ ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصيةً وظلمـًا..

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته..

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالىٰ يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنىٰ، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير»..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد..

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأَيِسوا وعملوا لذلك الجَدبَ أعمالًا، فينزِّل اللهُ الغيث..

﴿وَيَنشُرُ﴾ به..

﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعـًا عظيمـًا، ويستبشرون بذلك ويفرحون..

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولىٰ عباده بأنواع التدبير، ويتولىٰ القيام بمصالح دينهم ودنياهم..

﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورىٰ:٢٥-٢٨] في ولايته وتدبيره.. الحميد علىٰ ما له من الكمال، وما أوصله إلىٰ خلقه من أنواع الإفضال.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [الشورىٰ:٢٩]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتىٰ بعد موتهم..

﴿خَلْقُ﴾ هذه..

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ عِظَمِهما وسِعَتِهما، الدال علىٰ قدرته وسعة سلطانه.. وما فيهما من الإتقان والإحكام دال علىٰ حكمته.. وما فيهما من المنافع والمصالح دال علىٰ رحمته.. وذلك يدل علىٰ أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة..

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي: نشر في السماوات والأرض..

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من أصناف الدواب التي جعلها اللهُ مصالحُ ومنافعُ لعباده..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة..

﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورىٰ:٢٩] فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه علىٰ وجود الخبر الصادق، وقد عَلِمَ أنَّه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورىٰ:٣٠-٣١]

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يخبر تعالىٰ أنَّه ما أصاب العبادَ من مصيبةٍ في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزًا عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات..

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] وليس إهمالا منه تعالىٰ تأخير العقوبات ولا عجزًا..

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم..

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع..

﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورىٰ:٣٠-٣١] يدفع عنكم المضار.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورى:٣٢-٣٥]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده..

﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ من السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي مِن عِظَمِها..

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التطام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة إلىٰ البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة علىٰ ذلك.. ثم نبَّه علىٰ هذه الأسباب بقوله..

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي جعلها الله سبباً لمشيها..

﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ أي: الجوار..

﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ علىٰ ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر.. ولا يُنتقَض هذا بالمراكب النارية؛ فإن من شرط مشيها وجود الريح..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر علىٰ ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه.. من مشقة طاعة، أو ردع داع إلىٰ معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط..

﴿شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ في الرخاء وعند النِعَم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.. وأما الذي لا صبر عنده ولا شكر له علىٰ نِعم الله، فإنَّه معرض أو معاند لا ينتفع بالآيات..

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ وإن شاء الله تعالىٰ أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير..

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ليبطلوها بباطلهم..

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورى:٣٢-٣٥] أي: لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.



﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشورى:٣٦-٣٩]

هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذِكرُ الأعمالِ الموصِلَة إليها فقال..

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ من مُلك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية..

﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ لذَّة منغصة منقطعة..

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم..

﴿خَيۡرٞ﴾ من لذَّات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما..

﴿وَأَبۡقَىٰ﴾ لأنه نعيم لا منغَص فيه ولا كدر، ولا انتقال.. ثم ذَكَر لمن هذا الثواب فقال..

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة.. وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب علىٰ الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالىٰ..

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ والفرق بين الكبائر والفواحش -مع أن جميعهما كبائر-: **أن الفواحش**: هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه.. **والكبائر**: ما ليس كذلك.. هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإنَّ الآخر يدخل فيه..

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِيَم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة، حتىٰ إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.. فترتب علىٰ هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ

حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥]..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.. **ومن الاستجابة لله**: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما علىٰ ذلك، من باب عطف العام علىٰ الخاص، الدال علىٰ شرفه وفضله فقال..

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها..

﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي..

﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لا يستبد أحدٌ منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم.. وهذا لا يكون إلا فرعـًا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم وكمال عقولهم.. أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلىٰ إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتىٰ إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها.. وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره.. وكالبحث في المسائل الدينية عمومـًا، فإنها من الأمور المشتركة.. والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية..

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من النفقات **الواجبة**: كالزكاة والنفقة علىٰ الأقارب ونحوهم.. **والمستحبة**: كالصدقات علىٰ عموم الخلق..

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ أي: وصل إليهم من أعدائهم..

﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورىٰ:٣٦-٣٩] لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

🕮 الفـوائـد

وَصَفهم بـ: الإيمان، والتوكل علىٰ الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفَّر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار علىٰ أعدائهم..

فهذه خصال الكمال قد جمعوها..

ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها، وانتفاء ضدها.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣]

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ذكر الله في هذه الآية **مراتب العقوبات**، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.. **فمرتبة العدل**: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يُضمن بمثله.. **ومرتبة الفضل**: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال..

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ يجزيه أجرًا عظيمـًا، وثوابـًا كثيرًا.. وشرط الله في العفو **الإصلاح فيه**، ليدل ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به.. **وأما مرتبة الظلم**: فقد ذكرها بقوله..

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو **يقابلون الجاني بأكثر من جنايته**، فالزيادة ظلم..

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك..

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية..

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾﴾ موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم..

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق..

﴿وَغَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى:٤٠-٤٣] لمن الأمور التي حثَّ الله عليها وأكَّدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.. **فإنَّ تَركَ الانتصار للنفس بالقول أو الفعل**: من أشق شيء عليها، والصبر علىٰ الأذىٰ.. **والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان**: أشق وأشق.. **ولكنه يسير علىٰ**: من يسره الله عليه، وجاهد نفسه علىٰ الاتصاف به، واستعان الله علىٰ ذلك.. ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

🕮 الفـوائـد

١- في جعل **أجر العافي علىٰ الله**: ما يهيج علىٰ العفو.. وأن يعامل العبدُ الخلقَ بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

٢- دل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾: أنه **لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه**.. وأما **إرادة البغي علىٰ الغير وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء**، فهذا لا يُجازىٰ بمثله، وإنما **يؤدب تأديبًا يردعه** عن قول أو فعل صدر منه.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ۝٤٤﴾ [الشورى:٤٤]

يخبر تعالىٰ أنه المنفرد بالهداية والإضلال..

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ وأنه ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ بسبب ظلمه..

﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ يتولىٰ أمره ويهديه..

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ مرأىٰ ومنظرًا فظيعـًا، صعبـًا شنيعـًا، يظهرون الندم العظيم، والحزن علىٰ ما سلف منهم، و..

﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ۝٤٤﴾ [الشورى:٤٤] هل لنا طريق أو حيلة إلىٰ رجوعنا إلىٰ الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل.. وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى:٤٥-٤٦]

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: علىٰ النار..

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ترىٰ أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم..

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: ينظرون إلىٰ النار مسارقة وشزرا، من هيبتها وخوفها..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ حيث ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم..

﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ علىٰ الحقيقة..

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب.. وحصَّلوا علىٰ أليم العقاب.. وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم..

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي..

﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ في سوائِهِ ووسطِهِ منغمرين، لا يخرجون منه أبدًا، و﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]..

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما كانوا في الدنيا يمنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم..

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى:٤٥-٤٦] تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى:٤٧-٤٨]

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ يأمر تعالىٰ عبادَه بالاستجابة له، بـ: امتثال ما أمر به.. واجتناب ما نهىٰ عنه.. وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف..

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت..

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.. بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن:٣٣]..

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾ [الشورىٰ:٤٧] وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه.. بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

🕮 الفـوائـد

هذه الآية ونحوها: فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾ [الشورىٰ: ٤٨]

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ عما جئتهم به بعد البيان التام..

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها..

﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ فإذا أديت ما عليك فقد وجب أجرك علىٰ الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم علىٰ الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.. ثم ذكر تعالىٰ حالة الإنسان..

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ وأنه إذا أذاقه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه..

﴿فَرِحَ بِهَا﴾ فرح فرحـًا مقصورًا عليها، لا يتعداها.. ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم..

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما..

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى:٤٨] أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠]

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن: **سعة ملكه تعالىٰ.. ونفوذ تصرفه** في الملك في الخلق لَمَا يشاء.. والتدبير لجميع الأمور، حتىٰ إن تدبيره تعالىٰ من عمومه أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد.. فإنَّ النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالىٰ هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء..

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ فمن الخلق من يهب له إناثـًا..

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ ومنهم من يهب له ذكورًا..

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكورًا وإناثـًا..

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ ومنهم من يجعله عقيمـًا لا يولد له..

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء..

﴿قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠] علىٰ كلِّ شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى:٥١]

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ لما قال المكذِّبون لرسلِ الله، الكافرون

بالله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة:١١٨] من كِبرِهم وتجبُّرِهم.. ردَّ اللهُ عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالىٰ لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين.. وأنه يكون علىٰ أحد هذه الأوجه: إما ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾، بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال مَلَك، ولا مخاطبة منه شفاها..

﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاها، لكن..

﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسىٰ بن عمران، كليم الرحمن..

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، فـ..

﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة..

﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه..

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ تعالىٰ، عليُّ الذات، عليُّ الأوصاف عظيمها، عليُّ الأفعال، قد قَهر كلَّ شيءٍ، ودانت له المخلوقات..

﴿حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورىٰ:٥١] في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورىٰ:٥٢-٥٣]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين أوحينا إلىٰ الرُّسُل قبلك..

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سمَّاه روحـًا؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لِمَا فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.. وهو محض مِنَّةِ الله علىٰ رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال..

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل نزوله عليك..

﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة.. ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية..

﴿وَلَٰكِن﴾ بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي..

﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلىٰ الصراط المستقيم..

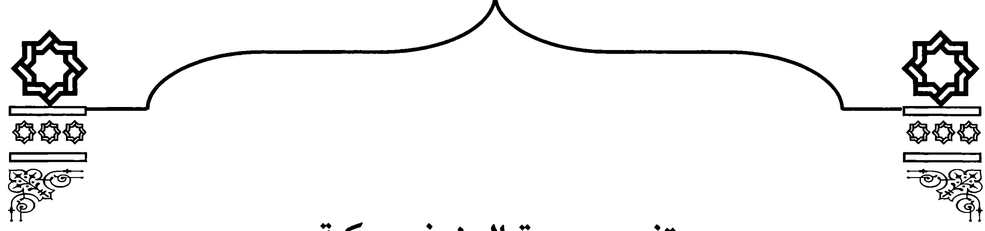
﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ تبينه لهم وتوضحه، وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه.. ثم فسَّر الصراط المستقيم فقال..

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه اللهُ لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلىٰ دار كرامته..

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ:٥٢-٥٣] أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كُلًا بحسب عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

تم تفسير سورة (الشورىٰ)

والحمد لله أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، علىٰ تيسيره وتسهيله



تفسير سورة الزخرف، مكية

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف:١-٥]

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ هذا قَسَمٌ بالقرآن علىٰ القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلِّق؛ ليدل علىٰ أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة..

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ هذا المُقسَم عليه، أنه جُعِل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه.. وذَكَر الحكمةَ في ذلك فقال..

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ ألفاظه ومعانيه، لتيسرها وقربها من الأذهان..

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا الكتاب..

﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ في الملأ الأعلىٰ، في أعلىٰ الرتب وأفضلها..

﴿لَعَلِيٌّ﴾ في قَدرِه وشرفه ومحله..

﴿حَكِيمٌ ۝٤﴾ فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.. ثم أخبر تعالىٰ أنَّ حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملًا، لا يرسل إليهم رسولًا، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال..

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ أفنعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً..

﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف:١-٥] لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟!

بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كلَّ شيء، فإن آمنتم به واهتديتم فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف:٦-٨]

﴿وَكَمْ﴾ إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملًا.. فكم..

﴿أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجودًا في الأمم..

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ جحدًا لِمَا جاء به، وتكبُّرًا على الحق..

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم﴾ من هؤلاء..

﴿بَطْشًا﴾ قوةً وأفعالًا وآثارًا في الأرض..

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف:٦-٨] مضت أمثالهم وأخبارهم.. وبيَّنا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ [الزخرف:٩-١٠]

﴿وَلَئِن﴾ يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو..

﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ الله وحده لا شريك له..

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي دانت لعزته جميع المخلوقات..

﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق ولا يميت ولا يحيي؟!

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ثم ذكر أيضًا من الأدلة الدالة على كمال نعمته

واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهَّدها وجعلها قرارًا للعباد، يتمكنون فيها من كلِّ ما يريدون..

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ جعل منافذَ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلىٰ ما وراءها من الأقطار..

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩﴾ [الزخرف:٩-١٠] في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضـًا في الاعتبار بذلك والادِّكار فيه.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ⑫ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑬ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ⑭﴾ [الزخرف:١١-١٤]

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضـًا بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال..

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أحييناها بعد موتها..

﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪﴾ فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعد ما تُستكمَلون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم..

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف جميعها، ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦]، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثىٰ، وغير ذلك..

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ﴾ أي: السفن البحرية، الشراعية والنارية، مَا تَرْكَبُونَ..

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ ومن الأنعام..

﴿مَا تَرْكَبُونَ ⑫ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام.. أي: لتستقروا عليها..

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخَّرها، والثناء عليه

تعالىٰ بذلك، ولهذا قال..

﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ لولا تسخيره لنا ما سخَّر من الفلك والأنعام..

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالىٰ، سخرها وذللها ويسر أسبابها..

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف:١١-١٤].. **والمقصود من هذا:** بيان أن الرب الموصوف بما ذكره من إفاضة النِّعَم علىٰ العباد، هو الذي يستحق أن يُعبد، ويُصلىٰ له ويُسجد.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ [الزخرف:١٥-١٨]

يخبر تعالىٰ عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالىٰ ولدًا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد..

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ وإن ذلك باطل من عدة أوجه: منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.. ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالىٰ بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالىٰ ولد..

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥﴾..

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦﴾ ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهم بالبنين، ويفضلهم بها؟! فإذًا يكونون أفضل من الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا.. ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله وهو البنات أدون الصنفين، وأكرههما لهم، حتىٰ إنهم من كراهتهم لذلك..

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟!

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾..

ومنها: أن الأنثىٰ ناقصة في وصفها، وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: يُجمَّل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟!

﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ﴾ عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام..

﴿غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾ [الزخرف:١٥-١٨] لحجته، ولا مفصح عما احتوىٰ عليه ضميره، فكيف ينسبونهن لله تعالىٰ؟!

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢﴾ [الزخرف:١٩-٢٢]

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ﴾ ومنها: أنهم جعلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الله إِنَاثًا، فتجرأوا علىٰ الملائكة، العباد المقربين، وَرَقُّوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلىٰ مرتبة المشاركة لله في شيء من خواصه، ثم نَزَلُوا بهم عن مرتبة الذكورية إلىٰ مرتبة الأنوثية، فسبحان من أظهر تناقض من كَذَبَ عليه وعاند رسله..

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾ ومنها: أنَّ الله ردَّ عليهم بأنهم لم يشهدوا خلقَ الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟!

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها..

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ فاحتجوا علىٰ عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلًا وشرعًا.. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.. **وأما شرعا**: فإن الله تعالىٰ أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالىٰ قد أقام الحجة علىٰ العباد، فلم يَبق لأحد عليه حجةٌ أصلًا ولهذا قال هنا..

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يتخرصون تخرصًا لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء.. ثم قال..

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟! ليس الأمر كذلك، فإنَّ اللهَ أرسلَ محمدًا نذيرًا إليهم، وهم لم يأتهم نذيرٌ غيره، أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفىٰ الأمران، فلا ثَمَّ إلا الباطل.. نعم، لهم شبهة من أوهىٰ الشُّبَه، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا..

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: علىٰ دين وملة..

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف:١٩-٢٢] فلا نتبع ما جاء به محمدٌ ﷺ.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:٢٣-٢٥]

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: منعموها، وملأها الذين أَطغَتهُم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا علىٰ الحق..

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأوَّل من قال هذه المقالة.. وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدىٰ، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل..

﴿۞ قَالَ﴾ ولهذا كلُّ رسولٍ يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة..

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدىٰ؟

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فعُلِم بهذا أنهم ما أرادوا اتباع الحقِّ والهدىٰ، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوىٰ..

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ بتكذيبهم الحق، وردِّهم إياه بهذه الشبهة الباطلة..

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾ [الزخرف:٢٣-٢٥] فليحذر هؤلاء أن يستمروا علىٰ تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ٢٩﴾ [الزخرف:٢٦-٢٩]

يخبر تعالىٰ عن ملة إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه علىٰ طريقته، فأخبر عن دينه الذي وَرَّثَه في ذريته، فقال..

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم..

﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾ أي: مبغض له، مجتنب معادٍ لأهله..

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به..

﴿فَإِنَّهُۥ﴾ فكما فطرني ودَبَّرني بما يصلح بدني ودنياي، فـ..

﴿سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾ لِمَا يُصلِحُ ديني وآخرتي..

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبرِّي من عبادة ما سواه..

﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي: ذريته..

﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ إليها..

﴿يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه -كإسحاق ويعقوب- لبعض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة:١٣٠] إلىٰ آخر الآيات.. فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتىٰ دخلهم الترف والطغيان.. فقال تعالىٰ..

﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ بأنواع الشهوات، حتىٰ صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربىٰ حبها في قلوبهم، حتىٰ صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة..

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه..

﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۝٢٩﴾ [الزخرف:٢٦-٢٩] أي: بيِّن الرسالة، قامت أدلةُ رسالته قياماً باهرًا، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدَّق به المرسلين، وبنفس دعوته ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف:٣٠-٣٢]

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي يوجب علىٰ من له أدنىٰ دين ومعقول أن يقبله وينقاد له..

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتىٰ قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء.. والذي حملهم علىٰ ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم..

﴿وَقَالُواْ﴾ مقترحين علىٰ الله بعقولهم الفاسدة..

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ معظَّم عندهم، مبجَّل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.. قال اللهُ ردًّا لاقتراحهم..

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟!

﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ أي: في الحياة الدنيا، والحال أن ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ من الدنيا.. فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالىٰ، وهو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق علىٰ من يشاء، ويضيقه علىٰ من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولىٰ وأحرىٰ أن تكون بيد الله تعالىٰ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.. فعُلِم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور

كلها -دينيها ودنيويها- بيد الله وحده.. هذا إقناع لهم، من جهة غلطهم في الاقتراح الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق..

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: ليُسَخِر بعضُهم بعضاً في الأعمال والحِرَف والصنائع.. فلو تساوىٰ الناس في الغنىٰ ولم يحتج بعضهم إلىٰ بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.. وفي هذه الآية تنبيه علىٰ **حكمة الله تعالىٰ في تفضيل الله بعض العباد علىٰ بعض في الدنيا..**

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٠-٣٢] وفيها دليل علىٰ أن **نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية**، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

🕮 الفـوائـد

قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ هو أعظم الرجال قدرًا، وأعلاهم فخرًا، وأكملهم عقلًا، وأغزرهم علمـاً، وأجلهم رأيـاً وعزمـاً وحزمـاً، وأكملهم خُلُقـاً، وأوسعهم رحمةً، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم..

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهىٰ في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم علىٰ الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه..

فكيف يُفَضِّل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟! ومَن جُرمُه ومنتهىٰ حمقِه أن جعل إلهَه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنمـاً، أو شجرًا، أو حجرًا، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كَلٌّ علىٰ مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فِعل السفهاء والمجانين؟! فكيف يُجعل مثل هذا عظيمـاً؟! أم كيف يفضل علىٰ خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟! ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾ [الزخرف:٣٣]

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يخبر تعالىٰ بأنَّ الدنيا لا تُسوىٰ عنده شيئـًا، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدِّم عليها شيئـًا، لوسَّع الدنيا علىٰ الذين كفروا توسيعـًا عظيمـًا، ولَجَعل..

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: دَرَجـًا من فضة..

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾ [الزخرف:٣٣] علىٰ سطوحهم.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف:٣٤-٣٥]

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤﴾ من فضة، ولجعل لهم..

﴿وَزُخْرُفًا ۚ﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون.. ولكن منعه من ذلك رحمتُه بعباده، خوفـًا عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا.. ففي هذا دليل علىٰ أنه **يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعـًا عامـًا أو خاصـًا لمصالحهم**، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة..

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغَّصة، مكدَّرة، فانية..

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ﴾ وأن الآخرة عند الله تعالىٰ خير..

﴿لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف:٣٤-٣٥] لربهم، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.. فما أشد الفرق بين الدارين!

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ

يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف:٣٦-٣٩]

يخبر تعالىٰ عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره، فقال..

﴿وَمَن يَعۡشُ﴾ يعرض ويصد..

﴿عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رَحِمَ بها الرحمنُ عباده.. فمَن قَبِلَها فقد قَبِلَ خيرَ المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب.. ومن أعرض عنها وردَّها: فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا..

﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾﴾ وقيَّض له الرحمنُ شيطانـًا مَريدًا، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلىٰ المعاصي أزًا..

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم..

﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.. فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم علىٰ الاهتداء، فزهدوا في الهدىٰ مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.. فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق.. وأما حاله، إذا جاء ربَّه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرِّي من قرينه، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].. وقوله تعالىٰ..

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف:٣٦-٣٩] ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم؛ وذلك لأنكم اشتركتم

في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.. **ولن ينفعكم أيضا** روحُ التسلي في المصيبة؛ فإنَّ المصيبة إذا وقعت في الدنيا واشترك فيها المعاقَبون، هان عليهم بعضُ الهون، وتسلَّىٰ بعضُهم ببعض، **وأما مصيبة الآخرة** فإنها جمعت كلَّ عقاب، ما فيه أدنىٰ راحة، حتىٰ ولا هذه الراحة.. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف:٤٠-٤٥]

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ، مسلياً له عن امتناع المكذِّبين عن الاستجابة له، وأنَّهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلىٰ الهدىٰ..

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الذين لا يسمعون..

﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ الذين لا يبصرون..

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ أو تهدي ﴿مَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾، أي: بَيِّنٌ واضح؛ لعلمه بضلاله، ورضاه به.. فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمىٰ لا يبصر، والضال ضلالًا مبيناً لا يهتدي، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدىٰ، وتوجب لهم الازدياد من الردىٰ، فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أنَّا منهم منتقمون..

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ من العذاب..

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢﴾ ولكن ذلك متوقف علىٰ اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره.. فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.. وأما أنت..

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ فعلًا واتصافًا، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصًا علىٰ تنفيذه في نفسك وفي غيرك..

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾ موصل إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء، إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بانيًا علىٰ أصل أصيل، إذا بنىٰ غيرُك علىٰ الشكوك والأوهام، والظلم والجور..

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القرآن الكريم..

﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يُقادَرُ قدرُها، ولا يُعرف وصفُها.. ويذكركم أيضًا ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه.. ويذكركم الشر، ويرهبكم عنه..

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه النعمة؟

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف:٤٠-٤٥] حتىٰ يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحدًا من الرسل.. فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحدًا منهم يدعو إلىٰ اتخاذ إله آخر مع الله، مع أنَّ كلَّ الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم يدعون إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وكل رسول بعثه الله يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].. فدلَّ هذا أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف:٤٦-٥٠]

لما قال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].. بيَّن تعالىٰ حال موسىٰ ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل.. ولأن الله تعالىٰ أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ التي دلت دلالة قاطعة علىٰ صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقُمَّل، إلىٰ آخر الآيات..

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فدعاهم إلىٰ الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه..

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ردوها وأنكروها، واستهزأوا بها، ظلمـًا وعلوًا.. فلم يكن لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها، ولهذا قال..

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة..

﴿وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات..

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ إلىٰ الإسلام، ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم..

﴿وَقَالُوا۟﴾ عندما نزل عليهم العذاب..

﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يعنون موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. وهذا إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحـًا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾..

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما خصَّك اللهُ به، وفضَّلك به من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنَّا العذاب..

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ إن كَشَفَ اللهُ عنَّا ذلك..

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف:٤٦-٥٠] أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا علىٰ كفرهم.. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ

وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣- ١٣٥].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥١-٥٦]

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ مستعلياً بباطله، قد غرَّه مُلكُه، وأطغاه مالُه وجنوده..

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ ألستُ المالكَ لذلك، المتصرف فيه..

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين..

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ هذا المُلك الطويل العريض.. وهذا من جهله البليغ؛ حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة..

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني -قبحه الله- بالمهين: موسىٰ بن عمران، كليمَ الرحمن، الوجيهَ عند الله.. أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحتقر.. فأيُّنا خير؟

﴿وَلَا﴾ ومع هذا فـ ﴿لَا﴾..

﴿يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ عمَّا في ضميره بالكلام؛ لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقيلا عليه الكلام.. ثم قال فرعون..

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: فهلا كان موسىٰ بهذه الحالة، أن يكون مزيَّنًا مجمَّلا بالحُليِّ والأساور؟

﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ يعاونونه علىٰ دعوته، ويؤيدونه علىٰ قوله..

﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ أي: استخفَّ عقولهم بما أبدىٰ لهم من هذه الشُّبهَ، التي لا تُسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلًا علىٰ حقٍّ ولا علىٰ باطل، ولا تروج إلا علىٰ ضعفاء العقول.. فأي دليل يدل علىٰ أن فرعون محق لكون مُلك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟! وأي دليل يدل علىٰ بطلان ما جاء به موسىٰ لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له؟! ولكنه لَقِي ملأً لا معقول عندهم، فمهما قال من حق وباطل اتبعوه..

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ فبسبب فسقهم قيَّض لهم فرعونَ، يُزين لهم الشرك والشر..

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم..

﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف:٥١-٥٦] ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ۝٦٠﴾ [الزخرف:٥٧-٦٠]

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ أي: نهي عن عبادته، وجُعِلَت عبادتُه بمنزلة عبادةُ الأصنام والأنداد..

﴿إِذَا قَوۡمُكَ﴾ المكذِّبون لك..

﴿مِنۡهُ﴾ من أجل هذا المثل المضروب..

﴿يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾ يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غُلِبوا في حجتهم، وأُفلجوا..

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعني: عيسىٰ، حيث نُهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد علىٰ من عبدَهم، ونزل أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ

ﵟٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ﵞ [الأنبياء:٩٨].. **وَوَجْهُ حجتهم الظالمة:** أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسىٰ من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سوَّيت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟! فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض.. ولِمَ قلت: ﵟإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ﵞ [الأنبياء:٩٨] وهذا اللفظ -بزعمهم- يعم الأصنام وعيسىٰ، فهل هذا إلا تناقض؟! وتناقض الحجة دليل علىٰ بطلانها.. هذا أنهىٰ ما يقررون به هذه الشبهة التي فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون..

ﵟمَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ﵞ.. **وهي -ولله الحمد- من أضعف الشبه وأبطلها:** فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام؛ لأن العبادة حق لله تعالىٰ، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق.. فأي شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسىٰ وغيره؟! وليس تفضيل عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكونه مقرَّباً عند ربه ما يدل علىٰ الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالىٰ..

ﵟإِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِﵞ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل..

ﵟوَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ﵞ يعرفون به قُدرة الله تعالىٰ علىٰ إيجاده من دون أَب.. ثم قال تعالىٰ..

ﵟوَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠ﵞ [الزخرف:٥٧-٦٠] أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتىٰ نرسل إليهم ملائكة من جنسهم.. وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن تُرسَل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلًا من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

🕮 الفوائد

أما قوله تعالىٰ: ﵟإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ﵞ [الأنبياء:٩٨] **فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:**

أحدها: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء:٩٨] ، أن ﴿وَمَا﴾ اسم لِمَا لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه..

الثاني: أنَّ الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح..

الثالث: أنَّ الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، فلا شك أن عيسىٰ وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف:٦١-٦٥]

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لدليل علىٰ الساعة، وأن القادر علىٰ إيجاده من أم بلا أب، قادر علىٰ بعث الموتىٰ من قبورهم.. أو وإن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة..

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر..

﴿وَٱتَّبِعُونِ ۚ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم..

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ موصل إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ..

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ﴾ عما أمركم الله به، فـ..

﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الشيطان..

﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حريص علىٰ إغوائكم، باذل جهده في ذلك..

﴿مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾..

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة علىٰ صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات..

﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل..

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي علىٰ الوجه الذي ينبغي..

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس.. فجاء عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مكملا ومتمما لشريعة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولأحكام التوراة.. وأتىٰ ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به..

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعون..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة.. وإخبار عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارىٰ: (إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة)..

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له..

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلىٰ الله وإلىٰ جنته.. فلما جاءهم عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهذا..

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ المتحزبون علىٰ التكذيب..

﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ كل قال بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مقالة باطلة، ورد ما جاء به.. إلا من هدىٰ الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله..

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف:٦١-٦٥] ما أشد حزن الظالمين! وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ

عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف:٦٦-٧٣]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يقول تعالىٰ: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعون..

﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها..

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ وإن الأخلاء يومئذ، أي: يوم القيامة، المتخالين علىٰ الكفر والتكذيب ومعصية الله..

﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة..

﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله.. ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالىٰ يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول..

﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضىٰ منها.. وإذا انتفىٰ المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق بها، وما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها..

﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ لله منقادين له في جميع أحوالهم.. فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن..

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار..

﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم..

﴿تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾ تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه..

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ تدور عليهم خدامهم، من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بألطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة، أعظم من صفاء القوارير..

﴿وَفِيهَا﴾ أي: الجنة..

﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب.. فكل ما اشتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم مونقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها.. كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧]..

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٧١﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه..

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي..

﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع..

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ كما في الآية الأخرى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]..

﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٣﴾ [الزخرف:٦٦-٧٣] أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون..

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال..

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ [الزخرف:٧٤-٧٨]

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم..

﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب..

﴿خَٰلِدُونَ ۝٧٤﴾ فيه، لا يخرجون منه أبدا.. و..

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة، بإزالته، ولا بتهوين عذابه..

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون]..

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم..

﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم..

﴿وَنَادَوْا۟﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة..

﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد.. فـ..

﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار -حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم-..

﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدًا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمـًا إلىٰ غمهم.. ثم وبخهم بما فعلوا فقال..

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه، فلو تبعتموه لفزتم وسعدتم..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ [الزخرف:٧٤-٧٨] فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف:٧٩-٨٠]

يقول تعالىٰ..

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ﴾ أم أبرم المكذبون بالحق المعاندون له..

﴿أَمۡرٗا﴾ أي: كادوا كيدا، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق..

﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ محكمون أمرا، ومدبرون تدبيرا يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله.. وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٨]..

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم..

﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم..

﴿وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به.. أي: فلذلك أقدموا علىٰ المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة علىٰ ما خفي منها.. فرد الله عليهم بقوله..

﴿بَلَىٰ﴾ إنا نعلم سرهم ونجواهم..

﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة الكرام..

﴿لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٧٩-٨٠] كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتىٰ يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرا، ولا يظلم ربك أحدا.

﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف:٨١-٨٣]

قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولدا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد..

﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ لذلك الولد.. لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقيادا للأمور المحبوبة لله.. ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفيا.. فعلم بذلك بطلانه.. فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقا إليه وتكميلا له، وكل شر فهم أول الناس

تركا له وإنكارا له وبعدا منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان (محمد بن عبد الله) أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون..

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله إثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا -لو كان حقا- لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلا ونقلا..

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ من الشريك والظهير، والعوين، والولد، وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون..

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال.. فعلومهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.. ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال..

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف:٨١-٨٣] فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف:٨٤-٨٩]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض.. فأهل السماوات كلهم والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون لجلاله، ويفتقرون لكماله، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].. فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين.. وهذه

كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣] أي: ألوهيته ومحبته فيهما.. وأما هو: فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله..

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئا إلا لحكمة، ولا شرع شيئا إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل علىٰ الحكمة..

﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٨٤﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفىٰ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر..

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك بمعنىٰ تعالىٰ وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه.. ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم.. حتىٰ إنه تعالىٰ انفرد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال..

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ قدم الظرف ليفيد الحصر.. أي: لا يعلم متىٰ تجيء الساعة إلا هو.. ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال..

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ في الآخرة، فيحكم بينكم بحكمه العدل.. ومن تمام ملكه أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئا، ولا يقدم علىٰ الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه..

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كل من دعي من دون الله من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ، ولهذا قال..

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ نطق بلسانه مقرا بقلبه..

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالىٰ بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه..

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ عالما بما شهد به.. فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه..

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ ولئن سألت المشركين..

﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق..

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لأقروا أنه الله وحده لا شريك له..

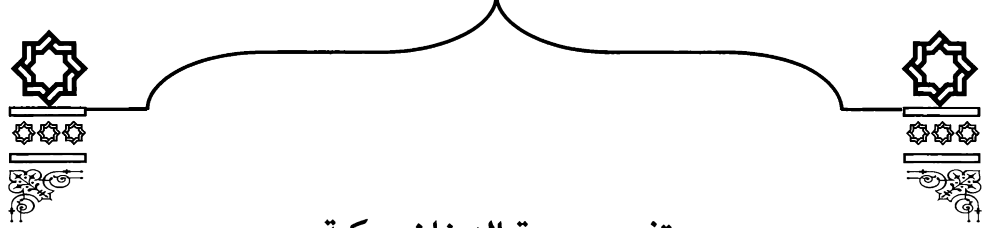
﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة علىٰ بطلان الشرك..

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ هذا معطوف علىٰ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥]، أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكيا لربه تكذيب قومه، متحزنا علىٰ ذلك، متحسرا علىٰ عدم إيمانهم.. فالله تعالىٰ عالم بهذه الحال، قادر علىٰ معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالىٰ حليم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال..

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾ اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالىٰ عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الفرقان:٦٣] أي: خطابا بمقتضىٰ جهلهم، ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].. فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقىٰ ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذىٰ بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل.. فصلوات الله وسلامه علىٰ من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلىٰ من كواكب الجوزاء..

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ [الزخرف:٨٤-٨٩] غِبَّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة (الزخرف)



تفسير سورة الدخان، مكية

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان:١-٦]

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ هذا قَسَم بالقرآن علىٰ القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلىٰ بيانه أنه أنزله..

﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ كثيرة الخير والبركة.. وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.. فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام علىٰ أفضل الأنام.. بلغة العرب الكرام، لينذر به قوما عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة.. فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي، ولهذا قال..

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾..

﴿فِيهَا﴾ في تلك الليل الفاضلة التي نزل فيها القرآن..

﴿يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ يفصل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به.. وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر أحد الكتابات التي تكتب وتميز فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم.. ثم إن الله تعالىٰ قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري علىٰ العبد وهو في بطن أمه.. ثم وكلهم بعد وجوده إلىٰ الدنيا، وكل به كراما كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله.. ثم إنه تعالىٰ يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة.. وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالىٰ بخلقه..

﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا..

﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥﴾ للرسل، ومنزلين للكتب والرسل، تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره..

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد.. فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦﴾ [الدخان:١-٦] يسمع جميع الأصوات.. ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة.. وقد علم تعالىٰ ضرورة العباد إلىٰ رسله وكتبه، فرحمهم بذلك ومَنَّ عليهم، فله تعالىٰ الحمد والمنة والإحسان.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾ [الدخان:٧-٩]

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما شاء..

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾ عالمين بذلك علما مفيدا لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق ولهذا قال..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود إلا وجهه..

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم، فيجزيكم بعملكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر..

﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ رب الأولين والآخرين مربيهم بالنعم الدافع عنهم النقم..

﴿بَلۡ هُمۡ﴾ فلما قرر تعالىٰ ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان..

﴿فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾ [الدخان:٧-٩] منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان:١٠-١٦]

﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وآن أوانه..

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ يعمهم ذلك الدخان ويقال لهم..

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١﴾..

﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان:١٠-١٦]..

📖 الفوائد

اختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان:

١- **فقيل**: إنه الدخان الذي يغشىٰ الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.. **ويؤيد هذا المعنىٰ**: أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار، والتأني بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم.. **ويؤيده أيضًا** أنه قال في هذه الآية ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾، وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلىٰ الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع..

٢- **وقيل: إن المراد بذلك**: ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا علىٰ الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»[1]، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتىٰ أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين

(١) أخرجه البخاري [١٠٠٦]، ومسلم [٦٧٥] وغيرهما من حديث ابي هريرة.

السماء والأرض كهيئة الدخان وليس به، وذلك من شدة الجوع.. فيكون -علىٰ هذا- قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلىٰ أبصارهم وما يشاهدون وليس بدخان حقيقة، ولم يزالوا بهذه الحالة حتىٰ استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم فدعا ربه فكشفه الله عنهم.. وعلىٰ هذا فيكون قوله ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، إخبار بأن الله سيصرفه عنكم، وتوعد لهم أن يعودوا إلىٰ الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوقع، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرىٰ، قالوا: وهي وقعة بدر وفي هذا القول نظر ظاهر..

٣- وقيل: **إن المراد بذلك**: أن ذلك من أشراط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان..

والقول هو الأول.. وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أن هذا كله يكون يوم القيامة.. وأن قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.. وإذا نزلت هذه الآيات علىٰ هذين المعنيين لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك، بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾
أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان:١٧-١٨]

لمَّا ذكر تعالىٰ تكذيب من كذَّب الرسولَ محمدا ﷺ.. ذكر أن لهم سلفا من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسىٰ وما أحل الله بهم؛ ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه.. فقال..

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسىٰ بن عمران إليهم..

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره..

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل.. أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم.. وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حق فأرسلوهم ليعبدوا ربهم..

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨﴾ [الدخان:١٧-١٨] أي: رسول من رب العالمين، أمين علىٰ ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئا، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ٢١﴾ [الدخان:١٩-٢١]

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو علىٰ عباد الله..

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٩﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتىٰ به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرات.. فكذبوه وهموا بقتله فلجأ بالله من شرهم فقال..

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠﴾ أي: تقتلوني أشر القتلات بالرجم بالحجارة..

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ٢١﴾ [الدخان:١٩-٢١] أي: **لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي**: وهو مقصودي منكم.. فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة **فاعتزلوني**، لا علي ولا لي، فاكفوني شركم.. فلم تحصل منهم المرتبة الأولىٰ ولا الثانية.. بل لم يزالوا **متمردين عاتين علىٰ الله**، محاربين لنبيه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل..

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤﴾ [الدخان:٢٢-٢٤]

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٢﴾ قد أجرموا جرما يوجب تعجيل العقوبة.. فأخبر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بحالهم، وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]..

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلًا وأخبره أنَ فرعون وقومه سيتبعونه..

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: بحاله، وذلك أنه لما سرىٰ موسىٰ ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسىٰ أن يضرب البحر فضربه فصار اثنىٰ عشر طريقا، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة.. فسلكه موسىٰ وقومه.. فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهوا، أي: بحالِه؛ ليسلكه فرعون وجنوده..

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان:٢٢-٢٤] فلما تكامل قومُ موسىٰ خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالىٰ أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال..

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٥-٢٩]

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ أي: هذه النعمة المذكورة..

﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وفي الآية الأخرىٰ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩]..

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لمَّا أتلفهم اللهُ وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض، أي لم يحزن عليهم ولم يؤس علىٰ فراقهم، بل كلٌّ استبشر بهلاكهم، وتلفهم حتىٰ السماء والأرض؛ لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين..

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٥-٢٩] أي: ممهلين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال.. ثم امتن تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل فقال..

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان:٣٠-٣٣]

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ الذي كانوا فيه..

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ مستكبرا في الأرض بغير الحق..

﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ المتجاوزين لحدود الله المتجرئين علىٰ محارمه..

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ اصطفيناهم وانتقيناهم..

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل..

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم، حتىٰ أتىٰ الله بأمة محمد ﷺ ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به علىٰ غيرهم..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ أي: بني إسرائيل..

﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الباهرة والمعجزات الظاهرة..

﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان:٣٠-٣٣] أي: إحسان كثير ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم علىٰ صحة ما جاءهم به نبيهم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان:٣٤-٣٧]

يخبر تعالىٰ..

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين..

﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مستبعدين للبعث والنشور..

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ ما هي إلا الحياة الدنيا، فلا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار.. ثم قالوا -متجرئين علىٰ ربهم معجزين له-..

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق.. فأي ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف علىٰ الإتيان بآبائهم؟! فإن الآيات

قد قامت علىٰ صدق ما جاءهم به، وتواترت تواترا عظيما من كل وجه.. قال تعالىٰ..

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: هؤلاء المخاطبون..

﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان:٣٤-٣٧] فإنهم ليسوا خيرا منهم، وقد اشتركوا في الإجرام، فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]

يخبر تعالىٰ عن كمال قدرته وتمام حكمته..

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وأنه ما خلق السماوات والأرض لعبا ولا لهوا، أو سدىٰ من غير فائدة..

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وأنه ما خلقهما إلا بالحق، أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل علىٰ الحق.. وأنه أوجدهما لـ: يعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان:٣٨-٣٩] فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان:٤٠-٤٢]

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلفَين..

﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ أي: الخلائق..

﴿أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ كلهم، سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها..

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا﴾ ولا ينفع مولىٰ عن مولىٰ شيئا، لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه..

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١﴾ أي: يمنعون من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن أحدا من الخلق لا يملك من الأمر شيئا..

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٤٢﴾ [الدخان:٤٠-٤٢] فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالىٰ، التي تسبب إليها وسعىٰ لها سعيها في الدنيا.. ثم قال تعالىٰ..

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ٥٠﴾ [الدخان:٤٣-٥٠]

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾ لمَّا ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه، ذكر افتراقهم إلىٰ فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي وأن طعامهم﴿ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ شر الأشجار، وأفظعها وأن طعمها..

﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥﴾ كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة يغلي في بطونهم..

﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦﴾..

﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٤٧﴾..

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨﴾.. ويقال للمعذب..

﴿ذُقۡ﴾ هذا العذاب الأليم والعقاب الوخيم..

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ بزعمك أنك عزيز ستمتنع من عذاب الله.. وأنك كريم علىٰ الله لا يصيبك بعذاب.. فاليوم تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس..

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب العظيم..

﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ٥٠﴾ [الدخان:٤٣-٥٠] أي: تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٧ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ [الدخان:٥١-٥٩]

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١﴾ هذا جزاء المتقين لله، الذين اتقوا سخطه وعذابه بتركهم المعاصي وفعلهم الطاعات.. فلما انتفىٰ السخط عنهم والعذاب، ثبت لهم الرضا من الله والثواب العظيم، في ظل ظليل من كثرة الأشجار، والفواكه وعيون سارحة، تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيرا في جنات النعيم..

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢﴾ فأضاف الجنات إلىٰ النعيم؛ لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه..

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق، أي: غليظ الحرير ورقيقه، مما تشتهيه أنفسهم..

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾ في قلوبهم ووجوههم، في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة، والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة..

﴿كَذَٰلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل..

﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ﴾ نساء جميلات، من جمالهن وحسنهن أنه يحار الطرف في حسنهن، وينبهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن..

﴿عِينٖ ۝٥٤﴾ ضخام الأعين حسانها..

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ أي: الجنة..

﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا.. فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أحضر لهم في الحال من غير تعب ولا كلفة..

﴿ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ من انقطاع ذلك.. وآمنين من مضرته.. وآمنين من كل مكدر.. وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال..

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ليس فيها موت بالكلية..

﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ولو كان فيها موت يستثنىٰ لم يستثن الموتة الأولىٰ، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب..

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾..

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالىٰ هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضا ما لم تبلغه أعمالهم..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟!

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: القرآن..

﴿بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة علىٰ الإطلاق وأجلِّها، فتيسر به لفظه وتيسر معناه..

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه..

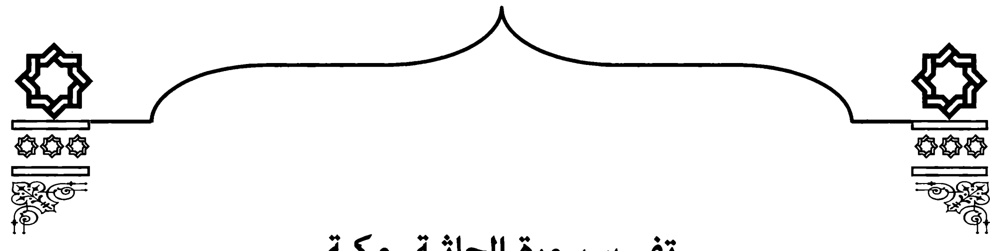
﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر..

﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ [الدخان:٥١-٥٩] ما يحل بهم من العذاب.. وفَرقٌ بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدينا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة (الدخان)

ولله الحمد والمنة





تفسير سورة الجاثية، مكية

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية:١-٦]

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالىٰ خبرًا يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به.. وأنه تَنزيلُ مِنَ اللهِ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة..

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.. ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد..

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحات علىٰ صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام.. ودالات أيضا علىٰ ما لله تعالىٰ من الكمال وعلىٰ البعث والنشور..

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية:١-٦]..

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾ [الجاثية:٧-١١]

ثم قسم تعالىٰ الناس بالنسبة إلىٰ الانتفاع بآياته وعدمه إلىٰ قسمين: قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيمانـًا تامـًا، وصل بهم إلىٰ درجة اليقين، فزكىٰ منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.. **وقسم** يسمع آيات الله سماعـًا تقوم به الحجة عليه، ثم يعرض عنها ويستكبر كأنه ما سمعها؛ لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.. وأنه إذا علم من آيات الله شيئـًا اتخذها هزوًا، فتوعده الله تعالىٰ بالويل فقال..

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ كذاب في مقاله أثيم في فعاله..

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾.. وأخبر أن له عذابـًا أليمـًا، وأنَّ..

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة..

﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ وأنه ﴿لَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ من الأموال..

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ﴾ يستنصرون بهم، فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا..

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾.. فلمَّا بين آياته القرآنية والعيانية وأن الناس فيها علىٰ قسمين أخبر أن القرآن المشتمل علىٰ هذه المطالب العالية أنه هدىٰ فقال..

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن.. فإنه يهدي إلىٰ معرفة الله تعالىٰ بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة.. ويهدي إلىٰ معرفة رسله وأوليائه وأعدائه، وأوصافهم.. ويهدي إلىٰ الأعمال الصالحة.. ويدعو إليها ويبين الأعمال السيئة وينهىٰ عنها.. ويهدي إلىٰ بيان

الجزاء علىٰ الأعمال ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه..

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾ [الجاثية:٧-١١]..

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية:١٢-١٣]

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ يخبر تعالىٰ بفضله علىٰ عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره..

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب..

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ الله تعالىٰ فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه وأثابكم علىٰ شكركم أجرًا جزيلًا..

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ أي: من فضله وإحسانه.. وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض.. ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر، والكواكب والثوابت والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته.. فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية:١٢-١٣] وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال علىٰ نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته.. وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال علىٰ كمال حكمته وعلمه.. وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال علىٰ سعة ملكه وسلطانه.. وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل علىٰ أنه الفعال لما يريد.. وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل علىٰ

سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره.. وكل ذلك دال علىٰ أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به.. فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريباً ولا شكاً.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية:١٤-١٥]

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر علىٰ أذية المشركين به..

﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين..

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فإنه تعالىٰ سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون.. فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم علىٰ إيمانكم وصفحكم وصبركم ثواباً جزيلًا.. وهم إن استمروا علىٰ تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي ولهذا قال..

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية:١٤-١٥]..

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية:١٦-١٧]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولقد أنعمنا علىٰ بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم..

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة والإنجيل..

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ بين الناس..

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أكثرهم من بني إسرائيل..

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس، وإنزال المن والسلوىٰ عليهم..

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: علىٰ الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.. والسياق يدل علىٰ أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به علىٰ بني إسرائيل وميزهم عن غيرهم.. وأيضا فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن علىٰ سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ آتينا بني إسرائيل..

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ دلالات تبين الحق من الباطل..

﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم.. وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها علىٰ يد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.. فهذه النعم التي أنعم الله بها علىٰ بني إسرائيل تقتضي الحال أن يقوموا بها علىٰ أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا علىٰ الحق الذي بينه الله لهم.. ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب، وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال..

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الموجب لعدم الاختلاف..

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وإنما حملهم علىٰ الاختلاف البغي من بعضهم علىٰ بعض والظلم..

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية:١٦-١٧] فيميز: المحق من المبطل.. والذي حمله علىٰ الاختلاف الهوىٰ أو غيره.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية:١٨-١٩]

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ ثم شرعنا لك شريعة كاملة، تدعو إلىٰ كل خير وتنهىٰ عن كل شر من أمرنا الشرعي..

﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإنَّ في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح..

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون..

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعونك عند الله فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم علىٰ أهوائهم..

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض..

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية:١٨-١٩] يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية:٢٠]

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم..

﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين.. والهدىٰ والرحمة..

﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية:٢٠] فيهتدون به إلىٰ الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة علىٰ من أصر وعاند.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١]

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون في حقوق ربهم..

﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه علىٰ هوىٰ أنفسهم؟! أي: أحسبوا أن يكونوا..

﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ سَوَاءً في الدنيا والآخرة؟!

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية:٢١] ساء ما ظنوا وحسبوا.. وساء ما حكموا به.. فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل.. بل الحكم الواقع القطعي أن المؤمنين العاملين الصالحات لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب في العاجل والآجل كل علىٰ قدر إحسانه.. وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾ [الجاثية:٢٢]

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له..

﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته وأنعم عليم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالىٰ وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾ [الجاثية:٢٢]..

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ

ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية:٢٣-٢٦]

يقول تعالىٰ..

﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ الرجل الضال..

﴿مَنِ﴾ الذي..

﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فما هويه سلكه، سواء كان يرضي الله أو يسخطه..

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ من الله تعالىٰ أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها..

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ فلا يسمع ما ينفعه..

﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾ فلا يعي الخير..

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق..

﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية.. وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه..

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه..

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: منكرو البعث..

﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ إن هي إلا عادات وجري علىٰ رسوم الليل والنهار..

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ يموت أناس ويحيا أناس.. وما مات فليس براجع إلىٰ الله ولا مجازىٰ بعمله..

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ وقولهم هذا صادر عن غير علم..

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم علىٰ ذلك ولا برهان.. إن هي إلا ظنون واستبعادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وهذا جراءة منهم علىٰ الله، حيث اقترحوا هذا الاقتراح وزعموا أن صدق رسل الله متوقف علىٰ الإتيان بآبائهم، وأنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا إلا إن تبعتهم الرسل علىٰ ما قالوا.. وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالىٰ..

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية:٢٣-٢٦] وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلىٰ قلوبهم، لعملوا له أعمالًا وتهيئوا له.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية:٢٧-٣٢]

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يخبر تعالىٰ عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات وأنه..

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة..

﴿يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يحصل الخسار علىٰ المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة؛ لأنها متعلقه بالباطل، فبطلت في يوم القيامة.. اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم وفاتهم الثواب وحصلوا علىٰ أليم العقاب.. ثم وصف تعالىٰ شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد ويستعد له العباد.. فقال..

﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها الرائي لذلك اليوم..

﴿كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ﴾ علىٰ ركبها؛ خوفا وذعرا وانتظارا لحكم الملك الرحمن..

﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: إلىٰ شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسىٰ يدعون إلىٰ شريعة موسىٰ، وأمة عيسىٰ كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعىٰ إلىٰ شرعها الذي كلفت به.. هذا أحد الاحتمالات في الآية وهو معنىٰ صحيح في نفسه غير مشكوك فيه.. **ويحتمل** أن المراد بقوله ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: إلىٰ كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر..

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨﴾ وأن كل أحد يجازىٰ بما عمله بنفسه، كقوله تعالىٰ: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت:٤٦].. **ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية**، ويدل علىٰ هذا قوله..

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل..

﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٩﴾ فهذا كتاب الأعمال.. ولهذا فصَّل ما يفعل الله بالفريقين فقال..

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيمانـًا صحيحـًا، وصدَّقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات..

﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ التي محلها الجنة وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم..

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٠﴾ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد حصل له كلُّ خير واندفع عنه كل شر..

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله فيقال لهم توبيخـًا وتقريعـًا..

﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ وقد دلتكم علىٰ ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها..

﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٣١﴾ ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها، فجنيتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.. ويوبخون أيضا بقوله..

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم﴾ منكرين لذلك..

﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية:٢٧-٣٢] فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، وردّ قول من جاء به، قال تعالىٰ..

﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم

بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٣-٣٧]

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم..

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل..

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه وبمن جاء به..

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في العذاب..

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل..

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هي مقركم ومصيركم..

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ينصرونكم من عذاب الله ويدفعون عنكم عقابه..

﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي حصل لكم من العذاب..

﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ (بـ) سبب ﴿أَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح..

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها.. فاطمأننتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية..

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ولا يمهلون ولا يردون إلىٰ الدنيا ليعملوا صالحا..

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه..

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ له الحمد علىٰ ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة..

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له الجلال والعظمة والمجد.. **فالحمد**: فيه الثناء علىٰ الله بصفات الكمال ومحبته تعالىٰ وإكرامه.. **والكبرياء**: فيها عظمته وجلاله.. **والعبادة**

مبنية **علىٰ ركنين**: محبة الله والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء..

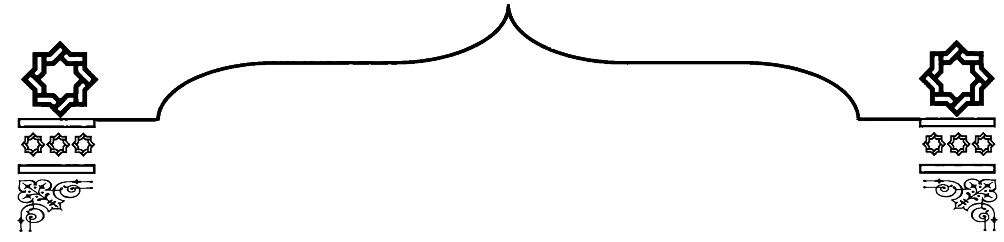
﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية:٣٣-٣٧] الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة (الجاثية)

ولله الحمد والنعمة والفضل







تفسير سورة الأحقاف، مكية

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف:١-٣]

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ هذا ثناء منه تعالىٰ علىٰ كتابه العزيز، وتعظيم له.. **وفي ضمن ذلك** إرشاد العباد إلىٰ الاهتداء بنوره والإقبال علىٰ تدبر آياته واستخراج كنوزه..

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي ذَكَر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف:٥٤]، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، وكما قال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [النحل: ٢- ٣]..

فالله تعالىٰ هو الذي خلق المكلفين وخلق مساكنهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلىٰ دار الإقامة والقرار وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملًا موفرًا..

وأقام تعالىٰ الأدلة علىٰ تلك الدار، وأذاق العباد نموذجًا من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعىٰ لهم إلىٰ طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا..

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لا عبثًا ولا سدىٰ، بل ليعرف العباد

عظمة خالقهما، ويستدلوا علىٰ كماله، ويعلموا أنَّ الذي خلقهما علىٰ عِظَمهما قادرٌ علىٰ أن يعيد العبادَ بعد موتهم للجزاء، وأنَّ خلقهما وبقاءهما مقدَّر إلىٰ ﴿ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾..

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فلما أخبر بذلك -وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل وأنار السبيل- أخبر أنَّ طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضـًا عن الحق، وصدوفـًا عن دعوة الرسل فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف:١-٣] وأما الذين آمنوا: فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾ [الأحقاف:٤-٥]

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قُل لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثانـًا وأندادا، لا تملك نفعـًا ولا ضرا ولا موتـًا ولا حياة ولا نشورا، قل لهم مبينـًا عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئـًا من العبادة..

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ﴾ هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئا؟ هل خلقوا جبالا؟ هل أجروا أنهارا؟ هل نشروا حيوانا؟ هل أنبتوا أشجارا؟ هل كان منهم معاونة علىٰ خلق شيء من ذلك؟ لا شيء من ذلك، بإقرارهم علىٰ أنفسهم فضلا عن غيرهم.. فهذا دليل عقلي قاطع علىٰ أنَّ كلَّ من سوىٰ الله فعبادته باطلة.. ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي فقال..

﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ الكتاب يدعو إلىٰ الشرك..

﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك..

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤﴾ من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل علىٰ ذلك.. بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلىٰ توحيد ربهم ونهوا عن الشرك

به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وكل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩].. فعُلِم أنَّ جدال المشركين في شركهم غير مستندين فيه علىٰ برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا علىٰ ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول فاسدة.. يدلك علىٰ فسادها: استقراء أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئًا في الدنيا أو في الآخرة؟! ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به بمثقال ذرة..

﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف:٤-٥] لا يسمعون منهم دعاءً ولا يجيبون لهم نداءً، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠﴾ [الأحقاف:٦-١٠]

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يلعن بعضهم بعضًا ويتبرأ بعضهم من بعض..

﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾..

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وإذا تتلىٰ علىٰ المكذبين..

﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بحيث تكون علىٰ وجه لا يمترىٰ بها، ولا يشك في وقوعها وحقها، لم تفدهم خيرًا، بل قامت عليهم بذلك الحجة..

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويقولون من إفكهم وافترائهم..

﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: ظاهر لا شك فيه.. وهذا من باب قلب الحقائق الذي لا يروج إلا علىٰ ضعفاء العقول.. وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ وبين السحر من المنافاة والمخالفة أعظم مما بين السماء والأرض.. وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعا علىٰ الأفلاك وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة، بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله وهل هذا إلا من البهرجة؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: افترىٰ محمد هذا القرآن من عند نفسه فليس هو من عند الله..

﴿قُلْ﴾ لهم..

﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ فالله عليَّ قادر، وبما تفيضون فيه عالِم، فكيف لم يعاقبني علىٰ افترائي الذي زعمتم؟..

﴿فَلَا﴾ فهل..

﴿تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إن أرادني الله بضر أو أرادني برحمة..

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾..

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فلو كنت متقوِّلًا عليه لأخذ مني باليمين ولعاقبني عقاباً يراه كلُّ أحد؛ لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقوِّلًا.. ثم دعاهم إلىٰ التوبة، مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته فقال..

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾ فتوبوا إليه، وأقلعوا عمَّا أنتم فيه.. يغفر لكم ذنوبكم ويرحمكم، فيوفقكم للخير ويثيبكم جزيل الأجر.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لست بأول رسول جاءكم حتىٰ تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلأي شيء تنكرون رسالتي؟!

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ لست إلا بشرًا ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالىٰ هو المتصرف بي وبكم، الحاكم عليَّ وعليكم..

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ولست الآتي بالشيء من عندي..

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ فإن قبلتم رسالتي وأجبتم دعوتي فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك عليَّ فحسابكم علىٰ الله، وقد أنذرتكم، ومن أَنْذَرَ فقد أَعذر..

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله..

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ وشهد علىٰ صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق..

﴿فَـَٔامَنَ﴾ فآمنوا به واهتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء..

﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ [الأحقاف:٦-١٠] ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾ [الأحقاف:١١-١٢]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال الكفار بالحق معاندين له ورادين لدعوته..

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾ ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكنا أول مبادر به وسابق إليه.. وهذا من البهرجة في مكان.. فأي دليل يدل علىٰ أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟! هل هم أزكىٰ نفوساً؟! أم أكمل عقولًا؟! أم الهدىٰ بأيديهم؟!.. ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم يعزون به أنفسهم، بمنزلة من لم يقدر علىٰ الشيء ثم طفق يذمه، ولهذا قال..

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لمَّا لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب وأجلُّ الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب.. وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية،

خصوصاً أكملها وأفضلها بعد القرآن..

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهي التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ..

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة..

﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن..

﴿كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة، شهد بصدقها وصدَّقها بموافقته لها.. وجعله الله..

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليسهل تناوله ويتيسر تذكره..

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان -إن استمروا علىٰ ظلمهم- بالعذاب الوبيل..

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف:١١-١٢] ويبشر المحسنين في عبادة الخالق وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة.. ويَذكُر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يبشر بها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إن الذين أقروا بربهم وشهدوا له بالوحدانية والتزموا طاعته وداموا علىٰ ذلك..

﴿ثُمَّ﴾ و..

﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ مدة حياتهم..

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم..

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ علىٰ ما خلَّفوا وراءهم..

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها حولًا، ولا يريدون بها بدلًا..

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١٤] من الإيمان بالله المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٥-١٦]

هذا من: لطفه تعالىٰ بعباده.. وشكره للوالدين..

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أن وصىٰ الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلىٰ والديهم بـ: القول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال، والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.. ثم نبه علىٰ ذكر السبب الموجب لذلك..

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ فذكر ما تحملته الأم من ولدها، وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة.. وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها..

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع هذا هو الغالب..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ نهاية قوته وشبابه وكمال عقله..

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ووفقني..

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: نِعم الدين ونِعم الدنيا.. وشكره بـ: صرف النعم في طاعة مسديها ومويلها، ومقابلته منته بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الثناء بها علىٰ الله..

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ والنعم علىٰ الوالدين نعم علىٰ أولادهم وذريتهم؛ لأنهم لابد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم..

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً مما يفسده.. فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيب عليه..

﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ لمَّا دعا لنفسه بالصلاح دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم.. وذكر أن صلاحهم يعود نفعه علىٰ والديهم، لقوله: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي﴾..

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلىٰ طاعتك..

﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم..

﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ وهو الطاعات؛ لأنهم يعملون أيضـًا غيرها..

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ في جملة..

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه..

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف:١٥-١٦] هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعدٌ صادق، من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

📖 الفـوائـد

يستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ ﴾ [البقرة:٢٣٣] أن **أقل مدة الحمل ستة أشهر**؛ لأن مدة الرضاع -وهي سنتان- إذا سقطت منها السنتان بقي ستة أشهر مدة للحمل.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف:١٧-١٩]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ حالَ الصالح البار لوالديه.. ذَكَر حالة العاق، وأنها شر الحالات، فقال..

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ إذ دعواه إلىٰ الإيمان بالله واليوم الآخر وخوفاه الجزاء.. وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعواه إلىٰ ما فيه سعادته الأبدية وفلاحه

السرمدي.. فقابلهما بأقبح مقابلة فقال..

﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ تبـًا لكما ولِمَا جئتما به.. ثم ذَكَر وجه استبعاده وإنكاره لذلك، فقال..

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ من قبري إلىٰ يوم القيامة..

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ علىٰ التكذيب، وسلفوا علىٰ الكفر، وهم الأئمة المقتدىٰ بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟!

﴿وَهُمَا﴾ أي: والداه..

﴿يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ عليه ويقولان له..

﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتىٰ إنهما –من حرصهما عليه– أنهما يستغيثان الله له استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق فيقولان..

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما.. وولدهما لا يزداد إلا عتوا ونفورا واستكبارا عن الحق وقدحا فيه..

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾ إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلىٰ رسوله.. وكل أحد يعلم أن محمدا ﷺ أُمِّي لا يكتب ولا يقرأ ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلمه؟! وأنىٰ للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؟!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ بهذه الحالة الذميمة..

﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ حقت عليهم كلمة العذاب..

﴿فِيٓ﴾ جملة..

﴿أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ علىٰ الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيغرقون في تيارهم..

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾ والخسران، فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله فالأرباح من باب أولىٰ وأحرىٰ.. فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا علىٰ شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم..

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الخير وأهل الشر..

﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۖ﴾ كلٌّ علىٰ حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة علىٰ قدر أعمالهم، ولهذا قال..

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾ [الأحقاف:١٧-١٩] بأن لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف:٢٠]

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يَذكُر تعالىٰ حالَ الكفار عند عرضهم علىٰ النار، حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم..

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ حيث اطمأننتم إلىٰ الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم..

﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة، فهي حظكم من آخرتكم..

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ العذاب الشديد الذي يهينكم..

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ويفضحكم بما كنتم تقولون علىٰ الله غير الحق، أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلىٰ الله وإلىٰ حكمه وأنتم كذبة في ذلك..

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف:٢٠] أي: تتكبرون عن طاعته.. فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب علىٰ الله بنسبته إلىٰ رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه.. فعوقبوا أشدَّ العقوبة.

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ

ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢١-٢٦]

﴿۞ وَٱذۡكُرۡ﴾ بالثناء الجميل..

﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حيث كان من الرسل الكرام الذين فضَّلهم الله تعالىٰ بالدعوة إلىٰ دينه وإرشاد الخلق إليه..

﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ وهم عاد..

﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن..

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ فلم يكن بِدعـاً منهم، ولا مخالفـاً لهم.. قائلاً لهم..

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد..

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾﴾ وخوفهم -إن لم يطيعوه- العذاب الشديد.. فلم تفد فيهم تلك الدعوة..

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: ليس لك من القصد ولا معك من الحق إلا أنك حسدتنا علىٰ آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها..

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا غاية الجهل والعناد..

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي بيده أزمَّة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء..

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ أي: ليس علي إلا البلاغ المبين..

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهو الريح التي دمرتهم وأهلكتهم.. ولهذا قال..

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ أي: العذاب..

﴿عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ معترضاً كالسحاب، قد أقبل علىٰ أوديتهم التي تسيل، فتسقي نوابتهم ويشربون من آبارها وغدرانها..

﴿قَالُواْ﴾ مستبشرين..

﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ هذا السحاب سيمطرنا.. قال تعالىٰ..

﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ هذا الذي جنيتم به علىٰ أنفسكم حيث قلتم ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠]..

﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾..

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ تمر عليه من شدتها ونحسها.. فسلطها الله عليهم ﴿ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقة: ٧]..

﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ بإذنه ومشيئته..

﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم..

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ بسبب جرمهم وظلمهم.. هذا مع أن الله تعالىٰ قد أدرَّ عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه ولا ذكروه.. ولهذا قال..

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طيباتها ويتمتعون بشهواتها، وعمرناهم عمرا يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي.. أي: ولقد مكنا (عادا) كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيَدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً..

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتىٰ يقال إنهم تركوا الحق جهلًا منهم وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم.. ولكن التوفيق بيد الله..

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم ﴿يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾..

﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة..

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢١-٢٦] نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف:٢٧-٢٨]

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ يحذِّر تعالى مشركي العرب وغيرهم بـ: إهلاك الأمم المكذبين الذين هم حَولَ ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود ونحوهم..

﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وأن الله تعالى صرَّف لهم الآيات، أي: نوَّعها من كل وجه..

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عمَّا هم عليه من الكفر والتكذيب.. فلمَّا لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء.. ولهذا قال هنا..

﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ أي: يتقربون إليهم ويتألهونهم لرجاء نفعهم..

﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم..

﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف:٢٧-٢٨] من الكذب الذي يمنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت.

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ

﴿طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢]

كان الله تعالىٰ قد أرسل رسوله محمدا ﷺ إلىٰ الخلق، إنسهم وجنهم.. وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.. فالإنس يمكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته..

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ وأرسل إليه..

﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أي: وصىٰ بعضُهم بعضاً بذلك..

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه وأثَّر ذلك فيهم..

﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم.. وقيضهم الله معونةً لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن..

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لأن كتاب موسىٰ أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع.. وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام..

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه..

﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر..

﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ موصل إلىٰ الله وإلىٰ جنته، من العلم بالله وبأحكامه الدينية وأحكام الجزاء.. فلما مدحوا القرآن وبيَّنوا محله ومرتبته، دعوهم إلىٰ الإيمان به، فقالوا..

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ الذي لا يدعو إلا إلىٰ ربه، لا يدعوكم إلىٰ غرض من أغراضه ولا هوىٰ..

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ وإنما يدعوكم إلىٰ ربكم ليثيبكم ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا..

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ وإذا أجارهم من العذاب الأليم، فما ثَمَّ بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله..

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإنَّ الله علىٰ كل شيء قدير، فلا يفوته هارب ولا يغالبه مغالب..

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢] وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات فأعرض واستكبر؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٣-٣٥]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا استدلال منه تعالىٰ علىٰ الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها.. وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض علىٰ عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكترث بذلك..

﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾..

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾..

﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم وهو علىٰ كل شيء قدير؟!

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يخبر تعالىٰ عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم علىٰ النار التي كانوا يكذِّبون بها، وأنهم يوبَّخون ويُقال لهم..

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانا؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم وتبين كذبهم..

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: عذاباً لازماً دائماً كما كان كفركم صفةً لازمة..

﴿فَٱصْبِرْ﴾ ثم أمر تعالىٰ رسوله أن يصبر علىٰ أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال

داعيـًا لهم إلىٰ الله..

﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم.. فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبرًا لم يصبره نبيٌّ قبله.. حتىٰ رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعـًا بصده عن الدعوة إلىٰ الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة.. وهو ﷺ لم يزل صادعـًا بأمر الله، مقيمـًا علىٰ جهاد أعداء الله، صابرًا علىٰ ما يناله من الأذىٰ.. حتىٰ مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه علىٰ سائر الأديان، وأمته علىٰ الأمم، فـﷺ تسليما..

﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحمقهم، فلا يستخفنك بجهلهم.. ولا يحملك ما ترىٰ من استعجالهم علىٰ أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، و..

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا..

﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل، وهم صائرون إلىٰ العذاب الوبيل..

﴿بَلَٰغٞۚ﴾ أي: هذه الدنيا متاعها وشهوتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.. أو هذا القرآن العظيم الذي بيَّنا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم، وزاد إلىٰ الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة زاد يوصل إلىٰ دار النعيم ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم..

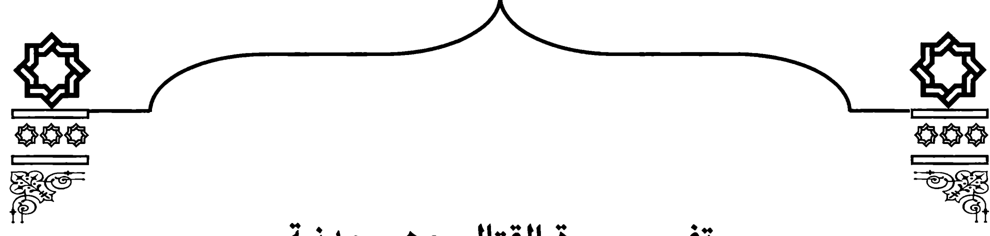
﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ﴾ بالعقوبات..

﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٣-٣٥] الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحقَّ الذي جاءتهم به الرسل.. وأَعذَر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون علىٰ تكذيبهم وكفرهم.. نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة (الأحقاف)

والحمد لله رب العالمين





تفسير سورة القتال، وهي مدنية

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ [محمد:١-٣]

هذه الآيات مشتملات علىٰ: ذكر ثواب المؤمنين.. وعقاب العاصين.. والسبب في ذلك.. ودعوة الخلق إلىٰ الاعتبار بذلك.. فقال..

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه.. فهؤلاء..

﴿أَضَلَّ﴾ الله..

﴿أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها.. **وهذا يشمل: أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق** وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئا.. **وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها**، أن الله سيحبطها عليهم.. **والسبب في ذلك** أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله، من عبادة الأصنام والأوثان.. **والأعمال التي في نصر الباطل** لما كانت باطلة، كانت **الأعمال لأجلها باطلة**.. وأما..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما أنزل الله علىٰ رسله عموماً، وعلىٰ محمد ﷺ خصوصاً..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة..

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾..

﴿كَفَّرَ﴾ الله..

﴿عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ صغارها وكبارها.. وإذا كفرت سيئاتهم نجوا من عذاب الدنيا والآخرة..

﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾ أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم.. وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته.. وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم﴿ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ ﴾..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾..

﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر..

﴿مِن رَّبِّهِمۡۚ ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه، فرباهم تعالىٰ بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم متعلقة بالحق المنسوب إلىٰ الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها..

﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾ [محمد:١-٣] حيث بيَّن لهم تعالىٰ أهلَ الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾ [محمد:٤-٦]

يقول تعالىٰ -مرشدا عباده إلىٰ ما فيه صلاحهم، ونصرهم علىٰ أعدائهم-..

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال..

﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ واضربوا منهم الأعناق..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ حتَّىٰ تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرتهم.. فإذا فعلتم ذلك، ورأيتم الأسر أولىٰ وأصلح..

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شدَّ منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم..

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ فإذا كانوا تحت أَسركم، فأنتم بالخيار بين المن عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء.. وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتىٰ يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.. وهذا الأمر مستمر..

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ حتىٰ لا يبقىٰ حرب، وتبقون في المسألة والمهادنة.. فإن لكلِّ مقام مقالًا، ولكلِّ حال حكمـًا.. فالحال المتقدمة، إنما هي إذا كان قتال وحرب.. فإذا كان في بعض الأوقات لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم علىٰ بعض..

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ فإنه تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير، وقادر علىٰ أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا، حتىٰ يبيد المسلمون خضراءهم..

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانـًا صحيحـًا عن بصيرة، لا إيمانا مبنيـًا علىٰ متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جدًا، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا..

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثوابٌ جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا..

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾ فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم.. أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم.. ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة..

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلىٰ سلوك الطريق الموصلة إلىٰ الجنة..

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ أي: حالهم وأمورهم.. وثوابهم يكون صالحـًا كاملًا لا نكد فيه، ولا تنغيص بوجه من الوجوه..

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد:٤-٦] **عرفها أولًا بـ:** أن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيله، ووفقهم للقيام بما

أمرهم به ورغبهم فيه.. **ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم**: منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمد:٧-٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ **هذا أمرٌ منه تعالىٰ للمؤمنين: أن ينصروا الله بـ**: القيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله..

﴿يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ **فإنَّهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم.. أي**: يربط علىٰ قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات.. **ويصبر أجسامهم علىٰ ذلك**، ويعينهم علىٰ أعدائهم.. فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن **الذي ينصره** بالأقوال والأفعال **سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر**، من الثبات وغيره..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل..

﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان..

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ **ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم**..

﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحـًا للعباد، وفلاحـًا لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه..

﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمد:٧-٩]..

﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾ [محمد:١٠-١١]

﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ **أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ**..

﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخمدوا.. و..

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ﴾ أموالهم وديارهم.. بل دمر أعمالهم ومكرهم..

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾ وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.. وأما المؤمنون: فإن الله تعالىٰ ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتولىٰ جزاءهم ونصرهم..

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالىٰ، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدُّوا علىٰ أنفسهم رحمته..

﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد:١٠-١١] يهديهم إلىٰ سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ [محمد:١٢]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ لما ذَكَر تعالىٰ أنه ولي المؤمنين، ذَكَر ما يَفعل بهم في الآخرة.. من دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، التي تَسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناظرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيذة..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ ولمَّا ذَكَر أنَّ الكافرين لا مولىٰ لهم، ذكر أنهم وُكِلُوا إلىٰ أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل..

بل جل همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترىٰ حركاتهم الظاهرة

والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلىٰ ما فيه الخير والسعادة..

﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد:١٢] ولهذا كانت النار مثوىٰ لهم.. أي: منزلًا معدًا، لا يخرجون منها، ولا يفتَّر عنهم من عذابها.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمد:١٣]

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ من قرىٰ المكذبين..

﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ في الأموال والأولاد والأعوان، والأبنية والآلات..

﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ..

﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمد:١٣] فلا نجد لهم ناصرا، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا.. فكيف حال هؤلاء الضعفاء أهل قريتك، إذ أخرجوك عن وطنك وكذبوك وعادوك، وأنت أفضل المرسلين وخير الأولين والآخرين؟! أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة؟ لولا أن الله تعالىٰ بعث رسوله بالرحمة والتأني بكل كافر وجاحد.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد:١٤]

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لا يستوي من هو علىٰ بصيرة من أمر دينه علما وعملا، قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق..

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد:١٤] كمن هو أعمىٰ القلب، قد رفض الحق وأضله، واتبع هواه بغير هدىٰ من الله، ومع ذلك يرىٰ أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغي!

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد:١٥]

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مثل الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة..

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير.. لا بوخم، ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة.. بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحا، وألذها شربـًا..

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بحموضة ولا غيرها..

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة.. لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل..

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من شمعه، وسائر أوساخه..

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا.. فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.. ثم قال..

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المرهوب..

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ فأي هؤلاء خير، أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها..

﴿وَسُقُوا۟﴾ فيها..

﴿مَآءً حَمِيمًا﴾ حارًا جدًا..

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥] فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعامِلين والعَمَلين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٦-١٧]

﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المنافقين..

﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول، استماعـًا لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة..

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ أي: قريبا.. وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين علىٰ الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم.. ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ ختم عليها، وسدَّ أبواب الخير التي تصل إليها..

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل.. ثم بين حال المهتدين، فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله..

﴿زَادَهُمۡ هُدًى﴾ شكرا منه تعالىٰ لهم علىٰ ذلك..

﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد:١٦-١٧] وفقهم للخير، وحفظهم من الشر.. فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةًۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨﴾ [محمد:١٨]

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون..

﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةًۖ﴾ فجأة، وهم لا يشعرون..

﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ علاماتها الدالة علىٰ قربها..

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨﴾ [محمد:١٨] من أين لهم إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟! قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.. ففي هذا الحث علىٰ الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإنَّ موت الإنسان قيام ساعته.

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩]

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته.. بمعنىٰ: ما طُلِب منه عَلِمَه، وتمامُه أن يَعمَل بمقتضاه.. وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين علىٰ كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلىٰ ذلك..

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة، من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم..

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ واستغفر أيضا ﴿ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾، فإنهم -بسبب إيمانهم- كان لهم حق علىٰ كل مسلم ومسلمة.. ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم..

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم..

﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩] الذي به تستقرون.. فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم علىٰ ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

🕮 الفـوائـد

١- الطريق إلىٰ العلم بأنه لا إله إلا هو أمور:

أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة علىٰ كماله وعظمته وجلالته، فإنها توجب بذلَ الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالىٰ المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإنَّ ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإنَّ هذا داع إلىٰ العلم بأنه تعالىٰ وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبِدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها

ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإنَّ العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله علىٰ ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أنَّ خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا ورأيًا وصوابًا وعلمًا -وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون- قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل علىٰ التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي:

أكثر الله من دعوة الخلق بها إلىٰ أنه لا إله إلا الله.

وأبداها في كتابه، وأعادها عند تأمل العبد في بعضها.

لابد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك.

فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب.

فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد -علىٰ تكرر الباطل والشبه- إلا نموًا وكمالًا.

هذا، وإن نظرت إلىٰ الدليل العظيم، والأمر الكبير -وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته- فإنه الباب الأعظم إلىٰ العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجُمَلِهِ ما لا يحصل في غيره.

٢- إذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم، المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، **فإن من لوازم ذلك**:

النصح لهم.

وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه.

ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه.

ويأمرهم بما فيه الخير لهم.

وينهاهم عما فيه ضررهم.

ويعفو عن مساويهم ومعايبهم.

ويحرص علىٰ اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد:٢٠-٢٣]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استعجالًا ومبادرة للأوامر الشاقة..

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر بالقتال..

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ مُلزمٌ العمل بها..

﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ الذي هو أشق شيء علىٰ النفوس.. لم يثبت ضعفاء الإيمان علىٰ امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال..

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ من كراهتهم لذلك، وشدته عليهم.. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧].. ثم ندبهم تعالىٰ إلىٰ ما هو الأليق بحالهم، فقال..

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ فأولىٰ لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرِّع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالىٰ وعفوه..

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم..

﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله..

﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١﴾ من حالهم الأولىٰ، **وذلك من وجوه: منها:** أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة علىٰ ما هو قائم بصدده.. **ومنها:** أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، **أما الحال:** فلأن الهمة انتقلت عنه إلىٰ غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل: فإنه لا يجيء حتىٰ تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.. **ومنها:** أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، علىٰ ما يستقبل من أموره، فأحرىٰ به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه علىٰ وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقتٌ استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.. ثم ذكر تعالىٰ حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولىٰ إلىٰ خير، بل إلىٰ شر، فقال..

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ أي: فهما أمران: إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح.. وإما إعراض عن ذلك، وتولٍ عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم..

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقُرِّبوا من سخط الله..

﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾ [محمد:٢٠-٢٣] أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه.. فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعـاً تقوم به حجة الله عليها.. ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلىٰ البراهين والبينات.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:٢٤]

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل،

فإنهم لو تدبروه: لدلهم علىٰ كل خير.. ولحذرهم من كل شر.. ولملأ قلوبهم من الإيمان.. وأفئدتهم من الإيقان.. ولأوصلهم إلىٰ المطالب العالية، والمواهب الغالية.. ولبين لهم الطريق الموصلة إلىٰ الله، وإلىٰ جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وبأي شيء تحذر.. ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه.. ولشوقهم إلىٰ الثواب الجزيل.. ورهبهم من العقاب الوبيل..

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤] **قد أُغلِق علىٰ ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خيرٌ أبدا، هذا هو الواقع.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد:٢٥-٢٨]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ **يخبر تعالىٰ عن حالة المرتدين -عن الهدىٰ والإيمان- علىٰ أعقابهم إلىٰ الضلال والكفران..**

﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ **ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم** ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠]..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ **وذلك أنهم قد تبين لهم الهدىٰ، فزهدوا فيه ورفضوه، و..**

﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ **من المبارزين العداوة لله ولرسوله..**

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ **أي: الذي يوافق أهواءهم.. فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة علىٰ ما يوصلهم إلىٰ الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي..**

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ **فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها..**

﴿فَكَيْفَ﴾ **ترىٰ حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة..**

﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم..

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ بالمقامع الشديدة؟!

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه..

﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ (ب) سبب ﴿أَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان..

﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيهم منه..

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد:٢٥-٢٨] أي: أبطلها وأذهبها.. وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد:٢٩]

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تُخرجُ القلبَ عن حال صحته واعتداله..

﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد:٢٩] أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟! هذا ظن لا يليق بحكمة الله.. فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة.. ومن ردته علىٰ عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه، وخرَج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه.. هذا مقتضىٰ الحكمة الإلهية، مع أنه تعالىٰ قال..

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣٠-٣١]

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم..

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ لابد أن يَظهر ما في قلوبهم.. ويتبين بفلتات ألسنتهم، فإن **الألسن مغارف القلوب**، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر..

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ فيجازيكم عليها.. ثمَّ ذَكَر أعظمَ امتحان يَمتحن به عبادَه، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال..

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ نختبر إيمانكم وصبركم..

﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد:٣٠-٣١] فمن امتثل أمرَ الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته، فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمد:٣٢]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه..

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم..

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ فلا ينقص به ملكه..

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمد:٣٢] أي: مساعيهم التي بَذَلوها في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [محمد:٣٣]

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يأمرُ تعالىٰ المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو: طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي علىٰ الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة..

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٣﴾ [محمد:٣٣] يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من مَنَّ بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.. فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها كلها داخلة في هذا، ومنهي عنها.. ويستدل الفقهاء بهذه الآية علىٰ تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهىٰ عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، علىٰ الوجه الذي تصلح به علما وعملا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٥﴾ [محمد:٣٤-٣٥]

هذه الآية، والتي في البقرة قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٧] مقيَّدَتان لكلِّ نص مطلق فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيَّد بالموت عليه، فقال هنا..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

﴿وَصَدُّواْ﴾ الخلق..

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلىٰ الباطل، وتزيينه..

﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه..

﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ٣٤﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها؛ لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.. ثم قال تعالىٰ..

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم علىٰ القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونُصحاً للإسلام، وإغضاباً للشيطان..

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ ولا تدعوا إلىٰ المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة..

﴿وَأَنتُمُ﴾ والحال أنكم..

﴿ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ أي: ينقصكم..

﴿أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد:٣٤-٣٥]..

🕮 الفـوائـد

١- مفهوم الآية الكريمة: أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإنَّ الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصدِّ عن سبيله، والإقدام علىٰ معاصيه.. فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أَحدٍ ما دام حيًا متمكناً من التوبة.. وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

٢- هذه الأمور الثلاثة، كلٌ منها مقتض للصبر وعدم الوهن:

كونهم الأعلين: أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق.. فإنَّ الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذلَّ من غيره وأضعف عَدَدا، وعُدُدا، وقوة داخلية وخارجية..

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم علىٰ عدوهم..

الثالث: أنَّ الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإنَّ النفقة تضاعَف فيه، إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠- ١٢١].

٣- إذا عرف الإنسان أن الله تعالىٰ لا يضيع عمله وجهاده، **أوجب له ذلك**: النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب.. فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟! فإن ذلك يوجب النشاط التام.. **فهذا من ترغيب الله لعباده**، وتنشيطهم، وتقوية أنفسهم علىٰ ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٦-٣٨]

هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا، بـ: إخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو..

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ﴾ لعب في الأبدان، ولهو في القلوب.. فلا يزال العبد **لاهيـًا**: في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات.. **لاعبـًا**: في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي.. حتىٰ تُستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها علىٰ طائل، بل قد تبين له خسرانه وحرمانه، وحضر عذابه.. **فهذا موجب للعاقل**: الزهدُ فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله..

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته.. وهي العمل بمرضاته علىٰ الدوام، مع ترك معاصيه.. فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه.. وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفـًا، ليثيبهم الثواب الجزيلَ، ولهذا قال..



﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ لا يريد تعالىٰ أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم، وبقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال..

﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله..

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ والدليل علىٰ أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها، أنكم..

﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ علىٰ هذا الوجه، الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية..

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟! أليس من باب أولىٰ وأحرىٰ امتناعكم من ذلك.. ثم قال..

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ لأنه حرَم نفسه ثواب الله تعالىٰ، وفاته خير كثير، ولن يضر اللهَ بترك الإنفاق شيئاً.. فإنَّ..

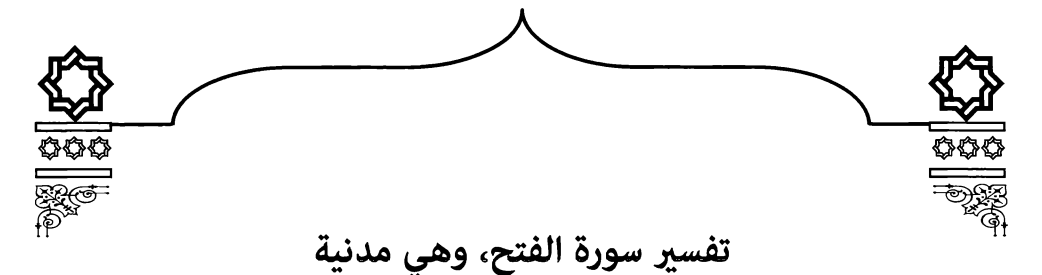
﴿وَاللَّهُ﴾ هو..

﴿الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم..

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بالله، وامتثال ما يأمركم به..

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٦-٣٨] في التولي.. بل يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

تم تفسير سورة (القتال) والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الفتح، وهي مدنية

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح:١-٣]

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية..

حين صدَّ المشركون رسولَ الله ﷺ، لمَّا جاء معتمرًا، في قصة طويلة..

صار آخرُ أمرِها أنْ صالحهم رسولُ الله ﷺ علىٰ: وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلىٰ أن يعتمر من العام المقبل، وعلىٰ أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل..

وبسبب ذلك لمَّا أَمِن الناسُ بعضَهم بعضـًا، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عَزَّوَجَلَّ، وصار كلُّ مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص علىٰ الوقوف علىٰ حقيقة الإسلام..

فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجـًا، **فلذلك سماه الله فتحاً**، ووصفه بأنه (فتح مبين)، أي: ظاهر جلي..

وذلك: لأنَّ المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك الفتح..

ورتَّب اللهُ علىٰ هذا الفتح عدة أمور، فقال..

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك -والله أعلم- بسبب: ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين.. وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر..

﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعزاز دينك، ونصرك علىٰ أعدائك، واتساع كلمتك..

﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي..

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح:١-٣] قوياً لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوىٰ المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.. ثم ذكر آثار هذا الفتح علىٰ المؤمنين فقال..

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦﴾ [الفتح:٤-٦]

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يخبر تعالىٰ عن منته علىٰ المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس.. فمن نعمة الله علىٰ عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط علىٰ قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقىٰ هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال..

﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه.. فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ لمَّا جرىٰ ما جرىٰ بين رسول الله ﷺ والمشركين من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلمَّا صبروا عليها ووطَّنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم..

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤﴾ فلا يظن المشركون أنَّ الله لا ينصر دينه ونبيَّه.. ولكنه تعالىٰ عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين

إلىٰ وقت آخر..

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات..

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين..

﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين..

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوءهم.. حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين..

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ وظنُّوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة علىٰ أهل الحق..

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ فأدار الله عليهم ظنَّهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا..

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله..

﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾ أبعدهم وأقصاهم عن رحمته..

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦﴾ [الفتح:٤-٦]..

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾ [الفتح:٧]

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود؛ ليعلم العبادُ أنه تعالىٰ هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ قويـاً غالبـاً قاهرًا لكلِّ شيء.. ومع عزته وقوته فهو حكيم..

﴿حَكِيمًا ٧﴾ [الفتح:٧] في خلقه وتدبيره، يجري علىٰ ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح:٨-٩]

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ أيها الرسول الكريم..

﴿شَٰهِدٗا﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر.. وشاهدًا علىٰ المقالات والمسائل، حقها وباطلها.. وشاهدًا لله تعالىٰ بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه..

﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ من أطاعك وأطاع اللهَ بالثواب الدنيوي والديني والأخروي..

﴿وَنَذِيرٗا ۝٨﴾ ومنذرًا من عصىٰ اللهَ بالعقاب العاجل والآجل.. **ومن تمام البشارة والنذارة**: بيان الأعمال والأخلاق التي يبشَّر بها ويُنذَر، فهو المبيِّن للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل.. ولهذا رتَّب علىٰ ذلك قولَه..

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور..

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعزروا الرسول ﷺ..

﴿وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم..

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تسبحوا لله..

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح:٨-٩] أوَّل النهار وآخره.

🕮 الفوائد

ذكر الله في هذه الآية:

الحقَّ المشترك بين الله وبين رسوله: وهو الإيمان بهما.

والمختص بالرسول: وهو التعزير والتوقير.

والمختص بالله: وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠﴾ [الفتح:١٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي (بيعة الرضوان).. التي بايع الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فيها رسولَ الله ﷺ، علىٰ أن لا يفروا عنه.. فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها.. فأخبر تعالىٰ..

﴿إِنَّمَا﴾ أن الذين بايعوك، حقيقةُ الأمر أنهم..

﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه.. حتىٰ إنه من شدة تأكده أنه قال..

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة.. وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم علىٰ الوفاء بها، ولهذا قال..

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يَفِ بما عاهدَ اللهَ عليه..

﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ وبال ذلك راجعٌ إليه، وعقوبته واصلةٌ له..

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أتىٰ به كاملًا موفرًا..

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح:١٠] لا يعلم عِظَمَه وقَدرَه إلا الذي آتاه إياه.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝١١ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾ [الفتح:١١-١٣]

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يذم تعالىٰ المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله..

﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالىٰ..

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد..

﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالىٰ..

﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل علىٰ ندمهم وإقرارهم علىٰ أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفا يحتاج إلىٰ توبة واستغفار..

﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾..

﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١﴾ فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعـًا لهم، لأنهم قد تابوا وأنابوا..

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ﴾ ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.. فظنوا..

﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي: إنهم سيُقتلون ويُستأصلون.. ولم يزل هذا الظن يزيَّن في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتىٰ استحكم.. **وسبب ذلك أمران: أحدها..**

﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢﴾ أنهم كانوا هلكىٰ، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.. **الثاني:** ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال..

﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنه كافر مستحق للعقاب..

﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾ [الفتح:١١-١٣]..

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٤﴾ [الفتح:١٤]

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو تعالىٰ المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية.. ولهذا ذَكَر حُكمَ الجزاء المرتَّب علىٰ الأحكام الشرعية، فقال..

﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو من قام بما أمره الله به..

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ ممن تهاون بأمر الله..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٤﴾ [الفتح:١٤] وصفُه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة.. فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، ويُنزِلُ خيره المدرار آناء الليل والنهار.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥﴾ [الفتح:١٥]

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ لمَّا ذكر تعالىٰ المخلَّفين وذمهم.. ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلىٰ غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون..

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ﴾..

﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك..

﴿أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعـًا وقدرًا..

﴿قُل﴾ لهم..

﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ إنكم محرومون منها.. بما جنيتم علىٰ أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة..

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مجيبين لهذا الكلام.. الذي مُنِعوا به عن الخروج..

﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ﴾ علىٰ الغنائم.. هذا منتهىٰ علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال..

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥﴾ [الفتح:١٥]..

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم

﴿مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾ [الفتح:١٦-١٧]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ أنَّ المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة.. قال تعالىٰ ممتحنا لهم..

﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ﴾ سيدعوكم الرسول ومن ناب منابَه من الخلفاء الراشدين والأئمة..

﴿إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ هؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم..

﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ إما هذا وإما هذا.. وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا علىٰ ما هم عليه.. فلما أثخنهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبذلوا الجزية..

﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ الداعي لكم إلىٰ قتال هؤلاء..

﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ وهو الأجر الذي رتَّبه الله ورسوله علىٰ الجهاد في سبيل الله..

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلىٰ قتاله..

﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦﴾.. ثم ذكر الأعذار التي يعذر بها العبد عن الخروج إلىٰ الجهاد، فقال..

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾ في التخلف عن الجهاد؛ لعذرهم المانع..

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما..

﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين..

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله ورسوله..

﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح:١٦-١٧] فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

🕮 الفوائد

دلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح:١٨-٢١]

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يخبر تعالى بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين..

إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة..

وكان سبب هذه البيعة، التي يقال لها (بيعة الرضوان) لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها (بيعة أهل الشجرة)..

أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجئ لقتال أحد، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، معظِّمًا له..

فبعث رسولُ الله ﷺ عثمانَ بن عفان لمكة في ذلك..

فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون..

فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحوا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة علىٰ قتال المشركين، وأن لا يفروا حتىٰ يموتوا..

فأخبر تعالىٰ أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات..

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان..

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ شكرًا لهم علىٰ ما في قلوبهم.. زادهم هدىٰ، وعَلِمَ ما في قلوبهم من الجَزَع من تلك الشروط التي شرطها المشركون علىٰ رسوله.. فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم..

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ وهو: فتح خيبر.. لم يحضره سوىٰ أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاءًا لهم، وشكرًا علىٰ ما فعلوه من طاعة الله تعالىٰ والقيام بمرضاته..

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾ له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء.. فلو شاء لانتصر من الكفار في كلِّ وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين.. ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر..

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كلَّ غنيمة غنَّمَها المسلمين إلىٰ يوم القيامة..

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: غنيمة خيبر.. أي: فلا تحسبوها وحدها، بل ثَمَّ شيء كثير من الغنائم سيتبعها..

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ﴾ واحمدوا الله إذ ﴿كَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ﴾ القادرين علىٰ قتالكم، الحريصين عليه..

﴿عَنكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم..

﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة..

﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلون بها علىٰ خبر الله الصادق، ووعده الحق، وثوابه للمؤمنين، وأنَّ الذي قدَّرها سيقدِّر غيرها..

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب..

﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ من العلم والإيمان والعمل..

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ وعدكم أيضاً غنيمة أخرىٰ..

﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب..

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ هو قادر عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها.. فلابد من وقوع ما وعد به، لكمال اقتدار الله تعالىٰ، ولهذا قال..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾ [الفتح:١٨-٢١]..

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الفتح:٢٣]

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين.. بنصرهم علىٰ أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم..

﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولىٰ أمرهم..

﴿وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢﴾ ينصرهم ويعينهم علىٰ قتالكم..

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ﴾ بل هم مخذولون مغلوبون.. وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون..

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الفتح:٢٣]..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥﴾ [الفتح:٢٤-٢٥]

يقول تعالىٰ ممتنا علىٰ عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أهل مكة..

﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد.. وهم نحو ثمانين رجلًا انحدروا علىٰ المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهين فأمسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فيجازي كلَّ عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.. ثم ذكر تعالىٰ الأمور المهيجة علىٰ قتال المشركين..

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهي كفرهم بالله ورسوله.. وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة..

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ وهم الذين أيضـًا صدوا ﴿ٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوسا..

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ وهو محل ذبحه، وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلمـًا وعدوانـًا.. وكل هذه أمور موجبة وداعية إلىٰ قتالهم، ولكن ثم مانع وهو..

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحَلةٍ أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذىٰ، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون..

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي: خشية أن تطأوهم..

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المعرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذىٰ والمكروه..

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وفائدة أخروية، وهو: أنه ليدخل في رحمته من يشاء، فَيَمُنَّ عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدىٰ بعد الضلال.. فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب..

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ لو زالوا من بين أظهرهم..

﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح:٢٤-٢٥] بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح:٢٦]

يقول تعالىٰ..

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حيث أَنِفُوا من كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم).. وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لئلا يقول الناس: (دخلوا مكة قاهرين لقريش).. وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم حتىٰ أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي..

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يحملهم الغضب علىٰ مقابلة المشركين بما قابلوهم به.. بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين..

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي (لا إله إلا الله)، وحقوقها.. ألزمهم القيامَ بها، فالتزموها وقاموا بها..

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم..

﴿وَأَهْلَهَا ۚ﴾ وكانوا ﴿ أَهْلَهَا ﴾ الذين استأهلوها، لمَا يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال..

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح:٢٦]..

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح:٢٨]

يقول تعالىٰ..

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ وذلك أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت.. فلما جرىٰ يوم الحديبية ما جرىٰ، ورجعوا من غير دخولٍ لمكة، كثر في ذلك الكلامُ منهم، حتىٰ إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام؟!» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به»[1].. قال الله هنا: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾، أي: لابد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها..

﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: في هذه الحال، المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بـ: الحلق والتقصير..

﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ وعدم الخوف..

﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع..

﴿مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول بتلك الصفة..

﴿فَتۡحًا قَرِيبًا ٢٧﴾.. ولمَّا كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها.. فبيَّن تعالىٰ حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدىٰ ورحمة.. أخبر بحكم عام، فقال..

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي هو العِلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر..

﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.. وهو كل عمل صالح مزك للقلوب، مطهر للنفوس، مرب للأخلاق، معل للأقدار..

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ بما بعثه الله به..

﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح:٢٨]..

---

(١) أخرجه البخاري [١٦٩٤] وغيره من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح:٢٩]

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ يخبر تعالىٰ عن رسوله ﷺ..

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وأصحابه من المهاجرين والأنصار.. أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم..

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة.. فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون..

﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق.. وأما معاملتهم مع الخالق فإنك..

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ وَصفُهم كثرة الصلاة، التي أجلُّ أركانها الركوع والسجود..

﴿يَبۡتَغُونَ﴾ بتلك العبادة..

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ هذا مقصودهم، بلوغ رضا ربهم، والوصول إلىٰ ثوابه..

﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ قد أثرت العبادة -من كثرتها وحسنها- في وجوههم، حتىٰ استنارت.. لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم..

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور..

﴿مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ هذا وَصفُهم الذي وَصفَهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا..

﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر.. وأنهم في كمالهم وتعاونهم..

﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء..

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ ذلك الزرع، أي: قوي وغلظ..

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق..

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله.. كذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، **هم كالزرع في نفعهم** للخلق واحتياج الناس إليهم.. فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه علىٰ ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه.. كالزرع الذي أخرج شطأه، فآزره فاستغلظ، ولهذا قال..

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم علىٰ دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال..

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح:٢٩] فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جَمَعَ اللهُ لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في (الهدي النبوي)[1] **فإنَّ فيها إعانة علىٰ فهم هذه السورة، وتكلم علىٰ معانيها وأسرارها، قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالىٰ..**

فَصْلٌ فِي قِصّةِ الْحُدَيْبِيَةِ

قَالَ نافع: كَانَتْ سَنَةَ سِتٍّ **فِي ذِي الْقَعْدَةِ**، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ قَوْلُ الزُّهْرِيِّ، وقتادة، وَمُوسَىٰ بْنِ عُقْبَةَ، ومحمد بن إسحاق وَغَيْرِهِمْ.

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الْحُدَيْبِيَةِ فِي رَمَضَانَ، **وَكَانَتْ فِي شَوَّالٍ..**

(١) زاد المعاد/ ٣/ ٢٥٥ طبعة الرسالة.

وَهَذَا وَهْمٌ، وَإِنَّمَا كَانَتْ غَزَاةُ الْفَتْحِ فِي رَمَضَانَ، وَقَدْ قَالَ أبو الأسود عَنْ عروة: إِنَّهَا كَانَتْ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، عَلَىٰ الصَّوَابِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أنس أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ كُلَّهُنَّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ» فَذَكَرَ مِنْهَا عُمْرَةَ الْحُدَيْبِيَةِ [(١)].

وَكَانَ **مَعَهُ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ**، هَكَذَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جابر.. وَعَنْهُ فِيهِمَا: (كَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَة).. وَفِيهِمَا: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ: (كُنَّا أَلْفًا وَثَلَاثَمِائَةٍ)..

قَالَ قتادة: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: (كَمْ كَانَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ؟ قَالَ: خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةٍ، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةٍ، قَالَ: يَرْحَمُهُ اللهُ، أَوْهَمَ، هُوَ حَدَّثَنِي أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةٍ).

قُلْتُ: وَقَدْ صَحَّ عَنْ جابر الْقَوْلَانِ.. وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُمْ نَحَرُوا عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ سَبْعِينَ بَدَنَةً، الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ بِخَيْلِنَا وَرَجْلِنَا.. يَعْنِي: فَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ.. وَالْقَلْبُ إِلَىٰ هَذَا أَمْيَلُ.. وَهُوَ قَوْلُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَمَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، وَسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ فِي أَصَحِّ الرِّوَايَتَيْنِ، وَقَوْل المسيَّب بن حَزَن.

قَالَ شعبة: عَنْ قتادة، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ».

وَغَلِطَ غَلَطًا بَيِّنًا مَنْ قَالَ: كَانُوا سَبْعَمِائَةٍ.. وَعُذْرُهُ أَنَّهُمْ نَحَرُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَالْبَدَنَةُ قَدْ جَاءَ إِجْزَاؤُهَا عَنْ سَبْعَةٍ وَعَنْ عَشَرَةٍ.. وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قَالَهُ هَذَا الْقَائِلُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ الْبَدَنَةَ كَانَتْ فِي هَذِهِ الْعُمْرَةِ عَنْ سَبْعَةٍ، فَلَوْ كَانَتِ السَّبْعُونَ عَنْ جَمِيعِهِمْ لَكَانُوا أَرْبَعَمِائَةٍ وَتِسْعِينَ رَجُلًا، وَقَدْ قَالَ فِي تَمَامِ الْحَدِيثِ بِعَيْنِهِ: إِنَّهُمْ (كَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ).

---

(١) أخرجه البخاري [١٧٧٨]، ومسلم [١٢٥٣] وغيرهما من حديث أنس.

فَصْلٌ[١]

فَلَمَّا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ، قَلَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ، وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ يُخْبِرُهُ عَنْ قُرَيْشٍ..

حَتَّىٰ إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ عُسْفَانَ أَتَاهُ عَيْنُهُ فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ (كعب بن لؤي) قَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَجَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ..

وَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَقَالَ: أَتَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ إِلَىٰ ذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ فَنُصِيبَهُمْ، فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَحْرُوبِينَ، وَإِنْ يَجِيئُوا تَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللهُ، أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نَؤُمَّ الْبَيْتَ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ؟

فَقَالَ أبو بكر: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَلَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ مَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتَلْنَاهُ..

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (فَرُوحُوا إِذًا).. فَرَاحُوا..

حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ (خالد)، حَتَّىٰ إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ..

وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ.. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ بِهِ..

فَعَدَلَ حَتَّىٰ نَزَلَ بِأَقْصَىٰ الْحُدَيْبِيَةِ، عَلَىٰ ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ، إِنَّمَا يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلْبِثْهُ النَّاسُ أَنْ نَزَحُوهُ، فَشَكَوْا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَطَشَ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ

---

(١) عنون له المحقق في الزاد فقال: فَصْلٌ فِي تَقْلِيدِهُ ﷺ الْهَدْيَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ وَبَعْثُهُ عَيْنًا لَهُ ابْنَ خُزَاعَةَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ.اهـ

أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّىٰ صَدَرُوا عَنْهُ..

وَفَزِعَتْ قُرَيْشٌ لِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ، فَأَحَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَعَا (عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ) لِيَبْعَثَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ لِي بِمَكَّةَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ يَغْضَبُ لِي إِنْ أُوذِيتُ، فَأَرْسِلْ (عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ) فَإِنَّ عَشِيرَتَهُ بِهَا، وَإِنَّهُ مُبَلِّغٌ مَا أَرَدْتَ..

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ (عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ)، فَأَرْسَلَهُ إِلَىٰ قُرَيْشٍ وَقَالَ: أَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا عُمَّارًا، وَادْعُهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ رِجَالًا بِمَكَّةَ مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ فَيَدْخُلَ عَلَيْهِمْ، وَيُبَشِّرَهُمْ بِالْفَتْحِ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُظْهِرٌ دِينَهُ بِمَكَّةَ، حَتَّىٰ لَا يُسْتَخْفَىٰ فِيهَا بِالْإِيمَانِ..

فَانْطَلَقَ عثمان فَمَرَّ عَلَىٰ قُرَيْشٍ بِبَلْدَحَ [1]، فَقَالُوا: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَأُخْبِرُكُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا عُمَّارًا..

فَقَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا تَقُولُ، فَانْفُذْ لِحَاجَتِكَ..

وَقَامَ إِلَيْهِ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فَرَحَّبَ بِهِ وَأَسْرَجَ فَرَسَهُ، فَحَمَلَ عثمانَ عَلَىٰ الْفَرَسِ، وَأَجَارَهُ، وَأَرْدَفَهُ أَبَانٌ حَتَّىٰ جَاءَ مَكَّةَ..

وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ عثمان: خَلَصَ عثمان قَبْلَنَا إِلَىٰ الْبَيْتِ وَطَافَ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا أَظُنُّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مَحْصُورُونَ، فَقَالُوا: وَمَا يَمْنَعُهُ يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ خَلَصَ؟ قَالَ: ذَاكَ ظَنِّي بِهِ، أَلَّا يَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ حَتَىٰ نَطُوفَ مَعَهُ.

وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمُشْرِكِينَ فِي أَمْرِ الصُّلْحِ، فَرَمَىٰ رَجُلٌ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ رَجُلًا مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةٌ، وَتَرَامَوْا بِالنَّبْلِ وَالْحِجَارَةِ، وَصَاحَ الْفَرِيقَانِ كِلَاهُمَا، وَارْتَهَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِمَنْ فِيهِمْ..

وَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ عثمان قَدْ قُتِلَ، فَدَعَا إِلَىٰ الْبَيْعَةِ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَبَايَعُوهُ عَلَىٰ أَلَّا يَفِرُّوا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِ نَفْسِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ عَنْ عثمان»..

وَلَمَّا تَمَّتِ الْبَيْعَةُ رَجَعَ عثمان، فَقَالَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ: اشْتَفَيْتَ يَا أبا عبد الله مِنَ الطَّوَافِ

---

(١) بِبَلْدَحَ: مَوْضِعٌ خَارِجَ مَكَّةَ. [فتح الباري/ ٥/ ٣٣٥].



بِالْبَيْتِ؟ فَقَالَ: (بِئْسَ مَا ظَنَنْتُمْ بِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ مَكَثْتُ بِهَا سَنَةً وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِيمٌ بِالْحُدَيْبِيَةِ، مَا طُفْتُ بِهَا حَتَّىٰ يَطُوفَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَقَدْ دَعَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَىٰ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ فَأَبَيْتُ)، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ كَانَ أَعْلَمَنَا بِاللهِ وَأَحْسَنَنَا ظَنًّا..

وَكَانَ (عمر) آخِذًا بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلْبَيْعَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ إِلَّا (الجد بن قيس)..

وَكَانَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ آخِذًا بِغُصْنِهَا يَرْفَعُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ..

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَهُ (أبو سنان الأسدي)..

وَبَايَعَهُ (سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَأَوْسَطِهِمْ وَآخِرِهِمْ..

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ (بديل بن ورقاء الخزاعي) فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا (عَيْبَةَ نُصْحٍ)[١] رَسُولِ اللهِ ﷺ (مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ)[٢]، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ (كعب بن لؤي وعامر بن لؤي) نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ[٣]، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ..

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا إِلَّا الْقِتَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَىٰ أَمْرِي هَذَا حَتَّىٰ تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ لَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَه)..

قَالَ بديل: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ..

فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَىٰ قُرَيْشًا، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ

---

(١) الْعَيْبَةُ: مَا تُوضَعُ فِيهِ الثِّيَابُ لِحِفْظِهَا.. أَيْ: أَنَّهُمْ مَوْضِعُ النُّصْحِ لَهُ وَالْأَمَانَةِ عَلَىٰ سِرِّهِ.. كَأَنَّهُ شَبَّهَ الصَّدْرَ الَّذِي هُوَ مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ، بِالْعَيْبَةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَوْدَعُ الثِّيَابِ. [فتح الباري/ ٥/ ٣٣٧]

(٢) مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ: لِبَيَانِ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّ خُزَاعَةَ كَانُوا مِنْ جُمْلَةِ أَهْلِ تِهَامَةَ، وَتِهَامَةُ هِيَ مَكَّةُ وَمَا حَوْلَهَا، وَأَصْلُهَا مِنَ التَّهَمِ، وَهُوَ شِدَّةُ الْحَرِّ، وَرُكُودُ الرِّيحِ. [فتح الباري/ ٥/ ٣٣٧]

(٣) الْعُوذُ: جَمْعُ عَائِذٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ ذَاتُ اللَّبَنِ.. وَالْمَطَافِيلُ: الْأُمَّهَاتُ اللَّاتِي مَعَهَا أَطْفَالُهَا.. يُرِيدُ: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَهُمْ بِذَوَاتِ الْأَلْبَانِ مِنَ الْإِبِلِ، لِيَتَزَوَّدُوا بِأَلْبَانِهَا، وَلَا يَرْجِعُوا حَتَّىٰ يَمْنَعُوهُ.. أَوْ كَنَّىٰ بِذَلِكَ عَنِ النِّسَاءِ مَعَهُنَّ الْأَطْفَال، وَالْمُرَاد أَنهم خَرجُوا مَعَهم بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ لِإِرَادَةِ طُولِ الْمَقَامِ، وَلِيَكُونَ أَدْعَىٰ إِلَىٰ عَدَمِ الْفِرَارِ.. وَيَحْتَمِلُ: إِرَادَةَ الْمَعْنَىٰ الْأَعَمِّ. [فتح الباري/ ٥/ ٣٣٨]

قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ..

فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ..

وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ..

قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا.. فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ..

فَقَالَ عروة بن مسعود الثقفي: إِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي آتِهِ.. فَقَالُوا: ائْتِهِ..

فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُهُ.. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لـ (بديل)..

فَقَالَ لَهُ عروة عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ لِوِ اسْتَأْصَلْتَ قَوْمَكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟! وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَىٰ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَىٰ وُجُوهًا، وَأَرَىٰ أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ، خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ.. فَقَالَ لَهُ أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟! قَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أبو بكر، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ..

وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ وكُلَّمَا، كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَ(الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ) عِنْدَ رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَىٰ عروة إِلَىٰ لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.. فَرَفَعَ عروة رَأْسَهُ وَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.. فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ، أَوَلَسْتُ أَسْعَىٰ فِي غَدْرَتِكَ؟!.. وَكَانَ المغيرة صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»(١)..

ثُمَّ إِنَّ عروة جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ النَّبِيُّ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا جِلْدَهُ وَوَجْهَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ..

---

(١) متفق عليه، وقد تقدم قريباً من حديث المسور ومروان.

فَرَجَعَ عروة إِلَىٰ أَصْحَابِهِ فقَالَ: أَيْ قَوْمُ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَىٰ الْمُلُوكِ، عَلَىٰ كِسْرَىٰ وقيصر وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وُضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا..

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِهِ.. فَقَالُوا: ائْتِهِ..

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ»، فَبَعَثُوهَا لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ الْقَوْمُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ..

فَرَجَعَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ فقَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ وَمَا أَرَىٰ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ..

فَقَامَ (مكرز بن حفص) فَقَالَ: دَعُونِي آتِهِ.. فَقَالُوا: ائْتِهِ..

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (هَذَا مكرز بن حفص، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ)، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَيْنَا هُوَ يُكَلِّمُهُ..

إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (قَدْ سُهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ) فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا..

فَدَعَا الْكَاتِبَ فَقَالَ: اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ..

فَقَالَ سهيل: أَمَّا (الرَّحْمَنُ) فَوَاللهِ مَا نَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ.. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»..

ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ..

فَقَالَ سهيل: فَوَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ..

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله»..

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَىٰ أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ..

فَقَالَ سهيل: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضَغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ..

فَقَالَ سهيل: عَلَىٰ أَنْ لَا يَأْتِيَكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا.. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟!

بَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ (أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو) يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّىٰ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ بَيْنَ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ.. فَقَالَ سهيل: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ، أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ.. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ..

فَقَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَا أُصَالِحُكَ عَلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا.. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَجِزْهُ لِي.. قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ.. قَالَ: بَلَىٰ فَافْعَلْ.. قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.. قَالَ مكرز: بَلَىٰ قَدْ أَجَزْنَاهُ.. فَقَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا لَقِيتُ؟! وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ فِي اللهِ عَذَابًا شَدِيدًا..

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: **وَاللهِ مَا شَكَكْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ** (١)، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَىٰ، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَىٰ الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَىٰ الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَىٰ، فَقُلْتُ: عَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَعْدَائِنَا؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَهُوَ نَاصِرِي وَلَسْتُ أَعْصِيهِ».. قُلْتُ: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ..

قَالَ فَأَتَيْتُ أبا بكر فَقُلْتُ لَهُ كَمَا قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَدَّ عَلَيَّ أبو بكر كَمَا رَدَّ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَوَاءً، وَزَادَ: فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ حَتَّىٰ تَمُوتَ فَوَاللهِ إِنَّهُ لَعَلَىٰ الْحَقِّ.. قَالَ عمر:

---

(١) فِي رِوَايَةِ بن إِسْحَاقَ كَانَ الصَّحَابَةُ لَا يَشُكُّونَ فِي الْفَتْحِ لرؤيا رَآهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَلَمَّا رَأَوُا الصُّلْحَ دَخَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيم، حَتَّىٰ كَادُوا يهْلكُونَ. [فتح الباري/ ٥/ ٢٤٦].

فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا..

فَلَمَّا فُرِغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا).. فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، حَتَّىٰ قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ قَامَ فَدَخَلَ عَلَىٰ (أم سلمة)، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ..

فَقَالَتْ أم سلمة: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّىٰ تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ.. فَقَامَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّىٰ فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ..

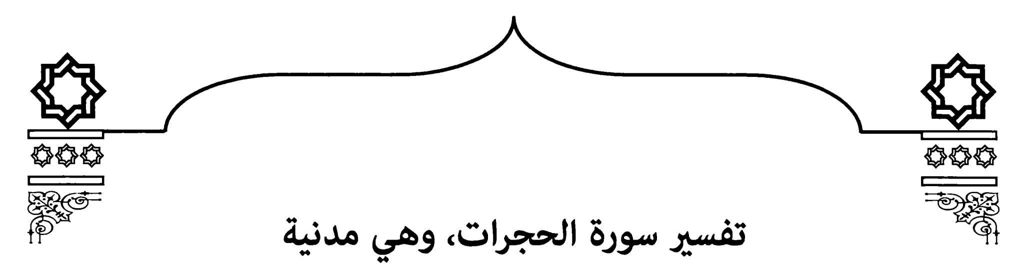
فَلَمَّا رَأَىٰ النَّاسُ ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّىٰ كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا..

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]، حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠]، فَطَلَّقَ عمر يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا (معاوية) وَالْأُخْرَىٰ (صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ)..

ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَفِي مَرْجِعِهِ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ ﴾ [الفتح]..

فَقَالَ عمر: أَوَفَتْحٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ.. فَقَالَ الصَّحَابَةُ: هَنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٤]. انتهىٰ

وهذا آخر تفسير سورة (الفتح) ولله الحمد والمنة



تفسير سورة الحجرات، وهي مدنية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات:١-٣]

هذا متضمن لـ: لأدب مع الله تعالىٰ.. ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأمر الله عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ، في جميع أمورهم..

﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتىٰ يقول، ولا يأمروا حتىٰ يأمر.. فإن هذا حقيقة **الأدب الواجب**، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ ثم أمر الله بتقواه عمومًا، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، علىٰ نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، علىٰ نور من الله، تخشىٰ عقاب الله(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات..

(١) أخرجه ابن المبارك في [الزهد/ ١٣٤٣].

﴿عَلِيمٌ ۝١﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات.. وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه- حث علىٰ امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال.. ثم قال تعالىٰ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه.. أي: لا يرفع المخاطِب له صوته معه فوق صوته..

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام..

﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه علىٰ الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به..

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ فإن في عدم القيام بذلك محذورًا، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر.. كما أن الأدب معه، من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوىٰ، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوىٰ..

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات:١-٣] ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالىٰ، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب.

📖 الفوائد

١- في هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ علىٰ قوله، فإنه متىٰ استبانت سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها علىٰ غيرها، كائنًا ما كان.

٢- في هذا دليل علىٰ أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن.. فمن لازم أمر

الله واتبع رضاه، وسارع إلىٰ ذلك، وقدمه علىٰ هواه، تمحض وتمحص للتقوىٰ، وصار قلبه صالحًا لها.. ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوىٰ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات:٤]

نزلت هذه الآيات الكريمة في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالىٰ بالجفاء، وأنهم ﴿أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ قدِموا وافدين علىٰ رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتىٰ يخرج، بل نادوه: يا محمد! يا محمد! أي: اخرج إلينا..

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات:٤] فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن **من العقل وعلامته استعمال الأدب**.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٥-٦]

فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير، ولهذا قال..

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ﴾..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَا صدر عن عباده من الذنوب، والإخلال بالآداب..

﴿رَّحِيمٌ ۝٥﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهذا أيضًا من الآداب التي علىٰ أولي الألباب التأدب بها واستعمالها..

﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردًا، فإنَّ في ذلك خطرًا كبيرًا، ووقوعًا في الإثم..

﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٥-٦] فإنَّ خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حُكِم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس

والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة.. بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبين.. فإن دلت الدلائل والقرائن علىٰ صدقه، عمل به وصدق.. وإن دلت علىٰ كذبه كُذِّب، ولم يُعمل به.

🕮 الفوائد

فيه دليل علىٰ أن: خبر الصادق مقبول.. وخبر الكاذب مردود.. وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا.. ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فُسَّاقًا.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات:٧-٨]

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ليكن لديكم معلومـاً أنَّ رسول الله ﷺ بين أظهركم.. وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم.. وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، و..

﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ والله تعالىٰ يحبب إليكم الإيمان..

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب علىٰ الحق من الشواهد، والأدلة الدالة علىٰ صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالىٰ بكم من توفيقه للإنابة إليه..

﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ﴾ أي: الذنوب الكبار..

﴿وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ هي ما دون ذلك من الذنوب.. بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد علىٰ فساده، وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان..

﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا علىٰ الدين القويم، والصراط المستقيم.. وضدهم الغاوون، الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله علىٰ قلوبهم، ولمَّا ﴿زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥].. ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم..

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ ذلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات:٧-٨] بمن يشكر النعمة، فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله، حيث تقتضيه حكمته.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠]

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغي بعضهم علىٰ بعض، ويقاتل بعضهم بعضـًا.. وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن علىٰ غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك علىٰ أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلىٰ ذلك، فإن صلحتا، فبها ونعمت..

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ترجع إلىٰ ما حدَّ اللهُ ورسولُه، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال..

﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ هذا أمر بالصلح.. وبالعدل في الصلح..

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ فإن الصلح قد يوجد ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به.. فيجب أن لا يراعىٰ أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ العادلين في حكمهم بين الناس.. وفي جميع الولايات التي تولوها.. حتىٰ إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله، في أدائه حقوقهم.. وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله، علىٰ منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما ولوا»[1]..

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أُخوة توجب أن يُحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم.. ولهذا قال النبي ﷺ آمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم علىٰ بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره»[2].. وقال ﷺ «المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك ﷺ بين أصابعه»[3]..

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد، والتواصل بينهم.. كل هذا تأييد لحقوق بعضهم علىٰ بعض.. فمن ذلك: إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ثم أمر بالتقوىٰ عمومًا.. ورتب علىٰ القيام بحقوق المؤمنين وبتقوىٰ الله الرحمة فقال..

---

(١) أخرجه مسلم [١٨٢٧] وغيره من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه مسلم [٢٥٦٤] وغيره من حديث أبي هريرة.

(٣) اخرجه البخاري [٤٨١]، ومسلم [٢٥٨٥] وغيرهما من حديث أبي موسىٰ.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠] وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة.. ودل ذلك على أن **عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة.**

🕮 الفـوائـد

في هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم:

١- أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية.. ولهذا كان من أكبر الكبائر.

٢- وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال، كغيره من الذنوب الكبار، التي دون الشرك.. وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة.

٣- وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل.

٤- وعلى وجوب قتال البغاة، حتى يرجعوا إلى أمر الله.

٥- وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك.

٦- وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ [الحجرات:١١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذا أيضًا، من حقوق المؤمنين، بعضهم على بعض، أن..

﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ بكل كلام وقول وفعل، دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز.. وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه.. و..

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ عسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر.. كما هو الغالب والواقع، فإنَّ السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحل بكل

خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ «بحسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم»(1)..

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.. ثم قال..

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لا يعب بعضكم علىٰ بعض.. واللمز: بالقول.. والهمز: بالفعل.. وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.. كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١] الآية.. وسمي الأخ المؤمن نفساً لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا، حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك..

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه، وهذا هو التنابز.. وأما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا..

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب..

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١] فهذا هو الواجب علىٰ العبد، أن يتوب إلىٰ الله تعالىٰ، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابلة علىٰ ذمه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].. **فالناس قسمان:** ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم قسم ثالث غيرهما.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات:١٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ نهىٰ الله تعالىٰ عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين، فـ..

---

(١) أخرجه مسلم [١٨٢٧] وقد تقدم.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذلك، كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة.. وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة.. فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه علىٰ مجرد ذلك، بل لا يزال به حتىٰ يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي.. وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه..

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها.. واتركوا المسلم علىٰ حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله التي إذا فُتِّشَت ظهر منها ما لا ينبغي..

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ والغِيبة كما قال النبي ﷺ:«ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه»[1].. ثم ذكر مثلا منفرًا عن الغيبة، فقال:..

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ شَبَّه أكلَ لحمه ميتًا -المكروه للنفوس غاية الكراهة- باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتًا، فاقد الروح، فكذلك فلتكرهوا غيبته، وأكل لحمه حيًا..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته..

﴿رَّحِيمٌ ⁽١٢⁾﴾ [الحجرات:١٢]بعباده، حيث دعاهم إلىٰ ما ينفعهم، وقَبِلَ منهم التوبة.

📖 الفوائد

في هذه الآية دليل علىٰ التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر.. لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ⁽١٣⁾﴾ [الحجرات:١٣]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يخبر تعالىٰ أنه خَلَق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثىٰ، ويرجعون جميعهم إلىٰ آدم وحواء..

---

(١) أخرجه مسلم [٢٥٨٩] وغيره من حديث أبي هريرة.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ ولكن الله تعالىٰ بث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً.. وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل، أي: قبائل صغارًا وكبارًا..

﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كلُّ واحد منهم بنفسه لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب.. ولكنَّ الله جعلهم شعوبـًا وقبائل لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف علىٰ التعارف، ولحوق الأنساب..

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ولكن الكرم بالتقوىٰ.. فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومـًا، ولا أشرفهم نسبًا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣] ولكن الله تعالىٰ عليم خبير.. يعلم من يقوم منهم بتقوىٰ الله، ظاهرًا وباطنًا.. ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا.. فيجازي كلا بما يستحق.

📖 الفوائد

في هذه الآية دليل علىٰ أنَّ معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل ذلك.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات:١٤-١٨]

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ﴾ يخبر تعالىٰ عن مقالة الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام في

عهد رسول الله ﷺ، دخولًا من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان.. أنهم ادَّعوا مع هذا، وقالوا: آمنا، أي: إيمانًا كاملا مستوفيًا لجميع أموره.. هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله، أن يرد عليهم، فقال..

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ لا تدَّعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهرًا، وباطنًا، كاملا..

﴿وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ دخلنا في الإسلام، واقتصروا علىٰ ذلك..

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ والسبب في ذلك، أنه ﴿ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.. وإنما آمنتم خوفًا، أو رجاء، أو نحو ذلك مما هو السبب في إيمانكم.. فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم.. وفي قوله: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان **فيه إشارة إلىٰ أحوالهم بعد ذلك**، فإنَّ كثيرًا منهم منَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله..

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل خير، أو ترك شر..

﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ لا ينقصكم منها مثقالَ ذرة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون، لا تفقدون منها، صغيرًا، ولا كبيرًا..

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ غفور لمن تاب إليه وأناب.. رحيم به، حيث قبل توبته..

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ علىٰ الحقيقة..

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ شرط تعالىٰ في الإيمان عدمَ الريب، وهو الشك.. لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه..

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله.. فإنَّ من جاهد الكفار دل ذلك علىٰ الإيمان التام في القلب.. لأن من جاهد غيره علىٰ الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه علىٰ ذلك من باب أولىٰ وأحرىٰ.. ولأن من لم يقو علىٰ الجهاد فإنَّ ذلك دليل علىٰ ضعف إيمانه..

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الذين صدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم الجميلة.. فإنَّ الصدق دعوىٰ كبيرة، في كل شيء يدعىٰ يحتاج صاحبه إلىٰ حجة وبرهان.. وأعظم ذلك دعوىٰ

الإيمان، الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادَّعاه، وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقًا.. ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ.. فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب وظن بالله، ولهذا قال..

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ وهذا شامل للأشياء كلِّها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالىٰ، يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.. هذه حالة من أحوال من ادَّعىٰ لنفسه الإيمان وليس به.. فإنَّه إما أن يكون ذلك تعليمًا لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء.. وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة علىٰ رسوله..

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ وأنهم قد بذلوا له وتبرعوا بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية..

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ فهذا تجمل بما لا يُجمِّل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا علىٰ رسوله به..

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ فإنَّ المنة لله تعالىٰ عليهم، فكما أنه تعالىٰ يمنُّ عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم بهدايتهم إلىٰ الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم من كل شيء، ولهذا قال تعالىٰ..

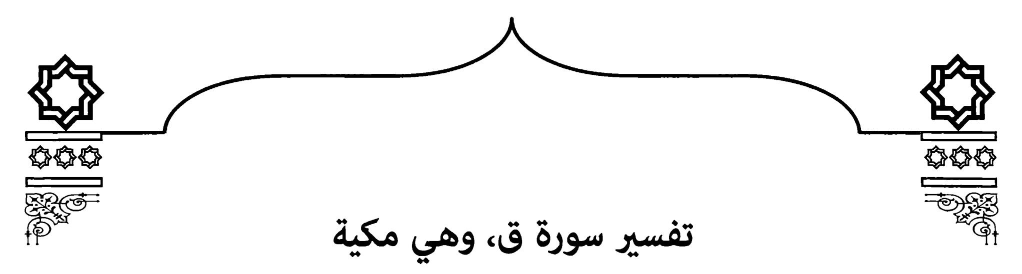
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفىٰ علىٰ الخلق.. كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]..

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات:١٤-١٨] يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة، وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة (الحجرات)

بعون الله ومنه وجوده وكرمه

فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضله وأعمه



تفسير سورة ق، وهي مكية

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤﴾ [ق:١-٤]

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ يقسم تعالىٰ بالقرآن المجيد.. أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات.. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا هذا القرآن.. الذي قد احتوىٰ علىٰ علوم الأولين والآخرين، الذي حوىٰ من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها.. وهذا موجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر الله علىٰ المنة به.. ولكن أكثر الناس لا يقدِّر نِعَم الله قدرها، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ..

﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.. فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه..

﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم..

﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ مستغرب.. وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: **إما صادقون في استغرابهم وتعجبهم**، فهذا يدل علىٰ غاية جهلهم، وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون، الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء.. فأي ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟! وهل تعجبه إلا دليل علىٰ زيادة ظلمه وجهله؟!.. **وإما أن يكونوا متعجبين علىٰ وجه**

يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنعه.. ثم ذكر وجه تعجبهم فقال..

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ فقاسوا قدرة من هو علىٰ كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم..

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم..

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ [ق:١-٤] وقد أحصىٰ في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كلَّ ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم.. وهذا الاستدلال بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، علىٰ قدرته علىٰ إحياء الموتىٰ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق:٥]

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلىٰ أنواع الصدق..

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق:٥] أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون علىٰ شيء، ولا يستقر لهم قرار.. فتارة يقولون عنك إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.. وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد.. وهكذا **كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط**، لا يدرىٰ له وجهة ولا قرار، فترىٰ أموره متناقضة مؤتفكة، كما أنَّ من اتبع الحق وصدَّق به قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدَّق فعلُه قيلَه.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق:٦-١١]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ حالة المكذبين، وما ذمهم به.. دعاهم إلىٰ النظر في آياته الأفقية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها، علىٰ ما جعلت أدلة عليه فقال..

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ لا يحتاج ذلك النظر إلىٰ كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون..

﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء..

﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلىٰ الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترىٰ فيها عيبًا، ولا فروجًا، ولا خلالا ولا إخلالا..

﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ قد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع..

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وإلىٰ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ كيف..

﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ ووسعناها، حتىٰ أمكن كلَّ حيوان السكون فيها، والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه..

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وأرساها بالجبال، لتستقر من التزلزل، والتموج..

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات.. التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين رامقها.. لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم.. فإن في النظر في هذه الأشياء..

﴿تَبْصِرَةً﴾ يتبصر بها، من عمىٰ الجهل..

﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل..

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ إلىٰ الله، أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه.. وأما المكذب والمعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون..

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي علىٰ وجه الأرض..

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع

المحصود، من بر وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.. وخصَّ من تلك المنافع بالذِّكر الجنات المشتملة علىٰ الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه..

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ ومن النخيل الباسقات، أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلىٰ السماء، حتىٰ تبلغ مبلغًا لا يبلغه كثير من الأشجار..

﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ فتُخرج من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزق للعباد، قوتًا وأدمًا وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم..

وحاصل هذا: أنَّ ما فيها من الخلق الباهر والشدة والقوة، دليل علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ.. وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة، دليل علىٰ أنَّ اللهَ أحكمُ الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم.. وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل علىٰ رحمة الله، التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عمَّ كلَّ حي.. وما فيها من عِظَم الخلقة وبديع النظام، دليل علىٰ أنَّ الله تعالىٰ، هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل والحب إلا له تعالىٰ.. وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل علىٰ إحياء الله الموتىٰ، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال..

﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق:٦-١١].. ولمَّا ذكَّرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية.. خوَّفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا علىٰ ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال..

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾ [ق:١٢-١٥]

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ كذب الذين من قبلهم من الأمم، رسلهم الكرام، وأنبياءهم العظام.. كـ (نوح) كذَّبه

قومه.. وثمود كذبوا (صالحًا).. وعاد كذبوا (هودًا).. وإخوان لوط كذبوا (لوطًا).. وأصحاب الأيكة كذبوا (شعيبًا)..

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وقوم تبَّع، وتبع كلُّ مَلِكٍ مَلَكَ اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام.. فقوم تبَّع كذَّبوا الرسول، الذي أرسله الله إليهم.. ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي تبع من التبابعة.. لأنه -والله أعلم- كان مشهورًا عند العرب، لكونهم من العرب العُرَباء، الذين لا تخفىٰ ماجرياتهم علىٰ العرب، خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة..

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ فهؤلاء كلهم كذَّبوا الرسلَ الذين أرسلهم اللهُ إليهم..

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ فحق عليهم وعيد الله وعقوبته.. ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيرًا منهم، ولا رسلهم أكرم علىٰ الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.. ثم استدل تعالىٰ بالخلق الأول -وهو المنشأ الأول- علىٰ الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.. فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلىٰ [الرفات] والرمم، فقال..

﴿أَفَعَيِينَا﴾ أفعجزنا وضعفت قدرتنا..

﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ ؟! ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعي عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك..

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق:١٢-١٥] وإنما هم في لبس من خلق جديد، هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره.. مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق:١٦-١٨]

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ يخبر تعالىٰ، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم..

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ وأنه يعلم أحواله، وما يَسُرُّه، ويُوَسوَسُ في صدره..

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلىٰ الإنسان، وهو العِرق المكتنف لثغرة النحر.. وهذا مما يدعو الإنسان إلىٰ مراقبة خالقه، المطلع علىٰ ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.. وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه علىٰ بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال..

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد..

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات..

﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ والآخر ﴿عَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما..

﴿قَعِيدٌ ١٧﴾ بذلك، متهيئ لعمله الذي أُعدَّ له، ملازم له..

﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ خير أو شر..

﴿إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾ [ق:١٦-١٨] مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الإنفطار: ١٠- ١٢].

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق:١٩-٢٢]

﴿وَجَآءَتۡ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله..

﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ الذي لا مرد له ولا مناص..

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ تتأخر وتنكص عنه..

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب.. والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب..

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ يسوقها إلىٰ موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه..

﴿وَشَهِيدٞ ٢١﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها.. وهذا يدل علىٰ اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل.. فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه

علىٰ بال.. ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال..

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ يقال للمُعرض المكذِّب يوم القيامة هذا الكلام، توبيخًا ولومًا وتعنيفًا.. أي: لقد كنت مكذبًا بهذا، تاركًا للعمل له.. فالآن﴿ كَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾..

﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي غطىٰ قلبك، فكثر نومك، واستمر إعراضك..

﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق:١٩-٢٢] ينظر ما يزعجه ويروعه، من أنواع العذاب والنكال.. أو هذا خطاب من الله للعبد، فإنه في الدنيا في غفلة عما خُلِق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وَسَنُه.. ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت.. وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون علىٰ المكذِّبين، في ذلك اليوم العظيم.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق:٢٣-٢٩]

يقول تعالىٰ..

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: قرين هذا المكذب المعرض، من الملائكة الذين وكلهم الله علىٰ حفظه، وحفظ أعماله.. فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول..

﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ قد أحضرت ما جعلت عليه، من حفظه وحفظ عمله، فيجازىٰ بعمله.. ويقال لمن استحق النار..

﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤﴾ كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المجترئ علىٰ المحارم والمآثم..

﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ يمنع الخير الذي عنده.. الذي أعظمه الإيمان بالله وملائكته وكتبه، ورسله.. مناع لنفع ماله وبدنه..

﴿مُعۡتَدٖ﴾ علىٰ عباد الله، وعلىٰ حدوده..

﴿مُّرِيبٍ ٢٥﴾ شاك في وعد الله ووعيده.. فلا إيمان ولا إحسان.. ولكن وصفه الكفر

والعدوان، والشك والريب، والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن.. ولهذا قال..

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ عبَد معه غيرَه، ممن لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا..

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان..

﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ الذي هو معظمها وأشدها وأشنعها..

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشيطان متبرئًا منه، حاملًا عليه إثمه..

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ لأني لم يكن لي عليه سلطان، ولا حجة ولا برهان..

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره.. كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم:٢٢] الآية..

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ مجيبًا لاختصامهم..

﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ لا فائدة في اختصامكم عندي..

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ والحال أني ﴿قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾، أي: جاءتكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات.. فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حجتكم.. وقدمتم عليَّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها..

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ لا يمكن أن يخلف ما قاله اللهُ وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من الله قيلًا ولا أصدق حديثًا..

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق:٢٣-٢٩] بل أجزيهم بما عملوا من خيرٍ وشر، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣٠-٣٥]

يقول تعالىٰ، مخوفًا لعباده..

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وذلك من كثرة ما ألقي فيها..

﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضبًا لربها، وغيظًا علىٰ الكافرين.. وقد وعدها الله ملأها، كما قال تعالىٰ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، حتىٰ يضع رب العزة عليها قدَمه الكريمة المنزهة عن التشبيه، فينزوي بعضُها علىٰ بعض وتقول: قط قط، قد اكتفيت وامتلأت(١)..

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور..

﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ وإنما أزلفت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له، ويقال لهم علىٰ وجه التهنئة..

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ هذه الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين..

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ هي التي وَعَد الله كلَّ أواب، أي: رجاع إلىٰ الله في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه، وخوفه، ورجائه..

﴿حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ يحافظ علىٰ ما أمر الله به، بامتثاله علىٰ وجه الإخلاص والإكمال له، علىٰ أكمل الوجوه، حفيظ لحدوده..

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ خافه علىٰ وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته..

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ولازم علىٰ خشية الله في حال غيبه، أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية.. وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل علىٰ الخشية.. وإنما الخشية النافعة خشية الله في الغيب والشهادة.. **ويحتمل** أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب، وأن هذا **مقابل للشهادة**، حيث يكون الإيمان والخشية ضروريًا لا اختياريًا، حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله، **وهذا هو الظاهر**..

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ وَصفُه الإنابة إلىٰ مولاه، وانجذاب دواعيه إلىٰ مراضيه.. ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار..

(١) أخرجه البخاري [٤٨٥٠]، ومسلم [١٨٤٦] وغيرهما من حديث أبي هريرة.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾ دخولًا مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور.. مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص..

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات..

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ كل ما تعلقت به مشيئتهم، فهو حاصل فيها..

﴿وَلَدَيۡنَا﴾ ولهم فوق ذلك..

﴿مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق:٣٠-٣٥] ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. وأعظم ذلك وأجله وأفضله النظر إلىٰ وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه.. نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا منهم.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق:٣٦-٣٧]

يقول تعالىٰ -مُخوِّفًا للمشركين المكذبين للرسول:-..

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أممًا كثيرة..

﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ هم أشد من هؤلاء بطشًا، أي: قوة وآثارًا في الأرض.. ولهذا قال..

﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ بنوا الحصون المنيعة، والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمَّروا، ودمَّروا.. فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، فـ..

﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾ لا مفر لهم من عذاب الله -حين نزل بهم- ولا منقذ.. فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أي: قلب عظيم حي، ذكي، زكي.. فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها وانتفع فارتفع..

﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ وكذلك من ألقىٰ سمعه إلىٰ آيات الله، واستمعها، استماعًا يسترشد به..

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٦-٣٧] وقلبه ﴿ شَهِيدٌ ﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضـًا ذكرىٰ وموعظة، وشفاء وهدىٰ.. وأما المُعرض الذي لم يلق سمعه إلىٰ الآيات، فهذا لا تفيده شيئًا، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق:٣٨-٤٠]

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وهذا إخبار منه تعالىٰ عن قدرته العظيمة، ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات..

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة..

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ من غير تعب ولا نصب ولا لغوب ولا إعياء.. فالذي أوجدها -علىٰ كبرها وعظمتها- قادر علىٰ إحياء الموتىٰ، من باب أولىٰ وأحرىٰ..

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الذمِّ لك والتكذيب بما جئت به..

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه..

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق:٣٨-٤٠] أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات.. فإنَّ ذكر الله تعالىٰ، مسل للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق:٤١-٤٥]

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ بقلبك..

﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ نداء المنادي، وهو إسرافيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حين ينفخ في الصور..

﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾ من الخلق..

﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: كل الخلائق يسمعون تلك..

﴿ٱلصَّيۡحَةَ﴾ المزعجة المهولة..

﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء..

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال..

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٣﴾..

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾ أي: عن الأموات..

﴿سِرَاعٗاۚ﴾ يسرعون لإجابة الداعي لهم، إلى موقف القيامة..

﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤﴾ هين على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة..

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ لك، مما يحزنك، من الأذى.. وإذا كنا أعلم بذلك فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمورك، ونصرنا لك على أعدائك.. فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك.. ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف من نفسك.. فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسي بأولي العزم، من رسل الله..

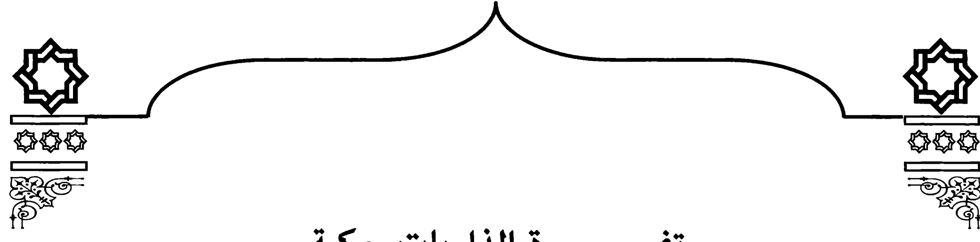
﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ أي: مسلَّط عليهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧].. ولهذا قال..

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ **والتذكير**: هو تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته.. وإنما يتذكر بالتذكير..

﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق:٤١-٤٥] من يخاف وعيد الله.. وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة:١٩].

آخر تفسير سورة (ق)

والحمد لله أولا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا



تفسير سورة الذاريات، مكية

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾ [الذاريات:١-٦]

هذا قسم من الله -الصادق في قيله- بهذه المخلوقات العظيمة، التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل.. علىٰ أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة علىٰ الأعمال لواقع لا محالة، ما له من دافع.. فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلِمَ يكذِّب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون..

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذروا، في هبوبها..

﴿ذَرۡوٗا ۝١﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها..

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾ السحاب، تحمل الماءَ الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد..

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣﴾ النجوم التي تجري علىٰ وجه اليسر والسهولة.. فتتزين بها السماوات، ويهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها..

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾ الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله.. فكل منهم، قد جعله الله علىٰ تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدىٰ ما قدر له وما حد ورسم، ولا ينقص منه..

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾ [الذاريات:١-٦]..

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات:٧-٩]

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال، ومياه الغُدرَان [١]، حين يحركها النسيم..

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ..

﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨﴾ منكم من يقول: ساحر.. ومنكم من يقول: كاهن.. ومنكم من يقول: مجنون.. إلىٰ غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة علىٰ حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل..

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات:٧-٩] يُصرَف عنه من صُرِف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه.. واختلاف قولهم دليل علىٰ فساده وبطلانه.. كما أنَّ الحق الذي جاء به محمد ﷺ متفق يصدق بعضُه بعضاً، لا تناقض فيه ولا اختلاف.. وذلك دليل علىٰ صحته، وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ [الذاريات:١٠-١٤]

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾ قاتل الله الذين كذَبوا علىٰ الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل ليدحضوا به الحق، الذين يقولون علىٰ الله ما لا يعلمون..

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في لجة من الكفر، والجهل، والضلال..

﴿سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ﴾ علىٰ وجه الشك والتكذيب..

﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾ أيان يبعثون، أي: متىٰ يبعثون، مستبعدين لذلك.. فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم..

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ يعذبون، بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال لهم..

---

(١) جمع غَدِيرَة، وهي القطعة من النبات.

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به من الابتلاء الذي صيرهم إلىٰ الكفر، والضلال..

﴿هَٰذَا﴾ العذاب، الذي وصلتم إليه، هو..

﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات:١٠-١٤] فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات:١٥-١٩]

يقول تعالىٰ في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي أوصلتهم إلىٰ ذلك الجزاء..

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانت التقوىٰ شعارهم، وطاعة الله دثارهم..

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ مشتملات علىٰ جميع أصناف الأشجار، والفواكه.. التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير.. مما لم تنظر العيون إلىٰ مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر علىٰ قلوب العباد..

﴿وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ سارحة، تشرب منها تلك البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيرًا..

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ﴾ **يحتمل أن المعنىٰ:** أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مُنَاهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلًا، ولا يبغون عنه حولًا، وكلٌّ قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد..

ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي، أي: قد تلقوها بالرحب وانشراح الصدر، منقادين لِمَا أمر الله به، بالامتثال علىٰ أكمل الوجوه، ولِمَا نَهىٰ عنه بالانزجار عنه لله علىٰ أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا، التي حقها أن تتلقىٰ بالشكر لله عليها، والانقياد..

والمعنىٰ الأول ألصق بسياق الكلام؛ لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله..

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلىٰ النعيم..

﴿مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم.. وللإحسان إلىٰ عباد الله ببذل النفع والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان وطرق الخيرات..

حتىٰ إنه يدخل في ذلك الإحسان بالقول والكلام اللين، والإحسان إلىٰ المماليك، والبهائم المملوكة، وغير المملوكة.. ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق صلاة الليل، الدالة علىٰ الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال..

﴿كَانُوا۟﴾ أي: المحسنون..

﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ كان هجوعهم، أي: نومهم بالليل، قليلًا، وأما أكثر الليل فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع..

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ التي هي قُبيل الفجر..

﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ الله تعالىٰ، فمدوا صلاتهم إلىٰ السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالىٰ، استغفار المذنب لذنبه.. وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة، ليست لغيره، كما قال تعالىٰ في وصف أهل الإيمان والطاعة ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]..

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ واجب ومستحب..

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات:١٥-١٩] للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣]

يقول تعالىٰ -داعيًا عباده إلىٰ التفكر والاعتبار-:..

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها، من جبال وبحار،

وأنهار، وأشجار، ونبات.. تدل المتفكر فيها المتأمل لمعانيها، علىٰ عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن..

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ وكذلك في نفس العبد، من العبر والحكمة والرحمة، ما يدل علىٰ أن الله وحده الأحد الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدىٰ..

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي مادة رزقكم، من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي..

﴿وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله، كسائر الأقدار.. فلما بيَّن الآيات ونبَّه عليها تنبيهـًا ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالىٰ علىٰ أن وعده وجزاءه حق، وشبَّه ذلك بأظهر الأشياء لنا وهو النطق، فقال..

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣] فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠]

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ أما جاءك..

﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ ونبأُهم الغريب العجيب.. وهم: الملائكة، الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرَهم بالمرور علىٰ إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف..

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾..

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لهم..

﴿سَلَٰمٞ﴾ عليكم..

﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ أنتم قوم منكرون.. فأُحب أن تعرِّفوني بأنفسكم، ولم يَعرِفهم إلا بعد ذلك.. ولهذا راغ إلىٰ أهله..

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ ذهب سريعًا في خفية ليحضِّر لهم قِراهم..

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦﴾..

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ وعرض عليهم الأكل، فـ..

﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾..

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ حين رأىٰ أيديهم لا تصل إليه..

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ وأخبروه بما جاؤوا له..

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ وهو: إسحاق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.. فلما سمعت المرأة البشارة ﴿فَأَقۡبَلَتِ﴾..

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ فرِحَة مستبشرة..

﴿فِي صَرَّةٖ﴾ أي: صيحة..

﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور ونحوه، من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة..

﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ أي: أنَّىٰ لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلًا، فثم مانعان، كل منهما مانع من الولد.. وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود:٧٢]..

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ الله الذي قدَّر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالىٰ..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠] الَّذي يضعُ الأشياءَ مواضعها، وقد وسِعَ كل شيء علمـًا، فسلِّموا لحُكمه، واشكروه علىٰ نعمته.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٣٧﴾ [الذاريات:٣١-٣٧]

﴿۞ قَالَ﴾ لهم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾ ما شأنكم وما تريدون؟!.. لأنه استشعر أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة..

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين..

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾ معلمة، على كل حجر منها سمةُ صاحبه.. لأنهم أسرفوا، وتجاوزوا الحدَّ.. فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط؛ لعلَّ الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦]..

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ وهم بيت لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. إلا امرأته، فإنها من المهلكين..

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾ [الذاريات:٣١-٣٧] يعتبرون بها ويعلمون، أن الله شديد العقاب، وأنَّ رسله صادقون، مصدَّقون.

فصل في ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحِكَم والأحكام

١- منها: أن من الحكمة قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار؛ ليعتبروا بحالهم وأين وصلت بهم الأحوال.

٢- ومنها: فضل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.. حيث ابتدأ الله قصته، بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

٣- ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبيَّ وأمته أن يتبعوا ملته.. وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

٤- ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل.. لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون، أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولا وفعلا، ومكرمون أيضـًا عند الله تعالى.

٥- ومنها: أَنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد كان بيته مأوىٰ للطارقين والأضياف.. لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام، فرد عليهم إبراهيم سلامـًا أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتىٰ به جملة اسمية، دالة علىٰ الثبوت والاستمرار.

٦- ومنها: مشروعية تَعَرُّفِ من جاء إلىٰ الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

٧- ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام.. حيث قال: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾، ولم يقل: (أنكرتكم)، وبين اللفظين من الفرق، ما لا يخفىٰ.

٨- ومنها: المبادرة إلىٰ الضيافة والإسراع بها.. لأن خير البر عاجله، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قِرىٰ أضيافه.

٩- ومنها: أَنَّ الذبيحة الحاضرة التي قد أُعِدَت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام.. كما فعل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

١٠- ومنها: ما مَنَّ الله به علىٰ خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا عنده وفي بيته معدًا، لا يحتاج إلىٰ أن يأتي به من السوق، أو الجيران، أو غير ذلك.

١١- ومنها: أَنَّ إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن.. وكَبيرٌ من ضيَّف الضيفان.

١٢- ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: (تفضلوا)، (أو ائتوا إليه)؛ لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

١٣- ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللَيِّن، خصوصًا عند تقديم الطعام إليه.. فإِنَّ إبراهيم عَرَضَ عليهم عرضـًا لطيفـًا، وقال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾، ولم يقل: (كلوا) ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولىٰ منها، بل أتىٰ بأداة العرض، فقال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾، أو: (ألا تتفضلون علينا وتشرفوننا وتحسنون إلينا) ونحوه.

١٤- ومنها: أَنَّ من خاف من الإنسان لسبب من الأسباب، فإِنَّ عليه أن يزيل عنه

الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه.. كما قالت الملائكة لإبراهيم لمَّا خافهم: ﴿ لَا تَخَفۡ ﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة، بعد الخوف منهم.

١٥- ومنها: شدة فرح (سارة) امرأة إبراهيم، حتىٰ جرىٰ منها ما جرىٰ، من صك وجهها، وصَرَّتها غير المعهودة.

١٦- ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغلام عليم.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾ [الذاريات:٣٨-٤٠]

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ وما أرسله اللهُ به إلىٰ فرعون وملئه..

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم..

﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ فلما أتىٰ موسىٰ بذلك السلطان المبين..

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون..

﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾ أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه..

﴿وَقَالَ﴾ وقدح فيه أعظم القدح فقالوا..

﴿سَٰحِرٌ﴾ إن موسىٰ لا يخلو، إما أن يكون ساحرًا وما أتىٰ به شعبذة، ليس من الحق في شيء..

﴿أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩﴾ وإما أن يكون مجنونًا، لا يُؤخَذ بما صَدَرَ منه، لعدم عقله.. هذا، وقد عَلِموا -خصوصًا فرعون- أنَّ موسىٰ صادق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤].. وقال موسىٰ لفرعون ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] الآية..

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾ [الذاريات:٣٨-٤٠] أي: مذنب طاغ، عات علىٰ الله، فأخذه اللهُ أَخذَ عزيز مقتدر.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤١-٤٢]

﴿وَفِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة..

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ التي لا خير فيها.. حين كذَّبوا نبيَّهم هودًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤١-٤٢] أي: كالرميم البالية، فالَّذي أهلكهم علىٰ قوتهم وبطشهم، دليلٌ علىٰ كمال قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾ [الذاريات:٤٣-٤٥]

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية عظيمة، حين أرسل اللهُ إليهم صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكذَّبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة، آية مبصرة، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًا ونفورًا..

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة..

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤﴾ إلىٰ عقوبتهم بأعينهم..

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب..

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾ [الذاريات:٤٣-٤٥] لأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٤٦﴾ [الذاريات:٤٦]

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ﴾ وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٤٦﴾ [الذاريات:٤٦] وفسقوا عن أمر الله.. فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالىٰ عن آخرهم، ولم يُبق من الكافرين ديَّارًا.. وهذه عادة الله وسنته، فيمن عصاه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾ [الذاريات:٤٧-٥١]

يقول تعالىٰ مبيِّنًا لقدرته العظيمة..

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها..

﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ بقوة وقدرة عظيمة..

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ لأرجائها وأنحائها.. وإنا لموسعون أيضـًا علىٰ عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.. فسبحان من عمَّ بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات..

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ جعلناها فراشًا للخلق، يتمكنون فيها من كلِّ ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن، وغراس، وزرع، وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلىٰ مقاصدهم ومآربهم.. ولمَّا كان الفراش، قد يكون صالحـًا للانتفاع من كلِّ وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالىٰ أنه مهَّدها أحسن مهاد، علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنىٰ علىٰ نفسه بذلك فقال..

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ الذي مهَّد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته وإحسانه..

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ صنفين، ذكر وأنثىٰ، من كل نوع من أنواع الحيوانات..

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ لنعم الله التي أنعم بها عليكم، في تقدير ذلك وحكمته، حيث جَعَل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلِّها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.. فلما دعا العبادَ النَّظَر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أَمَر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه..

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلىٰ ما يحبه ظاهرًا وباطنًا.. فرار من الجهل إلىٰ العلم.. ومن الكفر إلىٰ الإيمان.. ومن المعصية إلىٰ الطاعة.. ومن

الغفلة إلىٰ ذكر الله.. **فمن استكمل هذه الأمور:** فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد والمطلوب.. **وسمىٰ الله الرجوع إليه فرارًا:** لأن في الرجوع لغيره أنواعُ المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفرُّ العبد من قضائه وقدره، إلىٰ قضائه وقدره، وكلُّ مَن خِفت منه فررت منه إلا الله تعالىٰ، فإنَّه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه..

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ منذرٌ لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة..

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ هذا من الفرار إلىٰ الله، بل هذا أصل الفرار إليه، أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله، من الأوثان، والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف، والرجاء والدعاء، والإنابة..

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [الذاريات:٤٧-٥١]..

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝﴾ يقول الله مسليًا لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه.. وأن هذه الأقوال ما زالت دأبًا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل، فما أَرسل اللهُ من رسول إلا رماه قومُه بالسحر أو الجنون..

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ﴾ يقول الله تعالىٰ: هذه الأقوال التي صدرت منهم -الأولين والآخرين- هل هي أقوال تواصَوا بها، ولقَّن بعضُهم بعضا بها؟! فلا يستغرب -بسبب ذلك- اتفاقهم عليها..

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣] تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم.. وهذا هو الواقع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [البقرة:١١٨].. وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه، والسعي فيه، بادروا إلىٰ الإيمان برسلهم وتعظيمهم، وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات:٥٤-٥٥]

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين..

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل علىٰ شأنك..

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ فليس عليك لوم في ذنبهم.. وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حُمِّلت، وبلغت ما أُرسلت به..

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات:٥٤-٥٥] أخبر الله أن الذكرىٰ تنفع المؤمنين: لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرىٰ، وتقع الموعظة منهم موقعها، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ﴾ [الأعلىٰ: ٩- ١١].. وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئًا، وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم.

🕮 الفـوائـد

التذكير نوعان:

تذكير بما لم يُعرف تفصيله، مما عُرف مجملُه بالفطر والعقول، فإن الله فطر العقول علىٰ محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع فإنه من التذكير، وتمام التذكير أن يُذكَر ما في المأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار..

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيُذَّكرون بذلك ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليُحدث لهم نشاطـًا وهمَّة توجب لهم الانتفاع والارتفاع.



﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته.. المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.. وذلك يتضمن معرفة الله تعالىٰ، فإن **تمام العبادة متوقف علىٰ المعرفة بالله**، بل كلَّما ازداد العبد معرفةً لربه، كانت عبادته أكمل.. فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم..

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ فما يريد منهم من رزق، وما يريد أن يطعموه، تعالىٰ الله الغني المغني عن الحاجة إلىٰ أحد بوجه من الوجوه.. وإنما جميع الخلق فقراءُ إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ كثير الرزق، الذي ﴿ مَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]..

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] أي: الذي له القوة والقدرة كلُّها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد.. ومن قوته أنه أوصل رزقه إلىٰ جميع العالم.. ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلىٰ، وعصفت بترابهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم.. فسبحان القوي المتين.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ [الذاريات:٥٩-٦٠]

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وكذَّبوا محمدًا ﷺ.. من العذاب والنكال..

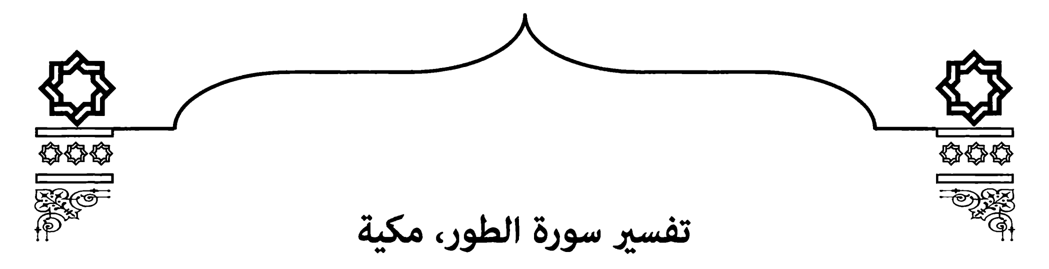
﴿ذَنُوبًا﴾ نصيبًا وقسطًا..

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثل ما فُعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب..

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ بالعذاب.. فإن سنة الله في الأمم واحدة.. فكل مكذب يدوم علىٰ تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة.. ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال..

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الذاريات:٥٩-٦٠] وهو يوم القيامة الذي قد وُعِدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالىٰ، نعوذ بالله منه.





تفسير سورة الطور، مكية

﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور:١-١٤]

يُقْسِم تعالىٰ بهذه الأمور العظيمة، المشتملة علىٰ الحِكَم الجليلة.. علىٰ البعث والجزاء للمتقين والمكذِّبين..

﴿وَٱلطُّورِ ١﴾ فأقسم بالطور الذي هو الجَبَل الذي كلَّم اللهُ عليه نبيَّه (موسىٰ بن عمران) عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأوحىٰ إليه ما أوحىٰ من الأحكام.. وفي ذلك من المنة عليه وعلىٰ أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها علىٰ عد ولا ثمن..

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢﴾ **يحتمل**: أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء.. **ويحتمل**: أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب أنزله الله محتويـًا علىٰ نبأ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين..

﴿فِي رَقّٖ﴾ أي: ورق..

﴿مَّنشُورٖ ٣﴾ مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفىٰ حاله علىٰ كل عاقل بصير..

﴿وَٱلۡبَيۡتِ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة..

﴿ٱلۡمَعۡمُورِ ٤﴾ مدىٰ الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه لربهم، ثُم لا يعودون إليه إلىٰ يوم القيامة.. **وقيل**: إن البيت المعمور هو

بيت الله الحرام، والمعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.. كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣]، وحقيق ببيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنا، أن يقسم الله به، ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحرمته..

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ السماء، التي جعلها الله سقفا للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويُقتدىٰ بعلاماتها ومنارها، ويُنزل اللهُ منها المطر والرحمة وأنواع الرزق..

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ المملوء ماء، قد سجره الله ومنعه من أن يفيض علىٰ وجه الأرض.. مع أن **مقتضىٰ الطبيعة أن يغمر وجه الأرض**، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من علىٰ وجه الأرض، من أنواع الحيوان.. **وقيل**: إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد نارا يوم القيامة، فيصير نارا تلظىٰ، ممتلئًا علىٰ عظمته وسعته من أصناف العذاب.. هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل علىٰ أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال..

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ لابد أن يقع، ولا يُخلفُ الله وعدَه وقيله..

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه؛ لأن قدرة الله تعالىٰ لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثمَّ ذَكَرَ وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه العذاب، فقال..

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون..

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك حتىٰ تصير مثل الهباء.. وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة.. فكيف بالآدمي الضعيف؟!

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.. ثم ذَكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال..

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به.. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة..

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾ يوم يدفعون إليها دفعـًا، ويُساقون إليها سوقـًا عنيفـًا.. ويجرون علىٰ وجوههم، ويقال لهم توبيخـًا ولومـًا..

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور:١-١٤] فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [الطور:١٥-١٦]

﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ **يحتمل أن الإشارة إلىٰ النار والعذاب**، كما يدل عليه سياق الآية، أي: لما رأوا النار والعذاب، قيل لهم من باب التقريع: (أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون)، أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟! **والجواب انتفاء الأمرين: أما كونه سحرًا**: فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف للسحر من جميع الوجوه، **وأما كونهم لا يبصرون**: فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلىٰ الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين علىٰ ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية.. **ويحتمل أن الإشارة بقوله** ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الطور:١٥] **إلىٰ ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم**، أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر، أم عدم بصيرة بكم، حتىٰ اشتبه عليكم الأمر.. وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق، وأن حجة الله قامت عليهم..

﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ ادخلوا النار علىٰ وجهٍ تحيط بكم، وتستوعب جميعَ أبدانكم وتطلع علىٰ أفئدتكم..

﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لا يفيدكم الصبرُ علىٰ النَّار شيئًا، ولا يتأسىٰ بعضُكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.. وإنما فَعَل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، ولهذا قال..

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [الطور:١٥-١٦]..

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطور:١٧-٢٠]

لمَّا ذكر تعالىٰ عقوبة المكذبين.. ذكر نعيم المتقين.. ليجمع بين الترغيب والترهيب.. فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال..

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي..

﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة، والأنهار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة..

﴿وَنَعِيمٖ ١٧﴾ وهذا شامل لنعيم القلب والروح والبدن..

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: معجبين به، متمتعين علىٰ وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله، من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين..

﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨﴾ فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب.. لمَّا فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه..

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ مما تشتهيه أنفسكم، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة..

﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ متهنئين بتلك المآكل والمشارب علىٰ وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور..

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩﴾ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة..

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ الاتكاء: هو الجلوس علىٰ وجه التمكن والراحة والاستقرار.. والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.. ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك علىٰ كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض.. فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المآكل والمشارب اللذيذة، والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء **اللاتي لا يتم سرورٌ بدونهن**، فذكر الله أنَّ لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافًا وخلقًا وأخلاقًا، ولهذا قال..

﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطور:١٧-٢٠] وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهاءها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش شوقًا إليهن، ورغبةً في وصالهن.. والعِين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور:٢١-٢٨]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان، أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعا لهم بالإيمان.. ومن باب أولىٰ إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم.. فهؤلاء المذكورون يُلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها، جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم..

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ ومع ذلك لا يُنقص اللهُ الآباءَ من أعمالهم شيئـًا.. ولمَّا كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكمـًا واحدًا، **فإنَّ النار دار العدل**، ومن عدله تعالىٰ أن لا يعذب أحدًا إلا بذنب، ولهذا قال..

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ أي: مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرىٰ، ولا يُحمل علىٰ أحدٍ ذنب أحد.. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور..

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم..

﴿بِفَٰكِهَةٖ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة علىٰ ما به يتقوتون..

﴿وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها..

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس..

﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه..

﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾ وهو الذي فيه إثم ومعصية.. وإذا انتفىٰ الأمران، ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل علىٰ رضاه عنهم ومحبته لهم..

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: خدم شباب..

﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه، وهذا يدل علىٰ كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم..

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها..

﴿قَالُوٓاْ﴾ في ذكر بيان الذي أوصلهم إلىٰ ما هم فيه من الحبرة والسرور..

﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ في دار الدنيا..

﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب..



﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالهداية والتوفيق..

﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ العذاب الحار، الشديد حره..

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلىٰ النعيم.. وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات وندعوه في سائر الأوقات..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور:٢١-٢٨] فمن بِرِّه بنا ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ [الطور:٢٩-٣١]

﴿فَذَكِّرۡ﴾ يأمر تعالىٰ رسوله ﷺ أن يذكِّر الناس، مسلمهم وكافرهم.. لتقوم حجة الله علىٰ الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون.. وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها.. ولهذا نفىٰ عنه كل نقص رموه به فقال..

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: منه ولطفه..

﴿بِكَاهِنٖ﴾ له رئي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مائة كذبة..

﴿وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلا وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقا، وأجلهم وأكملهم..

﴿أَمۡ﴾ وتارة..

﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه..

﴿شَاعِرٞ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر.. والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس:٦٩]..

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ ننتظر به الموت، فسيَبطل أمره، ونستريح منه..

﴿قُلۡ﴾ لهم جوابـًا لهذا الكلام السخيف..

﴿تَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا بي الموت..

﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾ [الطور:٢٩-٣١] نتربص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۣيۡطِرُونَ ۝٣٧ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٣٨ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝٣٩ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ۝٤٠ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٣﴾ [الطور:٣٢-٤٣]

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾ أهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها، هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟.. فبئس العقول والأحلام، التي أثَرت ما أثرت، وصَدَر منها ما صدر.. فإنَّ عقولًا جَعلت أكملَ الخلق عقلًا مجنونـًا، وأصدقَ الصدق وأحقَ الحق كذبـًا وباطلًا، لهي العقول التي ينزه المجانين عنها..

﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٣٢﴾ أم الذي حملهم علىٰ ذلك ظلمهم وطغيانهم؟.. وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كلّ قول وفعل صدر منه..

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾ أي: تقول محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟!

﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا..

﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ أنه تقوَّله.. فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدُق معارضتُكم أو تقروا بصدقه.. وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا علىٰ معارضته والإتيان بمثله.. فحينئذ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لِمَا علمتم من الباطل..

﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ وهذا استدلال عليهم بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين.. وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.. وقد تقرر في العقل مع الشرع أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.. أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضا محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم.. فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعيَّن القسم الثالث: أنَّ الله الذي خلقهم، وإذا تعيَّن ذلك عُلِم أن الله تعالىٰ هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالىٰ..

﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾ وهذا استفهام يدل علىٰ تقرير النفي، أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدا..

﴿بَل﴾ ولكن المكذبين..

﴿لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية..

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاءون ويمنعون من يريدون؟! أي: فلذلك حجروا علىٰ الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمدا ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون علىٰ خزائن رحمة الله.. وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضر، ولا موت ولا حياة ولا نشور ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزخرف:٣٢]..

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧﴾ المتسلطون علىٰ خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟! ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء..

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ ألهم اطلاع علىٰ الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلىٰ، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟!

﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم﴾ المدَّعي لذلك..

﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨﴾ وأنَّىٰ له ذلك؟! والله تعالىٰ عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر علىٰ

غيبه أحدا إلا من ارتضىٰ من رسول يخبره بما أراد من علمه.. وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعده، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذِّبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأي المخبرين أحق بقبول خبره؟! خصوصاً والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين علىٰ ما أخبر به ما يوجب أن يكون خبرُه عين اليقين، وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا علىٰ ما ادَّعوه شبهة، فضلًا عن إقامة حجة..

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ كما زعمتم..

﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فتجمعون بين المحذورين؟! جَعْلُكُم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟! فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية، أو دونه نهاية؟!

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ يا أيها الرسول..

﴿أَجْرًا﴾ علىٰ تبليغ الرسالة..

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص علىٰ تعليمهم، تبرعًا من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة علىٰ قبول رسالتك والاستجابة لأمرك ودعوتك، وتعطي المؤلفة قلوبهم ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم..

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطَّلَعوا علىٰ ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟!.. وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون.. ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب علىٰ ما لم يطلع عليه أحدا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية علىٰ فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض..

﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بقدحهم فيك وفيما جئتهم به..

﴿كَيْدًا﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم.. وقد فعل الله ذلك -ولله الحمد- فلم يَبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئًا إلا فعلوه، فنصر الله نبيه

ودينه عليهم وخذلهم وانتصر منهم..

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: ألهم إله يُدعىٰ ويرجىٰ نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالىٰ؟!

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور:٣٢-٤٣] فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة.. وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوىٰ الله، وبيان فسادها، بتلك الأدلة القاطعة.. وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأنَّ الذي ينبغي أن يعبد ويصلىٰ له ويُسجد ويُخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الطور:٤٤-٤٦]

يقول تعالىٰ في ذكر بيان أنَّ المشركين المكذِّبين بالحق الواضح، قد عتوا عن الحق وعسوا علىٰ الباطل، وأنه لو قام علىٰ الحق كلُّ دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه..

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة (كِسف) أي: قطع كبار من العذاب..

﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ هذا سحاب متراكم علىٰ العادة، أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال..

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهو يوم القيامة، الذي يصيبهم فيه من العذاب والنكال، ما لا يُقادَر قدرُه، ولا يُوصف أمرُه..

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لا قليلًا ولا كثيرًا، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمنـًا قليلًا، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله..

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الطور:٤٤-٤٦]..

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور:٤٧-٤٩]

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ لمَّا ذَكَر الله عذابَ الظالمين في القيامة، أخبر أنَّ لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة، وذلك شامل لعذاب الدنيا، بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر..

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فلذلك أقاموا علىٰ ما يوجب العذاب، وشدة العقاب..

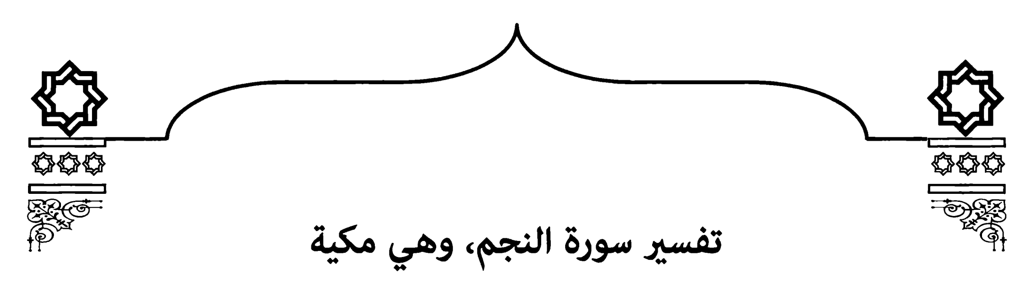
﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ولما بين تعالىٰ الحجج والبراهين علىٰ بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئاً.. وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعده الله بالكفاية بقوله..

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأىٰ منا وحفظ، واعتناء بأمرك.. وأَمَره أن يستعين علىٰ الصبر بالذكر والعبادة، فقال..

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ من الليل، ففيه الأمر بقيام الليل.. أو حين تقوم إلىٰ الصلوات الخمس، بدليل قوله..

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور:٤٧-٤٩] أي: آخر الليل.. ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة (والطور) والحمد لله



تفسير سورة النجم، وهي مكية

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم:١-١٨]

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ يقسم تعالىٰ بالنجم عند هويه، أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل، عند إدبار الليل وإقبال النهار.. لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به.. والصحيح أن (النجم) اسم جنس، شامل للنجوم كلها..

﴿مَا ضَلَّ﴾ وأقسم بالنجوم علىٰ صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي.. لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالىٰ جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك **الوحي وآثاره زينة للأرض،** فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.. **والمقسم عليه:** تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغي في قصده.. ويلزم من ذلك أن يكون مهتديا في علمه، هادياً، حَسَن القصد، ناصحاً للأمة، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد..

﴿صَاحِبُكُمۡ﴾ لينبههم علىٰ ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية، وأنه لا يخفىٰ عليهم أمره..

﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾..

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ ليس نطقه صادرا عن هوىٰ نفسه..

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ لا يتبع إلا ما أوحىٰ الله إليه من الهدىٰ والتقوىٰ، في نفسه وفي غيره..

ودلَّ هذا علىٰ: أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء:١١٣].. وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالىٰ وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوىٰ، وإنما يصدر عن وحي يوحىٰ.. ثم ذكر المعلِّم للرسول ﷺ، وهو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أفضل الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم، فقال..

﴿عَلَّمَهُۥ﴾ نزل بالوحي علىٰ الرسول ﷺ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ شديد القوة الظاهرة والباطنة.. قوي علىٰ تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه.. قوي علىٰ إيصال الوحي إلىٰ الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.. وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين..

﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: قوة، وخُلُق حسن، وجمال ظاهر وباطن..

﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾ أفق السماء الذي هو أعلىٰ من الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين، ولا يتمكنون من الوصول إليها..

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من النبي ﷺ، لإيصال الوحي إليه..

﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ عليه من الأفق الأعلىٰ..

﴿فَكَانَ﴾ في قربه منه..

﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ قدر قوسين، والقوس معروف..

﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ أقرب من القوسين.. وهذا يدل علىٰ كمال المباشرة للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ الله بواسطة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ محمد ﷺ..

﴿مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم..

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته

على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره.. وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقيًا لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، **فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره**، ولم يشك بذلك..

ويحتمل أن المراد بذلك: ما رأى ﷺ ليلة أسري به من **آيات الله العظيمة**، وأنه تيقنه حقًا بقلبه ورؤيته، **هذا هو الصحيح في تأويل الآية الكريمة**..

وقيل: إن المراد بذلك: رؤية الرسول ﷺ **لربه ليلة الإسراء**، وتكليمه إياه، **وهذا اختيار كثير من العلماء** رحمهم الله.. فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا..

ولكن الصحيح القول الأول، وأن **المراد به جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما يدل عليه السياق، وأنَّ محمدًا ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال..

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأى محمدٌ جبريلَ..

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ مرة أخرى، نازلًا إليه..

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ وهي شجرة عظيمة جدًا، فوق السماء السابعة.. سُمِّيَت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره.. أو لانتهاء علم الخلق إليها، أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها أو لغير ذلك، والله أعلم.. رأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة..

﴿عِندَهَا﴾ عند تلك الشجرة..

﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلًا تنتهي إليه الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات.. وهذا دليل على أن الجنةَ في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة..

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ يغشاها من أمر الله شيء عظيم، لا يعلم وصفه إلا الله عَزَّوَجَلَّ..

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده..

﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ وما تجاوز البصر.. وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه، ولا تجاوزه، ولا حاد عنه.. وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين.. **فإنَّ الإخلال يكون بأحد هذه الأمور**: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به علىٰ وجه التفريط، أو علىٰ وجه الإفراط، أو علىٰ وجه الحِيدة يميناً وشمالاً.. وهذه الأمور كلها منتفية عنه ﷺ..

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١-١٨] من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم:١٩-٢٥]

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ لمَّا ذَكَر تعالىٰ ما جاء به محمد ﷺ من الهدىٰ ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده.. ذَكَر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنىٰ، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة.. وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا (اللات) من (الإله) المستحق للعبادة، و(العزىٰ) من (العزيز)، و(مناة) من (المنان) إلحادًا في أسماء الله وتجريـًا علىٰ الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكلُّ من له أدنىٰ مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها..

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟!

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ أي: ظالمة جائرة.. وأيُّ ظلم أعظم من قسمة، تقتضي تفضيل العبد المخلوق علىٰ الخالق؟ تعالىٰ عن قولهم علوًا كبيرًا..

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجةٍ وبرهان علىٰ صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان فهو باطل فاسد، لا يُتخذ دينـًا..

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وهم -في أنفسهم- ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلَّهم علىٰ قولهم الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك، والبدع الموافِقة لأهويتهم.. والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدىٰ، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله علىٰ المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه.. فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء علىٰ هذه الحال، من أَسْفَه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم.. ولهذا أنكر تعالىٰ علىٰ من زعم أنه يحصل له ما تمنىٰ وهو كاذب في ذلك، فقال..

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾ [النجم:١٩-٢٥] فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعـًا لأمانيهم، ولا موافقـًا لأهوائهم.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم:٢٦]

يقول تعالىٰ منكرا علىٰ من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة..

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة..

﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لا تفيد من دعاها وتعلَّق بها ورجاها..

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم:٢٦] لابد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالىٰ في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له.. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يُقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة.. فالمشركون إذًا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا علىٰ أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ [النجم:٢٧-٣٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يعني أنَّ المشركين بالله المكذِّبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة..

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧﴾ وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرأوا علىٰ ما تجرأوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: (الملائكة بنات الله)، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثا..

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت علىٰ ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال علىٰ نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلىٰ الله، قائمون بخدمته، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]..

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ والمشركون إنما يتبعون في ذلك القولَ القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، فإنَّ الحق لا بد فيه من اليقين، المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة..

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين، أنهم لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض

عمن تولىٰ عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأَعرَض عن العلوم النافعة..

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ فهذا منتهىٰ إرادته.. ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور علىٰ الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصَّلوها، وبأي: طريق سنحت ابتدروها..

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ هذا منتهىٰ علمَهم وغايته.. وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالىٰ أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق ذلك فيكله إلىٰ نفسه ويخذله، فيَضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم:٢٧-٣٠] فيضع فضله حيث يعلم المحلَّ اللائق به.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣١-٣٢]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخبر تعالىٰ أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم.. ويجزيهم علىٰ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي..

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ ليجزي الذين أساؤوا العمل، السيئات من الكفر فما دونه، بما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة البليغة..

﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ في عبادة الله تعالىٰ، وأحسنوا إلىٰ خلق الله، بأنواع المنافع..

﴿بِٱلۡحُسۡنَى ٣١﴾ بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة.. ثم ذَكَر وصفهم فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة..

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها.. أو التي يلم بها العبد المرة بعد المرة، علىٰ وجه الندرة والقلة.. فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإنَّ هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كلَّ شيء، ولهذا قال..

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد.. ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء علىٰ الأرض، ولما ترك علىٰ ظهرها من دابة.. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»(١)..

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾ هو تعالىٰ أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخَور عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلىٰ بعض المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية..

﴿إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشاكم الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجودا فيكم.. وإن كان الله تعالىٰ قد أوجد فيكم قوة علىٰ ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالىٰ بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم.. خصوصاً إذا كان العبد

---

(١) أخرجه مسلم [٢٣٣] وقد تقدم.

مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنَّات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإنَّ الله تعالىٰ أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلابد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبا وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ تخبرون الناس بطهارتها علىٰ وجه التمدح.

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم:٣١-٣٢] فإن التقوىٰ محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي علىٰ ما فيه من بر وتقوىٰ، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئا.

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ٤٤﴾ [النجم:٣٣-٤٤]

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣﴾ قبَّح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولىٰ عن ذلك وأعرض عنه..

﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدىٰ ويمنع.. فإنَّ المعروف ليس سجية له وطبيعة بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت علىٰ فعل المعروف، ومع هذا فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها..

﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقوِّل علىٰ الله، متجرِّئ علىٰ الجمع بين الإساءة والتزكية كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قُدِّر أنه ادَّعىٰ ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي علىٰ يد النبي المعصوم تدل علىٰ نقيض قوله، وذلك دليل علىٰ بطلانه..

﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ﴾ هذا المدَّعي..

﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧﴾ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.. وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله..

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحدٌ عن أحد ذنباً..

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ في الآخرة، فيميز حُسنه من سيِّئه..

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾ المستكمِل لجميع العمل الحسن الخالص بالحُسنىٰ.. والسيئ الخالص بالسوأىٰ.. والمشوب بحسبه.. جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتىٰ إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد..

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلىٰ الله المنتهىٰ في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات..

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾ هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك..

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾ [النجم:٣٣-٤٤] هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

📖 الفوائد

قد استدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ من يرىٰ أن القُرَب لا يفيد إهداؤها للأحياء ولا للأموات.. قالوا: لأن الله قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ ﴾، فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك..

وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل علىٰ أنه ليس للإنسان إلا ما سعىٰ بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل علىٰ أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك

الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٤٥-٦٢]

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ فسر الزوجين بقوله..

﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها..

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ وهذا من أعظم الأدلة علىٰ كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتىٰ بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إمَّا إلىٰ أرفع المقامات في أعلىٰ عليين، وإمَّا إلىٰ أدنىٰ الحالات في أسفل سافلين.. ولهذا استدل بالبداءة علىٰ الإعادة، فقال..

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم علىٰ الحسنات والسيئات..

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها..

﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين

لكثير من الأعيان.. وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى.. وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له..

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩﴾ وهي النجم المعروف بـ (الشعرى العبور)، المسماة بـ (المِرزَم).. وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء؛ لأن هذا النجم مما عبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبده المشركون مربوب مدبَّر مخلوق، فكيف تتخذ إلها مع الله؟!

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠﴾ وهم قوم هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حين كذبوا هودا، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية..

﴿وَثَمُودَاْ﴾ قوم صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أرسله الله إلى ثمود فكذَّبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذَّبوه، فأهلكهم الله تعالى..

﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١﴾ منهم أحدًا، بل أهلكهم الله عن آخرهم..

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم..

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ وهم قوم لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ أصابهم اللهُ بعذاب ما عذب به أحدًا من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل.. ولهذا قال..

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ غشيها من العذاب الأليم الوخيم..

﴿مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ فبأي نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟! فإنَّ نعم الله ظاهرة، لا تقبل الشكَّ بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو..

﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ هذا الرسول القرشي الهاشمي (محمد بن عبد الله)، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدَّمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي شيء تنكر رسالته؟! وبأي حجة تبطل دعوته؟! أليست أخلاقه أعلا أخلاق الرسل الكرام؟!

أليست دعوته إلىٰ كل خير والنهي عن كل شر؟! ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟! ألم يهلك الله من كذَّب من قبله من الرسل الكرام؟! فما الذي يمنع العذاب عن المكذِّبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟!

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها..

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.. ثم توَّعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذِّبين لمَا جاء به من القرآن الكريم، فقال..

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أفَمِن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه..

﴿تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟!.. هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم.. وإلا فهو الحديث الذي إذا حدَّث صدق، وإذا قال قولا فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم الذي لو أنزل علىٰ جبل لرأيته خاشعـًا متصدعـًا من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأيـًا وعقلًا وتسديدًا وثباتـًا، وإيمانـًا ويقينـًا، والذي ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله..

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أنَّ الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعـًا لأمره ونهيه، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتـًا لأخباره الحسنة الصادقة..

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ غافلون عنه، لاهون عن تدبره.. وهذا من قلة عقولكم وأديانكم فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لمَا كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالىٰ..

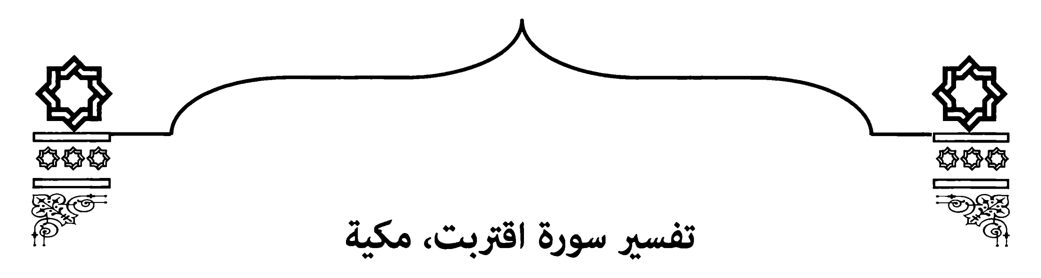
﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ الأمر بالسجود لله خصوصـًا، ليدلّ ذلك علىٰ فضله وأنَّه سر العبادة ولُبِّها، فإنَّ لبَّها الخشوع لله والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه علىٰ الأرض المهينة موضع وطء الأقدام..

﴿وَٱعۡبُدُواْ ۩ ٦٢﴾ [النجم:٤٥-٦٢] ثم أمر بالعبادة عمومـًا، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة (النجم)

والحمد لله الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وصلىٰ الله علىٰ محمد وسلم تسليما كثيرا





تفسير سورة اقتربت، مكية

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر:١-٥]

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ يخبر تعالىٰ أن الساعة وهي القيامة اقتربت وآن أوانها، وحان وقت مجيئها.. ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها.. ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة علىٰ وقوعها ما يؤمن علىٰ مثله البشر..

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ فمن أعظم الآيات الدالة علىٰ صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذِّبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدلُّ علىٰ صحة ما جاء به وصدقه.. أشار ﷺ إلىٰ القمر بإذن الله تعالىٰ، فانشق فلقتين، فلقة علىٰ جبل أبي قُبيس، وفلقة علىٰ جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرىٰ الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق علىٰ التمويه بها والتخييل..

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنَّه جرىٰ لأحد من المرسلين قبله نظيرُه.. فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيرًا..

﴿وَيَقُولُوا۟﴾ ففزعوا إلىٰ بهتهم وطغيانهم، وقالوا..

﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تَسألون من قَدِم إليكم من السفر، فإنَّه وإن قدَر علىٰ سحركم، لا يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلكم، فَسَأَلوا كلَّ من قدِم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: سحرنا محمد وسحر غيرَنا.. وهذا من البهت، الذي لا يروج إلا علىٰ أسفه الخلق وأضلهم عن الهدىٰ والعقل.. وهذا ليس إنكارا منهم لهذه

الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل والرد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾، ولم يُعد الضميرَ علىٰ انشقاق القمر، فلم يقل: (وإن يروها)، بل قال ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾.. وليس قصدهم اتباع الحق والهدىٰ، وإنما قصدهم اتباع الهوىٰ، ولهذا قال..

﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ [القصص:٥٠]، فإنَّه لو كان قصدهم اتباع الهدىٰ لآمنوا قطعـًا، واتبعوا محمدا ﷺ؛ لأنه أراهم اللهُ علىٰ يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دلَّ علىٰ جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية..

﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾ إلىٰ الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلىٰ آخره.. فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه.. والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالدا مخلدا أبدا.. وقال تعالىٰ -مبينا أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدىٰ-..

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة..

﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤﴾ أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك..

﴿حِكۡمَةُۢ﴾ منه تعالىٰ..

﴿بَٰلِغَةٞۖ﴾ لتقوم حجته علىٰ المخالفين، ولا يبقىٰ لأحد علىٰ الله حجة بعد الرسل..

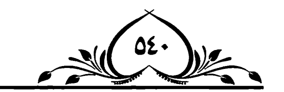
﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾ [القمر:١-٥] كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: ٩٧].

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦﴾ [القمر:٦]

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، فقال..

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ وانتظر بهم يومـًا عظيمـًا وهولًا جسيمـًا، وذلك حين..

﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ إسرافيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..



﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ [القمر:٦] إلىٰ أمرٍ فظيعٍ تنكره الخَليقَة، فلم تر منظرًا أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر:٧-٨]

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ من الهول والفزع الذي وصل إلىٰ قلوبهم، فخضعت وذلَّت، وخشعت لذلك أبصارهم..

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور..

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض..

﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ مبثوث في الأرض، متكاثر جدا..

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين لإجابة النداء الداعي.. وهذا يدل علىٰ أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلىٰ إجابته..

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم..

﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر:٧-٨] كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠].. مفهوم ذلك: أنه يسير سهل علىٰ المؤمنين.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر:٩-١٧]

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ لمَّا ذَكر تبارك وتعالىٰ حالَ المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئًا، أنذرهم وخوَّفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذِّبة

للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحلَّ بهم عقابه.. فذكر قوَم نوح، أوَّل رسول بعثه الله إلىٰ قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلىٰ توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].. ولم يزل نوحٌ يدعوهم إلىٰ الله ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا عنادًا وطغيانـًا، وقدحـًا في نبيهم، ولهذا قال هنا..

﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٌ﴾ لزعمهم أنَّ ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين.. وكَذَبوا في ذلك، وقَلَبوا الحقائق الثابتة شرعـًا وعقلًا، فإنَّ ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقولَ النيِّرة المستقيمة إلىٰ الهدىٰ والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين..

﴿وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾ زجره قومُه وعنَّفوه عندما دعاهم إلىٰ الله تعالىٰ، فلم يكفهم -قبَّحهم الله- عدمُ الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتىٰ أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم..

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ فعند ذلك دعا نوح ربه فقال..

﴿أَنِّي مَغۡلُوبٌ﴾ لا قدرة لي علىٰ الانتصار منهم؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم علىٰ مقاومة قومهم..

﴿فَٱنتَصِرۡ ۝١٠﴾ اللهم لي منهم.. وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] الآيات.. فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالىٰ..

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١﴾ كثير جدًا، متتابع..

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها.. حتىٰ التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلًا عن كونه منبعـًا للماء، لأنه موضع النار..

﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ ماء السماء والأرض..

﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ﴾ من الله له بذلك..

﴿قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ قد كَتَبه اللهُ في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين..

﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ ونجَّينا عبدنا نوحـًا على السفينة ذات الألواح والدسر، أي: المسامير التي قد سمرت بها ألواحها، وشد بها أسرها..

﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات، برعاية من الله وحفظ منه لها عن الغرق، ونظر وكلائه منه تعالىٰ، وهو نعم الحافظ الوكيل..

﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام جزاء له، حيث كذَّبه قومه وكفروا به، فصبر علىٰ دعوتهم، واستمر علىٰ أمر الله، فلم يرده عنه راد، ولا صده عنه صاد، كما قال تعالىٰ عنه في الآية الأخرىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ﴾ [هود:٤٨] الآية.. **ويحتمل أن المراد:** أنَّا أهلكنا قومَ نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخِزي، جزاء لهم علىٰ كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه علىٰ قراءة من قرأها بفتح الكاف..

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آيةً يتذكر بها المتذكرون علىٰ أنَّ من عصىٰ الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد.. أو أن الضمير يعود إلىٰ السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثم أبقىٰ الله تعالىٰ صنعتها وجنسها بين الناس، ليدل ذلك علىٰ رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته..

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾؟! فهل من متذكر للآيات، ملق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾ فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحد عليه حجة..

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظـًا، وأصدقه معنىٰ، وأبيَنه تفسيرًا.. فكل من أقبل عليه يسَّر اللهُ عليه مطلوبَه غاية التيسير، وسهله عليه.. والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ

والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة.. ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا أسهل العلوم، وأجلها علىٰ الإطلاق.. وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعين عليه.. قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو اللهُ عبادَه إلىٰ الإقبال عليه والتذكر بقوله..

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:٩-١٧]..

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر:١٨-٢٢]

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هودا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته.. فكذبوه..

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فأرسل الله عليهم..

﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ شديدة جدا..

﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ شديد العذاب والشقاء عليهم..

﴿مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما..

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ من شدتها، فترفعهم إلىٰ جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون..

﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾﴾ كأنَّ جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته الريح فسقط علىٰ الأرض، فما أهون الخلق علىٰ الله إذا عصوا أمره..

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ كان والله العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة..

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر:١٨-٢٢] كرر تعالىٰ ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلىٰ ما يصلح دنياهم وأخراهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧﴾ [القمر:٢٣-٢٧]

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣﴾ وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبيُّهم صالحاً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حين دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.. فكذبوه واستكبروا عليه..

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ كِبراً وتيها..

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ كيف نتَّبع بشرًا، لا ملِكاً منَّا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منَّا، ومع ذلك فهو شخص واحد..

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن اتبعناه وهو بهذه الحال..

﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾ إنا لضالون أشقياء.. وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنَّهم **أَنِفُوا أن يتبعوا رسولًا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور..**

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ كيف يخصه اللهُ من بيننا وينزل عليه الذِكرُ؟! فأي مزية خصه من بيننا؟!.. وهذا اعتراض من المكذبين علىٰ الله، لم يزالوا يدلون به، ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل.. وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، فالرسل مَنَّ اللهُ عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لعاجل اللهُ المكذِّبين لهم بالعقاب العاجل.. والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح تكذيبه، ولهذا حَكَموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا..

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾ كثير الكذب والشر، فقبَّحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع..

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم فأرسل اللهُ الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات الله، ونعمة يحتلبون من ضرعها ما يكفيهم أجمعين..

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ اختبارًا منه لهم وامتحانـًا..

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟

﴿وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧﴾ [القمر:٢٣-٢٧] اصبر علىٰ دعوتك إياهم، وارتقب ما يحل بهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝٢٨ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢﴾ [القمر:٢٨-٣٢]

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ وأخبرهم..

﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ﴾ موردهم الذي يستعذبونه..

﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ وبين الناقة، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم آخر معلوم..

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝٢٨﴾ يحضره من كان قسمته، ويحظر علىٰ من ليس بقسمة له..

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ الذي باشر عقرها، الذي هو أشقىٰ القبيلة..

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ انقاد لما أمروه به من عقرها..

﴿فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٠﴾ كان أشد عذاب..

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾ أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجىٰ اللهُ صالحـًا ومن آمن معه..

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢﴾ [القمر:٢٨-٣٢]..

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾ [القمر:٣٣-٤٠]

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطـًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣﴾ حين دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا علىٰ شركهم وقبائحهم..

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤﴾..

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥﴾..

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته..

﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦﴾..

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ حتىٰ إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤوهم مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم.. لعنهم الله وقبحهم.. وراودوه عنهم..

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ فأمر الله جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فطمس أعينهم بجناحه..

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧﴾..

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين، ونجىٰ الله لوطا وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم علىٰ شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له..

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾ [القمر:٣٣-٤٠]..

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر:٤١-٤٩]

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون وقومه..

﴿ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ فأرسل اللهُ إليهم موسىٰ الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرات وأشهدهم من العبر ما لم يُشهد عليه أحدًا غيرَهم..

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ فكذبوا بآيات الله كلها..

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ فأغرقهم في اليمِّ هو وجنوده.. **والمراد من ذكر هذه القصص**: تحذير الناس والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال..

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين كذَّبوا أفضلَ الرسل خيرٌ من أولئك المكذبين، الذين ذَكَر اللهُ هلاكهم وما جرىٰ عليهم؟! فإن كانوا خيرا منهم أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرا منهم، فليسوا بخير منهم..

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ﴾ أم أعطاكم الله عهدًا وميثاقـًا..

﴿فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ في الكتب التي أنزلها علىٰ الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟! وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلًا وشرعـًا، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم علىٰ الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها..

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ فأخبر تعالىٰ أنهم يقولون..

﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾ قال تعالىٰ مبيِّنـًا لضعفهم، وأنهم مهزومون..

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ فوقع كما أخبر، هزم اللهُ جمعهم الأكبر يوم بدر، وقُتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلُّوا به، ونصر الله دينَه ونبيَّه وحزبه المؤمنين.. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال..

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يحازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط..

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال..

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي..

﴿فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧﴾ هم ضالون في الدنيا، ضلالٌ عن العلم، وضلال عن العمل الذي ينجيهم من العذاب.. ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتىٰ تبلغ أفئدتهم..

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمُها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم..

﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها..

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر:٤١-٤٩] وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالىٰ وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها.. وخلقها بقضاء سبق به علمُه، وجرىٰ به قلمُه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك علىٰ الله يسير، فلهذا قال..

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٠-٥٥]

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ فإذا أراد شيئاً قال له: (كن فيكون) كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم..

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ متذكر يعلم أنَّ سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإنَّ هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين..

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية..

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ مسطر مكتوب.. وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالىٰ، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه..

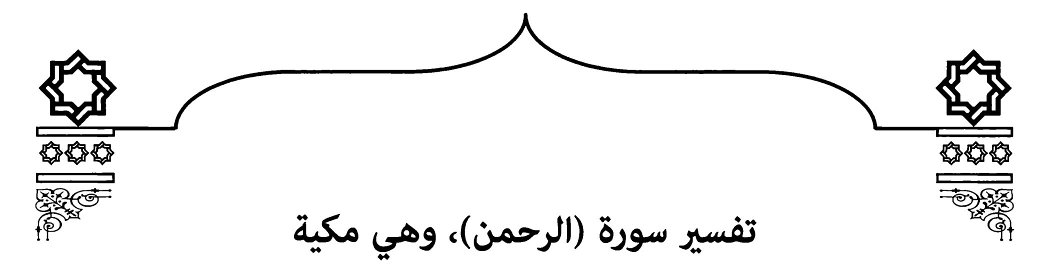
﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر..

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان.. ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال..

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٠-٥٥] فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته.. جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة (اقتربت).. ولله الحمد والشكر





تفسير سورة (الرحمن)، وهي مكية

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١-١٣]

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه (الرَّحْمَنُ) الدال علىٰ سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله.. ثم ذَكَر ما يدل علىٰ رحمته، وأثرها الذي أوصله الله إلىٰ عباده، من النعم الدينية والدنيوية والآخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فذكر أنه..

﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها علىٰ عباده.. وهذا أعظم منَّة ورحمة رحِم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآنا عربيا بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل علىٰ كل خير، زاجر عن كل شر..

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البديع تعالىٰ خلقه أيَّ إتقان، وميزه علىٰ سائر الحيوانات.. بأن..

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ التبيين عمَّا في ضميره.. وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي.. فالبيان الذي ميز الله به الآدمي علىٰ غيره من أجلِّ نعمه، وأكبرها عليه..

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ خلق اللهُ الشمسَ والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر.. رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب..

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخشع وتنقاد لِمَا سخَّرها له من مصالح عباده ومنافعهم..

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ سقفها للمخلوقات الأرضية..

﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ ووضع الله الميزان، أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال.. وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم.. ولهذا قال..

﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾ أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان.. فإن الأمر لو كان يرجع إلىٰ عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض..

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم..

﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان..

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ الله علىٰ ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار، واختلاف أوصافها وأحوالها..

﴿لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ للخلق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهادا وفراشا يبنون بها، ويحرثون ويغرسون ويحفرون ويسلكون سبلها فجاجاً، وينتفعون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.. ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال..

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح، وغير ذلك..

﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١﴾ ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتىٰ تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه..

﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها.. ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة والأرز والدخن، وغير ذلك..

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾ **يحتمل أن المراد بذلك:** جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً.. **ويحتمل أن المراد بالريحان:** الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح، وتنشرح لها النفوس.. ولمَّا ذَكَر جُملةً كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١-١٣] فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟! وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب [1].. فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه، أن يقر بها ويشكر، ويحمد الله عليها.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾ [الرحمن:١٤-١٦]

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته، أن..

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أبا الإنس، وهو آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤﴾ من طين مبلول، قد أُحكم بلُّه وأُتقِن، حتى جف، فصار له

---

(١) أخرجه الترمذي في [جامعه/ ٣٦١٣] وغيره عن الوليد عن زهير عن ابن المنكدر عن جابر..

قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ.. قَالَ ابْنُ حَنْبَلٍ: كَأَنَّ زُهَيْرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الَّذِي وَقَعَ بِالشَّامِ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يُرْوَى عَنْهُ بِالْعِرَاقِ كَأَنَّهُ رَجُلٌ آخَرُ قَلَبُوا اسْمَهُ، يَعْنِي: لِمَا يَرْوُونَ عَنْهُ مِنَ الْمَنَاكِيرِ.. وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ: أَهْلُ الشَّامِ يَرْوُونَ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ مَنَاكِيرَ ، وَأَهْلُ الْعِرَاقِ يَرْوُونَ عَنْهُ أَحَادِيثَ مُقَارِبَةً.اهـ

قال ابن عدي في [الكامل/ ٤/ ١٧٧]: هذا لا يعرف إلا بهشام بن عمار ويقال إن يحيى بن معين كتبه عن هشام بن عمار وقد سرقه جماعة من الضعفاء ذكرتهم في كتابي هذا فحدثوا به عن الوليد منهم سليمان بن أحمد الواسطي وعلي بن جميل الرقي وعمر بن مالك البكري البصري وبركة بن محمد الحلبي والحديث لهشام.اهـ

صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ علىٰ النار..

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجن، وهو إبليس اللعين..

﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ١٥﴾ من لهب النار الصافي.. أو الذي قد خالطه الدخان.. وهذا يدل علىٰ شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع.. بخلاف عنصر الجان وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.. ولمَّا بيَّن خلق الثقلين ومادة ذلك، وكان ذلك منَّةً مِنهُ تعالىٰ علىٰ عباده قال..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾ [الرحمن:١٤-١٦]..

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾ [الرحمن:١٧-١٨]

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ هو تعالىٰ رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة..

﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾ وكل ما غربت عليه، وكل ما كانا فيه فهي تحت تدبيره وربوبيته.. وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقي الشمس شتاء وصيفا، ومغربها كذلك..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾ [الرحمن:١٧-١٨]..

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣﴾ [الرحمن:١٩-٢٣]

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح..

﴿يَلْتَقِيَانِ ١٩﴾ فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان..

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ ولكن الله تعالىٰ جعل بينهما برزخا من الأرض..

﴿لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠﴾ حتىٰ لا يبغي أحدهما علىٰ الآخر.. ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١﴾..

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ والملح به يطيب الهواء.. ويتولد اللؤلؤ والمرجان..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾ [الرحمن:١٩-٢٣].. والمِلح يكون مستقرًا مسخرا للسفن والمراكب، ولهذا قال..

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾ [الرحمن:٢٤-٢٥]

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وسخر تعالىٰ لعباده السفن الجواري، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون..

﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤﴾ فتكون من كبرها وعظمها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس.. ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾ [الرحمن:٢٤-٢٥]..

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨﴾ [الرحمن:٢٦-٢٨]

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ كل من علىٰ الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر المخلوقات..

﴿فَانٍ ۝٢٦﴾ يفنىٰ ويموت ويبيد..

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ويبقىٰ الحي الذي لا يموت..

﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾ ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يُعظَّم ويبجل ويُجل لأجله..

﴿وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يُكرِم أولياءَه وخواص خلقه بأنواع الإكرام.. الذي يكرمه أولياؤه ويجلونه، ويعظمونه ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨﴾ [الرحمن:٢٦-٢٨]..

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرحمن:٢٩-٣٠]

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه.. يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالىٰ..

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ يغني فقيرا، ويجبر كسيرا، ويعطي قومـًا، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين..

فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهلَ الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات..

وتعالىٰ الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه..

وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالىٰ كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالىٰ يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها علىٰ عباده مدة مقامهم في هذه الدار..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرحمن:٢٩-٣٠].. حتىٰ إذا تمت هذه الخليقة، وأفناهم الله تعالىٰ، وأراد تعالىٰ أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلىٰ دار الحيوان.. وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله..

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرحمن:٣١-٣٢]

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرحمن:٣١-٣٢]..

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤﴾ [الرحمن:٣٣-٣٤]

إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزا لهم..

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تجدون منفذًا مسلكا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه..

﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة.. وأنىٰ لهم ذلك؟! وهم لا يملكون لأنفسهم نفعـًا ولا ضرًا، ولا موتـًا ولا حياة ولا نشورا.. ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسـًا.. وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمرءوسون، والأغنياء والفقراء..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤﴾ [الرحمن:٣٣-٣٤]..

﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾ [الرحمن:٣٥-٣٦]

ثم ذَكَر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم فقال..

﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ يرسل عليكما لهب صاف من النار..

﴿وَنُحَاسٞ﴾ وهو اللهب، الذي قد خالطه الدخان.. والمعنىٰ أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما..

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾ لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.. ولمَّا كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطا يسوقهم به إلىٰ أعلىٰ المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم فقال..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾ [الرحمن:٣٥-٣٦]..

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾ [الرحمن:٣٧-٤٠]

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يوم القيامة، من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها..

﴿فَكَانَتۡ﴾ من شدة الخوف والانزعاج..

﴿وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨﴾..

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩﴾ سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالىٰ عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالىٰ ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران:١٠٦]..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾ [الرحمن:٣٧-٤٠].. وقال هنا..

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ۝٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾ [الرحمن:٤١-٤٢]

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ۝٤١﴾ فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها.. وإنما يسألهم تعالىٰ سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالىٰ يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾ [الرحمن:٤١-٤٢]..

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ۝٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥﴾ [الرحمن:٤٣-٤٥]

أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم..

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم..

﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا﴾ بين أطباق الجحيم ولهبها..

﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ۝٤٤﴾ ماء حار جدا قد انتهىٰ حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥﴾ [الرحمن:٤٣-٤٥].. ولمَّا ذَكر ما يُفعل بالمجرمين، ذَكر جزاء المتقين الخائفين فقال..

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾ [الرحمن:٤٦-٦١]

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهىٰ عنه، وفعل ما أمره به.. له..

﴿جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ من ذهب، آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدىٰ الجنتين جزاء علىٰ ترك المنهيات، والأخرىٰ علىٰ فعل الطاعات..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾.. ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما..

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ۝٤٨﴾ فيهما من ألوان النعيم المتنوعة، نعيم الظاهر والباطن، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. أن فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة، أو ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه، جمع (فن)، أي: صنف..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾..

﴿فِيهِمَا﴾ وفي تلك الجنتين..

﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ يفجرونها علىٰ ما يريدون ويشتهون..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾..

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ من جميع أصناف الفواكه..

﴿زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنوع الآخر..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾..

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها.. وأنهم متكئون عليها، أي: جلوس تمكن واستقرار وراحة، كجلوس من الملوك علىٰ الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عَزَّوَجَلَّ..

﴿بَطَآئِنُهَا﴾ حتىٰ إن بطائنها التي تلي الأرض منها..

﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟!

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾ الجنىٰ هو الثمر المستوي، أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾..

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قد قصرن طرفهن علىٰ أزواجهن، من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهن لهم.. وقصرن أيضا طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن..

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾ لم ينلهن قبلهم أحدٌ من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحببات إلىٰ أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨]..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾..

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾..

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده..

﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ [الرحمن:٤٦-٦١]..

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن:٦٢-٧٨]

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ من فضة بنيانهما وآنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾.. وتلك الجنتان..

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾..

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ فوارتان..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾..

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ من جميع أصناف الفواكه..

﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾..

﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنات كلها..

﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾ خيرات الأخلاق، حسان الأوجه.. فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١﴾..

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن.. ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن المخدَّرات [١] الخَفِرات [٢]..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣﴾..

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥﴾..

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أصحاب هاتين الجنتين، متكأهم علىٰ **الرفرف الأخضر**، وهي **الفرش التي فوق المجالس العالية**، التي قد زادت علىٰ مجالسهم، فصار لها **رفرفة من وراء مجالسهم**، لزيادة البهاء وحسن المنظر..

﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾ العبقري: نسبة لكل **منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا**.. ولهذا **وصفها بالحسن الشامل**، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعومة الملمس..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾.. ولما ذكر سعة فضله وإحسانه، قال..

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن:٦٢-٧٨] **تعاظم وكثر خيره**، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

🕮 الفـوائـد

هاتان الجنتان اللَّتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله علىٰ ذلك بقوله ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين:

فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وفي الأخريين ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة..

---

(١) خَدَرَتِ الفَتَاةُ: اِستَتَرَتْ أَوْ لَزِمَتِ الخِدْرَ.

(٢) تَخَفَّرَتْ: اشْتَدَّ حياؤها.

وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ ولم يقل ذلك في الأخريين..

وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾، وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾، وقد عُلِم ما بين الوصفين من التفاوت..

وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾، ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾..

وقال في الأوليين: في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾، وقال في الأخريين: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك..

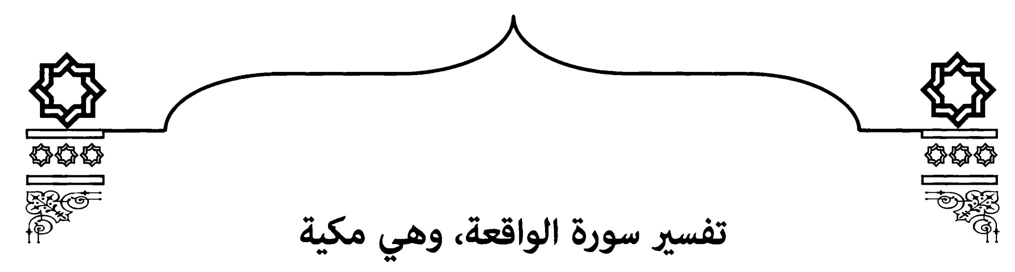
وقال في الأوليين: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾، فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخريين..

ومجرد تقديم الأوليين علىٰ الأخريين، يدل علىٰ فضلهما..

فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين علىٰ الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين.. **وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين..**

وفي كل من الجنات المذكورات: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوىٰ، **حتىٰ إنَّ كلًا منهم لا يرىٰ أحدًا أحسن حالًا منه،** ولا أعلىٰ من نعيمه الذي هو فيه.

تم تفسير سورة (الرحمن)، ولله الحمد والشكر والثناء الحسن



تفسير سورة الواقعة، وهي مكية

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ [الواقعة:١-١٣]

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ يخبر تعالىٰ بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي..

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ لا شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالىٰ..

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ خافضة لأناس في أسفل سافلين.. رافعة لأناس في أعلىٰ عليين.. أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب.. ورفعت فأسمعت البعيد..

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ حركت واضطربت..

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ فتتت..

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٦-١٠٧]..

﴿وَكُنتُمْ﴾ أيها الخلق..

﴿أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة.. ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال..

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم..

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: الشمال..

﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩﴾ تهويل لحالهم..

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ السابقون في الدنيا إلىٰ الخيرات.. هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾ أولئك الذين هذا وصفهم.. المقربون عند الله..

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ في أعلىٰ عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها.. وهؤلاء المذكورون..

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ [الواقعة:١-١٣] جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة:١٤-١٦]

﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤﴾ وهذا يدل علىٰ فضل صدر هذه الأمة -في الجملة- علىٰ متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين.. والمقربون هم خواص الخلق..

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥﴾ مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ، والجوهر، وغير ذلك من الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالىٰ..

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ علىٰ تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار..

﴿مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة:١٤-١٦] وجه كل منهم إلىٰ وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة:١٧-٢٦]

﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يدور علىٰ أهل الجنة لخدمة وقضاء حوائجهم..

﴿وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾ [الطور:٢٤]، أي: مستور، لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون علىٰ أسنانهم.. ويدورون عليهم بآنية شرابهم..

﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ وهي التي لا عرىٰ لها..

﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأواني التي لها عرىٰ..

﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨﴾ من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها..

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾ لا تصدعهم رءوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها..

﴿وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾ ولا هم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمر الدنيا.. **والحاصل**: أن جميع ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالىٰ: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد:١٥].. وذَكَر هنا خمر الجنة، ونفىٰ عنها كلَّ آفة توجد في الدنيا..

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾ مهما تخيَّروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنىٰ اللذيذ، حصل لهم علىٰ أكمل وجه وأحسنه..

﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ ﴾ من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشويـًا، أو طبيخـًا، أو غير ذلك..

﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢﴾ ولهم حور عين.. والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء.. والعين: حسان الأعين وضخامها.. وحسن العين في الأنثىٰ من أعظم الأدلة علىٰ حسنها وجمالها..

﴿ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾ كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه.. فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النعوت.. فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر ويروق الناظر.. وذلك النعيم المعد لهم..

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم..

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾ لا يسمعون في جنات النعيم كلاما يلغىٰ، ولا يكون فيه فائدة.. ولا كلاما يؤثم صاحبه..

﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة:١٧-٢٦] إلا كلاما طيبا.. وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب.. وهذا دليل علىٰ حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسرُّه للنفوس، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ [الواقعة:٢٧-٤٠]

ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين فقال..

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾ شأنهم عظيم، وحالهم جسيم..

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾ مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب.. وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه..

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩﴾ والطلح معروف، وهو شجر كبار يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي..

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾..

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١﴾ كثير، من العيون والأنهار السارحة، والمياه المتدفقة..

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾ ليست بمنزلة فاكهة الدنيا، تنقطع في وقت من الأوقات، وتكون ممتنعة، أي: متعسرة علىٰ مبتغيها.. بل هي علىٰ الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد علىٰ أي حال يكون..

﴿وَفُرُشٍ مَّرۡفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعـاً عظيمـاً.. وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله..

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥﴾ إنَّا أنشأنا نساءَ أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء..

﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦﴾ صغارهن وكبارهن.. وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا.. وأن هذا الوصف -وهو البكارة- ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن..

﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧﴾ ملازم لهن في كل حال.. والعروب: هي المرأة المتحببة إلىٰ بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها.. فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصـاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة.. وإن نظر إلىٰ أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحـاً وسرورا.. وإن برزت من محل إلىٰ آخر، امتلأ ذلك الموضع منها ريحـاً طيِّبـاً ونورًا، ويدخل في ذلك الغنجة [1] عند الجماع.. والأتراب اللاتي علىٰ سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنىٰ ونهاية سن الشباب، فنساؤهم عرب أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات مرضيات، لا يحزن ولا يحزن، بل هن أفراح النفوس، وقرة العيون، وجلاء الأبصار..

﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨﴾ معدات لهم مهيئات..

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾ [الواقعة:٢٧-٤٠] هذا القسم من أصحاب اليمين، عدد كثير من الأولين، وعدد كثير من الآخرين.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ۝٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ

---

(١) غَنِجَتِ المرأَةُ: تدلَّلتْ علىٰ زوجها بملاحة، كأنَّها تخالفه وليس بها خلاف.

﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٥٦ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧﴾ [الواقعة:٤١-٥٧]

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١﴾ المراد بأصحاب الشمال، هم أصحاب النار، والأعمال المشئومة.. فذكر الله لهم من العقاب، ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم..

﴿فِي سَمُومٖ﴾ ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتُقلِقُهم أشد القلق..

﴿وَحَمِيمٖ ٤٢﴾ ماء حار يقطع أمعاءهم..

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣﴾ لهب نار، يختلط بدخان..

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾ لا برد فيه ولا كرم.. والمقصود أن: هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده.. ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلىٰ هذا الجزاء فقال..

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥﴾ قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم الله عليه..

﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ٤٦﴾ وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون علىٰ ما يسخط مولاهم، فَقَدِموا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة.. وكانوا ينكرون البعث..

﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ استبعادًا لوقوعه..

﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨﴾ كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا ترابا وعظاما؟! هذا من المحال، ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨﴾، قال تعالىٰ جوابا لهم وردا عليهم..

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠﴾ قل إنَّ متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعثهم الله.. ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالىٰ جزاءهم علىٰ أعمالهم التي عملوها في دار التكليف..

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن طريق الهدىٰ، التابعون لطريق الردىٰ..

﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالرسول ﷺ، وما جاء به من الحق والوعد والوعيد..

﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحـًا، وأبشعها منظرًا..

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ والذي أوجب لهم أكلها -مع ما هي عليه من الشناعة- الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم، وتكاد تنقطع منه أفئدتهم.. هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.. وأما شرابهم فهو بئس الشراب..

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ وهو أنهم يشربون علىٰ هذا الطعام من الماء الحميم، الذي يغلي في البطون..

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ شرب الإبل الهيم، أي: العطاش، التي قد اشتد عطشها.. أو أنَّ (الهيم) داء يصيب الإبل، لا تروىٰ معه من شراب الماء..

﴿هَٰذَا﴾ الطعام والشراب..

﴿نُزُلُهُمْ﴾ ضيافتهم..

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها علىٰ ضيافة الله لأوليائه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨] ثم ذكر الدليل العقلي علىٰ البعث.. فقال..

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورا، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر علىٰ ذلك بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ؟! بلىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير.. ولهذا وبخهم علىٰ عدم تصديقهم بالبعث..

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة: ٤١-٥٧] وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٥٨-٦٢]

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أفرأيتم ابتداء خلقتكم من المَنِيِّ الذي تُمنون..

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟!

﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ أم الله تعالىٰ الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثىٰ، وهدىٰ كلًا منهما لِمَا هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب للتناسل.. ولهذا أحالهم الله تعالىٰ علىٰ الاستدلال بالنشأة الأولىٰ علىٰ النشأة الأخرىٰ، فقال..

﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾..

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [الواقعة:٥٨-٦٢] أنَّ القادر علىٰ ابتداء خلقكم، قادر علىٰ إعادتكم.

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۝٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٦٧﴾ [الواقعة:٦٣-٦٧]

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣﴾ وهذا امتنان مِنهُ علىٰ عباده، يدعوهم به إلىٰ توحيده وعبادته والإنابة إليه.. حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلًا عن شكرها، وأداء حقِّها، فقررهم بمنته، فقال..

﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ أأنتم أخرجتموه نباتـًا من الأرض؟! أم أنتم الذين نميتموه؟! أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتىٰ صار حبـًا حصيدًا وثمرًا نضيجـًا؟!

﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟! وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم علىٰ أكثر من ذلك.. ومع ذلك، فنبههم علىٰ أن ذلك الحرث معرض للأخطار، لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بُلغةً ومتاعـًا إلىٰ حين.. فقال..

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: الزرع المحروث وما فيه من الثمار..

﴿حُطَٰمٗا﴾ فُتاتـًا متحطِّمـًا، لا نفع فيه ولا رزق..

﴿فَظَلۡتُمۡ﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطامـًا، بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة..

﴿تَفَكَّهُونَ ۝٦٥﴾ تندمون وتحسرون علىٰ ما أصابكم.. ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون..

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦﴾ إنَّا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا.. ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب دهيتم، فتقولون..

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾ [الواقعة:٦٣-٦٧] فاحمدوا الله تعالىٰ، حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ نِعمَتَه علىٰ عباده بالطعام.. ذَكَر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون..

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨﴾ وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لَمَا كان لكم سبيل إليه..

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾ وأنَّه الَّذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالىٰ فيكون منه الأنهار الجارية علىٰ وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران(١) المتدفقة.. ومن نعمته أن جعله عذباً فراتاً تسيغه النفوس..

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ولو شاء لجعله مِلحاً أجاجاً مكروها للنفوس، لا يُنتفع به..

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠] الله تعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليكم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة:٧١-٧٤]

وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنىٰ للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم..

---

(١) الغَدِيرَةُ: القطعةُ من النبات.. والجمع: غُدْرَانٌ.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١﴾ فقررهم تعالىٰ بالنار التي أوجدها في الأشجار..

﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها..

﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ٧٢﴾ وإنما الله تعالىٰ الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفأوها وأخمدوها..

﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةً﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدَّها الله للعاصين، وجعلها سوطا يسوق به عباده إلىٰ دار النعيم..

﴿وَمَتَٰعًا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾ أي: المنتفعين أو المسافرين.. وخصَّ اللهُ المسافرين؛ لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره.. ولعل السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين وُلِد فهو مسافر إلىٰ ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعـاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار.. فلمَّا بيَّن من نِعَمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده فقال..

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [الواقعة:٧١-٧٤] نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات.. واحمده بقلبك ولسانك، وجوارحك.. لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسىٰ، ويطاع فلا يعصىٰ.

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦]

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ أقسم تعالىٰ بالنجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاربها، وما يُحِدُث الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة علىٰ عظمته وكبريائه وتوحيده.. ثم عظَّم هذا المقسَم به، فقال..

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦] وإنما كان القسم عظيمـاً؛ لأنَّ في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعِبرًا لا يمكن حصرها.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة:٧٧-٨٧]

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ وأما المقسَم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنَّه حقٌّ لا ريب فيه، ولا شك يعتريه.. وأنه..

﴿كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ كثير الخير، غزير العلم.. فكل خير وعلم فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه..

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ مستور عن أعين الخلق.. وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ.. أي: إنَّ هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظَّم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلىٰ.. **ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون:** هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم علىٰ تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه..

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهَّرهم الله تعالىٰ من الآفات، والذنوب والعيوب.. وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم، ولا يدان إلىٰ مسه، دلت الآية بتنبيهها علىٰ أنه **لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر**، كما ورد بذلك الحديث.. ولهذا قيل أنَّ الآية خبر بمعنىٰ النهي، أي: لا يمس القرآن إلا طاهر..

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ إنَّ هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة، هو تنزيل رب العالمين.. الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية.. ومِن أَجَلِّ تربيةٍ رَبَّىٰ بها عبادَه إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل علىٰ مصالح الدارين، ورحم الله به العبادَ رحمة لا يقدِّرون لها شكورا، ومما يجب عليهم أن يقوموا به ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به، ولهذا قال..

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون، أي: تختفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟! هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما

يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.. وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غَلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي علىٰ غيره، وهو الذي لا يداهَن به ولا يُختفىٰ، بل يُصدع به ويعلَن..

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ تجعلون مقابلة مِنَّةَ الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله.. فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومُوليها.. فهلا شكرتم الله تعالىٰ علىٰ إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإنَّ التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النِقَم..

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم..

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة..

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون..

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين..

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ ترجعون الروح إلىٰ بدنها..

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة:٧٧-٨٧] وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلىٰ موضعها.. فحينئذ إمَّا أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ.. وإمَّا أن تعاندوا، وتُعلَم حالُكم وسوءُ مآلكم.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٩٦]

ذَكَر اللهُ تعالىٰ أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذِّبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.. ثم ذَكَر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال..

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ الميت..

﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وفضول المباحات..

﴿فَرَوۡحٞ﴾ (فـ) لهم ﴿ رَوۡحٞ ﴾، أي: راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح..

﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما.. وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيرا بنوع الشيء عن جنسه العام..

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ۝٣٢ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].. وقد أُوِّلَ قولُه تبارك تعالىٰ: ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [يونس: ٦٣] أنَّ هذه البشارة المذكورة، هي البشرىٰ في الحياة الدنيا..

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم..

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾ (فـ) يقال لأحدهم: ﴿ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين، أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له.. أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليَّات والعذاب؛ لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلِموا من الذنوب الموبقات..

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢﴾ الَّذين كذَّبوا بالحق وضلوا عن الهدىٰ..

﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ ضيافتهم يوم قدومهم علىٰ ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلىٰ أفئدتهم.. وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]..

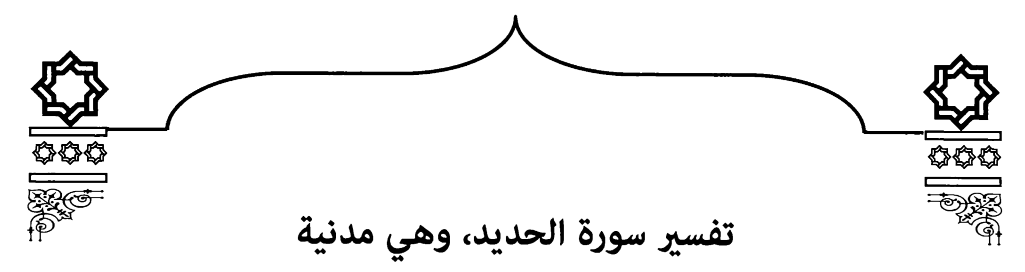
﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذَكَره اللهُ تعالىٰ من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك..

﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ الذي لا شك فيه ولا مِرية، بل هو الحق الثابت الَّذي لابد من وقوعه.. وقد أشهد اللهُ عبادَه الأدلة القواطع علىٰ ذلك، حتىٰ صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له، فحمدوا الله تعالىٰ علىٰ ما خصَّهم به من هذه النعمة العظيمة، والمنحة الجسيمة.. ولهذا قال تعالىٰ..

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ [الواقعة:٨٨-٩٦] فسبحان ربنا العظيم، وتعالىٰ وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.. والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيباً مباركاً فيه.

تم تفسير سورة (الواقعة)





تفسير سورة الحديد، وهي مدنية

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد:١]

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ يخبر تعالىٰ عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، والجوامد.. تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد:١] فهذا فيه بيان: **عموم افتقار** المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها.. **وعموم عزته** وقهره للأشياء كلها.. **وعموم حكمته** في خلقه وأمره.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ [الحديد:٢]

ثم أخبر عن **عموم ملكه**، فقال..

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ هو الخالق لذلك، الرازق المدبِّر لها بقدرته..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ [الحديد:٢]..

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣]

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء..

﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء..

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء..

﴿وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ الذي ليس دونه شيء..

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣] قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد:٤]

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة..

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه..

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حَبٍّ وحيوان ومطر، وغير ذلك..

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك..

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق..

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك..

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ﴾ [المجادلة:٧].. وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توَّعد ووعد علىٰ المجازاة بالأعمال بقوله..

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد:٤] هو تعالىٰ بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بِرٍّ وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم.

﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥﴾ [الحديد:٥]

﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ مُلكـًا وخَلقـًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بما شاءه، من أوامره القدرية والشرعية، الجارية علىٰ الحكمة الربانية..

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥﴾ [الحديد:٥] من الأعمال والعمال.. فيُعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب.. ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ [الحديد:٦]

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ يدخل الليل علىٰ النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدأون.. ثم يدخل النهار علىٰ الليل، فيزول ما علىٰ الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلىٰ مصالحهم ومعايشهم.. ولا يزال الله يكور الليل علىٰ النهار، والنهار علىٰ الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتىٰ تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك.. فتبارك الله رب العالمين، وتعالىٰ الكريم الجواد، الذي أنعم علىٰ عباده بالنعم الظاهرة والباطنة..

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ [الحديد:٦] أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩﴾ [الحديد:٧-٩]

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يأمر تعالىٰ عباده: بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به..

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ وبالنفقة في سبيله..

﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ من الأموال التي جعلها اللهُ في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون.. ثمَّ لمَّا أمرهم بذلك، رغبهم وحثهم عليه بِذِكر ما رتَّب عليه من الثواب، فقال..

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ﴾ جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله..

﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ أعظمه وأجله رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النَّعيم المقيم، الذي أعدَّه الله للمؤمنين والمجاهدين.. ثم ذَكَر السببَ الداعي لهم إلىٰ الإيمان، وعدم المانع منه، فقال..

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وما الذي يمنعكم من الإيمان..

﴿وَالرَّسُولُ﴾ والحال أن الرسول محمدا ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلىٰ الله..

﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ فهذا مما يوجب المبادرة إلىٰ إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به..

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان..

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالَم، بل أيده بالمعجزات، ودلَّكم علىٰ صدق ما جاء به بالآيات البينات، فلهذا قال..

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات تدل أهل العقول علىٰ صدق كل ما جاء به، وأنه حق اليقين..

﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله علىٰ يده من الكتاب والحكمة..

﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الجهل والكفر، إلىٰ نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها..

﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ [الحديد:٧-٩]..

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ [الحديد:١٠-١١]

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهي طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا..

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والحال أنه ليس لكم شيء، بل﴿ لِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.. فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود المُلك إلىٰ مالكه تبارك وتعالىٰ.. فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة.. ثم ذَكَر تعالىٰ تفاضلَ الأعمال بحسب الأحوال، والحكمة الإلهية، فقال..

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرىٰ من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلىٰ الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجا، واعتز الإسلام عزا عظيما.. **وكان المسلمون قبل هذا الفتح**: لا يقدرون علىٰ الدعوة إلىٰ الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها.. وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذَىٰ ويَخاف.. فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظمَ درجة وأجرا وثوابـًا، ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضىٰ الحكمة..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ﴾ ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح.. ولمَّا كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول، احترز تعالىٰ من هذا بقوله..

﴿وَكُلًّا﴾ الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم..

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وعده الله الجنة.. وهذا يدل علىٰ فضل الصحابة كلهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ فيجازي كلًا منكم علىٰ ما يعلمه من عمله، ثم حثَّ علىٰ النفقة في سبيله؛ لأن الجهاد متوقف علىٰ النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال..

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه.. وهذا من كرم الله تعالىٰ، حيث سمَّاه قرضـًا، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافـًا كثيرة..

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾ [الحديد:١٠-١١] وهو الكريم الوهاب.. وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلىٰ أقل شيء من الجزاء الحسن، ولذلك قال..

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الحديد:١٢-١٥]

يقول تعالىٰ -مبيِّنًا لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة-:..

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ﴾ إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط علىٰ متن جهنم.. فحينئذ ترىٰ المؤمنين والمؤمنات، يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.. فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب.. كل علىٰ قدر إيمانه.. ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال..

﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ فلله ما أحلىٰ هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم.. حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب..

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإذا رأىٰ المنافقون نور المؤمنين يمشون به، وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين..

﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ..

﴿قِيلَ﴾ لهم..

﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾ إن كان ذلك مُمكِنـًا، والحال أنَّ ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات..

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين..

﴿بِسُورٖ﴾ حائط منيع، وحصن حصين..

﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين..

﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ وهو الذي يلي المنافقين..

﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعا وترحما..

﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ في الدنيا نقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥] ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟!

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم في الظاهر مثل عملنا..

﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ﴾ ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة، بل..

﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ شككتم في خبر الله الذي لا يَقبل شكـًا..

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ الباطلة، حيث تمنيتم أن تنالوا منالَ المؤمنين، وأنتم غير موقنين..

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ حتىٰ جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة..

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾ وهو الشيطان، الذي زيَّن لكم الكفر والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره..

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ فلو افتديتم بمثل الأرض ذهبـًا ومثله معه، لَمَا تُقُبِّل منكم..

﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مستقركم..

﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها..

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الحديد:١٢-١٥] النار.. قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾ [القارعة: ٨- ١١].

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد:١٦-١٧]

لمَّا ذَكَر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة.. كان ذلك مما يدعو القلوب إلىٰ الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين علىٰ عدم ذلك، فقال..

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم وتخشع..

﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره..

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي جاء به محمد ﷺ؟!.. **وهذا فيه:** الحث علىٰ الاجتهاد علىٰ خشوع القلب لله تعالىٰ، ولِما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كلَّ وقت، ويحاسبوا أنفسهم علىٰ ذلك..

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا..

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ بل طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم..

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلىٰ أن تُذكَّر بما أنزله الله، وتُنَاطَق [1] بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإنَّ ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين..

(١) تَنَاطَقَ الرَّجلانِ: تقاوَلاَ ونَاطَقَ كلٌّ صاحبَه.. نطَق الشّخصُ بكذا: لفظ ، تكلّم بصوت وحروف تُعرف بها المعاني.. والمراد: أنَّ القلب يحتاج لسماع الحق باستمرار.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد:١٦-١٧] فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية.. والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم.. والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله.. وهذه الآية تدل على أنه **لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.**

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد:١٨]

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ بالتشديد، أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية..

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدَّموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدَّخرًا لهم عند ربهم..

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة..

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد:١٨] وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد:١٩]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.. فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة..

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون، أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء..

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة

مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[1]، وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم الله تعالىٰ..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾ [الحديد:١٩]..

📖 الفـوائـد

هذه الآيات جمعت أصناف الخلق: المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم..

فالمتصدقون: الذين كان جل عملهم الإحسان إلىٰ الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً بالنفع بالمال في سبيل الله..

والصديقون: هم الذين كمَّلوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق..

والشهداء: هم الذين قاتلوا في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم.

وأصحاب الجحيم: هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله..

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون: الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعلوا.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد:٢٠-٢١]

---

(١) أخرجه البخاري [٢٧٩٠] وقد تقدم.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ يخبر تعالىٰ عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبيِّن غايتها وغاية أهلها، بأنها..

﴿لَعِبٌ وَلَهۡوٌ﴾ تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب.. وهذا مِصدَاقُه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله وعمَّا أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بخلاف أهل اليقظة وعُمَّال الآخرة، فإنَّ قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلىٰ الله، من النفع القاصر والمتعدي..

﴿وَزِينَةٌ﴾ تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه، وغير ذلك..

﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ كلُّ واحدٍ من أهلها يريد مفاخرةَ الآخَر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها..

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ كلٌّ يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد.. وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها.. بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبَرا ولم يجعلها مستقَرا، فنافس فيما يقربه إلىٰ الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلىٰ الله، وإذا رأىٰ مَن يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافَسه بالأعمال الصالحة..

﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ ثم ضرب للدنيا مثلا بغيثٍ نزل علىٰ الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتىٰ إذا أخذت الأرض زخرفها، وأَعجب نباتَه الكفارُ، الذين قَصَروا همهم ونظرهم إلىٰ الدنيا، جاءها من أمر الله ما أتلفها.. فهاجت ويبست، فعادت علىٰ حالها الأولىٰ، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رؤي لها مرأىٰ أنيق..

كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة.. إذ أصابها القدر بما أذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوىٰ الكفن..

فتبًّا لمن أضحت هي غاية أمنيته، ولها عمله وسعيه.. وأما العمل للآخرة فهو الذي

ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد علىٰ الأبد، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ حال الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها، لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهىٰ مطلبه، فتجرأ علىٰ معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.. وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات.. ورضوان من الله، يحل من أحله به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعىٰ للآخرة سعيها.. فهذا كله مما يدعو إلىٰ الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال..

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾ أي: إلا متاع يتمتع به وينتفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور.. ثم أمر بالمسابقة إلىٰ مغفرة الله ورضوانه وجنته..

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها.. والمسابقة إلىٰ رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص علىٰ ما يرضي الله علىٰ الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلىٰ الخلق بجميع وجوه النفع.. ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال..

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعها..

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ هذا الذي بيَّناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلىٰ الجنة، والطرق الموصلة إلىٰ النار، وأنَّ فضلَ اللهِ بالثواب الجزيل والأجر العظيم من أعظم منته علىٰ عباده وفضله..

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد:٢٠-٢١] الذي لا يُحصىٰ ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا

تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٤]

يقول تعالىٰ مخبرا عن عموم قضائه وقدره..

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وهذا شاملٌ لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر..

﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها..

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه علىٰ الله يسير..

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر.. فلا يأسوا ويحزنوا علىٰ ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلىٰ دفعه.. ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولىٰ النعم وَدَفَع النقم، ولهذا قال..

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ متكبِّر فظٌّ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلىٰ نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩]..

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ﴾ يجمعون بين الأمرين الذميمين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل.. وهو **منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك**، فلم يكفهم بخلهم، حتىٰ أمروا الناس بذلك، وحثوهم علىٰ هذا الخلق الذميم، بقولهم وفعلهم.. وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها..

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئا..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنىٰ عباده وأقناهم..

﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٤] الَّذي له كلُّ اسمٍ حَسَن، ووصفٌ كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويثنىٰ ويعظَّم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد:٢٥-٢٧]

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة علىٰ صدق ما جاءوا به وحقيته..

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، إلىٰ ما ينفعهم في دينهم ودنياهم..

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال.. والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث، وغير ذلك.. وذلك..

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ قياما بدين الله، وتحصيلا لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها.. وهذا دليل علىٰ أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال..

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك..

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتىٰ إنه قلَّ أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلىٰ الحديد..

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليقيم تعالىٰ سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضروريا..

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب.. ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية.. ومن قوته وعزته أنه قادر علىٰ الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتلي أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب.. ولمَّا ذَكَر نبوَّة الأنبياء عمومـًا، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحـًا وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين، كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت علىٰ ذرية هذين النبيين الكريمين..

﴿فَمِنْهُم﴾ ممن أرسلنا إليهم الرسل..

﴿مُّهْتَدٍ﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم..

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ خارجون عن طاعة الله وطاعة الرسل والأنبياء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]..

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أتبعنا..

﴿عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصَّ اللهُ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن السياق مع النصارىٰ، الذين يزعمون اتباع عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة..

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة] الآيات.. ولهذا كان النصارىٰ ألين من غيرهم قلوبا، حين كانوا علىٰ شريعة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ..

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة.. فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة..

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ ووظفوها علىٰ أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم..

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ قصدهم بذلك رضا الله تعالىٰ.. ومع ذلك..

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه علىٰ أنفسهم.. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.. ومنهم من هو مستقيم علىٰ أمر الله، ولهذا قال..

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ﴾ الذين آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسىٰ، كل أعطاه الله علىٰ حسب إيمانه..

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٥-٢٧]..

📖 الفـوائـد

قرن تعالىٰ في هذا الموضع بين الكتاب والحديد: لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته.. **بالكتاب**: الذي فيه الحجة والبرهان.. **والسيف**: الناصر بإذن الله.. وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به علىٰ حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها علىٰ ألسنة رسله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: ٢٨-٢٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ﴾ وهذا الخطاب **يحتمل**: أنه خطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضىٰ

إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله..

﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ نصيبين من الأجر: نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين.. ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ.. **ويحتمل**: أن يكون الأمر عاما يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، **وهذا الظاهر**، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.. لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى..

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ يعطيكم علماً وهدى ونورا..

﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في ظلمات الجهل..

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ السيئات..

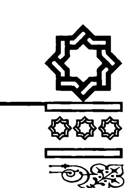
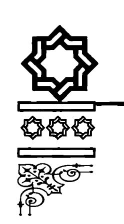
﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨﴾..

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ بيَّنا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أنَّ أهلَ الكتاب يكون لديهم علمٌ بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله.. أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]، ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغماً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا..

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله..

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الحديد:٢٨-٢٩] الَّذي لا يُقادَر قدرُه.. فلا يُستكثر هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عمَّ فضلُه أهلَ السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

تم تفسير سورة (الحديد)، ولله الحمد والمنة، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع، وهي مدنية

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة:١-٤]

نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار.. اشتكته زوجته إلىٰ الله.. وجادلته إلىٰ رسول الله ﷺ.. لمَّا حرمها علىٰ نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد.. وكان هو رجلًا شيخًا كبيرًا.. فشكت حالَها وحالَه إلىٰ الله وإلىٰ رسول الله ﷺ وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.. فقال تعالىٰ..

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ أي: تخاطبكما فيما بينكما..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، علىٰ تفنن الحاجات..

﴿بَصِيرٌ ۝١﴾ يبصر دبيب النملة السوداء، علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.. وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة.. وفي ضمن ذلك الإشارة بأنَّ الله تعالىٰ سيزيل شكواها، ويرفع بلواها.. ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها علىٰ وجه العموم، فقال..

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ **المظاهرة من الزوجة:** أن يقول الرجل لزوجته: (أنت علي كظهر أمي)، أو غيرها من محارمه، أو (أنت علي حرام).. وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ (الظهر)، ولهذا سمَّاه الله (ظهارا) فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾، أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يُعلَم أنَّه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟! ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال..

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قولًا شنيعًا..

﴿وَزُورًاۚ﴾ كذبًا..

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح..

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ **اختلف العلماء في معنىٰ العود: فقيل:** معناه العزم علىٰ جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل علىٰ هذا أنَّ الله تعالىٰ ذَكَر في الكفارة أنَّها تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم.. **وقيل:** معناه حقيقة الوطء، ويدل علىٰ ذلك أن الله قال ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.. وعلىٰ كل من القولين..

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (فـ) إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مُؤْمِنَةٍ، كما قُيِّدَت في آية أخرىٰ، ذكر أو أنثىٰ، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة بالعمل..

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتىٰ يكفر برقبة..

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم..

﴿تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ يبين لكم حُكمه مع الترهيب المقرون به؛ لأن معنىٰ الوعظ ذِكرُ الحُكم مع الترغيب والترهيب.. فالَّذي يريد أن يظاهر إذا ذَكر أنه يجب عليه عتق رقبة كفَّ نفسه عنه..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ فيجازي كلَّ عامل بعمله..

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبةً يعتقها، بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها..

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ (فـ) عليه ﴿ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ الصيام..

﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ إمَّا بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين.. وإما بأن يطعم كلَّ مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره، مما يجزي في الفطرة، كما هو قول طائفة أخرىٰ..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي بيَّنَّاه لكم، ووضحناه لكم..

﴿لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام، والعمل به.. فإنَّ التزام أحكام الله، والعمل بها من الإيمان، بل هي المقصودة، ومما يزيد به الإيمان ويكمل وينمو..

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدىٰ ولا يقصر عنها..

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة:١-٤]..

في هذه الآيات عدة أحكام

١- منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم.. حيث ذكر شكوىٰ هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوىٰ، بل رفع البلوىٰ بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

٢- ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة.. لأن الله قال: ﴿ مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ ، فلو حرَّم أَمَتَه لم يكن ذلك ظِهارًا، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

٣- ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار.. كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علقه.

٤- ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سمَّاه ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾.

٥- ومنها: تنبيه الله علىٰ وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾.

٦- ومنها: أنه يُكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميها باسم محارمه، كقوله (يا أمي)، (يا أختي) ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

٧- ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لِمَا قال المظاهر، علىٰ اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

٨- ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرقبة الصغير والكبير، والذكر والأنثىٰ، لإطلاق الآية في ذلك.

٩- ومنها: أنه يجب إخراجها إن كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله.. بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

١٠- ومنها: أنَّه لعلَّ الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أنَّ ذلك أدعىٰ لإخراجها، فإنَّه إذا اشتاق إلىٰ الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

١١- ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ [المجادلة:٥]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ محادة الله ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصاً في الأمور الفظيعة، كمحادة الله ورسوله بالكُفر، ومعاداة أولياء الله..

﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أُذلُّوا وأُهينوا كما فَعَل بمن قبلهم، جزاءً وفاقاً، وليس لهم حجة علىٰ الله.. فإنَّ الله قد قامت حجته البالغة علىٰ الخلق..

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين..

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بها..

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ [المجادلة:٥] يهينهم ويذلهم، كما تكبَّروا عن آيات الله، أهانهم الله وأذلهم.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة:٦]

يقول الله تعالىٰ..

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ فيقومون من أجداثهم سريعا، فيجازيهم بأعمالهم..

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ من خير وشر؛ لأنه علم ذلك..

﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا.. والعاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصىٰ ذلك..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة:٦] بالظواهر والسرائر، والخبايا والخفايا.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة:٧]

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.. وأنه..

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ والمراد بهذه المعية: معية العلم والإحاطة بما تناجوا به، وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة:٧].. ثم قال تعالىٰ..

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة:٨-٩]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ النجوىٰ هي: التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.. فالفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.. قال تعالىٰ..

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يسيئون الأدب معك في تحيتهم لك..

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يسرون في أنفسهم ما ذَكَره عالمُ الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم..

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ومعنىٰ ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم أن ما يقولون غير محذور.. قال تعالىٰ في بيان أنه يمهل ولا يهمل..

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ تكفيهم جهنم التي جمعت كلَّ شقاء وعذاب عليهم، تحيط بهم، ويُعذَّبون بها..

﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨﴾..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ﴾ فأمر الله تعالىٰ المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق لله ولعباده..

﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي هنا: اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة:٨-٩] فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه.. والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

🕮 الفـوائـد

هؤلاء المذكورون:

إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرا، وهم كذبة في ذلك..

وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلَّموا علىٰ النبيَّ ﷺ، قالوا: (السام عليك يا محمد)[(١)]، يعنون بذلك الموت.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة:١٠]

يقول تعالىٰ..

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء..

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الَّذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد..

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده..

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ فإنَّ الله تعالىٰ وعد المؤمنين بالكفاية والنصر علىٰ الأعداء، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾ [فاطر:٤٣].. فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا، فإنَّ ضرر ذلك عائد إلىٰ أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة:١٠] ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده، فإنَّ من توكل علىٰ الله كفاه، وتولىٰ أمر دينه ودنياه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١﴾ [المجادلة:١١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين..

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾ إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم،

---

(١) أخرجه مسلم [٢١٦٥] وغيره من حديث عائشة.

واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسُّح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له، تحصيلًا لهذا المقصود.. وليس ذلك بضار للجالس شيئًا، فيحصل مقصود أخيه، من غير ضرر يلحقه هو..

﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ والجزاء من جنس العمل، فإنَّ من فسَّح، فسَّح الله له، ومن وسَّع لأخيه، وسَّع اللهُ عليه..

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض..

﴿فَٱنشُزُواْ﴾ فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإنَّ القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان..

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ والله تعالىٰ يرفع أهل العلم والإيمان درجات، بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة:١١] فيجازي كلَّ عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

🕮 الفـوائـد

في هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة:١٢-١٣]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ يأمر تعالىٰ المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ؛ تأديبـًا لهم، وتعليمـًا، وتعظيمـًا للرسول ﷺ..

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ فإنَّ هذا التعظيم، خير للمؤمنين..

﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي

من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها.. فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته، صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً علىٰ الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق علىٰ الرسول.. هذا في الواجد للصدقة..

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾ وأما الذي لا يجد الصدقة..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة، بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها..

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ ثمَّ لمَّا رأىٰ تبارك وتعالىٰ شفقة المؤمنين، ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة.. وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم [١] من باب المشروع لغيره، ليس مقصودًا لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له.. وأمرهم تعالىٰ أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال..

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً علىٰ العبد، ولهذا قيده بقوله..

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ عفا لكم عن ذلك..

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها..

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلىٰ مستحقيها.. وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما علىٰ الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده.. ولهذا قال بعده..

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.. **ويدخل في ذلك:** طاعة الله وطاعة رسوله بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله.. والعبرة في ذلك علىٰ الإخلاص والإحسان، ولهذا قال..

---

(١) يعني: الصدقة لمناجاة الرسول ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٣﴾ [المجادلة:١٢-١٣] فيعلم تعالىٰ أعمالهم، وعلىٰ أي وجه صدرت، فيجازيهم علىٰ حسب علمه بما في صدورهم.

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٥ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٧ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ۝١٨ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجادلة:١٤-١٩]

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ يخبر تعالىٰ عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارىٰ وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفىٰ نصيب..

﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء:١٤٣].. فليسوا مؤمنين ظاهرًا وباطنـًا لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنـًا، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وَصفُهُم الذي نعتهم الله به..

﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ والحال أنهم يحلفون علىٰ ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون..

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤﴾ أنَّهم ليسوا مؤمنين..

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكَذَبة، أنَّ الله أعدَّ لهم عذابـًا شديدًا، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه..

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٥﴾ حيث عملوا بما يسخط الله ويوجب عليهم العقوبة واللعنة..

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ ترسا ووقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين..

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله.. وهي الصراط الذي من سلكه أفضىٰ به إلىٰ جنات النعيم.. ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلىٰ الجحيم..

﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي، الذي لا يفتر عنهم ساعة ولا هم ينظرون..

﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ فلا تدفع عنهم شيئـًا من العذاب، ولا تحصل لهم قسطا من الثواب..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و..

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾..

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ ومن عاش علىٰ شيء مات عليه.. فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون علىٰ المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم اللهُ جميعـًا، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين..

﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾ في حلفهم هذا..

﴿أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئـًا فشيئـًا، حتىٰ غرتهم وظنوا أنهم علىٰ شيء يعتد به، ويُعلَّق عليه الثواب..

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج علىٰ عالم الغيب والشهادة..

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ وهذا الذي جرىٰ عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولىٰ عليهم، وزين لهم أعمالهم..

﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [المجادلة:١٤-١٩] الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة:٢٠-٢١]

هذا وعد ووعيد..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة..

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ ووعد لمن آمن به، وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة.. وهذا وعد لا يخلف ولا يغير..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة:٢٠-٢١] فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة:٢٢]

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لا يجتمع هذا وهذا.. فلا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملًا علىٰ مقتضىٰ الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه..

﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ وهذا هو الإيمان علىٰ الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وأهل هذا الوصف هم الذين..

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك..

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني..

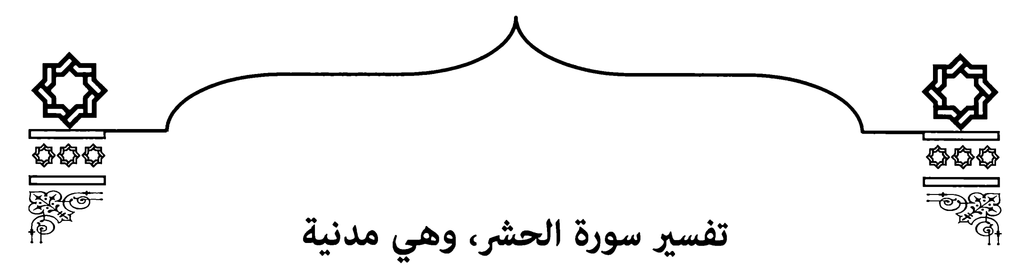
﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كلِّ ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختار..

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات، بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة:٢٢].. وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُواد لأعداء الله، مُحب لمن ترك الإيمان وراء ظهره، فإنَّ هذا إيمانٌ زعمي لا حقيقة له، فإنَّ كلَّ أمرٍ لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوىٰ، لا تفيد شيئًا ولا يُصدَّق صاحبها.

تم تفسير (قد سمع الله)، بحمد الله وعونه وتسديده

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وسلم تسليما



تفسير سورة الحشر، وهي مدنية

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣﴾ [الحشر:١-٣]

هذه السورة تسمىٰ (سورة بني النضير)..

وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ..

فلما بُعث النبيُّ ﷺ، وهاجر إلىٰ المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود..

فلما هَاجَر النبيُّ ﷺ إلىٰ المدينة هادن سائرَ طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة..

فلما كان بعد وقعة (بدر) بستة أشهر أو نحوها، خَرَج إليهم النبي ﷺ، وكلَّمهم أن يعينوه في دية (الكلابيين) الذين قتلهم (عمرو بن أمية الضمري)..

فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتىٰ نقضي حاجتك..

فخلا بعضهم ببعض، وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كُتِب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحىٰ فيصعد فيلقيها علىٰ رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم (عمرو بن جحاش): أنا..

فقال لهم (سلام بن مشكم): لا تفعلوا، فوالله ليخبَرنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه..

وجاء الوحي علىٰ الفور إليه من ربه، بما همُّوا به، فنهض مسرعـًا، فتوجه إلىٰ المدينة، ولحقه أصحابُه.. فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همَّت يهودٌ به..

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».. فأقاموا أياما يتجهزون..

وأرسل إليهم المنافق (عبد الله بن أبي بن سلول): أن لا تخرجوا من دياركم، فإنَّ معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم (قريظة) وحلفاؤكم من (غطفان)..

وطمع رئيسهم (حيي بن أخطب) فيما قال له، وبعث إلىٰ رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك..

فكبَّر رسولُ الله صلىٰ عليه وسلم وأصحابه، ونهضوا إليهم، و(علي بن أبي طالب) يحمل اللواء..

فأقاموا علىٰ حصونهم يرمون بالنَبل والحجارة، واعتزلتهم (قريظة)، وخانهم (ابن أبي) وحلفاؤهم من (غطفان)، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرَّق..

فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة..

فأنزَلَهم علىٰ أن يخرجوا منها بنفوسهم، وذراريهم، وأنَّ لهم ما حملت إبلُهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ، الأموال والسلاح..

وكانت (بنو النضير)، خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمِّسها؛ لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب..

وأجلاهم إلىٰ (خيبر) وفيهم (حيي بن أخطب) كبيرهم..

واستولىٰ علىٰ أرضهم وديارهم، وقبض السلاح..

فوجد من السلاح خمسين درعـًا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفـًا..

هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير..

ففتتح تعالىٰ هذه السورة بـ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي..

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضىٰ حكمته..

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ ومن ذلك، نصرُ اللهِ لرسوله ﷺ، علىٰ الذين كفروا من أهل الكتاب من (بني النضير) حين غَدَروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي أَلِفُوها وأحبُّوها..

﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم علىٰ يد رسوله محمد ﷺ.. فجلوا إلىٰ خيبر.. ودلت الآية الكريمة أن لهم حشرًا وجلاءً غير هذا.. فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرج بقيتهم منها..

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون..

﴿أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ﴾ من ديارهم، لحصانتها، ومنعتها، وعزهم فيها..

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدَر الله تعالىٰ وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.. ولهذا قال..

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ﴾ أي: من الأمر والباب الذي لم يخطر ببالهم أن يُؤتوا منه، وهو أنه تعالىٰ قذف في قلوبهم الرعب..

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عَدد ولا عُدة، ولا قوة ولا شدة.. فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أنَّ الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها.. ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلىٰ غير الله فهو عليه وبال.. فأتاهم أمرٌ سماوي نزل علىٰ قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف.. فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفًا وخَوَرًا وجُبنًا، لا حيلة لهم ولا منعة معه، فصار ذلك عونًا عليهم، ولهذا قال..

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ، على أن لهم ما حملت الإبل.. فنقضوا لذلك كثيرًا من سقوفهم، التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين - بسبب بغيهم- علىٰ إخراب ديارهم وهدم حصونهم.. فهم الذين جنوا علىٰ أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها..

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإنَّ في هذا معتَبرًا يُعرَف به صنعَ الله تعالىٰ في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم..

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.. فإنَّ هذه الآية تدل علىٰ الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء علىٰ مثله، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة..

وبذلك يزداد العقل، وتتنور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي.. ثم أخبر تعالىٰ أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأنَّ الله خفف عنهم..

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدَّره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير..

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها..

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣﴾ [الحشر:١-٣] ولكنهم -وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي- فإنَّ لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالىٰ.. فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت، ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ

أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٤-٩]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ وذلك لأنهم..

﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ﴾ وعادوهما وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما.. وهذه عادته وسنته فيمن شاقه..

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.. ولمَّا لام بنو النضير رسولَ الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك إلىٰ الطعن بالمسلمين، أخبر تعالىٰ..

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالىٰ، وأمره..

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ حيث سلطكم علىٰ قطع نخلهم، وتحريقها، ليكون ذلك نكالًا لهم، وخزيـًا في الدنيا، وذُلًا يُعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا علىٰ استنقاذ نخلهم، الذي هو مادة قوتهم.. واللينة: اسم يشمل سائر النخيل علىٰ أصح الاحتمالات وأولاها.. فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا.. ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم، فقال..

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير..

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ (ف) إنكم يا معشر المسلمين ﴿مَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ أي: ما أجلبتم وأسرعتم وحشدتم..

﴿عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتتكم صفوا عفوا، ولهذا قال..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه ممتنع، ولا يتعزز من دونه قوي.. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي فروا وتركوه خوفا من المسلمين.. وسمي فيئًا، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له إلىٰ المسلمين الَّذين لهم الحق الأوفر فيه.. وحكمه العام، كما ذكره الله في قوله..

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ عمومـًا، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولىٰ من بعده أمته..

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال، في قوله: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].. **فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله ولرسوله**: يصرف في مصالح المسلمين العامة.. **وخمس لذوي القربىٰ**:، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسوىٰ فيه بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خُمس الخُمس، مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش علىٰ هجرهم وعداوتهم، فنصروا رسول الله ﷺ، بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ، في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».. **وخمس لفقراء اليتامىٰ**: وهم: من لا أب له ولم يبلغ.. **وخمس للمساكين.. وسهم لأبناء السبيل**: وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم.. وإنما قدَّر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ..

﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ أي: مداولة واختصاصـًا..

﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ﴾ فإنَّه لو لم يقدره لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولمَّا حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء.. وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله.. كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال..

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه.. وأن ما جاء به الرسول يتعين علىٰ العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته.. وأن نص الرسول علىٰ حكم الشيء كنص الله تعالىٰ، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه.. ولا يجوز تقديم قول أحد علىٰ قوله.. ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح والدنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ علىٰ من ترك التقوىٰ، وآثر اتباع الهوىٰ..

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ ثم ذكر تعالىٰ الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالىٰ الأموال -أموال الفيء- لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم.. وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال..

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ رغبة في الله ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضىٰ إيمانهم.. وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة.. بخلاف من ادعىٰ الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات..

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وبين أنصار وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعا ومحبة واختيارا، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود.. وتبوأوا دار الهجرة والإيمان، حتىٰ صارت موئلا ومرجعا يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون، إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر..

فلم يزل أنصار الدين تأوي إلىٰ الأنصار، حتىٰ انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئا شيئا فشيئا، وينمو قليلا قليلا، حتىٰ فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.. الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم..

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه..

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ لا يحسدون المهاجرين علىٰ ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها.. وهذا يدل علىٰ سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.. ويدل ذلك علىٰ أن **المهاجرين أفضل من الأنصار**، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدلَّ علىٰ أن الله تعالىٰ آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة..

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها علىٰ من سواهم، الإيثار.. وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة.. وهذا لا يكون إلا من خُلُقٍ زكي، ومحبة لله تعالىٰ مقدَّمة علىٰ محبة شهوات النفس ولذاتها.. ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين آثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعـًا.. والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رُزِق الإيثار فقد وُقِيَ شُحَّ نفسه..

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أُمِر به..

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٤-٩] فإنَّه إذا وُقِي العبدُ شُحَّ نفسه سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعـًا منقادًا، منشرحـًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهىٰ الله عنه، وإن كان محبوبـًا للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته.. وبذلك يحصل الفلاح والفوز.. بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته.. فهذان الصنفان الفاضلان

الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر:١٠-١٣]

وحَسبُ من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم، ويأتمّ بهداهم.. ولهذا ذَكَر الله من اللاحقين، من هو مؤتم بهم وسائرٌ خلفَهم.. فقال..

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المهاجرين والأنصار..

﴿يَقُولُونَ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين..

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين السابقين من الصحابة، ومَن قبلهم، ومَن بعدهم.. وهذا من فضائل الإيمان، أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضا..

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.. فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم ﴿سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ دليل على المشاركة في الإيمان، وأنهم تابعون للصحابة في

عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يَصدُق هذا الوصف التام إلا عليهم.. ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض.. واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين.. لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرا وغائبا، حيا وميتا.. ودلت الآية الكريمة علىٰ أن هذا من جملة **حقوق المؤمنين بعضهم لبعض**..

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ ثمْ ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين علىٰ كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجلِّه، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.. **فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة**، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلىٰ مصالح الإسلام.. وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.. ثم تعجب تعالىٰ من حال المنافقين..

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم، وموالاتهم علىٰ المؤمنين، وأنهم..

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ لا نطيع في عدم نصرتكم أحدًا يعذلنا أو يخوفنا..

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾..

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم.. ولا يستكثر هذا عليهم، فإنَّ الكذب وَصفُهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذَّبهم الله بقوله الذي وُجِد مَخبرُه كما أَخبر الله به، ووقع طِبقَ ما قال، فقال..

﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ﴾ من ديارهم جلاءً ونفياً..

﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدمِ صبرهم علىٰ القتال، وعدمِ وفائهم بوعدهم..

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوجَ ما كانوا إليهم..

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير..

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ ليحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة..

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢﴾ ولا يحصل لهم نصر من الله..

﴿لَأَنتُمْ﴾ والسبب الذي أوجب لهم ذلك أنكم - أيها المؤمنون -..

﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدَّموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣﴾ [الحشر:١٠-١٣] مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعًا لها.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٧﴾ [الحشر:١٤-١٧]

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ في حال الاجتماع..

﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ لا يثبتون لقتالكم ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.. فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتمادا على حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم..

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال..

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين..

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ ولكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متباغضة متفرقة متشتتة..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذُكِر..

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ لا عقل عندهم، ولا لب.. فإنهم لو كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل على المفضول.. ولمَّا رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.. مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزيَ في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة..

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨] الآية..

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم، ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا (بدرا) بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.. فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفرَّ من فر..و..

﴿ذَاقُوا﴾ بذلك..

﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا..

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة..

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ عذاب النار.. ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب..

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ زين له الكفر وحسَّنه ودعاه إليه..

﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان، الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه.. بل تبرأ منه، و..

﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير..

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ الداعي الذي هو الشيطان.. والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه..

﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]..

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ [الحشر:١٤-١٧] الذين اشتركوا في الظلم والكفر.. وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه.. فإنَّه يدعوهم ويدليهم إلىٰ ما يضرهم بغرور، حتىٰ إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلىٰ عنهم.. واللوم كل اللوم علىٰ من أطاعه، فإنَّ الله قد حذَّر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدِم علىٰ طاعته عاص علىٰ بصيرة لا عذر له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر:١٨-٢١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يأمر تعالىٰ عبادَه المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه، من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال.. وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده..

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ وينظروا ما لهم وما عليهم.. وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة.. فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير، أو تعوقهم أو تصرفهم..

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ وإذا علموا أيضـاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفىٰ عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد..



﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا علىٰ حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا علىٰ طائل..

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فُرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضعوا في معاصيه..

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ فهل يستوي من حافظ علىٰ تقوىٰ الله ونظر لِمَا قدَّم لِغَدِه، فاستحقَّ جنات النعيم، والعيش السليم، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن ذِكرِ الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة..

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.. ولما بيَّن تعالىٰ لعباده ما بيَّن، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلىٰ ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي..

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ هذا القرآن لو أنزله علىٰ جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإنَّ مواعظ القرآن أعظم المواعظ علىٰ الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية علىٰ الحِكَم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء علىٰ النفوس، وأيسرها علىٰ الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد..

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أخبر تعالىٰ أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام..

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:١٨-٢١] لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإنَّ التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه علىٰ مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق.. فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

📖 **الفـوائـد**

هذه الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ.. ﴿١٨﴾﴾ أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها..

فإن رأىٰ زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه.. وإن رأىٰ نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه..

ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]

هذه الآيات الكريمات قد اشتملت علىٰ كثير من أسماء الله الحسنىٰ وأوصافه العلىٰ، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان..

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا..

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه..

﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾ وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلىٰ كل حي..

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها..

﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليك لله، فقراء مدبرون..

﴿ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل علىٰ التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله..

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات..

﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾..

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالَب ولا يمانَع، بل قد قهر كلَّ شيء، وخضع له كلُّ شيء..

﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير..

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور..

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده..

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات..

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ للمبروءات..

﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ للمصورات.. وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأنَّ ذلك كلَّه قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك..

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ له الأسماء الكثيرة جدًا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحدٌ إلا الله هو.. ومع ذلك، فكلها حسنىٰ، أي: صفات كمال، بل تدل علىٰ أكمل الصفات

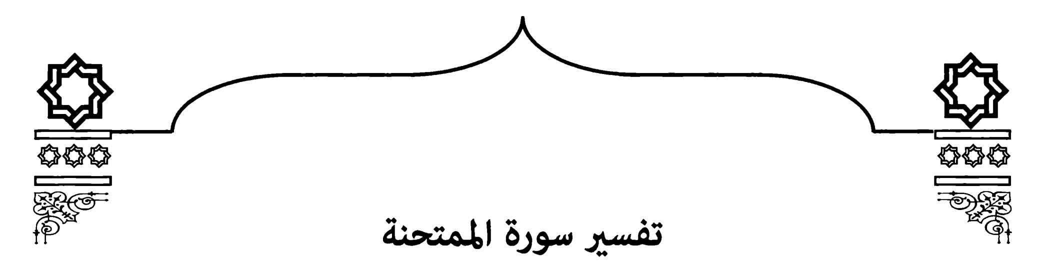
وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه.. ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها..

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه علىٰ الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] الذي لا يريد شيئًا إلا ويكون، ولا يكون شيئًا إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة (الحشر)، فلله الحمد علىٰ ذلك، والمنة والإحسان





تفسير سورة الممتحنة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة:١-٥]

ذَكَر كثيرٌ من المفسرين رحمهم الله ، أنَّ سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة (حاطب بن أبي بلتعة)، حين غزا النبي ﷺ (غزوة الفتح)، فكتب (حاطب) إلىٰ قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يدًا عندهم، لا شكًّا ونفاقـًا..

وأرسله مع امرأة..

فأُخبر النبيُّ ﷺ بشأنه..

فأرسل إلىٰ المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب..

وعاتب حاطباً، فاعتذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعذر قَبِله النبيُّ ﷺ..

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأنَّ ذلك منافٍ للإيمان، ومخالفٍ لملَّة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كلَّ الحذر من العدوِّ، الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلىٰ عدوه، فقال تعالىٰ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اعملوا بمقتضىٰ إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين.. ف..

﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ لا تتخذوا عدو الله.. تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها.. فإنَّ المودة إذا حصلت تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.. وهذا المتخذ الكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنَّه كيف يوالي أعدىٰ أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربَّه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟!

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ ومما يدعو المؤمن أيضاً إلىٰ معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال علىٰ غير هدىٰ.. والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن ردَّ الحقَّ فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل علىٰ صحة قوله، بل مجرد العلم بالحقِّ يدل علىٰ بطلان قول من رده وفساده.. ومن عداوتهم البليغة أنهم..

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم..

﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنَّكم تؤمنون بالله ربِّكم.. الذي يتعيَّن علىٰ الخَلق كلِّهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالىٰ.. فلما أعرضوا عن هذا الأمر -الذي هو أوجب الواجبات- وقمتم به، عادوكم، وأخرجوكم -من أجله- من دياركم، فأي دين وأي مروءة وعقل يبقىٰ مع العبد إذا والىٰ الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي..

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله..

﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ وابتغاء مرضاة الله.. فاعملوا بمقتضىٰ هذا من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه.. فإن هذا هو الجهاد في سبيله، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلىٰ ربهم ويبتغون به رضاه..

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي علىٰ المؤمنين، فلا يخفىٰ علىٰ الله تعالىٰ، وسيجازي العبادَ بما يعلمه منهم من الخير والشر..

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: موالاة الكافرين بعد ما حذَّركم الله منها..

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ لأنه سلك مسلكـًا مخالفـًا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.. ثم بيَّن تعالىٰ شدَّة عداوتهم، تهييجا للمؤمنين علىٰ عداوتهم..

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: يجدوكم، وتسنح لهم الفرصة في أذاكم..

﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ظاهرين..

﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب، ونحو ذلك..

﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره..

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ فإنَّ هذا غاية ما يريدون منكم.. فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئا..

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم..

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ قد كان لكم يا معشر المؤمنين..

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة صالحة وائتمام ينفعكم..

﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أُمِرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا..

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.. ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا..

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾..

﴿وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان..

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ البغض بالقلوب، وزوال مودتها.. والعداوة بالأبدان.. وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك..

﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم مستمرين علىٰ كفركم..

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية.. فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته.. وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده..

﴿إِلَّا﴾ في خصلة واحدة وهي..

﴿قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر المشرك، الكافر، المعاند، حين دعاه إلىٰ الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم..

﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾..

﴿وَمَا﴾ والحال أني لا..

﴿أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لكني أدعو ربي، عسىٰ أن لا أكون بدعاء ربي شقيا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذَكَرَ عُذرَ إبراهيم في ذلك بقوله ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].. ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دَعوا اللهَ وتوكَّلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا..

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا عليك في جَلبِ ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، وَوَثِقنا بك يا ربَّنا في ذلك..

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ رجعنا إلىٰ طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك

ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون..

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ ونعلم أنَّا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفىٰ إليك..

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان.. ويُفتنون أيضـًا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم علىٰ الحق وأنا علىٰ الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا..

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات..

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء..

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة:١-٥] الذي يضع الأشياء مواضعها.. فبعزتك وحكمتك انصرنا علىٰ أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة:٦-٩]

ثمَّ كرر الحثَّ لهم علىٰ الاقتداء بهم، فقال..

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل..

﴿لِّمَن﴾ علىٰ من..

﴿كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ فإنَّ الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يُسهِّل علىٰ العبد كلَّ عسير، ويقلل لديه كلَّ كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرىٰ نفسه مفتقرا ومضطرا إلىٰ ذلك غاية الاضطرار..

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنىٰ التام المطلق من جميع الوجوه.. فلا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه بوجه..

﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنَّه محمود علىٰ ذلك كله.. ثم أخبر تعالىٰ أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنَّهم ما داموا علىٰ شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلىٰ الإيمان، فإنَّ الحكم يدور مع علته، فإنَّ المودة الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون، من رجوعهم إلىٰ الإيمان، فـ..

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلىٰ الإيمان..

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ علىٰ كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلىٰ حال..

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر:٥٣].. وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلىٰ إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.. ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة علىٰ عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كلَّ موقع، وقاموا بها أتمَّ القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهىٰ الله عنه.. فأخبرهم اللهُ أنَّ ذلك لا يدخل في المحرَّم فقال..

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط..

﴿عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ للمشركين من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم.. فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا مفسدة، كما قال تعالىٰ عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلما ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان:١٥]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾..

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به..

﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟﴾ عاونوا غيرهم..

﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ نهاكم الله..

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل.. وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بتول للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلىٰ الأقارب وغيرهم من الآدميين، وغيرهم..

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة:٦-٩] وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان توليًا تامًا صار ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام.. وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [الممتحنة:١٠-١١]

لما كان صلح الحديبية.. صالح النبيُّ ﷺ المشركين، علىٰ أن من جاء منهم إلىٰ المسلمين مسلمًا، أنه يُردُّ إلىٰ المشركين، وكان هذا لفظًا عامًا مطلقًا، يدخل في عمومه النساء والرجال، فأمَّا الرجال فإنَّ الله لم ينه رسوله عن ردهم، إلىٰ المشركين وفاء بالشرط وتتميما للصلح الذي هو من أكبر المصالح.. وأما النساء: فلمَّا كان ردهن فيه مفاسد كثيرة..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أمرَ اللهُ المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها.. فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق، بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.. فإن كن بهذا الوصف، تعيَّن ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة..

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾..

﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ وإن امتحنوهن فوجِدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان..

﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾..

فهذه مفسدة كبيرة في ردهن، راعاها الشارع..

﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾..

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ وراعىٰ أيضـًا الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضـًا عنهن..

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ولا جناح حينئذ علىٰ المسلمين أن ينكحوهن، ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط..

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة.. وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت علىٰ كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ وإذا نهىٰ عن الإمساك بعصمتها فالنهي عن ابتداء تزويجها أولىٰ..

﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلىٰ الكفار..

﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم إلىٰ الكفار.. وفي هذا دليل علىٰ أن خروج البُضع من الزوج متقوِّم، فإذا أفسد مُفسدٌ نكاحَ امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر..

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الحكم الذي ذَكَره اللهُ وبيَّنه لكم..

﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ﴾ يحكم به بينكم..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ فيعلم تعالىٰ ما يصلح لكم من الأحكام.. ويُشرِّع لكم ما تقتضيه الحكمة..

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن مرتدات..

﴿فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ كما تقدَّم أنَّ الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلىٰ المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلىٰ الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق..

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الممتحنة:١٠-١١] فإيمانكم بالله، يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوىٰ علىٰ الدوام.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢]

هذه الشروط المذكورة في هذه الآية، تسمىٰ (مبايعة النساء) اللاتي كن يبايعن علىٰ إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب علىٰ الذكور والنساء في جميع الأوقات.. **وأما الرجال**: فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم..

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ فكان النبي ﷺ يمتثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين..

﴿عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ بأن يفردن الله وحده بالعبادة..

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾..

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كما كان ذلك موجودًا كثيرًا في البغايا وذوات الأخدان..

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء..

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والبهتان: الافتراء علىٰ الغير، أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم..

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ لا يعصينك في كلِّ أمر تأمرهن به؛ لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن لك في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخمش الوجوه، والدعاء بدعاء الجاهلية..

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذُكِر..

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عن تقصيرهن، وتطييباً لخواطرهن..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلىٰ المذنبين التائبين..

﴿رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢] وسعت رحمته كلَّ شيء، وعمَّ إحسانه البرايا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة:١٣]

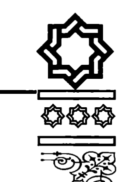
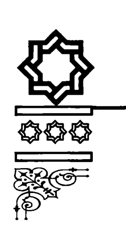
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه..

﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار..

﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ قد حُرِموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم علىٰ شرهم وكفرهم، فتُحرموا خير الآخرة كما حُرِموا..

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة:١٣] حين أفضوا إلىٰ الدار الآخرة، ووقفوا علىٰ حقيقة الأمر، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها.. **ويحتمل أن المعنىٰ**: قد يئسوا من الآخرة، أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام علىٰ مساخط الله، وموجبات عذابه، وإياسهم من الآخرة، كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا، من رجوع أصحاب القبور إلىٰ الله تعالىٰ.

تم تفسير سورة (الممتحنة) والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة (الصف)، وهي مدنية

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف:١-٣]

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هذا بيان لعظمته تعالىٰ وقهره، وذل جميع الخلق له تبارك وتعالىٰ.. وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه..

﴿ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ في خلقه وأمره..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به، وأنتم لا تفعلونه.. وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به.. فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟! أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟!

﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف:١-٣] ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالىٰ: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة]، وقال شعيب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود:٨٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصف:٤]

هذا حث من الله لعباده علىٰ الجهاد في سبيله، وتعليم لهم كيف يصنعون..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ وأنه ينبغي لهم أن يُصَفُّوا في الجهاد صفـًا متراصًّا متساويـًا، من غير خلل يقع في الصفوف..

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف:٤] وتكون صفوفهم علىٰ نظام وترتيب، به تحصل: المساواة بين المجاهدين.. والتعاضد.. وإرهاب العدو.. وتنشيط بعضهم بعضـًا.. ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال صفَّ أصحابه، ورتَّبهم في مواقفهم.. بحيث لا يحصل اتكال بعضهم علىٰ بعض، بل تكون كلُّ طائفة منهم مهتمة بمركزها، وقائمة بوظيفتها.. وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:٥]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ موبخـًا لهم علىٰ صنيعهم، ومقرِّعـًا لهم علىٰ أذيته، وهم يعلمون أنه رسول الله..

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالأقوال والأفعال..

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد بأوامره، والابتدار لحكمه.. وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلىٰ الخلق فوق كل إحسان، بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة، والزيغ عن الصراط المستقيم، الَّذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال..

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ انصرفوا عن الحقِّ بقصدهم..

﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبةً لهم علىٰ زيغهم الَّذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدىٰ؛ لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:٥] الَّذين لم يزل الفسق وصفـًا لهم، لا لهم قصد في الهدىٰ..

📖 **الفـوائـد**

هذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده ليس ظلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا علىٰ أنفسهم باب الهدىٰ بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلًا منه بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف:٦-٩]

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ يقول تعالىٰ مخبراً عن عِناد بني إسرائيل المتقدِّمين، الّذين دعاهم عيسىٰ ابن مريم، وقال لهم..

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أرسلني الله لأدعوكم إلىٰ الخير وأنهاكم عن الشر، وأيّدني بالبراهين الظاهرة ، ومما يدلُّ علىٰ صدقي، كوني..

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ جئت بما جاء به موسىٰ من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدَّعياً للنبوة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدِّقاً لما بين يديَّ من التوارة أيضاً، أنَّها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها..

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.. فعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كالأنبياء يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي..

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسىٰ..

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الأدلة الواضحة، الدالة علىٰ أنه هو، وأنه رسول الله حقـًا..

﴿قَالُواْ﴾ معاندين للحق مكذبين له..

﴿هَٰذَا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته، وصارت أبين من شمس النهار، يجعل ساحرا بيِّنًا سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟! وهل في الافتراء أعظم من هذا الافتراء، الذي نفىٰ عنه ما كان معلومـًا من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟!

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بهذا وغيره..

﴿وَهُوَ﴾ والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه..

﴿يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ ويبين له ببراهينه وبيناته..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ الذين لا يزالون علىٰ ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصـًا هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم..

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردون بها الحق، وهي لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل..

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ قد تكفَّل اللهُ بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة نوره علىٰ سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهتهم كلَّ سبب يتوصلون به إلىٰ إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.. وصاروا بمنزلة من ينفخ عين الشمس بفيه ليطفئها، فلا علىٰ مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.. ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال..

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.. بالعلم الذي يهدي إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلىٰ مصالح الدنيا والآخرة..

﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين، الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة

من الشر والفساد.. فما بعث به النبي ﷺ من الهدىٰ ودين الحق أكبر دليل وبرهان علىٰ صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد العاقل تفكرا، ازداد به فرحـًا وتبصرا..

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه علىٰ سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان..

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف:٦-٩]..

📖 الفـوائـد

هذا الوصف ملازم لنفس الدين في كل وقت..

فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر..

وأما المنتسبون إليه: فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا علىٰ أهل الأديان..

وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم..

ويعرف هذا من استقرأ الأحوال، ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ [الصف:١٠-١٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلىٰ مرغوب..

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.. وأتىٰ بأداة العرض الدالة علىٰ أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال..

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجلِّ أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله، فلهذا قال..

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ ﴾ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم، لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإنَّ ذلك ولو كان كريها للنفوس شاقـًا عليها، فإنه..

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾ فإنَّ فيه الخير الدنيوي، من النصر علىٰ الأعداء، والعزِّ المنافي للذلِّ والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه.. وفي الآخرة الفوز بثواب الله، والنجاة من عقابه، ولهذا ذَكَرَ الجزاء في الآخرة، فقال..

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإنَّ الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر..

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها.. أنهار من ماء غير آسن.. وأنهار من لبن لم يتغير طعمه.. وأنهار من خمر لذة للشاربين.. وأنهار من عسل مصفىٰ، ولهم فيها من كل الثمرات..

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ﴾ جمعت كلَّ طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة..

حتىٰ إنَّ أهل الغرف من أهل عليين يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءىٰ الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي..

وحتىٰ إنَّ بناء الجنة بعضه من لبن ذهب وبعضه من لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتىٰ إنها من صفائها يرىٰ ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها..

وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر علىٰ قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتىٰ يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به..

ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح..

فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده..

وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم..

وتعالىٰ من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أنه الله لو أرىٰ الخلائق الجنة حين خلقها ونظروا إلىٰ ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وسرورها بترحها..

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدا، ولا يبغون عنها حِوَلًا..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الثواب الجزيل، والأجر الجميل..

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.. وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله..

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ويحصل لكم خصلة أخرىٰ تحبونها وهي..

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم علىٰ الأعداء، يحصل به العز والفرح..

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع.. فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين.. وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، إذا قام غيرهم بالجهاد فلم يؤيسهم الله تعالىٰ من فضله وإحسانه، بل قال..

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ بالثواب العاجل والآجل، كل علىٰ حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة ما بين كل

درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[1] ثم قال تعالىٰ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص علىٰ إقامته علىٰ الغير، وجهاد من عانده ونابذه، بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.. ومن نصر دين الله تعلم كتاب الله وسنة رسوله، والحث علىٰ ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ثم هيَّج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله..

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ قال لهم عارضًا ومنهِّضًا..

﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من يعاونني، ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ فابتدر الحواريون، فقالوا..

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ فمضىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين..

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسىٰ والحواريين..

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين..

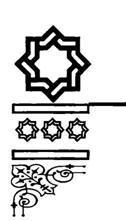
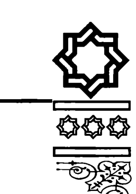
﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ قويناهم ونصرناهم عليهم..

﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف:١٠-١٤] عليهم وقاهرين لهم.. فأنتم يا أمة محمد كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم علىٰ عدوكم.

تمت ولله الحمد

---

(١) أخرجه البخاري، وقد تقدم.

تفسير سورة (الجمعة)، وهي مدنية

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة:١]

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ أي: يسبح لله، وينقاد لأمره، ويتألهه، ويعبده..

﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ﴾ جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه، وتحت تدبيره..

﴿الْقُدُّوسِ﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص..

﴿الْعَزِيزِ﴾ القاهر للأشياء كلها..

﴿الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة:١] في خلقه وأمره.. فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له..

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة:٢-٤]

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب.. فامتن الله تعالىٰ عليهم مِنَّةً عظيمة، أعظم من منته علىٰ غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولًا منهم، يعرفون

نسبَه، وأوصافه الجميلة وصِدقه، وأنزل عليه كتابه..

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين..

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بأن يحثهم علىٰ الأخلاق الفاضلة، ويفصِّلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة..

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ عِلم القرآن وعِلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين..

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقًا، وأحسنهم هديًا وسمتًا، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين، فلله عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ، أكمل نعمة، وأجل منحة..

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ وامتَنَّ علىٰ آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين..

﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم، أي: فيمن باشر دعوة الرسول.. ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل.. ويحتمل أن يكونوا لمَّا يلحقوا بهم في الزمان.. وعلىٰ كُلٍّ، فكِلا المعنيين صحيح.. فإنَّ الذين بعث الله فيهم رسولَه وشاهَدوه وباشَروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحدًا أن يلحقهم فيها..

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده همَلًا ولا سدىٰ، بل ابتعث فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم..

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك، من النعم الدنيوية..

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة:٢-٤] فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة:٥-٨]

لمَّا ذَكَر تعالىٰ منَّته علىٰ هذه الأمة، الذين ابتعث فيهم النبي الأمي، وما خصَّهم اللهُ بِهِ من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحدُ، وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتىٰ أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون.. ذَكَر أنَّ الذين حمَّلهم اللهُ التوراة من اليهود وكذا النصارىٰ، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما فيها، وأنهم لم يحملوها، ولم يقوموا بما حملوا به..

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أنهم لا فضيلة لهم، وأنَّ مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم.. فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟! وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟! أم حظه منها حملها فقط؟! فهذا مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجلِّه وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن.. فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟! فهذا المثل مطابق لأحوالهم..

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ صدق رسولنا وصدق ما جاء به..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ لا يرشدهم إلىٰ مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا..

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم علىٰ باطل، ويزعمون أنهم علىٰ حق، وأنهم أولياء الله من دون

الناس.. ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم علىٰ الحق، وأولياء الله..

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ وهذا أمر خفيف، فإنَّهم لو علموا أنَّهم علىٰ حق لَمَا توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله اللهُ دليلًا علىٰ صدقهم إن تمنوه، وكَذبهم إن لم يتمنوه، ولمَّا لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال..

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من الذنوب والمعاصي، التي يستوحشون من الموت من أجلها..

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ فلا يمكن أن يخفىٰ عليه من ظلمهم شيء..

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون منه غاية الفرار، فإنَّ ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله علىٰ العباد وكتبه عليهم..

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة:٥-٨] ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلىٰ عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ [الجمعة:٩-١١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين ينادىٰ لها، والسعيِ إليها..

والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العَدوُ الذي قد نُهِي عنه عند المُضِيِّ إلىٰ الصلاة..

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ﴾ اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.. فإنَّ..

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من آكد الفروض..

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ أنَّ ما عند الله خير وأبقىٰ، وأنَّ من آثر الدنيا علىٰ الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظنَّ أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة..

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات.. ولمَّا كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال..

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في حال قيامكم وقعودكم وعلىٰ جنوبكم..

﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ فإنَّ الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح..

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ خرجوا من المسجد، حرصاً علىٰ ذلك اللهو، وتلك التجارة، وتركوا الخير..

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ تخطب الناس، وذلك في يوم جمعة، بينما النبي ﷺ يخطب الناس.. إذ قدم المدينة عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها، وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب، استعجالًا لِمَا لا ينبغي أن يُستعجل له، وترك أدب..

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الأجر والثواب، لِمَن لازم الخير وصبَّر نفسه علىٰ عبادة الله..

﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ التي وإن حصل منها بعض المقاصد، فإنَّ ذلك قليلٌ منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر علىٰ طاعة الله مفوتًا للرزق..

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ [الجمعة:٩-١١] فإن الله خير الرازقين، فمن اتقىٰ الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة

١- منها: أن الجمعة فريضة علىٰ جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

٢- ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة، فريضتان يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

٣- ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة، والأمر به.

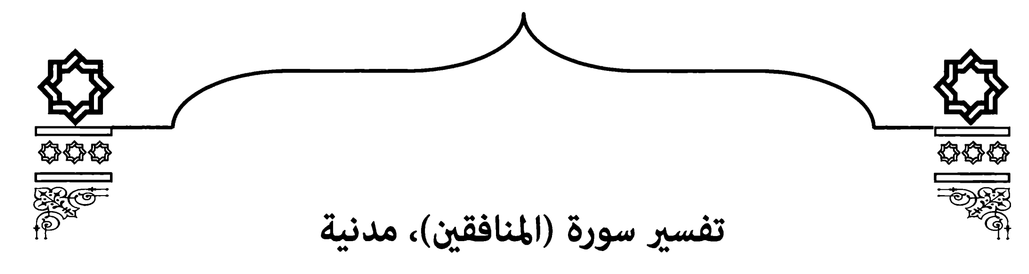
٤- ومنها: النهيٰ عن البيع والشراء، بعد نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك علىٰ أن كل أمر ولو كان مباحًا في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

٥- ومنها: الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

٦- ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل علىٰ عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه علىٰ هواه.

تم تفسير سورة (الجمعة)، ولله الحمد والثناء





تفسير سورة (المنافقين)، مدنية

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون:١-٤]

لمَّا قدِم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها..

صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر..

ليبقىٰ جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم..

فذكر الله من أوصافهم ما به يُعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم علىٰ بصيرة، فقال..

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾ علىٰ وجه الكذب..

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين علىٰ وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله..

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم..

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ ترسًا يتترسون بها من نسبتهم إلىٰ النفاق..

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفىٰ عليه حالهم..

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا علىٰ ذلك وأوهموا صدقهم..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق..

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ (بـ) سبب أنهم لا يثبتون علىٰ الإيمان.. بل..

﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبدًا..

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم..

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها..

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدىٰ الصالح شيء، ولهذا قال..

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض..

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم، يخافون أن يطلع عليهم.. فهؤلاء..

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ علىٰ الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين..

﴿فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون:١-٤] كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبينت أدلته، واتضحت معالمه، إلىٰ الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦﴾ [المنافقون:٥-٦]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المنافقين..

﴿تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و..

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ امتناعًا من طلب الدعاء من الرسول..

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق بغضًا له..

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ عن اتباعه بغيًا وعنادًا، فهذه حالهم عندما يدعون إلىٰ طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم..

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فإنه سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون.. خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر علىٰ الإيمان.. فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦﴾ [المنافقون:٥-٦]..

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:٧-٨]

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ، والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد..

﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ فإنهم - بزعمهم- لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله.. وهذا من أعجب العجب، أن يدعىٰ هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس علىٰ خذلان الدين وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوىٰ، التي لا تروج إلا علىٰ من لا علم له بحقائق الأمور.. ولهذا قال الله ردًا لقولهم..

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها علىٰ من يشاء..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم..

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدَّر الخواطر.. ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم.. وقال كبيرهم (عبد الله بن أبي بن سلول): ما مَثَلُنا ومثل هؤلاء –يعني: المهاجرين– إلا كما قال القائل: (غذ كلبك يأكلك).. وقال: لئن رجعنا إلىٰ المدينة ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾، بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأنَّ رسول الله ومن معه هم الأذلون.. والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال تعالىٰ..

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء..

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:٧-٨] ذلك.. فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغترارًا بما هم عليه من الباطل..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون:٩-١١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة.. وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها علىٰ محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾..

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ يدخل في هذا: النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك.. والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح.. وقال ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة:٢٥٤] ليدل ذلك علىٰ أنه تعالىٰ لم يكلف العباد من النفقة، ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم الله الذي يسره لهم ويسر لهم أسبابه.. فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال..

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ﴾ متحسرًا علىٰ ما فرط في وقت الإمكان، سائلا الرجعة التي هي محال..

﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ لأتدارك ما فرطت فيه..

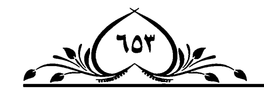
﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب..

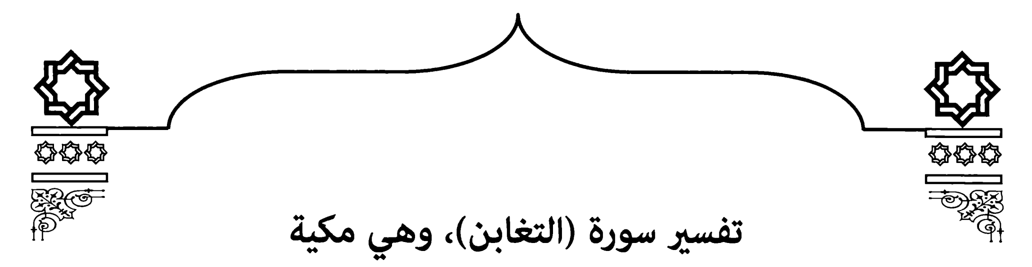
﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال..

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ المحتوم لها..

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾ [المنافقون:٩-١١] من خير وشر، فيجازيكم علىٰ ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة (المنافقين)، ولله الحمد





تفسير سورة (التغابن)، وهي مكية

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن:١-٤]

هذه الآيات الكريمات مشتملات علىٰ جملة كثيرة واسعة من أوصاف الباري العظيمة..

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فذكَر كمال ألوهيته تعالىٰ، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه.. وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها..

﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه..

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ والحمد كله له، حمد علىٰ ما له من صفات الكمال، وحمد علىٰ ما أوجده من الأشياء، وحمد علىٰ ما شرعه من الأحكام، وأسداه من النعم..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده..

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ وذكَر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر.. فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره.. وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢﴾.. فلمَّا ذكَر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خَلق باقي المخلوقات، فقال..

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أجرامهما، وجميع ما فيهما، فأحسن خلقهما..

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بالحكمة، والغاية المقصودة له تعالىٰ..

﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤] فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا..

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم علىٰ إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال..

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة..

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن:١-٤] أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة.. فإذا كان عليمًا بذات الصدور، تعين علىٰ العاقل البصير أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦﴾ [التغابن:٥-٦]

لمَّا ذكر تعالىٰ من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، ويبذل الجهد في مرضاته، وتجتنب مساخطه.. أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضين..

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل بالحق كذبوهم وعاندوهم..

﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها..

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥﴾ في الدار الآخرة.. ولهذا ذَكَرَ السبب في هذه العقوبة، فقال..

﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال والوبال، الذي أحللناه بهم..

﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات الواضحات، الدالة علىٰ الحق والباطل، فاشمأزوا، واستكبروا علىٰ رسلهم..

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ فليس لهم فضل علينا.. ولأي شيءٍ خصَّهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرىٰ ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [إبراهيم:١١]، فهم حَجَروا فضلَ الله ومنته علىٰ أنبيائه أن يكونوا رسلا للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها..

﴿فَكَفَرُواْ﴾ بالله..

﴿وَّتَوَلَّواْۚ﴾ عن طاعة الله..

﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئًا..

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ الذي له الغنىٰ التام المطلق، من جميع الوجوه..

﴿حَمِيدٞ ٦﴾ [التغابن:٥-٦] في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن:٧]

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ يخبر تعالىٰ عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير.. فأمر أشرف خلقه، أن يقسم بربه علىٰ بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق..

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن:٧] فإنه وإن كان عسيرًا بل متعذرًا بالنسبة إلىٰ الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت علىٰ إحياء ميت واحد، ما قدروا علىٰ ذلك.. وأما الله تعالىٰ، فإنه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾ [التغابن:٨]

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ لمَّا ذَكر تعالىٰ إنكار من أنكر البعث، وأنَّ ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته.. أَمر بما يعصم من الهلكة والشقاء، وهو الإيمان بالله

ورسوله وكتابه.. وسماه الله نورًا، فإن النور ضد الظلمة.. ، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدىٰ بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشىٰ بها في حِندس الليل البهيم[1].. وما سوىٰ الاهتداء بكتاب الله فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل.. والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضىٰ ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي..

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾ [التغابن:٨] فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [التغابن:٩]

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ اذكروا يوم الجَمع.. الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلا عظيمًا.. وينبئهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام إلىٰ أعلىٰ عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة علىٰ جميع اللذات والشهوات.. ويخفض أقوام إلىٰ أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد.. وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال..

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق.. ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم علىٰ غير شيء، وأنهم هم الخاسرون.. فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر تعالىٰ أسباب ذلك بقوله..

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ إيمانًا تامًا، شاملًا لجميع ما أمر الله بالإيمان به..

﴿وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده..

﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾..

---

(١) الحِنْدِسُ:الليلُ الشديد الظلمة.

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ [التغابن:٩]..

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾ [التغابن:١٠]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كفروا بها من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبينات.. فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه..

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾ [التغابن:١٠] لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾ [التغابن:١١-١٣]

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ هذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم.. فجميع ما أصاب العبادَ فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علمُ الله تعالىٰ، وجرىٰ به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته..

والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة..

فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدىٰ الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]..

وعُلِم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلىٰ نفسه، وإذا وكل العبد إلىٰ نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع الذي هو عقوبة عاجلة علىٰ العبد، قبل عقوبة الآخرة، علىٰ ما فرط في واجب الصبر.. هذا ما يتعلق بقوله..

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ في مقام المصائب الخاص.. **وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي**، فإنَّ الله أخبر أنَّ كل من آمن، أي: الإيمان المأمور به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان، من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله، وأفعاله وفي علمه وعمله..

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالىٰ في الأخبار: أن المؤمنين يثبتهم الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة..

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فأهل الإيمان أهدىٰ الناس قلوبًا، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان..

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾..

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح..

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله وطاعة رسوله..

﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٢﴾ يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغًا يبين لكم ويتضح وتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم علىٰ القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة..

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل..

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾ [التغابن:١١-١٣] فيلعتمدوا عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلا بالاعتماد

علىٰ الله، ولا يتم الاعتماد علىٰ الله، حتىٰ يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن:١٤-١٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإنَّ بعضهم عدو لكم.. والعدو هو الذي يريد لك الشر.. ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه.. والنفس مجبولة علىٰ محبة الأزواج والأولاد.. فنصح تعالىٰ عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي.. ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل علىٰ المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة علىٰ الدنيا الفانية المنقضية.. ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر علىٰ العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالىٰ بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإنَّ في ذلك، من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال..

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ لأن الجزاء من جنس العمل.. فمن عفا، عفا الله عنه، ومن صفح، صفح الله عنه، ومن غفر، غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره..

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن:١٤-١٥]..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [التغابن:١٦-١٨]

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ يأمر تعالىٰ بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة..

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له..

﴿وَأَطِيعُواْ﴾ الله ورسوله في جميع أموركم..

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة..

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ يكن ذلك الفعل منكم خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالىٰ وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك.. ولكن ثَمَّ آفة تمنع كثيرًا من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.. فمن وقاه الله شرَّ شُحَ نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب.. بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد ونهي عنه.. فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قِبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة.. وإن كانت نفسه نفسًا سمحة، مطمئنة، منشرحة لشرع الله، طالبة لمرضاة، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مرض لله تعالىٰ.. وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.. ثم رغب تعالىٰ في النفقة فقال..

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالىٰ وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها..

﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ النفقة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة..

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ومع المضاعفة أيضًا ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]..

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:٤٥].. والله تعالىٰ شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر..

ويشكر تعالىٰ لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه..

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات..

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء..

﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [التغابن:١٦-١٨] في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

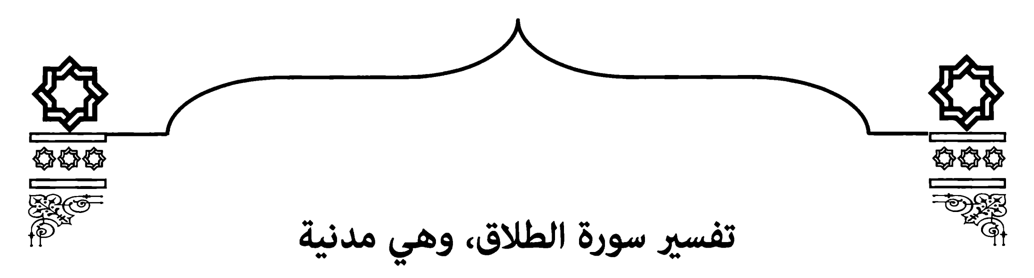
🕮 الفـوائـد

هذه الآية تدل علىٰ أن: كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر علىٰ بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[(١)].. ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر.

تم تفسير سورة (التغابن) ولله الحمد



(١) متفق عليه، وقد تقدم.



تفسير سورة الطلاق، وهي مدنية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق:١-٣]

يقول تعالىٰ مخاطبًا لنبيه ﷺ وللمؤمنين..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: أردتم طلاقهن..

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ (ف) التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.. بل ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه.. فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب تلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك.. وكذلك لو طلقها في طهر وطئ فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد..

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ وأمر تعالىٰ بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملًا.. فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها.. فإذا ضبطت عدتها، علمت

حالها علىٰ بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها.. وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للزوج وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها..

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، فـ..

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة، بل يلزمن بيوتهن الذي طلقها زوجها وهي فيها..

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن المسكن، يجب علىٰ الزوج للزوجة، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.. وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها، من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.. ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت، والإخراج إلىٰ تمام العدة..

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل علىٰ أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذىٰ بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها؛ لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها.. والإسكان فيه جبر لخاطرها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر علىٰ نفسها، وهذا في المعتدة الرجعية.. وأما البائن: فليس لها سكنىٰ واجبة، لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن..

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حددها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها..

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها..

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة..

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة.. أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.. ومن الحِكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة رحمها من زوجها..

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيرًا بين الإمساك والفراق..

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ علىٰ وجه المعاشرة الحسنة، والصحبة الجميلة، لا علىٰ وجه الضرار، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها علىٰ هذا الوجه، لا يجوز..

﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها علىٰ أخذ شيء من مالها..

﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾ علىٰ طلاقها ورجعتها..

﴿ذَوَيۡ عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾ رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سدًا لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه..

﴿وَأَقِيمُواْ﴾ أيها الشهداء..

﴿ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ ائتوا بها علىٰ وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته، ولا صاحبًا لمحبته..

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود..

﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فإنَّ من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة، ما تمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك.. ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالىٰ بتقواه..

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ وأن من اتقاه في الطلاق وغيره فإن الله يجعل له فرجًا ومخرجًا.. فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله علىٰ الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ فيه، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجًا وسعة يتمكن بها من مراجعة النكاح إذا ندم علىٰ الطلاق..

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به..

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد علىٰ الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك..

﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ كافيه الأمر الذي توكل عليه به.. وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم، فهو أقرب إلىٰ العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت

تأخيره إلىٰ الوقت المناسب له.. فلهذا قال تعالىٰ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ لابد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه..

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق:١-٣] أي: وقتًا ومقدارًا، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

📖 الفـوائـد

الآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقىٰ الله تعالىٰ، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة..

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة..

وكما أن من اتقىٰ الله جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر علىٰ التخلص منها والخروج من تبعتها.. واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه علىٰ الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق:٤-٥]

لمَّا ذَكر تعالىٰ أنَّ الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء.. ذكر تعالىٰ العدة، فقال..

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكِبَر أو غيره، ولم يرج رجوعه..

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ فإنَّ عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر مقابلة حيضة..

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ أي: الصغار، اللائي لم يأتهن الحيض بعد.. والبالغات اللاتي لم

يأتهن حيض بالكلية.. فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر.. وأما اللائي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]..

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي: عدتهن..

﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ، بالأشهر ولا غيرها..

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ من اتقى الله تعالىٰ، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي بينه الله لكم..

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ لتمشوا عليه، وتأتموا وتقوموا به وتعظموه..

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق:٤-٥] أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق:٦-٧]

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ تقدَّم أنَّ الله نهىٰ عن إخراج المطلقات عن البيوت.. وهنا أمر بإسكانهن، وقدَّر الإسكان بالمعررف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره..

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل..

﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن.. **وحاصل هذا:** أنه نهىٰ عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن علىٰ وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلىٰ العرف..

﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلقات..

﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهىٰ النفقة حتىٰ يضعن حملهن، فإذا وضعن حملهن، فإمَّا أن يرضعن أولادهن أو لا..

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المسماة لهن، إن كان مسمىٰ، وإلا فأجر المثل..

﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ وليأمر كلٌّ واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف.. وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة.. فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه من الشر والضرر ما لا يعلمه إلا الله.. وفي الائتمار تعاون علىٰ البر والتقوىٰ.. **ومما يناسب هذا المقام**: أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصًا إذا ولد لهما ولد، في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلىٰ الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير.. فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة، وينصح علىٰ ذلك..

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ بأن لم يتفقوا علىٰ إرضاعها لولدها..

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ فلترضع له أخرىٰ غيرها، ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه.. فإن لم يقبل إلا ثدي أمه، تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا علىٰ مسمىٰ.. وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنىٰ، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه، عين تعالىٰ علىٰ وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالىٰ الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه، كان بمنزلة الحَمل، وتعينت أمه طريقًا لقوته.. ثم قدر تعالىٰ النفقة، بحسب حال الزوج فقال..

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء..

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ ضيق عليه..

﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ من الرزق..

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية، حيث جعل كلا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها..

﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾ [الطلاق:٦-٧] وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالىٰ سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشرح].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ۝١١﴾ [الطلاق:٨-١١]

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ يخبر تعالىٰ عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسل، أن كثرتهم وقوتهم لم تنفعهم شيئًا، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة.. ومع عذاب الدنيا فإنَّ الله أعدَّ لهم في الآخرة عذابـًا شديدًا..

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾..

﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠﴾ وأنَّ الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أنَّ من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين.. ثم ذكَّر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله علىٰ رسوله محمد ﷺ..

﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلىٰ نور العلم والإيمان والطاعة، فمن

الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به..

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات..

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون..

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق:٨-١١]..

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢]

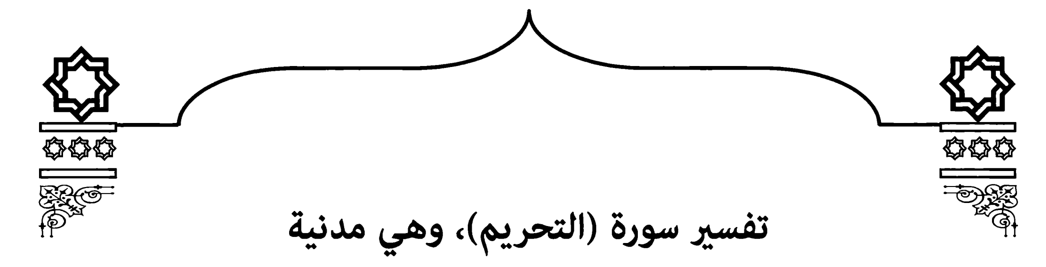
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أخبر تعالىٰ أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن..

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلىٰ رسله، لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق..

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢] كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء.. فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنىٰ وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه.. فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر، معرفة الله وعبادته.. فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

تم تفسيرها والحمد لله





تفسير سورة (التحريم)، وهي مدنية

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم:١-٥]

هذا عتابٌ من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرَّم على نفسه سريته (مارية)، أو شرب العسل.. مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله تعالى هذه الآيات..

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة..

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات، التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك..

﴿تَبْتَغِي﴾ بذلك التحريم..

﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾..

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه.. وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكِماً حُكماً عاماً في جميع الأيمان..

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد شرع لكم، وقدَّر ما به تَنحَل أيمانُكم قبل الحِنث، وما به الكفارة بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ

﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ [المائدة:٨٧] إلىٰ أن قال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].. فكلّ من حرَّم حلالًا عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يمينًا بالله علىٰ فعلٍ أو ترك، ثم حَنَث أو أراد الحِنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة..

﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم.. وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحَكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم..

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، أسر لها النبي ﷺ حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا..

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ فحدثت به عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا..

﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته..

﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ فعرَّفها ﷺ ببعض ما قالت..

﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ كرمًا منه ﷺ، وحلمًا، فـ..

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ﴾ له..

﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟..

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣﴾ الذي لا تخفىٰ عليه خافية، يعلم السر وأخفىٰ..

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ، عائشة وحفصة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا، كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ علىٰ نفسه ما يحبه.. فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما علىٰ ذلك..

﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت، أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه..

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ الجميع أعوان للرسول، مظاهرون.. ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول.. وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم.. وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.. ثم خوفهما أيضا بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال..

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ فلا ترَفَّعنَ عليه، فإنه لو طلقكن لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيَلقى ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينًا وجمالًا.. وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذَكره الله من هذه الأزواج الفاضلات..

﴿مُسۡلِمَٰتٍ﴾ الجامعات بين الإسلام وهو القيام بالشرائع الظاهرة..

﴿مُّؤۡمِنَٰتٍ﴾ والإيمان وهو القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب..

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها..

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ عما يكرهه الله.. فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله..

﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا ۝٥﴾ [التحريم:١-٥] بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار.. ليتنوع ﷺ فيما يحب.. فلما سمعن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين.. وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.. فـ..

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة.. ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالا ونهيه اجتنابًا، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب.. ووقاية الأهل والأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم علىٰ أمر الله.. فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.. ووصف اللهُ النارَ بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره فقال..

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]..

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ غليظة أخلاقهم، عظيم انتهارهم، يفزعون بأصواتهم ويخيفون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمتثلون فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب وأوجب عليهم شدة العقاب..

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦] وهذا فيه أيضـًا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ [التحريم:٧]

يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ فيقال لهم..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه..

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ [التحريم:٧] فلم يبق الآن إلا الجزاء علىٰ الأعمال.. وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾ [التحريم:٨]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ قد أَمَر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية.. والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله..

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح..

﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾..

﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ﴾ حين يسعىٰ المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته..

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ ويشفقون إذا طفئت الأنوار التي لا تعطىٰ المنافقين.. ويسألون الله أن يتمم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين، إلىٰ جنات النعيم، وجوار الرب الكريم.. وكل هذا من آثار التوبة النصوح..

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾ [التحريم:٨]..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم:٩]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ﴾ يأمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين..

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ والإغلاظ عليهم في ذلك.. وهذا شامل لجهادهم، بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال.. وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبىٰ أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له.. وأما المرتبة الأولىٰ، فتكون بالتي هي أحسن.. فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم وعلىٰ جهادهم وقتالهم..

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم:٩] وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم:١٠-١٢]

هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين.. ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئًا، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا مع قيامه بالواجب عليه.. فكأن في ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبي ﷺ، عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ، لا ينفعهن شيئًا مع الإساءة، فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا﴾ أي: المرأتان..

﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ وهما نوح، ولوط عليهما السلام..

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين، بأن كانتا علىٰ غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة.. لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًا..

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي: نوح ولوط..

﴿عَنْهُمَا﴾ عن امرأتيهما..

﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ﴾ لهما..

﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾..

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا..

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ فوصفها الله بـ: الإيمان.. والتضرع لربها.. وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو

دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم.. وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم.. فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن.. ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء، إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة علىٰ النساء، كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام»[1].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها..

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ بأن نفخ جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في جيب درعها، فوصلت نفخته إلىٰ مريم، فجاء منها عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الرسول الكريم والسيد العظيم..

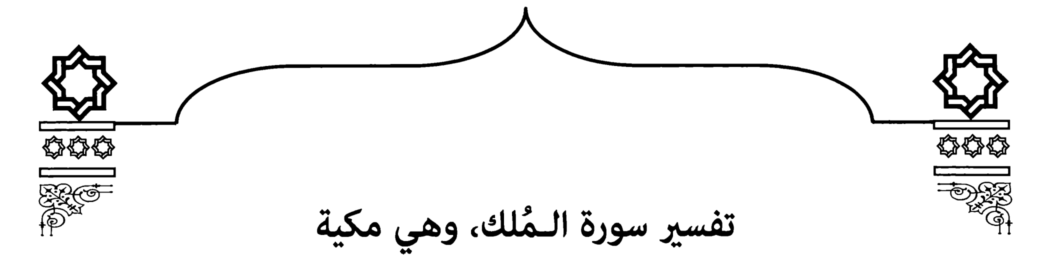
﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ وهذا وصفٌ لها بالعِلم والمعرفة، فإنَّ التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال..

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم:١٠-١٢] المطيعين لله، المداومين علىٰ طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصفٌ لها بكمال العمل، فإنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا صديقة، والصديقية هي كمال العلم والعمل.

تمت ولله الحمد

---

(١) أخرجه البخاري [٣٤٣٣]، ومسلم [٢٤٣١] وغيرهما من حديث أبي موسىٰ الاشعري.



تفسير سورة الـمُلك، وهي مكية

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [الملك:١-٤]

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعاظم وتعالىٰ، وكثر خيره، وعم إحسانه..

﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ مَن عَظَمَته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته..

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾ ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها علىٰ كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض..

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ قدَّر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم..

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أخلصه وأصوبه، فإنَّ الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء..

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات..

﴿ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصـًا إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم ولو كانت ملء الدنيا..

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ كل واحدة فوق الأخرىٰ، ولسن طبقة واحدة، وخلقها

في غاية الحسن والإتقان..

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: خلل ونقص.. وإذا انتفىٰ النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.. ولمَّا كان كمالها معلومًا، أَمَر الله تعالىٰ بتكرار النظر إليها، والتأمل في أرجائها، قال..

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أَعِده إليها، ناظرًا معتبرًا..

﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ أي: نقص واختلال..

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ المراد بذلك: كثرة التكرار..

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك:١-٤] أي: عاجزًا عن أن يرىٰ خللا أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.. ثم صرَّح بذكر حسنها فقال..

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك:٥-١٠]

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ ولقد جمَّلنا..

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم..

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي: النجوم، علىٰ اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكانت سقفًا مظلمـًا، لا حسن فيه ولا جمال.. ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء، وجمالا، ونورًا.. وهداية يُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر.. ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثيرٌ من النجوم فوق السماوات السبع، فإنَّ السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها..

﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: المصابيح..

﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم، حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمىٰ من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين..

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة..

﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ لأنهم تمرَّدوا علىٰ الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعدَّ الله لهم عذاب السعير، فلهذا قال..

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾ الذي يهان أهله غاية الهوان..

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ علىٰ وجه الإهانة والذل..

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتًا عاليًا فظيعًا..

﴿وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾..

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تكاد علىٰ اجتماعها أن يفارق بعضها بعضـًا، وتتقطع من شدة غيظها علىٰ الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟!.. ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال..

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ ؟! أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها..

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله..

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ ولم يكفهم ذلك حتىٰ أعلنوا بضلال الرسل المنذرين، وهم الهداة المهتدون.. ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم، ضلالًا كبيرًا، فأي عناد وتكبر وظلم، يشبه هذا؟!

﴿وَقَالُوا۟﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدىٰ والرشاد..

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك:٥-١٠] فنفوا عن أنفسهم طرق الهدىٰ، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل.. والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه

علىٰ حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل.. وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله، علماً ومعرفة وعملا.. **والأدلة العقلية**: المعرفة للهدىٰ من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر.. وهم -في الإيمان- بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن علىٰ من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك:١١]

قال تعالىٰ عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم..

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾..

﴿فَسُحۡقٗا﴾ أي: بعدًا لهم وخسارة وشقاء.. فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله..

﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك:١١] وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع علىٰ أفئدتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢]

لمَّا ذَكَر حالةَ الأشقياء الفجَّار، ذَكَر حالة السعداء الأبرار فقال..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: في جميع أحوالهم، حتىٰ في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون علىٰ معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به..

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم شرها، ووقاهم عذاب الجحيم..

﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢] وهو ما أعدَّه لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والمشتهيات، والقصور والمنازل العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.. وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن، الذي يحله الله علىٰ أهل الجنان.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك:١٣-١٤]

هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه فقال..

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ أي: كلها سواء لديه، لا يخفىٰ عليه منها خافية، فـ..

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ أي: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترىٰ؟!.. ثم قال -مستدلا بدليل عقلي علىٰ علمه-:..

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فمن خَلَق الخَلقَ وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟!

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك:١٣-١٤] الذي لطف علْمه وخبُره، حتىٰ أدرك السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا والغيوب، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧].. **ومن معاني اللطيف**: أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلىٰ أعلىٰ المراتب، بأسباب لا تكون من العبد علىٰ بال، حتىٰ إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلىٰ المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك:١٥]

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ هو الذي سخَّر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كلَّ ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلىٰ الأقطار النائية، والبلدان الشاسعة..

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ لطلب الرزق والمكاسب..

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك:١٥] أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحانًا، وبُلغَة يُتبَلَّغ بها إلىٰ الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلىٰ الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ [الملك:١٦-١٨]

هذا تهديد ووعيد، لمن استمر في طغيانه وتعديه وعصيانه، الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال..

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله تعالىٰ، العالي علىٰ خلقه..

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ بكم وتضطرب، حتىٰ تتلفكم وتهلككم..

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ عذابًا من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم..

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ كيف يأتيكم ما أَنْذَرتكم به الرسل والكتب.. فلا تحسبوا أن أمنكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان أو قصر..

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ [الملك:١٦-١٨] فإن من قبلكم، كذَّبوا كما كذبتم، فأهلكهم الله تعالىٰ.. فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجَلَهم بالعقوبة الدنيوية، قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك:١٩]

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ وهذا عتاب وحث علىٰ النظر إلىٰ حالة الطير التي سخَّرها الله، وسخر لها الجوَّ والهواء، تَصُفُّ فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها..

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ فإنَّه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران.. فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته علىٰ قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له..

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك:١٩] فهو المدبِّر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾ [الملك:٢٠-٢١]

يقول تعالىٰ للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق..

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءًا، فيدفعه عنكم.. أي: من الذي ينصركم علىٰ أعدائكم غير الرحمن؟! فإنه تعالىٰ هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا علىٰ نصر عبد لم ينفعوه مثقال ذرة علىٰ أي عدو كان..

﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾ فاستمرار الكافرين علىٰ كفرهم، بعد أن علموا أنَّه لا ينصرهم أحدٌ من دون الرحمن، غرورٌ وسَفَه..

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟! فإنَّ الخلق لا يقدرون علىٰ رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟! فالرزاق المنعم الذي لا يصيب العباد نعمةً إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة..

﴿بَل﴾ ولكن الكافرون..

﴿لَّجُّواْ﴾ استمروا..

﴿فِي عُتُوّٖ﴾ قسوة وعدم لين للحق..

﴿وَنُفُورٍ ٢١﴾ [الملك:٢٠-٢١] شرود عن الحق.

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦﴾ [الملك:٢٢-٢٦]

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ أي الرجلين أهدىٰ؟ من كان تائهـًا في الضلال، غارقًا في الكفر، قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا

والباطل حقًا؟ ومن كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟.. فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين يُعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.. يقول تعالى - مبينًا أنه المعبود وحده، وداعيًا عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة-:..

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظاهر..

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ ولما أنشأكم، كمَّل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، التي هي أنفع أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانية.. ولكنه مع هذا الإنعام..

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر..

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم ما به تنتفعون..

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة.. ولكنَّ هذا الوعد بالجزاء ينكره هؤلاء المعاندون..

﴿وَيَقُولُونَ﴾ تكذيبـًا..

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يُخبِرُوا بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد فإنَّما العلم عند الله..

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عند أحد من الخلق.. ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر وبين الإخبار بوقته، فإنَّ الصدق يُعرف بأدلته، وقد أقام اللهُ من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد..

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الملك:٢٢-٢٦]..

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك:٢٧-٣٠]

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني: أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا.. فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم..

﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا..

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ساءهم ذلك وأفظعهم، وقلقل أفئدتهم، فتغيرت لذلك وجوههم.. وَوُبِّخوا علىٰ تكذيبهم..

﴿وَقِيلَ﴾ لهم..

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فاليوم رأيتموه عيانًا، وانجلىٰ لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب، ولم يبق إلا مباشرة العذاب..

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ ولمَّا كان المكذِّبون للرسول ﷺ، الذين يرُدُّون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريبَ المنون.. أَمَره اللهُ أن يقول لهم: أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب..

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذًا، تعبكم وحرصكم علىٰ هلاكي غير مفيد، ولا مجد عنكم شيئًا..

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ومن قولهم إنهم علىٰ هدىٰ والرسول علىٰ ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا.. فأمرَ اللهُ نبيَّه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا..

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة..

﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة علىٰ التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]..

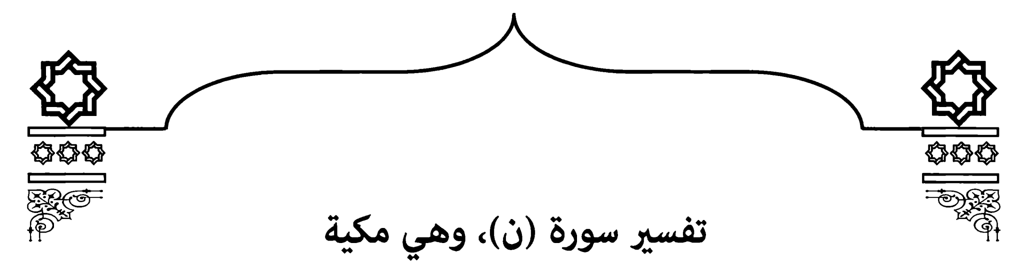
﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان لهم ولا توكل، علم بذلك من هو علىٰ هدىٰ، ومن هو في ضلال مبين.. ثم أخبر عن انفراده

بالنِّعَم، خصوصـًا بالماء الذي جعل الله منه كلَّ شيءٍ حي فقال..

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائرًا..

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك:٢٧-٣٠] تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟.. وهذا استفهام بمعنىٰ النفي، أي: لا يقدر أحد علىٰ ذلك غير الله تعالىٰ.

تم تفسير سورة (الملك) والحمد لله



تفسير سورة (ن)، وهي مكية

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم:١-٧]

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ يقسم تعالىٰ بالقلم.. وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تُكتب بها أنواع العلوم، ويُسَطَّر بها المنثور والمنظوم.. وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يَقسِم الله بها.. علىٰ براءة نبيه محمد ﷺ، مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون..

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ فنفىٰ عنه الجنون بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منَّ عليه بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال..

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا﴾ عظيمًا، كما يفيده التنكير..

﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾ غير مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لِمَا أسلفه النبيُّ ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال..

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ عاليًا به، مستعليًا بخلقك الذي منَّ الله عليك به.. وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»[1]، وذلك نحو قوله تعالىٰ له: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٥٩] الآية، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ

(١) أخرجه أحمد [٢٥٢٤٠] وغيره من حديث عائشة.

﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات على الخلق العظيم، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خَصلة منها في الذروة العليا..

فكان ﷺ سهلا لينا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا لقلب من سأله لا يحرمه ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال، ﷺ..

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون قال..

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦﴾ وقد تبيَّن أنَّه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأنَّ أعداءه أضل الناس، وشر الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله..

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.. و..

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم:١-٧] وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم:٨-١٥]

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ..

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ الذين كذَّبوك وعاندوا الحق، فإنَّهم ليسوا أهلا لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مقدم علىٰ ما يضره.. وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أنَّ المشركين طلبوا من النبي ﷺ، أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال..

﴿وَدُّواْ﴾ المشركون..

﴿لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ أي: توافقهم علىٰ بعض ما هم عليه، إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه..

﴿فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإنَّ تمام إظهاره، بنقض ما يضاده، وعيب ما يناقضه..

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذابًا إلا وهو..

﴿مَّهِينٍ ۝١٠﴾ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له همة في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة..

﴿هَمَّازٖ﴾ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك..

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾ يمشي بين الناس بالنميمة، وهي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء..

﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك..

﴿مُعۡتَدٍ﴾ علىٰ الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض..

﴿أَثِيمٍ ۝١٢﴾ كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالىٰ..

﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ غليظ شرس الخُلُق، قاس، غير منقاد للحق..

﴿زَنِيمٍ ۝١٣﴾ دَعِيٍّ، ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجىٰ منه فلاح.. له زَنَمة، أي: علامة في الشر، يعرف بها.. **وحاصل هذا:** أنَّ الله تعالىٰ

نهىٰ عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيئ الأخلاق، خصوصًا الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر علىٰ الحق وعلىٰ الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.. وهذه الآيات -وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه..

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ١٤﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده..

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٥﴾ [القلم:٨-١٥] طغىٰ واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها، فإنها- عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ٢٢ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ٢٤ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٣٣﴾ [القلم:١٦-٣٣]

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾ ثم توّعد تعالىٰ من جرىٰ منه ما وَصَف الله، بأن الله سيسمه علىٰ خرطومه في العذاب، وليعذبه عذابًا ظاهرًا، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه..

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك مما يوافق أهواءهم.. لا لكرامتهم علينا، بل ربَّما يكون استدراجًا لهم من حيث لا يشعرون..

﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء..

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ حين زهت ثمارها أينعت أشجارها، وآن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم، وطوع أمرهم، وأنه ليس ثمَّ مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها، أي: يجذونها، مصبحين، ولم يدروا أنَّ الله بالمرصاد، وأنَّ العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها..

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلا..

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ فأبادها وأتلفها..

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا..

﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ تنادوا فيما بينهم..

﴿مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض..

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾..

﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾ قاصدين له..

﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون..

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ بكِّروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين.. ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة، خوفًا أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء..

﴿وَغَدَوْا۟﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة..

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ علىٰ إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها..

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ علىٰ الوصف الذي ذكر الله كالصريم..



﴿قَالُوٓاْ﴾ من الحيرة والانزعاج..

﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦﴾ تائهون عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم قالوا..

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٢٧﴾ منها.. فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، فـ..

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أي: أعدلهم، وأحسنهم طريقة..

﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استثنيتم فقلتم ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئة الله، لَمَا جرىٰ عليكم ما جرىٰ، فـ..

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعد ما وقع العذاب علىٰ جنتهم، الذي لا يرفع.. ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم علىٰ أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة..

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾ فيما أَجرُوه وفعلوه..

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١﴾ متجاوزين للحد في حق الله، وحق عباده..

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، وَوَعدوا أنهم سيرغبون إلىٰ الله، ويَلحون عليه في الدنيا.. فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها لأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله.. قال تعالىٰ مبينا ما وقع..

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾ الدنيوي لمن أتىٰ بأسباب العذاب، أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغىٰ به وبغىٰ، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه..

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ من عذاب الدنيا..

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾ [القلم:١٦-٣٣] فإن من عَلِم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب.

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمۡ

﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ۝٣٩ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾ [القلم:٣٤-٤١]

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤﴾ يخبر تعالىٰ بما أعدَّه للمتقين للكفر والمعاصي.. من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين..

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥﴾ وأنَّ حِكمَته تعالىٰ لا تقتضي أن يجعل المسلمين القانتين لربهم المنقادين لأوامره، المتَّبِعين لمراضيه.. كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه..

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٦﴾ وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه فاسد..

﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾ وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا..

﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ۝٣٩﴾ وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلىٰ يوم القيامة أنَّ لهم ما يحكمون..

﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ أيهم الكفيل بهذه الدعوىٰ الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها، ولا الزعامة فيها..

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾ [القلم:٣٤-٤١] وليس لهم شركاء وأعوان علىٰ إدراك ما طلبوا.. فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.. ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعُلِم أن دعواهم باطلة فاسدة.

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم:٤٢-٤٣]

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ إذا كان يوم القيامة.. وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال

ما لا يدخل تحت الوهم.. وأتىٰ الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم.. فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء.. ورأىٰ الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه.. فحينئذ..

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ يدعون إلىٰ السجود لله.. فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعًا واختيارًا.. ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا..

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فلا يقدرون علىٰ السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء..

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم:٤٢-٤٣] وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يُدعَون في الدنيا إلىٰ السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون.. فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة.. ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام علىٰ المعاصي، ويوجب التدارك مدة الإمكان، ولهذا قال تعالىٰ..

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم:٤٤-٥٢]

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ﴾ دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن عليَّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم، فـ..

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال..

﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ يغتروا ويستمروا علىٰ ما يضرهم.. فإن هذا من كيد الله لهم..

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ وكيد الله لأعدائه متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ..

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب لهم ذلك.. فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلىٰ الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرماً يثقل عليهم..

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم علىٰ حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.. فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار علىٰ دعوتهم، ولهذا قال..

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ لِمَا حَكَم به شرعًا وقدرًا.. فالحكم القدري: يُصبَّر علىٰ المؤذي منه، ولا يُتَلقىٰ بالسخط والجزع.. **والحكم الشرعي**: يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره..

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.. أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره علىٰ قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتىٰ ركب في البحر، فاقترع أهلُ السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يَلقُون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم..

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ وهو في بطنها قد كظمت عليه.. أو نادىٰ وهو مغتم مهتم بأن قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا..

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية..

﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ ولكنَّ الله تغمده برحمته، فنُبِذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولىٰ، ولهذا قال..

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر..

﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، وأحوالهم.. فامتثل نبينا محمد ﷺ أمرَ ربه، فصبر لحكم ربه، صبرًا لا يدركه فيه أحد من العالمين.. فجعل الله له العاقبة ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]..

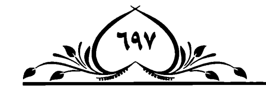
﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوءهم.. حتىٰ إنهم حرصوا علىٰ أن يزلقوه بأبصارهم، أي: يصيبوه بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم.. هذا منتهىٰ ما قدروا عليه من الأذىٰ الفعلي، والله حافظه وناصره.. وأما الأذىٰ القولي، فيقولون فيه أقوالًا بحسب ما توحي إليهم قلوبهم..

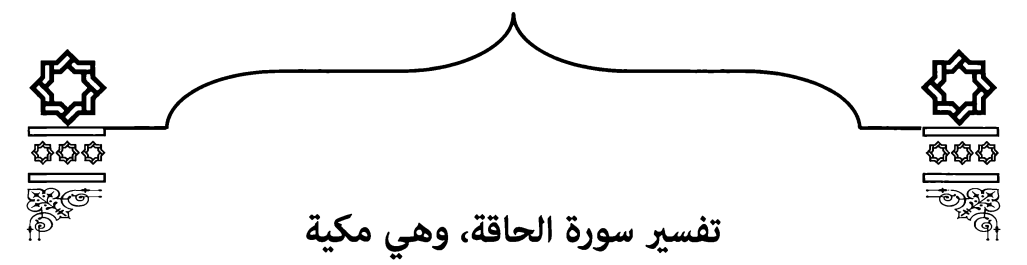
﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ فيقولون تارة (مجنون)، وتارة (ساحر)، وتارة (شاعر).. قال تعالىٰ..

﴿وَمَا هُوَ﴾ وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم..

﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ [القلم:٤٤-٥٢] يتذكرون به مصالحَ دينهم ودنياهم.

تم تفسير سورة (القلم) والحمد لله رب العالمين





تفسير سورة الحاقة، وهي مكية

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:١-٣]

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ من أسماء يوم القيامة.. **عَظَّم تعالىٰ شأنها**، وفخمه، بما كرره من قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴾..

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:١-٣] فإن لها شأنا عظيمًا وهولًا جسيمًا.. **ومن عظمتها:** أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل.. **ثم ذكر نموذجًا** من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو **ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية** فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾.

🕮 الفـوائـد

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ من أسماء يوم القيامة؛ **لأنها** تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبآت الصدور.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٤-٨]

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المشهورة، **سكان الحِجْر**، الذين أَرسل اللهُ إليهم رسولَه **صالحًا** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **ينهاهم** عما هم عليه من الشرك، **ويأمرهم** بالتوحيد، **فردوا دعوته**، وكذَّبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة..

﴿وَعَادٌ﴾ وكذلك عاد الأولىٰ، **سكان حضرموت**، حين بعث الله إليهم رسوله **هودًا** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، فكذبوه وكذبوا بما أَخبَر به من البعث،

فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المُعَجَّل..

﴿بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ التي تقرع الخلق بأهوالها..

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ وهي **الصَيحَة** العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتىٰ، لا يُرىٰ إلا مساكنُهم وجُثَثُهم..

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: قوية، شديدة الهبوب، **لها صوت أبلغ من صوت الرعد** القاصف..

﴿عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ أي: عتت علىٰ خزانها، علىٰ قول كثير من المفسرين.. أو عتت علىٰ عاد **وزادت علىٰ الحد**، كما هو الصحيح..

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: **نَحسًا**، وشرًا فظيعًا عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم..

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ **أي: هلكىٰ** موتىٰ..

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد **قُطعت رءوسها** الخاوية، **الساقط بعضها علىٰ بعض**..

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٤-٨] وهذا استفهام بمعنىٰ **النفي المتقرر**.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة:٩-١٠]

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين (عاد) و(ثمود) **جاء غيرهم** من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأراه من الآيات البيِّنات ما تيقنوا بها الحقَّ، ولكن جَحدوا وكفروا، ظلمًا وعُلُوًا.. **وَجاءَ مَن قَبلَهُ** من المكذِّبين..

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: قرىٰ قوم لوط، **الجميع جاءوا**..

﴿بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ بالفعلة الطاغية، وهي الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة، وما انضم إلىٰ ذلك من أنواع الفواحش والفسوق..

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا اسم جنس، أي: كل من هؤلاء كَذَّب الرسول الذي أرسله الله إليهم..

﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ فأخذ الله الجميع..

﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة:٩-١٠] زائدةً على الحد والمقدار الذي يحصل به هلاكُهم..

ومن جملة أولئك: قوم نوح..

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة:١١-١٢]

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أغرقهم الله في اليمِّ حين طغى الماء على وجه الأرض وعلا على مواضعها الرفيعة..

﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله..

﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ وهي: السفينة.. فاحمدوا الله، واشكروا الذي نجاكم حين أهلك الطاغين، واعتبِروا بآياته الدالةِ على توحيده ولهذا قال:..

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الجارية والمراد جنسها..

﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ تذكركم أوَّلَ سفينة صُنِعَت، وما قصَّتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهلَ الأرض كلَّهم، فإنَّ جنس الشيء مُذَكِّر بأصله..

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة:١١-١٢] أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصودَ منها، ووجهَ الآية بها، وهذا **بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهل البلادة وعدم الفطنة**، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله؛ لعدم وعيهم عن الله، وفِكرِهِم بآيات الله.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة:١٣-١٨]

لما ذكر ما فعله تعالىٰ بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجَّل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجَّىٰ الرسلَ وأتباعَهم، كان هذا مُقَدِّمةً لِذكر الجزاء الأُخروي، وتوفيةِ الأعمالِ كاملةً يوم القيامة..

﴿فَإِذَا نُفِخَ﴾ فذكر الأمورَ الهائلةَ التي تقعُ أمامَ القيامة، وأنَّ أوَّل ذلك أنَّه ينفخ إسرافيل..

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة..

﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين..

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ أي: فتتت الجبال واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت علىٰ الأرض، فكان الجميع قاعًا صفصفًا، لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتا، **هذا ما يصنع بالأرض** وما عليها..

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ وأما ما يصنع بالسماء: فإنها تضطرب وتمور وتتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها..

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة الكرام..

﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي: علىٰ جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته..

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ أملاك في غاية القوة إذا أتىٰ للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال:..

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ علىٰ الله..

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة:١٣-١٨] لا من أجسامكم وأجسادكم ولا من أعمالكم وصفاتكم، فإن الله تعالىٰ عالم الغيب والشهادة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٤]

ويحشر العباد حفاة عراة غُرلا في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا **ذكر كيفية الجزاء**، فقال:..

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم؛ تمييزًا لهم وتنويهًا بشأنهم، ورَفعًا لمقدارهم..

﴿فَيَقُولُ﴾ يقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق علىٰ ما من الله عليه به من الكرامة:..

﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ دونكم كتابي، فاقرأوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.. **والذي أوصلني إلىٰ هذه الحال**، ما مَنَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال:..

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أيقنت، فالظن هنا بمعنىٰ اليقين..

﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها..

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾ المنازل، والقصور عالية المحل..

﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمرها وجناها من أنواع الفواكه..

﴿دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ قريبة سهلة التناول علىٰ أهلها، ينالها أهلها قياما وقعودا ومتكئين.. ويقال لهم إكراما:..

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ من كل طعام لذيذ، وشراب شهي..

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ تامًا كاملاً من غير مكدِّر ولا منغِّص.. وذلك الجزاء حصل لكم..

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة:١٩-٢٤] من الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة، من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلىٰ الخلق، وذكر لله وإنابة إليه.

🕮 الفوائد

الأعمالُ: جعلها الله **سببًا** لدخول الجنة، **ومادة** لنعيمها، **وأصلًا** لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة:٢٥-٣٧]

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزًا لهم وخزيًا وعارًا وفضيحة..

﴿فَيَقُولُ﴾ أحدهم من الهم والغم والخزي..

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية..

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ ليتني كنت نسيًا منسيًا ولم أُبعث وأحاسب ولهذا قال:..

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.. ثم التفت إلىٰ ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله فيقول:..

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾﴾ ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئا، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه..

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد:..

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ اجعلوا في عنقه غلا يخنقه..

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ قلبوه علىٰ جمرها ولهبها..

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة..

﴿فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ انظموه فيها، بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلَّق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة من له التوبيخ والعتاب..

فإن السبب الذي أوصله إلىٰ هذا المحل:..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ بأن كان كافرًا بربه، معاندًا لرسله، رادًا ما جاءوا به من الحق..

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم من ماله، ولا يحض غيره علىٰ إطعامهم؛ لعدم الوازع في قلبه؛ **وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله**، الذي أصله الإيمان بالله، **والإحسان إلىٰ الخلق** بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، **وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان**، فلذلك استحقوا ما استحقوا..

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا﴾ يوم القيامة..

﴿حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ قريب أو صديق، يشفع له لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]..

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، ونتن الريح، وقبح الطعم ومرارته..

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ﴾ لا يأكل هذا الطعام الذميم..

﴿إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة:٢٥-٣٧] الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة:٣٨-٥٢]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾ **أقسم تعالىٰ** بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه -فدخل في ذلك: كل الخلق، بل **يدخل في ذلك نفسه المقدسة**- علىٰ صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم **بلَّغه عن الله تعالىٰ**..

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾ **ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر**..

﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ وأن **الذي حملهم علىٰ ذلك** عدم إيمانهم وتذكرهم، **فلو آمنوا وتذكروا، لعلموا** ما ينفعهم ويضرهم، **ومن ذلك** أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمرًا مثل الشمس، يدلهم علىٰ أنه رسول الله حقًا، وأن ما جاء به..

﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ **لا يليق أن يكون قول البشر، بل هو كلام دال علىٰ عظمة** من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده.. **وأيضا: فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله** وحكمته..

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا﴾ **فإنه لو تقول عليه وافترىٰ**..

﴿بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾ الكاذبة..

﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ **وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات منه الإنسان**.. فلو قُدِّر أن الرسول -حاشا وكلا- تَقَوَّلَ علىٰ الله، **لَعَاجَلَهُ** بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ **لأنه حكيم**، علىٰ كل شيء قدير..

﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ **لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قَدَر أحدُ أن يمنعه من عذاب الله**..

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن الكريم..

﴿لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ يتذكرون به **مصالح دينهم ودنياهم**، فيعرفونها، ويعملون عليها، **يُذَكِّرُهم** العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، **فيكونون من** العلماء الربانيين، والعبادِ العارفين، والأئمةِ المهديين..

﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾ به، وهذا **فيه تهديد ووعيد** للمكذبين، فإنه

سيعاقبهم علىٰ تكذيبهم بالعقوبة البليغة..

﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ﴾ فإنَّهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسَّروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا علىٰ أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب..

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾ أعلىٰ مراتب العلم، **فإنَّ أعلىٰ مراتب العلم اليقين**، وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول..

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾ [الحاقة:٣٨-٥٢] نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

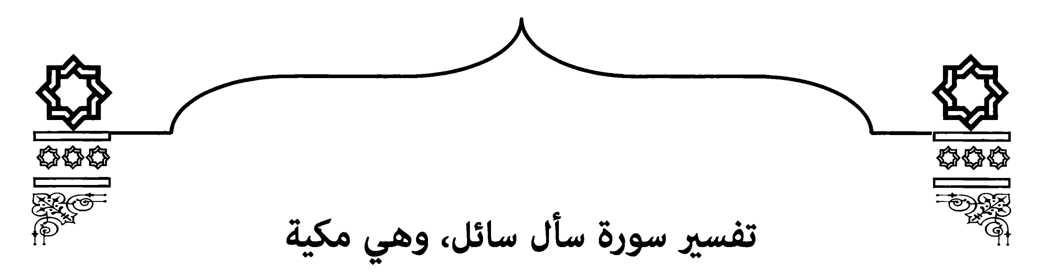
🕮 الفـوائـد

١- **حكمته -تعالىٰ- تقتضي أن لا يُمهِلَ الكاذبَ عليه**، الذي يزعم أنَّ الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.. **فإذا كان الله قد أيّد رسوله** بالمعجزات، وبرهن علىٰ صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره علىٰ أعدائه، ومَكَّنه من نواصيهم، **فهو أكبر شهادة منه علىٰ رسالته.**

٢- اليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلىٰ مما قبلها: أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.. **ثم**: عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.. **ثم**: **حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة، وهذا القرآن الكريم بهذا الوصف**، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، **يحصل به لمن ذاقه حقُّ اليقين.**

تم تفسير سورة (الحاقة)،

والحمد لله أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، علىٰ كماله وأفضاله وعدله



تفسير سورة سأل سائل، وهي مكية

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ [المعارج:١-٧]

يقول تعالىٰ مبينا لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعنتا وتعجيزا:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ دعا داع، واستفتح مستفتح..

﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم..

﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾ ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله.. **وهذا حين دعا النضر** بن الحارث **القرشي أو غيره من المشركين فقال:** ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢] إلىٰ آخر الآيات..

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، **فإما أن يعجل لهم** في الدنيا، **وإما أن يؤخر عنهم** إلىٰ الآخرة، فلو عرفوا الله تعالىٰ، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالىٰ من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة فقال:..

﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾ ذي العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق..

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ الذي **تعرج إليه الملائكة** بما دبرها علىٰ تدبيره.. **وتعرج إليه الروح**، وهذا اسم جنس يشمل **الأرواح كلها**، برها وفاجرها، **وهذا عند الوفاة**، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلىٰ الله، فيؤذن لها من سماء إلىٰ سماء، حتىٰ تنتهي إلىٰ السماء التي فيها الله عَزَّوَجَلَّ، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظىٰ بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء

والإكرام والبر والإعظام.. **وأما أرواح الفجار** فتعرج، فإذا وصلت إلىٰ السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلىٰ الأرض.. **ثم ذكر المسافة التي تعرج إلىٰ الله فيها الملائكة والأرواح**..

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة علىٰ **السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة**، من ابتداء العروج إلىٰ وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلىٰ.. **هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة**، فيكون هذا **العروج والصعود في الدنيا**، لأن السياق الأول يدل علىٰ هذا.. **ويحتمل**: أن هذا **في يوم القيامة**، وأن الله تبارك وتعالىٰ يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمته وجلاله وكبريائه ما هو أكبر دليل علىٰ معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح صاعدة ونازلة، بالتدابير الإلهية، والشئون في الخليقة في ذلك اليوم، الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، **لكن الله تعالىٰ يخففه علىٰ المؤمن**..

﴿فَٱصْبِرْ﴾ علىٰ دعوتك لقومك..

﴿صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ لا تَضَجُر فيه، ولا ملل، بل استمر علىٰ أمر الله، وادع عباده إلىٰ توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترىٰ من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر علىٰ ذلك خيرًا كثيرًا..

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾ الضمير يعود إلىٰ البعث الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب، أي: إن حالهم حال المنكر له، أو: الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتىٰ تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور..

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج:١-٧] والله يراه قريبا، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

🕮 الفـوائـد

هذا المُلك العظيم، والعَالَم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولىٰ خلقه وتدبيره العَلِيُّ الأعلىٰ، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم

من رحمته وبره ورزقه، ما عمهم وشملهم وأجرىٰ عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي.. **فبؤسا لأقوام جهلوا عظمته**، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب علىٰ وجه التعجيز والامتحان، **وسبحان الحليم** الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج:٨-١٠]

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿يَوْمَ﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ..

﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ..

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباء منثورا فتضمحل.. فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟! أليس حقيقًا أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟! ولهذا قال:..

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج:٨-١٠] يشاهد الحميمُ -وهو القريب- حميمَه، فلا يبقىٰ في قلبه مُتَّسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج:١١-١٨]

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ الذي حق عليه العذاب..

﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته..

﴿وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: قرابته..

﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝١٣﴾ التي جرت عادتها -في الدنيا- أن تتناصر، ويعين بعضها بعضًا، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحدٌ أحدا، ولا يشفع أحدُ إلا بإذن الله..

﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرضِ..

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ لم ينفعه ذلك..

﴿كَلَّا﴾ لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك علىٰ الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء..

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها..

﴿تَدْعُوا﴾ إليها..

﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أدبر عن اتباع الحق..

﴿وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ وأعرض عنه، فليس له فيه غرض..

﴿وَجَمَعَ﴾ الأموال بعضها فوق بعض..

﴿فَأَوْعَىٰ ۝١٨﴾ [المعارج:١١-١٨] وأوعاها، فلم ينفق منها، فإن النار تدعوهم إلىٰ نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج:١٩-٢١]

﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع، وفسر الهلوع بأنه:..

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبرَ والرضا بما قضىٰ الله..

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج:١٩-٢٢] فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله علىٰ نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج:٢٢- ٣٥]

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا، وقوله في وصفهم..

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها، **وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها** وقتا دون وقت، **أو يفعلها** علىٰ وجه ناقص..

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ من زكاة وصدقة..

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يتعرض للسؤال..

﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه..

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها..

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله..

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: هو العذاب الذي يخشىٰ ويحذر..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فلا يطأون بها وطأً محرمًا، من زِنىٰ أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك.. **ويحفظونها أيضًا من** النظر إليها ومسها ممن لا يجوز له ذلك.. **ويتركون أيضًا** وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة..

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي: سرياتهم..

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾ في وطئهن في المحل الذي هو محل الحرث..

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الزوجة وملك اليمين..

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾ المتجاوزون ما أحل الله إلىٰ ما حرم الله..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾ مراعون لها، حافظون مجتهدون علىٰ أدائها والوفاء بها..

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾ لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريبًا ولا صديقًا ونحوه، ويكون القصد بها وجه الله، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطلاق:٢]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء:١٣٥]..

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾ بمداومتها علىٰ أكمل وجوهها..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات..

﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ [المعارج:٢٢- ٣٥] قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

🕮 الفوائد

١- **حاصل هذا:** أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالىٰ.

٢- **التصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل**، وبما جاءوا به من الكتب.

٣- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾ دلَّت هذه الآية علىٰ **تحريم نكاح المتعة**؛ لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

٤- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ **هذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه**، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي **بين العبد وبين الخلق**، في الأموال والأسرار.. **وكذلك العهد شامل** للعهد **الذي عاهد عليه الله**، والعهد **الذي عاهد عليه الخلق**، فإن **العهد يُسأل عنه العبد**، هل قام به ووفاه، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج:٣٩]

يقول تعالىٰ، مبينا **اغترار الكافرين**:..

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ مسرعين..

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ قطعًا متفرقة، وجماعات متنوعة، كل منهم بما لديه فرح..

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ بأي سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوىٰ الكفر والجحود برب العالمين؟! ولهذا قال:..

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر بأمانيهم، ولا إدراك ما يشتهون بِقوَّتِهم..

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج:٣٩] من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٤٠-٤٤]

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ **هذا إقسام منه تعالىٰ** بالمشارق والمغارب، للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات،

علىٰ البعث، وقدرته علىٰ تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦١]..

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾ ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.. فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا علىٰ تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله..

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة..

﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا..

﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.. ثم ذكر **حال الخلق حين يلاقون يومهم الذي يوعدون**، فقال:..

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور..

﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها..

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ أي: كأنهم إلىٰ علم..

﴿يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ يؤمون ويسرعون، أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي رب العالمين..

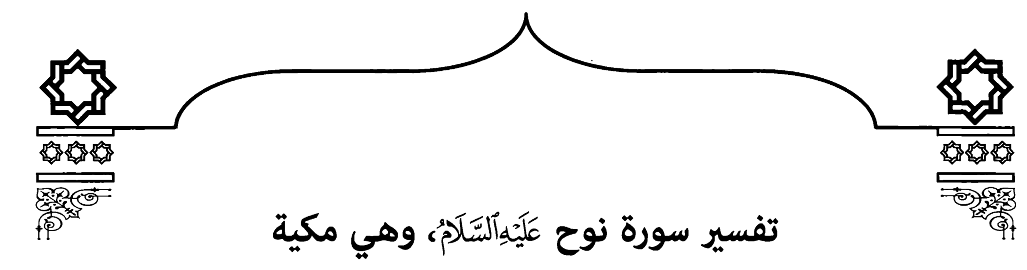
﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولىٰ علىٰ أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات..

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ ﴾ فهذه الحال والمآل، هو يومهم..

﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج:٤٠-٤٤] ولا بد من الوفاء بوعد الله.

تمت والحمد لله





تفسير سورة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي مكية

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾ [نوح:١]

لم يذكر الله في هذه السورة سوىٰ قصة نوح وحدها؛ لطول لُبثِه في قومه، وتكرارِ دعوته إلىٰ التوحيد، ونهيه عن الشرك..

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أخبر تعالىٰ أنه أرسله إلىٰ قومه، رحمة بهم..

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾ [نوح:١] وإنذارا لهم من عذاب الله الأليم، خوفا من استمرارهم علىٰ كفرهم، فيهلكهم الله هلاكًا أبديًا، ويعذبهم عذابًا سرمديًا.. فامتثل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لذلك، وابتدر لأمر الله، فـ..

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④﴾ [نوح:٢-٤]

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ②﴾ أي: واضح النذارة بيِّنها؛ وذلك لـ: توضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبـ: أي شيء تحصل النجاة، بيَّن جميع ذلك بيانًا شافيًا، فأخبرهم وأمرهم بزُبدَة ما يأمرهم به فقال:..

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ وذلك بإفراده تعالىٰ بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالثواب..

﴿وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك..

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلىٰ وقت محدود ، **وليس المتاع أبدًا**، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال:..

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح:٢-٤] لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق.. فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فـ..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ [نوح:٥-٩]

﴿قَالَ﴾ شاكيًا لربه:..

﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦﴾ أي: نفورًا عن الحق وإعراضًا، فلم يبق لذلك فائدة؛ لأنَّ **فائدة الدعوة** أن يحصل جميع المقصود أو بعضه..

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا غفرت لهم، فكان **هذا محض مصلحتهم**، ولكنهم أبوا إلا تماديًا علىٰ باطلهم، ونفورًا عن الحق..

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ حَذَرَ سماعِ ما يقولُ لهم نبيهم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعدًا عن الحق، وبغضًا له..

﴿وَأَصَرُّواْ﴾ علىٰ كفرهم وشرهم..

﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ علىٰ الحق..

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ فَشَرُّهم ازداد، وخَيرُهم بَعُد..

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨﴾ أي: بِمَسمَعٍ منهم كلِهم..

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ [نوح:٥-٩] كل **هذا حرص ونصح**، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح:١٠-١٢]

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، **فرغبهم بمغفرة الذنوب**، وما يترتب عليها من حصول الثواب، واندفاع العقاب.. **ورغبهم أيضا بخير الدنيا العاجل**، فقال:..

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ أي: مطرًا **متتابعًا**، يروي الشعاب والوِهاد، ويُحيي البلاد والعباد..

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم..

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح:١٠-١٢] وهذا من **أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.**

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح:١٣-١٤]

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر..

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح:١٣-١٤] **خلقًا من بعد خلق**: في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلىٰ آخر ما وصل إليه الخلق.. فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد.

🕮 الفـوائـد

في ذكر ابتداء خلقهم **تنبيه لهم علىٰ الإقرار بالمعاد**، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر علىٰ أن يعيدهم بعد موتهم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح:١٥-١٦]

واستدل أيضا عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ كل سماء فوق الأخرىٰ..

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ لأهل الأرض..

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح:١٥-١٦].

🕮 الفـوائـد

فيه **تنبيه علىٰ**: **عظم** خلق هذه الأشياء.. **وكثرة** المنافع في الشمس والقمر، **الدالة علىٰ رحمته** وسعة إحسانه، **فالعظيم الرحيم يستحق** أن يُعظَّم ويُحَبُّ ويُعبَد ويُخاف ويُرجىٰ.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح:١٧-١٨]

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه..

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عند الموت..

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح:١٧-١٨] للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح:١٩-٢٠]

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ مبسوطة مهيأة للانتفاع بها..

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح:١٩-٢٠] فلولا أنه بسطها لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء والسكون علىٰ ظهرها.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾ [نوح:٢١-٢٢]

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ شاكيًا لربه: إنَّ هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد..

﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ فيما أمرتهم به..

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ أي: **عصوا الرسول** الناصح الدال علىٰ الخير، **واتبعوا الملأ والأشراف** الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم..

﴿إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾ هلاكًا وتفويتًا للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟!

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ٢٢﴾ [نوح:٢١-٢٢] مكرًا كبيرًا بليغًا في معاندة الحق.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ٢٣﴾ [نوح:٢٣]

﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم داعين إلىٰ الشرك مزينين له:..

﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ فدعوهم إلىٰ **التعصب** علىٰ ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم **عينوا آلهتهم** فقالوا:..

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ٢٣﴾ [نوح:٢٣] وهذه أسماء **رجال صالحين**، لما ماتوا زيَّن الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا -بزعمهم- علىٰ الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصىٰ رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ٢٤﴾ [نوح:٢٤]

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ﴾ وقد أضل الكبارُ والرؤساء -بدعوتهم- كثيرًا من الخلق..

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ٢٤﴾ [نوح:٢٤] أي: لو كان ضلالهم -عند دعوتي إياهم- بحق لكان مصلحة، ولكن **لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالًا**، أي: **فلم يبق محل لنجاحهم**، ولا لصلاحهم، ولهذا ذكر الله **عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية**، فقال:..

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ٢٥﴾ [نوح:٢٥]

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بسبب خطيئاتهم..

﴿أُغْرِقُوا۟﴾ في اليم الذي أحاط بهم..

﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق، وأرواحهم للنار والحَرق، وهذا كله **بسبب خطيئاتهم**، التي أتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتىٰ حل بهم النكال..

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥﴾ [نوح:٢٥] ينصرونهم حين نزل بهم **الأَمْرُ الأَمَرُّ**، ولا أحدٌ يقدر يعارض القضاءَ والقدر.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح:٢٦-٢٧]

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ يدور علىٰ وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك فقال:..

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح:٢٦-٢٧] بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم.. وإنما قال نوح -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ذلك؛ لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، **علم بذلك نتيجة أعمالهم**، لا جرم أن الله **استجاب دعوته**، فأغرقهم أجمعين ونجىٰ نوحا ومن معه من المؤمنين.

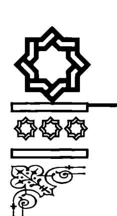
﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾ [نوح:٢٨]

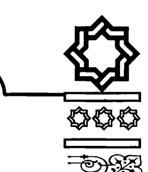
﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ خص المذكورين **لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء**، فقال:..

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾ [نوح:٢٨] أي: خسارًا ودمارًا وهلاكًا.

تم تفسير سورة (نوح) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والحمد لله







تفسير سورة قل أوحي إليَّ، [وهي] مكية

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن:١]

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس..

﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ صرفهم الله إلىٰ رسوله؛ لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجة، وتتم عليهم النعمة، ويكونوا نُذرًا لقومهم.. وأمر اللهُ رسولَه أن يقصَّ نبأهم علىٰ الناس، وذلك أنهم لَمَّا ﴿حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فلما أنصتوا فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلىٰ قلوبهم..

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن:١] أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن:٢]

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلىٰ مصالح دينهم ودنياهم..

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن:٢] **فجمعوا بين الإيمان** الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، **وبين التقوىٰ**، المتضمنة لترك الشر.

🕮 الفـوائـد

١- جعلوا **السبب الداعي لهم إلىٰ الإيمان** وتوابعه، ما علموه من **إرشادات القرآن**، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدىٰ بهديه.

٢- هذا **الإيمان النافع**، المثمر لكل خير، المبني علىٰ هداية القرآن، **بخلاف إيمان العوائد**، والمربي والإلف ونحو ذلك، فإنَّه إيمان تقليد، تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ [الجن:٣]

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ **تعالت عظمته وتقدست أسماؤه**..

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ [الجن:٣] فعلموا من جد الله وعظمته ما **دلهم علىٰ بطلان من يزعم أن له صاحبةً أو ولدًا**؛ لأنَّ له العظمة والكمال في كل صفة كمال، واتخاذ الصاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنىٰ.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ④﴾ [الجن:٤]

أي: قولًا جائرًا عن الصواب، متعديًا للحد، وما **حمله علىٰ ذلك إلا سفهه وضعف عقله**، وإلا فلو كان رزينًا مطمئنًا لعرف كيف يقول..

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ⑤﴾ [الجن:٥]

كنا مغترين قبل ذلك، **وغرنا القادة والرؤساء** من الجن والإنس، **فأحسنا بهم الظن**، وظنناهم لا يتجرأون علىٰ الكذب علىٰ الله، فلذلك كنا قبل هذا علىٰ طريقهم، فاليوم -إذ بان لنا الحق- رجعنا إليه، وانقدنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس يعارض الهدىٰ.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥﴾ [الجن:٦]

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ **أي: كان الإنس يعبدون الجن** ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع..

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥﴾ [الجن:٦] **فزاد الإنسُ الجنَّ رَهَقًا أي**: طغيانًا وتكبرًا، لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم.. **ويحتمل**: أن الضمير في ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ يرجع إلىٰ الجن ضمير (الواو)،

أي: زاد الجنُ الإنسَ ذُعرًا وتخويفًا لَمَّا رأوهم يستعيذون بهم؛ ليلجئوهم إلىٰ الاستعاذة بهم، فكان الإنسيُّ إذا نزل بواد مخوَّف، قال: (أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه).

﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨﴾ [الجن:٧-٨]

﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ۝٧﴾ **فلما أنكروا البعث أقدموا علىٰ الشرك والطغيان.**

﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أتيناها واختبرناها..

﴿فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا﴾ عن الوصول إلىٰ أرجائها والدنو منها..

﴿وَشُهُبٗا ۝٨﴾ [الجن:٧-٨] يرمىٰ بها من استرق السمع، وهذا **بخلاف عادتنا الأولىٰ**، فإنا كنا نتمكن منَ الوصول إلىٰ خبر السماء.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩﴾ [الجن:٩]

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله..

﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩﴾ [الجن:٩] أي: مُرصدًا له، مُعَدًا لإتلافه وإحراقه، أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأٌ جسيم.. وجزموا أن الله تعالىٰ أراد أن يُحدث في الأرض حادثًا كبيرًا، من خير أو شر، فلهذا قالوا:..

﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾ [الجن:١٠]

أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرًا أنكروه، **فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله**، ويحدثه في الأرض.

🕮 الفـوائـد

في هذا **بيان لأدبهم**، إذ أضافوا الخير إلىٰ الله تعالىٰ، والشر حذفوا فاعله تأدبًا مع الله.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجن:١١]

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: فساق وفجار وكفار..

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجن:١١] أي: فرقًا متنوعة، وأهواءً متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾ [الجن:١٢]

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي: وأنَّا في وقتنا الآن **تبين لنا** كمال قدرة الله وكمال عجزنا..

﴿أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأن **نواصينا بيد الله**، فلن نعجزه في الأرض..

﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾ [الجن:١٢]ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، **لا ملجأ منه إلا إليه**.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾ [الجن:١٣]

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ وهو **القرآن الكريم**، الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده، أثَّر في قلوبنا فـ..

﴿ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ ثم ذكروا ما يُرَغِّب المؤمنَ فقالوا:..

﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ إيمانًا صادقًا..

﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾ [الجن:١٣] أي: لا نقصًا ولا طغيانًا ولا أذىٰ يلحقه، وإذا سلم من الشر حصل له الخير.

📖 الفـوائـد

الإيمان سبب داع إلىٰ حصول كلِّ خير، وانتفاءِ كل شر.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجن:١٤]

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ﴾ **الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم..**

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجن:١٤] **أي: أصابوا طريق الرَّشَد، الموصل لهم إلىٰ الجنة ونعيمها.**

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن:١٥-١٦]

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ **وذلك جزاء علىٰ أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنهم لَوِ اسْتَقَامُوا..**

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ **لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ المُثلىٰ..**

﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن:١٥-١٦] هنيئًا مريئًا، **ولم يمنعهم ذلك إلا ظلمهم** وعدوانهم.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن:١٧]

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾ لنختبرهم فيه ونمتحنهم؛ **ليظهر الصادق** من الكاذب..

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ **أي:** من أعرض عن ذكر الله، **الذي هو كتابه، فلم يتبعه وينقد له، بل غفل عنه ولهىٰ..**

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن:١٧] **شديدًا بليغًا.**

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ **فإنَّ** المساجد -التي هي أعظم محال العبادة- **مبنية علىٰ الإخلاص لله**، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته..

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨] **لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة.**

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن:١٩]

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ **يسأله ويتعبد له** ويقرأ القرآن..

﴿كَادُواْ﴾ كاد **الجن من تكاثرهم** عليه..

﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن:١٩] متلبدين **متراكمين**؛ حرصًا علىٰ سماع ما جاء به من الهدىٰ.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾ [الجن:٢٠]

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أيها الرسول، **مبينًا حقيقة ما تدعو إليه**..

﴿إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أوحِّده وَحدَه لا شريك له..

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾ [الجن:٢٠] وأخلع ما دونه **من الأنداد والأوثان**، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجن:٢١-٢٢]

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ فإني عبد ليس **لي من الأمر** ولا من التصرف شيء..

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾ أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله..

﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجن:٢١-٢٢] أي: ملجأً ومنتصرًا.

🕮 الفوائد

إذا كان الرسول -الذي هو أكمل الخلق- لا يملك ضرًا ولا رشدًا، ولا يمنع نفسه من الله شيئًا إن أراده بسوء، **فغيره من الخلق من باب أولىٰ** وأحرىٰ.

﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن:٢٣]

﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصَّني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا تقوم الحجة على الناس..

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن:٢٣] وهذا المراد به **المعصية الكفرية**، كما قيَّدَتها النصوص الأُخَر المُحكَمة.

📖 الفـوائـد

مجرد المعصية لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾ [الجن:٢٤]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ شاهدوه عيانًا، **وجزموا أنه واقع** بهم..

﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت **حقيقة المعرفة**..

﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾ [الجن:٢٤] حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ **يحشرون فرادى** كما خُلِقوا أوَّل مرة.

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجن:٢٥-٢٦]

﴿قُلۡ﴾ لهم إن سألوك فقالوا: متى هذا الوعد؟

﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾ أي: **غاية طويلة، فعِلمُ ذلك عند الله**..

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجن:٢٥-٢٦] من الخلق، بل **انفرد** بعلم الضمائر والأسرار والغيب.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن:٢٧]

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ **فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم،** فإن الله أيَّدَهُم بتأييدٍ ما أيده أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتىٰ يبلغوه علىٰ حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا يزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال:..

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن:٢٧] **أي: يحفظونه بأمر الله.**

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن:٢٨]

﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ **بذلك..**

﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ **بما جعله لهم من الأسباب..**

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ **بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه..**

﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن:٢٨]..

📖 الفوائد

في هذه السورة فوائد كثيرة، منها:

١- **وجود الجن،** وأنهم **مكلفون** مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة.

٢- **أن رسول الله ﷺ رسول إلىٰ الجن،** كما هو رسول إلىٰ الإنس، فإن الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحىٰ إليه ويبلغوا قومهم.

٣- **ذكاء** الجن **ومعرفتهم** بالحق.

٤- أن الذي **ساقهم إلىٰ الإيمان** هو ما تحققوه من هداية القرآن.

٥- **حسن أدبهم** في خطابهم.

٦- **اعتناء الله برسوله،** وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مراصدها.

٧- **أن الله رحم به الأرض وأهلها** رحمة ما يُقدَّر لها قَدر، **وأراد بهم ربهم رشدًا.**

٨- **أن الله أراد أن يظهر من دينه وشرعه** ومعرفته في الأرض، **ما تبتهج به القلوب،** وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

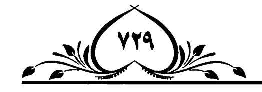
٩- شدة **حرص الجن لاستماع الرسول** ﷺ، وتراكمهم عليه.

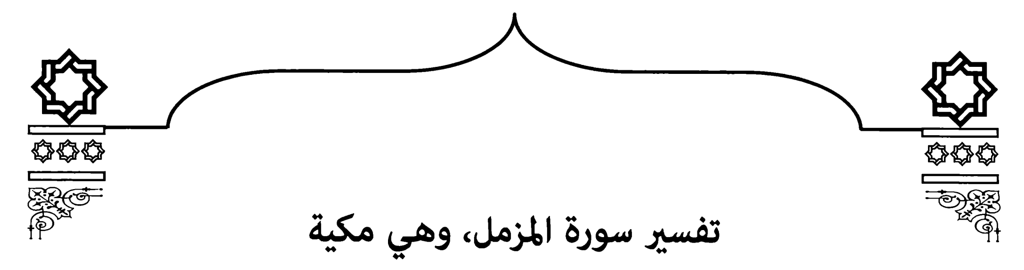
١٠- أن **علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها،** فلا يعلمها أحد من الخلق، **إلا من ارتضاه الله وخصه بعلم شيء منها.**

١١- أن **هذه السورة قد اشتملت على:**

- الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.
- وبينت حالةَ الخلق.
- وأن كلَّ أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأن الرسول محمدا ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط اتخاذ من هذا وصفه إلها آخر مع الله.

تم تفسير سورة (قل أوحي إليَّ) ولله الحمد





تفسير سورة المزمل، وهي مكية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل:١-١١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾ المزمل: **المتغطي بثيابه** كالمدثر.. وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ **حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه**، فرأىٰ أمرًا لم ير مثله، ولا يقدر علىٰ الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك انزعاج حين رأىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأتىٰ إلىٰ أهله، فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئ» فغطه حتىٰ بلغ منه الجهد، وهو يعالجه علىٰ القراءة، فقرأ ﷺ، ثم ألقىٰ الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتىٰ بلغ مبلغا ما بلغه أحد من المرسلين.. فسبحان الله، **ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها**، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.. **فأمره هنا** بالعبادات المتعلقة به، **ثم أمره** بالصبر علىٰ أذية أعدائه، **ثم أمره** بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلىٰ الله، **فأمره هنا بأشرف العبادات**، وهي الصلاة، **وبآكد الأوقات** وأفضلها، وهو قيام الليل.. **ومن رحمته تعالىٰ، أنه لم يأمره بقيام الليل كله**، بل قال:..

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ ثم قدر ذلك فقال:..

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ أي: من النصف..

﴿قَلِيلًا ۝٣﴾ بأن يكون الثلث ونحوه..

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: علىٰ النصف، فيكون الثلثين ونحوها..

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ فإنَّ ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال:..

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه.. ثم ذكر **الحكمة في أمره بقيام الليل**، فقال:..

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم..

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: أقرب إلىٰ تحصيل **مقصود القرآن**، **يتواطأ علىٰ القرآن القلب واللسان**، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، **وهذا بخلاف النهار**، فإنه لا يحصل به هذا المقصود ، ولهذا قال:..

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ ترددًا علىٰ حوائجك ومعاشك، **يوجب اشتغالَ القلب وعدمَ تفرغه** التفرغ التام..

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها..

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨﴾ انقطع إلىٰ الله تعالىٰ، فإن الانقطاع إلىٰ الله والإنابة إليه هو **الانفصال بالقلب عن الخلائق**، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه..

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وهذا اسم جنس **يشمل المشارق والمغارب كلها**، فهو تعالىٰ رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره..

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود إلا وجهه الأعلىٰ، الذي **يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم**، والإجلال والتكريم، ولهذا قال:..

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ حافظًا ومدبرًا لأمورك كلها.. فلما أمره الله بالصلاة خصوصا،

وبالذكر عموما، وذلك **يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال**، وفعل الثقيل من الأعمال، **أمره بالصبر**..

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ علىٰ ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه، ويسبون ما جاء به، وأن **يمضي علىٰ أمر الله، لا يصده عنه صاد**، ولا يرده راد..

﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ هو الهجر حيث اقتضت المصلحة، **الهجر الذي لا أذية فيه**، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن..

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، **وإن أمهلتهم فلا أهملهم**..

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أصحاب النعمة والغنىٰ، **الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه**، وأمدهم من فضله كما قال تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق]..

ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:..

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل:١-١١]..

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل:١٢-١٤]

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ إن عندنا..

﴿أَنكَالًا﴾ عذابًا شديدًا، جعلناه **تنكيلاً للذي لا يزال مستمرًا علىٰ الذنوب**..

﴿وَجَحِيمًا ۝١٢﴾ **نارًا حامية**..

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ **وذلك لمرارته وبشاعته**، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن..

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ موجعًا **مفظعًا**، وذلك..

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم..

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصمّ الصلاب..

﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل:١٢-١٤] بمنزلة الرمل المنهال المنتشر، **ثم إنها تُبَسُّ بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور**.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾ [المزمل:١٥-١٦]

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ **احمدوا ربكم** على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير..

﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ الشاهد **على الأمة بأعمالهم.. واشكروه** وقوموا بهذه النعمة الجليلة.. **وإياكم أن تكفروها**، فتعصوا رسولكم..

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥﴾ **فتكونوا كفرعون** حين أرسل الله إليه موسىٰ بن عمران، فدعاه إلىٰ الله، وأمره بالتوحيد..

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ فلم يصدقه، بل عصاه..

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾ [المزمل:١٥-١٦] فأخذه الله أخذا وبيلاً، أي: شديدًا بليغًا.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨﴾ [المزمل:١٧-١٨]

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة..

﴿يَوۡمٗا﴾ يوم المهيل أمره، العظيم قدره..

﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام..

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ فتتفطر به السماء **وتنتثر به نجومها**..

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨﴾ [المزمل:١٧-١٨] لا بد من وقوعه، **ولا حائل دونه**.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ [المزمل:١٩]

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الموعظة التي نبأَ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهواله..

﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾ يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون..

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ [المزمل:١٩] طريقًا موصلًا إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كلَّ البيان، وأوضحه غاية الإيضاح.

📖 **الفـوائـد**

في هذا **دليل علىٰ أن الله تعالىٰ أقدر العباد علىٰ أفعالهم**، ومكنَّهم منها، **لا كما يقوله الجبرية**: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل:٢٠]

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ **ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام** نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام.. **وذكر في هذا الموضع أنه امتثل** ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة علىٰ الناس، **أخبر أنه سهل عليهم** في ذلك غاية التسهيل فقال:..

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يعلم مقاديرهما **وما يمضي منهما ويبقىٰ**..

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تعرفوا **مقداره** من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباها وعناءً زائدًا..

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ ﴾ فخفف عنكم، وأمركُم بما تيسَّر عليكم، سواء زاد علىٰ المقدر أو نقص..

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ مما تعرفون ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأمورا بالصلاة ما دام نشيطا، فإذا فتر أو كسل أو نعس فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.. ثم ذكر **بعض الأسباب المناسبة للتخفيف**، فقال:..

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، **فليصل المريض المتسهل عليه**، ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة فله تركها، وله أجر ما كان يعمل صحيحا..

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وعلم أنَّ منكم **مسافرين** يسافرون للتجارة..

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ليستغنوا عن الخلق، **ويتكففوا عن الناس**، أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.. وكذلك..

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ فذكر تعالىٰ **تخفيفين: تخفيفًا للصحيح المقيم**، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرىٰ الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول.. **وتخفيفًا للمريض أو المسافر**، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة من قتال أو جهاد أو حج أو عمرة، ونحو ذلك، فإنه أيضًا يراعي ما لا يكلِّفه، فلله الحمد والثناء، الذي ما جعل علىٰ الأمة في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعىٰ أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.. **ثم أمر العباد بعبادتين** هما أم العبادات وعمادها: **إقامة الصلاة**، التي لا يستقيم الدين إلا بها، **وإيتاء الزكاة** التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:..

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها..

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ **خالصًا لوجه الله**، من نية صادقة، وتثبيت من النفس، ومال طيب.. ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة.. ثم حث علىٰ عموم الخير وأفعاله فقال:..

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ **الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة**..

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل:٢٠]..

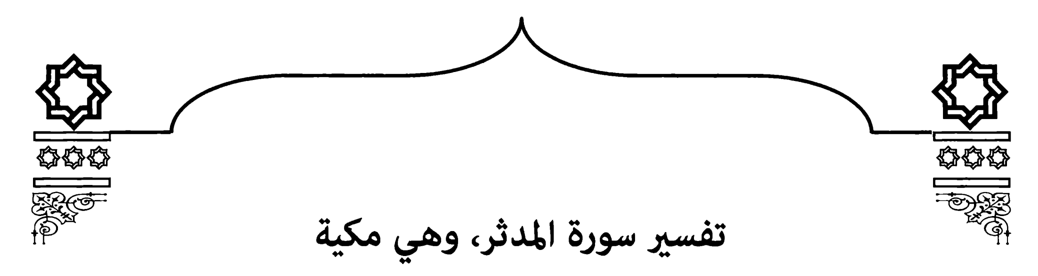
📖 **الفـوائـد**

١- ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ **فَلِيُعلم أَنَّ مثقالَ ذرةٍ من الخير -في هذه الدار- يقابله أضعاف أضعاف الدنيا**، وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، **فواأسفاه** علىٰ أوقات مضت في الغفلات، **وواحسرتاه** علىٰ أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، **وواغوثاه** من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها.. فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكىٰ، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

٢- **في الأمر بالاستغفار بعد الحث علىٰ أفعال الطاعة والخير** فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلًا أو يفعله علىٰ وجه ناقص، **فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار**، فإنَّ العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتىٰ لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة (المزمل)





تفسير سورة المدثر، وهي مكية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر:٦-٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ تقدم أن **المزمل والمدثر بمعنىٰ واحد**، وأن الله **أمر رسوله** ﷺ **بالاجتهاد في عبادة الله** القاصرة والمتعدية، **فتقدَّم هناك** الأمر له بالعبادات الفاضلة **القاصرة**، والصبر علىٰ أذىٰ قومه، **وأمره هنا** بإعلان الدعوة، والصدع بالإنذار، فقال:..

﴿قُمْ﴾ بجد ونشاط..

﴿فَأَنذِرْ ۝٢﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه؛ ليكون ذلك أدعىٰ لتركه..

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته..

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ **يحتمل**: أن **المراد بثيابه أعماله** كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها علىٰ أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، ونفاق ، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته.. **ويدخل في ذلك**: تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصا في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.. **ويحتمل**: أن **المراد بثيابه الثياب المعروفة**، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصًا في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأمورًا بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن..

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ **يحتمل**: أن **المراد بالرجز الأصنام والأوثان**، التي عبدت مع الله،

فأمره بتركها، والبراءة منها ومما نسب إليها من قول أو عمل.. **ويحتمل**: أن **المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله**، فيكون أمرًا له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه..

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ لا تمنن علىٰ الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتتكثر بتلك المنة، وترىٰ لك الفضل عليهم بإحسانك المنة، بل أحسن إلىٰ الناس مهما أمكنك، وانس عندهم إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالىٰ، واجعل من أحسنت إليه وغيره علىٰ حد سواء.. **وقد قيل**: إن معنىٰ هذا: **لا تعط أحدا شيئا وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه**، فيكون هذا خاصًا بالنبي ﷺ..

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر:٦-٧] احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالىٰ.

🕮 الفـوائـد

امتثل رسولُ الله ﷺ لأمر ربه، وبادر إليه:

فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية.

وعظَّم الله تعالىٰ، ودعا الخلق إلىٰ تعظيمه.

وطهَّر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء.

وهجر كل ما يبعد عن الله من الأصنام وأهلها، والشر وأهله.

وله المنة علىٰ الناس -بعد منة الله- من غير أن يطلب منهم علىٰ ذلك جزاء ولا شكورا.

وصبر لله أكمل صبر، فصبر علىٰ طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة، حتىٰ فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر:٨-١٠]

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨﴾ فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق للبعث والنشور..

﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ لكثرة أهواله وشدائده..

﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر:٨-١٠] لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار.

📖 الفـوائـد

مفهوم ذلك أنه علىٰ المؤمنين يسير، كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر:٨].

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ [المدثر:١١-١٧]

هذه الآيات، نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، **فذمه الله ذما لم يذمه غيرَه**، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، **أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزىٰ**، فقال:..

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١﴾ خلقته **منفردًا**، بلا مال ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أنميه وأربيه..

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢﴾ كثيرًا..

﴿وَبَنِينَ﴾ وجعلت له بنين **ذكورًا**..

﴿شُهُودٗا ۝١٣﴾ دائمًا حاضرين عنده، علىٰ الدوام يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم..

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤﴾ مكنته من الدنيا وأسبابها، حتىٰ انقادت له مطالبه، وحصل علىٰ ما يشتهي ويريد..

﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات..

﴿يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥﴾ يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا..

﴿كَلَّآۖ﴾ ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه..

﴿إِنَّهُۥ﴾ وذلك لأنه..

﴿كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ معاندًا، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلىٰ الحق فلم ينقد لها، ولم يكفه أنه أعرض وتولىٰ عنها، بل جعل يحاربها ويسعىٰ في إبطالها، ولهذا قال عنه:..

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر:١٢-١٧]..

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر:١٨-٣٠]

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ في نفسه..

﴿وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ ما فكر فيه، ليقول قولًا يبطل به القرآن..

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ لأنه قدَّر أمرًا ليس في طوره، وتسور علىٰ ما لا يناله هو ولا أمثاله..

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ ما يقول..

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضا له..

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولىٰ..

﴿وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ نتيجة سعيه الفكري والعملي والقولي..

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضا كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار.. فتبا له، ما أبعده من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب!! كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلىٰ الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، علىٰ وصفه كلام المبدئ المعيد؟! فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالىٰ:..

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ لا تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئا إلا وبلغته..

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾ تلوحهم، وتصليهم في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرها..

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر:١٨-٣٠] من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾ [المدثر:٣١]

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم..

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة**، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣].. **ويحتمل أن المراد**: أنا ما أخبرناكم بعدتهم إلا **لنعلم من يصدق ومن يكذب**، ويدل على هذا ما ذكر بعده في قوله:..

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ **فإن** أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم..

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليزول عنهم الريب والشك، **وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب**، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، **فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلا لهذه الفوائد الجليلة**، ومميزا للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال:..

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وشبهة ونفاق..

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله.. وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل ولهذا قال:..

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ فمن هداه الله جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمة في حقه، **والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم**..

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم..

﴿إِلَّا هُوَ ۚ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، **فعليكم أن تصدقوا خبره**، من غير شك ولا ارتياب..

﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر:٣١] وما هذه الموعظة والتذكار مقصودًا به العبث واللعب، وإنما **المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم** فيفعلونه، **وما يضرهم** فيتركونه.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر:٣٢-٣٧]

﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى: **حقًا**، أو بمعنى **(ألا) الاستفتاحية**..

﴿وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ فأقسم تعالى بالقمر..

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ وبالليل وقت إدباره..

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه، والمقسم عليه قوله:..

﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار..

﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة..

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته..

﴿أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر:٣٢-٣٧] عما خلق له، وعما يحبه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلىٰ نار جهنم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف:٢٩] الآية.

﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧﴾ [المدثر:٣٨-٤٧]

﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر..

﴿رَهِينَةٌ ٣٨﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب..

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾ فإنهم لم يرتهنوا، بل أطلقوا وفرحوا..

﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠﴾ في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتىٰ أقبلوا يتساءلون..

﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١﴾ فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أيّ حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالىٰ؟ فقال بعضهم لبعض: هل أنتم مطلعون عليهم، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم:..

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾ أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب استحققتموها؟ ف..

﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤﴾ فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين..

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥﴾ نخوض بالباطل، ونجادل به الحق..

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق يوم الدين، الذي هو محل الجزاء علىٰ الأعمال، وظهور ملك الله، وحكمه العدل لسائر الخلق.. فاستمرينا علىٰ هذا المذهب الفاسد..

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾ [المدثر:٣٨-٤٧] الموت، فلما ماتوا علىٰ الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر:٤٨-٥٦]

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ، وهؤلاء لا يرضىٰ الله أعمالهم.. فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب مما يفعل بهم، عطف علىٰ الموجودين بالعتاب واللوم، فقال:..

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾ صادين غافلين عنها..

﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ في نفرتهم الشديدة منها..

﴿حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠﴾ كأنهم حمر وحش نفرت فنفَّر بعضها بعضًا، فزاد عَدْوُهُا..

﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١﴾ من صائد ورام يريدها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور يدَّعون الدَعاوىٰ الكبار..

﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢﴾ نازلة عليه من السماء، **يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك،** وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم، فإنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال:..

﴿كَلَّاۖ﴾ **أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز..**

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣﴾ فلو كانوا يخافونها لما جرىٰ منهم ما جرىٰ..

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤﴾ الضمير إما أن يعود علىٰ هذه السورة، أو علىٰ ما اشتملت عليه من هذه الموعظة..

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ **لأنه قد بين له السبيل**، ووضح له الدليل..

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ **فإنَّ** مشيئته نافذة عامة، **لا يخرج عنها حادث قليل ولا** كثير..

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ **هو أهل أن** يتقىٰ ويعبد، **لأنه الإله** الذي لا تنبغي العبادة إلا له..

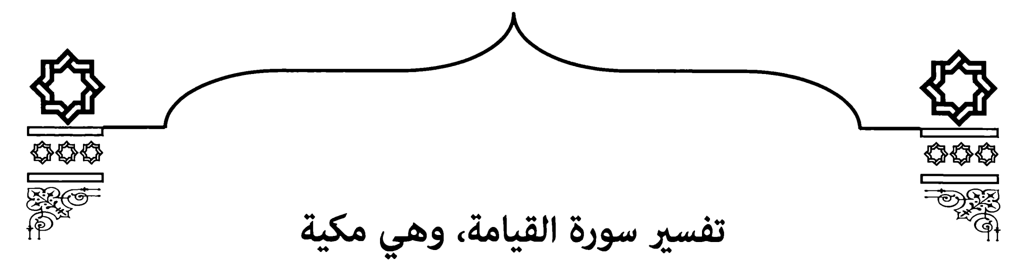
﴿وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر:٤٨-٥٦] وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

🕮 الفـوائـد

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ **فيها رد علىٰ القدرية**، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، **والجبرية** الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور علىٰ أفعاله، **فأثبت تعالىٰ للعباد مشيئة حقيقة وفعلا** وجعل ذلك تابعا لمشيئته.

تم تفسير سورة (المدثر) ولله الحمد





تفسير سورة القيامة، وهي مكية

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة:٥-٦]

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ ليست ﴿ لَآ ﴾ ها هنا نافية، ولا زائدة، وإنما أتي بها **للاستفتاح والاهتمام بما بعدها**، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.. **فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه**، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم..

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ وهي **جميع النفوس** الخيرة والفاجرة، **سميت (لوامة): لكثرة ترددها** وتلومها وعدم ثبوتها علىٰ حالة من أحوالها، **ولأنها عند الموت** تلوم صاحبها علىٰ ما عملت، بل **نفس المؤمن تلوم** صاحبها في الدنيا علىٰ ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة.. **فجمع بين** الإقسام بالجزاء، وعلىٰ الجزاء، وبين مستحق الجزاء.. **ثم أخبر** مع هذا، أن **بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة**، فقال:..

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨]، فاستبعد من جَهلِه وعُدوانِه قدرةَ الله علىٰ خلق عظامه التي هي عماد البدن، فردَّ عليه بقوله:..

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ أي: **أطراف** أصابعه وعظامه، **المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن؛** لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان فقد تمت خلقة الجسد..

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾ وليس إنكاره لقدرة الله تعالىٰ قصورا بالدليل الدال

علىٰ ذلك، وإنما وقع ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب بما أمامه من البعث.. والفجور: الكذب مع التعمد.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة:٥-٦] ثم ذكر أحوال القيامة فقال..

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة:٧-١٥]

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢- ٤٣]..

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ ذهب نوره وسلطانه..

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالىٰ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرىٰ العباد أنهما عبدان مسخران، وليرىٰ من عبدهما أنهم كانوا كاذبين..

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ حين يرىٰ تلك القلاقل المزعجات:..

﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ أين الخلاص والفكاك مما طرقنا وأصابنا؟

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ لا ملجأ لأحد دون الله..

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ لسائر العباد، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، **بل لا بد من إيقافه ليجزىٰ بعمله**، ولهذا قال:..

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ بجميع عمله الحسن والسيء، **في أول وقته وآخره**، وينبأ بخبر لا ينكره..

﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ شاهد ومحاسَب..

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة:٧-١٥] فإنها معاذير **لا تقبل**، ولا تقابل ما يقرر به العبد، فيقر به، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، فالعبد وإن

أنكر أو اعتذر عما عمله فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئًا؛ **لأنه** يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، **ولأن** استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩]

كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤]، وقال هنا:..

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ ثم ضَمِن له تعالىٰ أنَّه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله في صدره، فقال:..

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ فالحرص الذي في خاطرك إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك فلا موجب لذلك..

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ إذا كمل جبريل قراءة ما أوحىٰ الله إليك..

﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه..

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩] أي: بيان معانيه، **فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه**، وهذا أعلىٰ ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

🕮 الفـوائـد

١- في هذه الآية **أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم** قبل أن يفرغ من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

٢- وكذلك **إذا كان في أول الكلام** ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن **لا يبادر** برده أو قبوله، **حتىٰ يفرغ** من ذلك الكلام، **ليتبين** ما فيه من حق أو باطل، **وليفهمه** فهمًا يتمكن به

من الكلام عليه.

٣- وفيها: أن النبي ﷺ كما **بين للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بيَّن لهم معانيه.**

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝﴾ [القيامة:٢٠-٢١]

﴿كَلَّا بَلْ﴾ أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم..

﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها..

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝﴾ [القيامة:٢٠-٢١] وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها.. **لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة،** والإنسان مولع بحب العاجل.. والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها.. **وكأن هذه الدار هي دار القرار،** التي تبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آناء الليل والنهار.. **وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة،** وحصل من الخسار ما حصل.. **فلو آثرتم الآخرة على الدنيا،** ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتم، وربحتم ربحًا لا خسار معه، وفزتم فوزًا لا شقاء يصحبه.. ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا:..

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝﴾ حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح..

﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] تنظر إلى ربها على حسب مراتبهم: **منهم** من ينظره كلَّ يوم بكرةً وعشيا، **ومنهم** من ينظره كلَّ جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم فازدادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.. وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة:..

﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾ [القيامة:٢٤-٢٥]

﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤﴾ معبسة ومكدَّرة، خاشعة ذليلة..

﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾ [القيامة:٢٤-٢٥] عقوبة شديدة، وعذاب أليم، فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾ [القيامة:٢٦-٣٥]

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾ يعظ تعالىٰ عباده بذكر حال المحتضر عند السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال:..

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧﴾ من يرقيه، من الرقية؛ لأنهم **انقطعت آمالهم من الأسباب العادية،** فلم يبق إلا الأسباب الإلهية.. ولكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مرد له..

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾ للدنيا..

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾ اجتمعت **الشدائد** والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه..

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠﴾ فتساق إلىٰ الله تعالىٰ، حتىٰ يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها.. فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلىٰ ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها، ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمرا علىٰ بغيه وكفره وعناده..

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره..

﴿وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالحق في مقابلة التصديق..

﴿وَتَوَلَّىٰ ٣٢﴾ عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ﴾ بل يذهب..

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾ ليس على باله شيء.. توعده بقوله:..

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾ [القيامة:٢٦-٣٥] وهذه كلمات وعيد، كررها لتكرير وعيده.. **ثم ذكَّر الإنسانَ بخلقه الأول**، فقال:..

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾ [القيامة:٣٦-٤٠]

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾ معطلًا، لا يؤمر ولا ينهىٰ، ولا يثاب ولا يعاقب؟ هذا حسبان باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته..

﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ﴾ بعد المني..

﴿عَلَقَةٗ﴾ دمًا..

﴿فَخَلَقَ﴾ الله منها الحيوان..

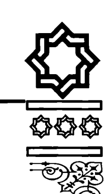
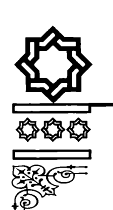
﴿فَسَوَّىٰ ٣٨﴾ وسواه، أي: أتقنه وأحكمه..

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق الإنسان وطوره إلىٰ هذه الأطوار المختلفة..

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾ [القيامة:٣٦-٤٠] بلىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير.

تم تفسير سورة (القيامة)، ولله الحمد والمنة

وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤هـ

تفسير سورة (هل أتى على الإنسان)، وهي مكية

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١
إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢
إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:١-٣]

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة **أوَّل حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها**.. فذكر أنه مرَّ عليه دهرٌ طويل، وهو الذي قَبلَ وجوده، وهو **معدوم** بل ليس مذكورًا..

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ثم لما أراد الله تعالىٰ خَلقَه، خَلَقَ أباه (آدم) من طين، ثم جعل نسله متسلسلًا..

﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ماءٍ مهينٍ مُستقذَر..

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بذلك لنعلم هل يرىٰ حاله الأولىٰ ويتفطن لها، أم ينساها وتغره نفسه؟

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ فأنشأه الله، وخلق له القوىٰ الباطنة والظاهرة، كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتمها له، وجعلها سالمةً يتمكن بها من تحصيل مقاصده..

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة إلىٰ الله، ورغبه فيها.. **وأخبره** بما له عند الوصول إلىٰ الله، **ثم أخبره** بالطريق الموصلة إلىٰ الهلاك، ورهبه منها، **وأخبره** بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك..

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:١-٣] **فانقسم الناس إلىٰ شاكر** لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه، **وإلىٰ كفور** لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلىٰ الهلاك.. ثم ذكر تعالىٰ **حال الفريقين عند الجزاء** فقال..

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ [الإنسان:٤]

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلىٰ آخر الثواب، أي: إنَّا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذَّب رسله، وتجرأ علىٰ المعاصي..

﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ في نار جهنم، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٢]..

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾ تغل بها أيديهم إلىٰ أعناقهم ويوثقون بها..

﴿وَسَعِيرًا ۝٤﴾ [الإنسان:٤] نارًا تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦]، وهذا العذاب دائم لهم أبدا، مخلدون فيه سرمدًا.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦﴾ [الإنسان:٥-٦]

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ وأما ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم، واستعملوها بأعمال البر أخبر أنهم..

﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ شراب لذيذ من خمر قد **مزج بكافور**، أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا، **فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة**، كما قال تعالىٰ: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٨- ٢٩]، ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [آل عمران: ١٥]، ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام:١٢٧]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزخرف:٧١]..

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاده، **بل له مادة لا تنقطع**، وهي عين دائمة الفيضان والجريان..

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦﴾ [الإنسان:٥-٦] يفجرها عباد الله تفجيرًا، **أنىٰ شاءوا، وكيف أرادوا،**

فإن شاءوا صرفوها إلىٰ البساتين الزاهرات، أو إلىٰ الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلىٰ أي: جهة يرونها من الجهات المونقات.. وقد ذكر **جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال:..**

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٧-٩]

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات..

﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ منتشرًا فاشيًا، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك..

﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدَّموا محبة الله علىٰ محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولىٰ الناس وأحوجهم..

﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالىٰ، ويقولون بلسان الحال:..

﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٧-٩] لا جزاءً ماليًا ولا ثناءً قوليًا.

🕮 الفوائد

إذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب عليهم، إلا بإيجابهم علىٰ أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولىٰ وأحرىٰ.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١﴾ [الإنسان:١٠-١١]

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾ شديد الجهمة والشر..

﴿قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠﴾ ضنكًا ضيقًا..

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ فـ ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]..

﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ أكرمهم وأعطاهم..

﴿نَضۡرَةً﴾ في وجوههم..

﴿وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان:١٠-١١] في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسًا وَلَا زَمۡهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلًا ۝١٤﴾ [الإنسان:١٢-١٤]

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ علىٰ طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة، فلم يتسخطوها..

﴿جَنَّةً﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص..

﴿وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣].. ولعل الله إنما **خص الحرير**، لأنه لباسهم الظاهر، **الدال علىٰ حال صاحبه**..

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس، **في حال الرفاهية، والطمأنينة الراحة**، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين..

﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا﴾ في الجنة..

﴿شَمۡسًا﴾ يضرهم حرها..

﴿وَلَا زَمۡهَرِيرًا ۝١٣﴾ بردًا شديدًا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد..

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلًا ۝١٤﴾ [الإنسان:١٢-١٤] قربت ثمراتها من مريدها تقريبا ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ۝١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ۝١٨﴾ [الإنسان:١٥-١٨]

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ ويطاف علىٰ أهل الجنة أي: يدور عليهم الخدم والولدان..

﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ مادتها من فضة، وهي علىٰ صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها علىٰ صفاء القوارير..

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ قدروا الأواني المذكورة علىٰ قدر ريهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف بريهم.. **ويحتمل أن المراد:** قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذاتهم، فأتتهم علىٰ ما قدروا في خواطرهم..

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ في الجنة..

﴿كَأْسًا﴾ من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق..

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ خلطها..

﴿زَنجَبِيلًا ۝١٧﴾ ليطيب طعمه وريحه..

﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ في الجنة..

﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ [الإنسان:١٥-١٨] سُمِّيت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان:١٩-٢١]

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ وَيَطُوفُ علىٰ أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم وخدمتهم..

﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ خُلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن..

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين في خدمتهم..

﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ من حسنهم..

﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩﴾ وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون علىٰ مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم..

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم..

﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ فتجد الواحد منهم عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف.. **ولديه** من البساتين الزاهرة والثمار الدانية والفواكه اللذيذة والأنهار الجارية والرياض المعجبة والطيور المطربة المشجية ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.. **وعنده** من الزوجات اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورًا، ولذةً وحبورًا.. **وحوله** من الولدان المخلدين، والخدم المؤبدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.. **ثم علاوة ذلك** وأعظمه الفوز برؤية الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه.. **والخلود الدائم**، وتزايد ما هم فيه من النعيم كلَّ وقت وحين.. فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، **فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه**..

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، **فالسندس**: ما غلظ من الديباج، **والإستبرق**: ما رق منه..

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولا؛ لأنه لا أصدق منه قيلًا ولا حديثًا..

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان:١٩-٢١] لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهِّرًا لما في بطونهم من كل أذىٰ وقذىٰ.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان:٢٢]

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل..

﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ علىٰ ما أسلفتموه من الأعمال..

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان:٢٢] القليل منه يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾ [الإنسان:٢٣-٢٧]

وقوله تعالىٰ لما ذكر نعيم الجنة..

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾ **فيه الوعد والوعيد،** وبيان كل ما يحتاجه العباد، **وفيه الأمر** بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر علىٰ ذلك، ولهذا قال:..

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ اصبر لحكمه **القدري**، فلا تسخطه، ولحكمه **الديني**، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق..

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك..

﴿ءَاثِمًا﴾ فاعلًا إثمًا ومعصية..

﴿أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾ ولا ﴿ كَفُورٗا ﴾، **فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لا بد أن تكون في المعاصي**، فلا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم.. ولما كان **الصبر يساعده القيام بعبادة الله**، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك فقال:..

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾ [الإنسان:٢٣-٢٧]

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾ أول النهار وآخره، **فدخل في ذلك** الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات..

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ أكثر له من السجود، **ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة..**

﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾ وقد تقدَّم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ ﴾ الآية..

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين لك أيها الرسول بعد ما بينت لهم الآيات، ورُغِّبوا ورُهِّبوا، ومع ذلك لم يفد فيهم ذلك شيئًا، بل لا يزالون..

﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ يؤثرون العَاجِلَةَ ويطمئنون إليها..

﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون العمل ويهملون..

﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ أمامهم..

﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ۝٢٧﴾ [الإنسان:٢٣-٢٧] وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر:٨] فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامةِ فيها.

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ۝٢٨﴾ [الإنسان:٢٨]

ثم استدل عليهم وعلىٰ بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال:..

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ أوجدناهم من العدم..

﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوىٰ الظاهرة والباطنة، حتىٰ تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، **فالذي أوجدهم علىٰ** هذه الحالة قادر علىٰ أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، **والذي نقلهم في هذه الدار** إلىٰ هذه الأطوار لا يليق به أن يتركهم سدىٰ، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:..

﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ۝٢٨﴾ [الإنسان:٢٨] أنشأناكم للبعث نشأة أخرىٰ، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩﴾ [الإنسان:٢٩]

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب..

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩﴾ [الإنسان:٢٩] طريقًا موصلاً إليه، فالله يبين الحق والهدىٰ، ثم **يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها**، مع قيام الحجة عليهم.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان:٣٠]

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فإن مشيئة الله نافذة..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان:٣٠] فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١﴾ [الإنسان:٣١]

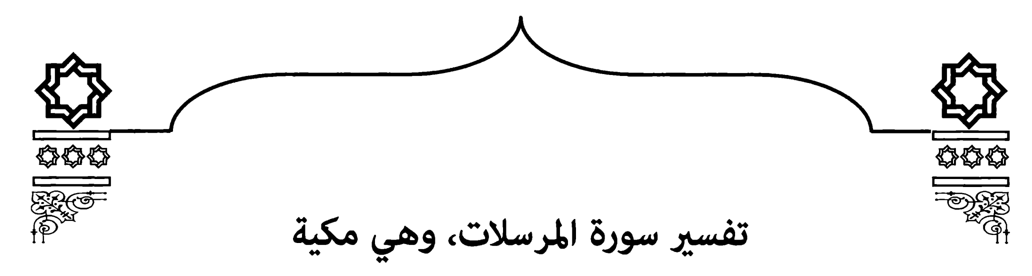
﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها..

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى..

﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١﴾ [الإنسان:٣١] بظلمهم وعدوانهم.

تم تفسير سورة (الإنسان) – ولله الحمد والمنة





تفسير سورة المرسلات، وهي مكية

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات:١-١٥]

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ أقسم تعالىٰ **علىٰ البعث** والجزاء بالأعمال، **بالمرسلات، وهي الملائكة** التي يرسلها الله تعالىٰ **بشئونه القدرية** وتدبير العالم، **وبشئونه الشرعية** ووحيه إلىٰ رسله..

﴿عُرْفًا ۝١﴾ حال من المرسلات، أي: أُرسلت بالعُرف والحكمة والمصلحة، لا بالنُكر والعَبث..

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ وهي أيضا الملائكة التي يرسلها الله تعالىٰ..

﴿عَصْفًا ۝٢﴾ وصفها **بالمبادرة** لأمره، **وسرعة** تنفيذ أوامره، كالريح العاصف.. أو: أن العاصفات الرياح الشديدة، التي **يسرع** هبوبها..

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ يحتمل أنها **الملائكة** تنشر ما دبرت علىٰ نشره.. أو أنها **السحاب** التي ينشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها..

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ هي الملائكة **تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر** الذي يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم، **تلقيه إلىٰ الرسل**..

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ إعذارًا وإنذارًا للناس، تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف، وتقطع معذرتهم، فلا يكون لهم حجة علىٰ الله..

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء علىٰ الأعمال..

﴿لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب..

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾ فإذا وقع حصل من التغير للعالم والأهوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشتد له الكروب، فتنطمس النجوم، أي: تتناثر وتزول عن أماكنها..

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠﴾ وتنسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعًا صفصفًا، لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتا..

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١﴾ وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:..

﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل.. ثم أجاب بقوله:

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤﴾ بين الخلائق، بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفردًا، ثم توعد المكذب بهذا اليوم فقال:..

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات:١-١٥] يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فاستحقوا العقوبة البليغة.

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ [المرسلات:١٦-١٩]

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ أما أهلكنا المكذّبين السابقين..

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧﴾ ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين..

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨﴾ وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه، فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ [المرسلات:١٩] بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والمثلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾ [المرسلات:٢٠-٢٤]

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أي: أما خلقناكم أيها الآدميون..

﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتىٰ جعله الله..

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١﴾ وهو الرحم، به يستقر وينمو..

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢﴾ ووقتٍ مقَّدر..

﴿فَقَدَرْنَا﴾ قدرنا ودبَّرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلىٰ العلقة، إلىٰ المضغة، إلىٰ أن جعله الله جسدًا، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك..

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ يعني بذلك نفسه المقدسة، حيث كان قدرًا تابعًا للحكمة، موافقًا للحمد..

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾ [المرسلات:٢٠-٢٤] بعدما بيَّن الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبينات.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾ [المرسلات:٢٥-٢٨]

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أمَا امتنَّنا عليكم وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها..

﴿كِفَاتًا ۝٢٥﴾ لكم..

﴿أَحْيَآءً﴾ في الدور..

﴿وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله علىٰ عباده ومنته، فكذلك القبور، رحمةً في حقهم، وسترًا لهم، عن كون أجسادهم باديةً للسباع وغيرها..

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات.

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ الشامخات، أي: الطوال العراض..

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ عذبًا، زُلالًا، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [الواقعة]..

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات:٢٥-٢٨] مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [المرسلات:٢٩-٣٤]

هذا من الويل الذي أعد للمجرمين للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة:..

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ثم فسر ذلك بقوله:..

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ إلىٰ ظل نار جهنم، التي **تتمايز في خلاله ثلاث شعب**، أي: قطع من النار أي: تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به..

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ **ذلك الظل، أي: لا راحة** فيه ولا طمأنينة..

﴿وَلَا يُغْنِي﴾ من مكث فيه..

﴿مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ بل اللهب قد **أحاط به**، يمنةً ويَسرةً ومن كل جانب، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١].. ثم **ذكر عظم شرر النار**، الدال علىٰ عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال:..

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وهي السود التي تضرب إلىٰ لون فيه صفرة، وهذا يدل علىٰ **أن النار مظلمة**، لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء، كريهة المرأىٰ، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقربة منها..

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [المرسلات:٢٩-٣٤]..

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المرسلات:٣٥-٤٠]

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾ أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه **من الخوف** والوجل الشديد..

﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧]..

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق..

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ﴾ تقدرون على الخروج من ملكي **وتنجون به من عذابي**..

﴿فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾ ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن:٣٣].. **ففي ذلك اليوم تبطل حيل الظالمين**، ويضمحل مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾ [المرسلات:٣٥-٤٠]..

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٤٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾ [المرسلات:٤١-٤٥]

لما ذكر عقوبة المكذبين، **ذكر ثواب المحسنين**، فقال:..

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات..

﴿فِي ظِلَٰلٖ﴾ من كثرة **الأشجار المتنوعة**، الزاهية البهية..

﴿وَعُيُونٖ ۝٤١﴾ جارية **من السلسبيل**، والرحيق وغيرهما..

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢﴾ من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم:..

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة..

﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ من غير منغص ولا مكدر، **ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص**، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل..

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فأعمالكم هي **السبب الموصل لكم إلىٰ هذا النعيم المقيم،** وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلىٰ عباد الله، ولهذا قال:..

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المرسلات:٤١-٤٥] ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفىٰ به حرمانا وخسرانا.

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات:٤٦-٥٠]

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ هذا تهديد ووعيد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستنقطع عنهم اللذات، وتبقىٰ عليهم التبعات..

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم:..

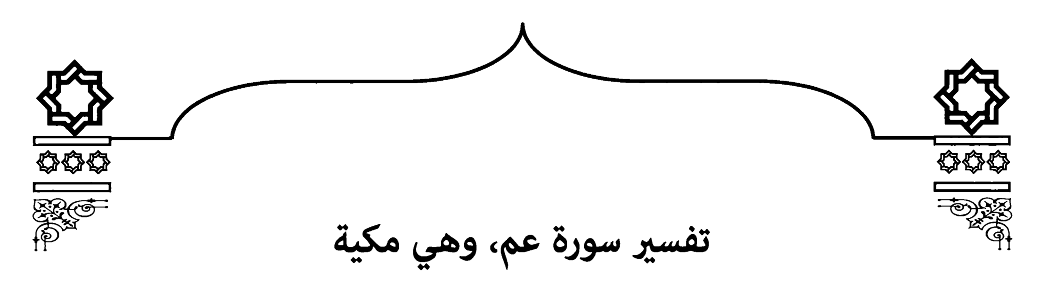
﴿ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ امتنعوا من ذلك، فأي إجرام فوق هذا؟! وأي تكذيب يزيد علىٰ هذا؟!

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ومن الويل عليهم أنهم تُسدُّ عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كلَّ خير.. فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلىٰ مراتب الصدق واليقين علىٰ الإطلاق..

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات:٤٦-٥٠] أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلا عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مبين؟.. فليس بعد النور المبين إلا دياجىٰ الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين علىٰ صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين، الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.. فتبا لهم ما أعماهم! وويحا لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم.

تمت





تفسير سورة عم، وهي مكية

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ:١-٥]

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾ عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال:..

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم علىٰ وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون بلقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتىٰ يروا العذاب الأليم، ولهذا قال:..

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ:١-٥] سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون، حين ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٤].. ثم بين تعالىٰ النعم والأدلة الدالة علىٰ صدق ما أخبرت به الرسل فقال:..

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ:٦-٧]

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم..

﴿الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾ ممهدة مهيأة لكم ولمصالحكم، من الحروث والمساكن والسبل..

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ:٦-٧] تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ:٨-١١]

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾﴾ ذكورًا وإناثًا من جنسٍ واحدٍ، ليسكن كلٌّ منهما إلىٰ الآخر، فتكون المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنانُ بلذة المنكح..

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ راحة لكم، وقطعا لأشغالكم..

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ التي متىٰ تمادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشىٰ الناس لتنقطع حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ:٨-١١]..

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ:١٢-١٦]

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سموات..

﴿شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس فقال:..

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ نبه بالسراج علىٰ النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة علىٰ حرارتها وما فيها من المصالح..

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السحاب..

﴿مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ كثيرًا جدًا..

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ من بر وشعير وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون..

﴿وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتا لمواشيهم..

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ:١٢-١٦] بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة..

فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة، التي لا يقدر قدرها، ولا يحصىٰ عددها، كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه علىٰ معاصيه وتجحدونها؟!

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ:١٧-٢٠]

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝١٧﴾ ذكر تعالىٰ ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وأن الله جعله ﴿ مِيقَـٰتًا ﴾ للخلق..

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتنزعج له القلوب، فتشقق السماء حتىٰ تكون أبوابًا..

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ:١٧-٢٠] فتسير الجبال، حتىٰ تكون كالهباء المبثوث.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾ [النبأ:٢١-٢٨]

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها..

﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ وجعلها مثوىٰ لهم و..

﴿مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ وأنهم يلبثون فيها أحقابًا كثيرة.. و(الحقب) علىٰ ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.. وهم إذا وردوها..

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤﴾ لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم..

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ ماءً حارًا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم..

﴿وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ وهو: صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق.. وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة..

﴿جَزَآءً﴾ لهم و..

﴿وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال:..

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للآخرة..

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذبوا بها..

﴿كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبأ:٢١-٢٨] تكذيبًا واضحًا صريحًا وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ:٢٩-٣٠]

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر..

﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾ كتبناه في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]..

﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم..

﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ:٢٩-٣٠] وكل وقت وحين يزداد عذابهم.. وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ:٣١-٣٦]

لما ذكر حال المجرمين ذكر مآل المتقين فقال:..

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه..

﴿مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ فلهم مفاز ومنجي، وبعد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم..

﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار..

﴿وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ وخص الأعناب لشرفها وكثرتها في تلك الحدائق..

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس (كَوَاعِبَ) وهي: النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهت من شبابها ونضارتها وقوتها..

﴿أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ اللاتي على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب..

﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤﴾ مملوءة من رحيق، لذة للشاربين..

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ كلامًا لا فائدة فيه..

﴿وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥﴾ إثمًا، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦ ﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦].. وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه..

﴿جَزَآءٗ﴾ لهم..

﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم..

﴿عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النبأ:٣١-٣٦] بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمنًا لجنته ونعيمها.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ:٣٧-٤٠]

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ الذي خلقها ودبرها..

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا.. ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم..

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾ ساكتون لا يتكلمون..

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، الذي هو أشرف الملائكة..

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيضًا، يقوم الجميع..

﴿صَفّٗاۖ﴾ خاضعين لله..

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ إلا بما أذن لهم الله به، فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابا، لأن..

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾ هو..

﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب، وفي ذلك اليوم.. فلما رغب ورهب، وبشر وأنذر، قال:..

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ عملًا وقَدَمَ صِدقٍ يرجعُ إليه يوم القيامة..

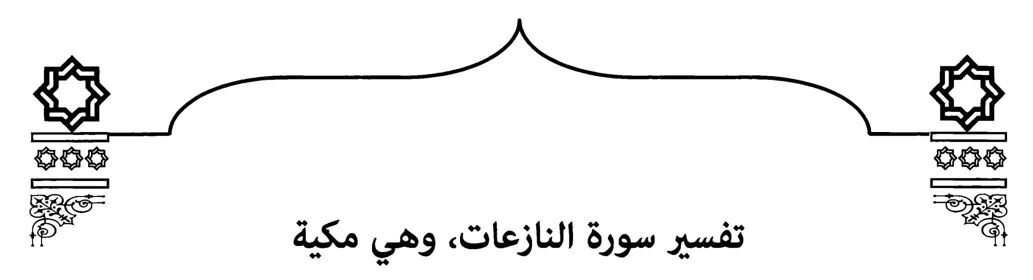
﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ لأنَّه قد أزِف مُقبلًا، وكل ما هو آت فهو قريب..

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ هذا الذي يهمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨] الآيات.. فإن وجد خيرا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم..

﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ:٣٧-٤٠] نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة (عم)، والحمد لله رب العالمين





تفسير سورة النازعات، وهي مكية

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النازعات:١-٥]

هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة علىٰ كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره.. **يحتمل**: أن **المقسم عليه الجزاء والبعث**، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك.. **ويحتمل**: أن **المقسم عليه والمقسم به متحدان**، وأنه أقسم علىٰ الملائكة، **لأن** الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، **ولأن** في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال:..

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ وهم الملائكة التي **تنزع الأرواح بقوة**..

﴿غَرۡقٗا ١﴾ وتغرق في نزعها حتىٰ تخرج الروح، فتجازىٰ بعملها..

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾ وهم الملائكة أيضا، **تجتذب الأرواح** بقوة ونشاط.. أو أن **النزع** يكون لأرواح المؤمنين، **والنشط** لأرواح الكفار..

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ المترددات في الهواء صعودًا ونزولًا..

﴿سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ لغيرها..

﴿سَبۡقٗا ٤﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلىٰ رسل الله حتىٰ لا تسترقه..

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النازعات:١-٥] الملائكة الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيرًا من أمور العالم العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار، وغير ذلك.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات:٦-١٤]

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ وهي قيام الساعة..

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ الرجفة الأخرىٰ التي تردفها وتأتي تلوها..

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ موجفة ومنزعجة من شدة ما ترىٰ وتسمع..

﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩﴾ ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف، واستولت عليهم الحسرة..

﴿يَقُولُونَ﴾ الكفار في الدنيا، علىٰ وجه التكذيب:..

﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١﴾ بالية فتاتًا..

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢﴾ استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاما نخرة، جهلًا منهم بقدرة الله، وتجرؤًا عليه.. قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه:.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣﴾ ينفخ فيها في الصور..

﴿فَإِذَا هُم﴾ فإذا الخلائق كلهم..

﴿بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات:٦-١٤] علىٰ وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:١٥-٢٦]

يقول الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ:..

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه، أي: هل أتاك حديثه..

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء فقال له..

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقولٍ ليِّن، وخطابٍ لطيف، لعله ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]..

﴿فَقُلْ﴾ له:..

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلىٰ الإيمان والعمل الصالح؟..

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه..

﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم.. فامتنع فرعونُ مما دعاه إليه موسىٰ..

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي: جنس الآية الكبرىٰ، فلا ينافي تعددها، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧-١٠٨]..

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالحق..

﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الأمر..

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته..

﴿فَحَشَرَ﴾ جنوده، أي: جمعهم..

﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ﴾ لهم:..

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم..

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ صارت عقوبته دليلًا وزاجرًا، ومبينةً لعقوبةِ الدنيا والآخرة..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:١٥-٢٦] فإن من يخشىٰ الله هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأىٰ عقوبةَ فرعون عرف أن كلَّ من تكبر وعصىٰ وبارز الملِكَ الأعلىٰ، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من تَرَحَّلَت خشيةُ اللهِ من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن بها.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات:٢٧-٢٩]

يقول تعالىٰ مبينًا دليلًا واضحًا لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد:..

﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها البشر..

﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر..

﴿بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ الله..

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ جرمها وصورتها..

﴿فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾﴾ بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب..

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه، فعمت الظلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض..

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات:٢٧-٢٩] أظهر فيه النور العظيم، حين أتىٰ بالشمس، فامتد الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:٣٠-٣٣]

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد خلق السماء..

﴿دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ أودع فيها منافعها، وفسر ذلك بقوله:..

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ ثبّتها في الأرض..

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:٣٠-٣٣] **فدحىٰ الأرض بعد خلق السماء**، كما هو نص هذه الآيات الكريمة، **وأما خلق نفس الأرض فمتقدِّم علىٰ خلق السماء**، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:٩-١١].. **فالذي خلق** السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، **لا بد أن يبعث الخلق المكلفين**، فيجازيهم علىٰ

أعمالهم، فمن أحسن فله الحسنىٰ ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزاء، فقال:..

﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات:٣٤-٣٦]

﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ إذا جاءت القيامة الكبرىٰ، والشدة العظمىٰ، التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محب عن حبيبه، و..

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنىٰ زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا سوىٰ الأعمال..

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات:٣٤-٣٦] جعلت في البَرَاز، ظاهرةً لكل أحد، قد برزت لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ جاوز الحد، بأن تجرأ علىٰ المعاصي الكبار، ولم يقتصر علىٰ ما حده الله..

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ علىٰ الآخرة فصار سعيه لها، ووقته مستغرقًا في حظوظها وشهواتها، ونسيَ الآخرة وترك العمل لها..

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩] له، أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١]

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ خاف القيام عليه، ومجازاته بالعدل، فأَثَّر هذا الخوف في قلبه..

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ فنهىٰ نَفسَهُ عن هواها الذي يقيدهاعن طاعة الله، وصار هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوىٰ والشهوة الصادين عن الخير..

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ﴾ المشتملة علىٰ كل خير وسرور ونعيم..

﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات:٤٠-٤١] لمن هذا وصفه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات:٤٢-٤٦]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث..

﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متىٰ وقوعها و..

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾ فأجابهم الله بقوله:..

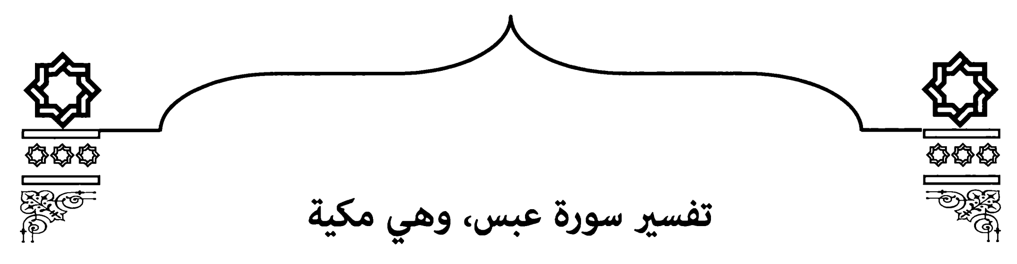
﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾ ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ **فليس تحت ذلك نتيجة**، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوىٰ علمُ ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال:..

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ إليه ينتهي علمُها، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]..

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ إنما نذارتك نفعها لمن يخشىٰ مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوىٰ الاستعداد لها والعمل لأجلها.. وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تَعَنُّتٌ مبني علىٰ العناد والتكذيب، وإذا وصل إلىٰ هذه الحال، كان **الإجابة عنه عبثًا، ينزه الحكيم عنه.**

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات:٤٢-٤٦]..

تمت والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة عبس، وهي مكية

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس:١-١٠]

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه جاء رجل من المؤمنين أعمىٰ يسأل النبي صلىٰ الله عليه ويتعلم منه، وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصًا علىٰ هداية الخلق، فمال ﷺ وأصغىٰ إلىٰ الغني، وصد عن الأعمىٰ الفقير، رجاءً لهداية ذلك الغني، وطمعا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال:..

﴿عَبَسَ﴾ في وجهه..

﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ في بدنه..

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ لأجل مجيء الأعمىٰ له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال:..

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ﴾ الأعمىٰ..

﴿يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرىٰ.. وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك علىٰ من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك منك، هو الأليق الواجب..

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي، لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك..

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ فإنه ليس عليك أن لا يزكىٰ، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب علىٰ ما عمله من الشر..

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس:١-١٠] **فدل هذا على** القاعدة المشهورة، أنه: **لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم**، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه، أزيد من غيره.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١١-١٦]

﴿كَلَّآ﴾ حقًا..

﴿إِنَّهَا﴾ إن هذه الموعظة..

﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك..

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ عمل به، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف:٢٩] ، ثم ذكر مَحلَّ هذه التذكرة، وعِظَّمَها، ورَفَع قَدرَها، فقال:..

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر والرتبة..

﴿مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ من الآفاق وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي..

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ وهم الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين عباده..

﴿كِرَامٍۭ﴾ كثيري الخير والبركة..

﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١١-١٦] قلوبهم وأعمالهم.. وذلك كله **حفظ من الله لكتابه،** أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلًا، وهذا مما **يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول،** ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورا، ولهذا قال تعالى:..

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس:١٧-٢٣]

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧﴾ لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعد ما تبيَّن..

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾ وهو ما هو؟! هو من أضعف الأشياء..

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ خلقه الله من ماء مهين..

﴿فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾ ثم قدَّرَ خلقه، وسواه بشرًا سويًا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة..

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ يسَّر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل، وبيَّنه وامتحنه بالأمر والنهي..

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١﴾ أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها علىٰ وجه الأرض..

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ بعثه بعد موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك..

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ [عبس:١٧-٢٣] وهو -مع هذا- لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصرا تحت الطلب.. ثم أرشده تعالىٰ إلىٰ النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره له فقال:..

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢﴾ [عبس:٢٤-٣٢]

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥﴾ أنزلنا المطر علىٰ الأرض بكثرة..

﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ للنبات..

﴿شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ أصنافًا مصنَّفةً من أنواع الأطعمة اللذيذة، والأقوات الشهية..

﴿حَبّٗا ۝٢٧﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب علىٰ اختلاف أصنافها..

﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨﴾ وهو القتُّ..

﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩﴾ وخَصَّ هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها..

﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠﴾ بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة..

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.. والأَب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال:..

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس:٢٤-٣٢] التي خلقها الله وسخرها لكم.. فمن نظر في هذه النعم أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال علىٰ طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس:٣٣-٣٧]

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ مما يرىٰ الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال..

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه..

﴿مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته..

﴿وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ وذلك لأنه..

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس:٣٣-٣٧] قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلىٰ غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلىٰ فريقين: سعداء وأشقياء.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس:٣٨-٤٢]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ فأما السعداء، فوجوههم يومئذ..

﴿مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ قد ظهر فيها السرور والبهجة..

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم..

﴿وَوُجُوهٌ﴾ الأشقياء..

﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا﴾ تغشاها..

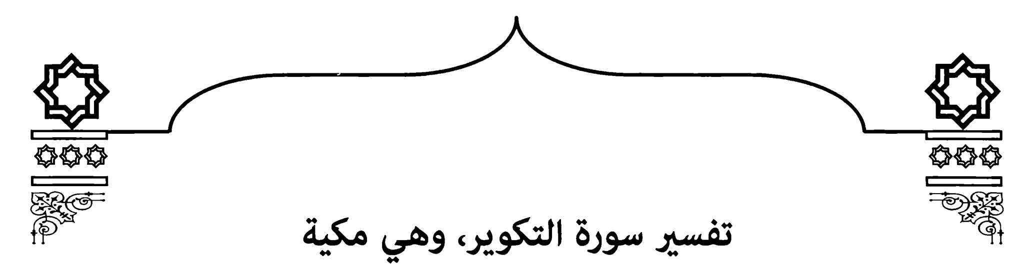
﴿قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف..

﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس:٣٨-٤٢] الذين كفروا بنعمة الله وكذَّبوا بآيات الله، وتجرأوا علىٰ محارمه.. نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم.

والحمد لله رب العالمين





تفسير سورة التكوير، وهي مكية

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير:١-١٤]

إذا حصلت هذه الأمور الهائلة، تميز الخلق، وعلم كل أحد ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك..

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إذا كان يوم القيامة تكور الشمس، أي: تجمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار..

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ تغيرت، وتساقطت من أفلاكها..

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ صارت كثيبًا مهيلًا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباءً منبثا، وسيرت عن أماكنها..

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ عطَّلَ الناسُ حينئذ نفائسَ أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، **فنبه بالعشار** -وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم- **علىٰ ما هو في معناها** من كل نفيس..

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ جُمِعَت ليوم القيامة، ليقتص الله من بعضها لبعض، ويرىٰ العبادُ كمال عدله، حتىٰ إنَّه ليقتصُّ من القرناء للجمَّاء، ثم يقول لها: كوني ترابا..

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ أُوقِدَت فصارت -على عظمها- نارًا تتوقد..

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ قرن كلُّ صاحب عمل مع نظيره، فجمع **الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار**، وزُوِّجَ المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧٣]، ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]..

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ وهو الذي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر..

﴿سُئِلَتْ ۝٨﴾ فتسأل:..

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ففي هذا **توبيخ وتقريع لقاتليها**..

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر..

﴿نُشِرَتْ ۝١٠﴾ وفُرِّقَت على أهلها، فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره..

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ أزيلت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ﴾ [الفرقان:٢٥]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧]..

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ أوقد عليها فاستعَرَت، والتهبت التهابًا لم يكن لها قبل ذلك..

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ قُرِّبَت للمتقين..

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ كلُّ نفسٍ، لإتيانها في سياق الشرط..

﴿مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير:١-١٤] ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف:٤٩].

📖 الفوائد

هذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، **وتحث أولي الألباب**

للاستعداد لذلك اليوم، **وتزجرهم** عن كل ما يوجب اللوم، **ولهذا قال بعض السلف**: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليتدبر سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾ [التكوير:١٥-٢٥]

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥﴾ **أقسم تعالىٰ** ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ وهي الكواكب التي تُخنَّس، أي: **تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلىٰ جهة المشرق**، وهي النجوم السبعة السيارة: الشمس، والقمر، والزهرة، والمشترىٰ، والمريخ، وزحل، وعطارد.. **فهذه السبعة لها سَيران**: سير إلىٰ جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.. فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها..

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ وفي حال جريانها..

﴿ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار.. **ويحتمل** أن المراد بها جميع النجوم الكواكب السيارة وغيرها..

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾ أدبر، وقيل: أقبل..

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ بانت علائم الصبح، **وانشق النور شيئًا فشيئًا** حتىٰ يستكمل وتطلع الشمس.. وهذه آيات عظام، أقسم الله بها علىٰ علو سند القرآن وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم فقال:..

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ وهو: جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نزل به من الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشعراء]، ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثره خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه..

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ علىٰ ما أمره الله به، **ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم**..

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: جبريل **مقرب عند الله**، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها..

﴿مَكِينٍ ۝٢٠﴾ له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم..

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: جبريل مطاع في الملأ الأعلىٰ، لديه من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه..

﴿أَمِينٍ ۝٢١﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدىٰ ما حُدَّ له.. وهذا كله يدل علىٰ **شرف القرآن** عند الله تعالىٰ، فإنَّه بعث به هذا المَلَكَ الكريم، الموصوفَ بتلك الصفات الكاملة، **والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات،** وأشرف الرسائل.. ولما ذكر فضل الرسول المَلَكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس فقال:..

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ وهو محمد ﷺ..

﴿بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقوِّلون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به ما شاءوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً وأجزلهم رأيًا، وأصدقهم لهجة..

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأىٰ محمدٌ ﷺ جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ الذي هو أعلىٰ ما يلوح للبصر..

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ وما هو علىٰ ما أوحاه الله إليه بمتهم، يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه.. بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين.. فلم يَشُح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرءوس، ولا ذكر ولا أنثىٰ، ولا حضري ولا بدوي.. ولذلك بعثه الله في أمةٍ أميَّة، جاهلةٍ جهلاء.. **فلم يمت ﷺ حتىٰ كانوا علماء ربانيين**، وأحبارًا متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهىٰ في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم..

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾ [التكوير:١٥-٢٥] لما ذكر جلالة كتابه وفَضلَه بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلىٰ الناس علىٰ أيديهما، وأثنىٰ الله عليهما بما أثنىٰ، **دفع**

عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير:٢٦-٢٩]

﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦﴾ كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتىٰ جعلتم الحق الذي هو في أعلىٰ درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون وأرذل وأسفل الباطل؟ هل **هذا إلا من انقلاب الحقائق..**

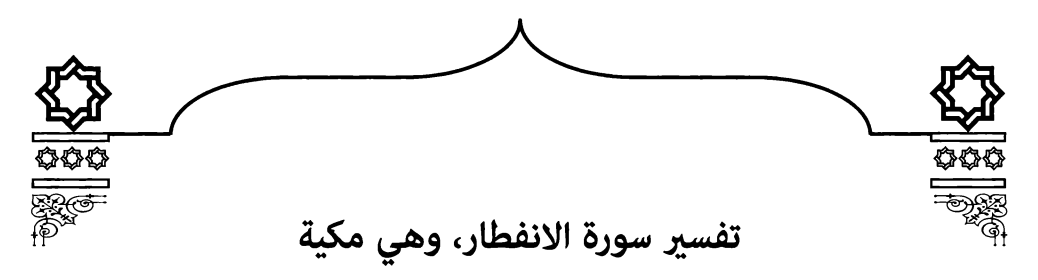
﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين..

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ بعد ما تبين الرشد من الغي، والهدىٰ من الضلال..

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير:٢٦-٢٩] **فمشيئته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمانع.. وفي هذه الآية وأمثالها رد علىٰ فرقتي القدرية النفاة، والقدرية المجبرة،** كما تقدم مثلها، والله أعلم.

والحمد لله





تفسير سورة الانفطار، وهي مكية

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار:١-٥]

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ أي: إذا انشقت السماء وانفطرت..

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ وانتثرت نجومها، وزال جمالها..

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ وفجرت البحار فصارت بحرًا واحدًا..

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ وبعثرت القبور بأن أخرجت ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء علىٰ الأعمال..

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار:١-٥] فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيًا، وتعلم كلُّ نفس ما معها من الأرباح والخسران.. **هنالك** يعض الظالم علىٰ يديه إذا رأىٰ أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي.. **وهنالك** يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم، والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:٦-١٢]

يقول تعالىٰ معاتبا للإنسان المقصِّر في حقِّ ربِّه، المتجرئ علىٰ مساخطه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ أتهاونًا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟ أليس هو..

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ في أحسن تقويم؟

﴿فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ وركَّبك تركيبًا قويمًا معتدلًا في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟ إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات؛ فلهذا قال تعالىٰ:..

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ مع هذا الوعظ والتذكير، لا تزالون مستمرين علىٰ التكذيب بالجزاء..

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١﴾ وأنتم لا بد أن تحاسبوا علىٰ ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكةً كرامًا يكتبون أقوالكم وأفعالكم..

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:٦-١٢] ويعلمون أفعالكم.. **ودخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح**، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم وتحترموهم.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار:١٣-١٩]

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ المراد بالأبرار، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر، في أعمال القلوب وأعمال الجوارح..

﴿لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار..

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين **فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم**..

﴿لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ عذاب أليم، في دار الدنيا ودار البرزخ وفي دار القرار..

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويعذبون بها أشد العذاب..

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ يوم الجزاء علىٰ الأعمال..

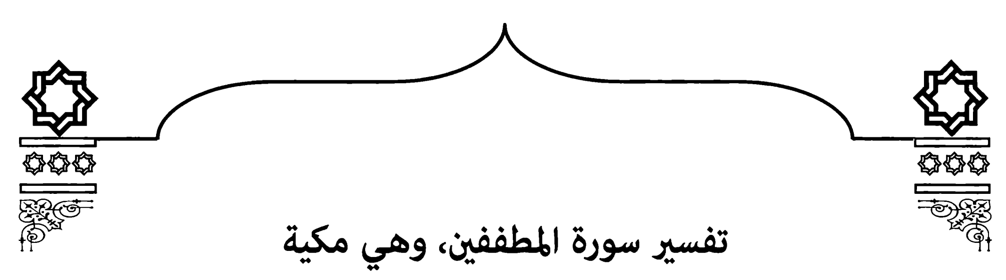
﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها..

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان..

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ ولو كانت لها قريبة أو حبيبة مصافية، فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها..

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار:١٣-١٩] فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه.

والله أعلم



تفسير سورة المطففين، وهي مكية

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين:١-٦]

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب، ووعيد..

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ وفسر الله المطففين بقوله..

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أخذوا منهم وفاءً عما ثبت لهم قِبَلَهم..

﴿يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ يستوفونه كاملًا من غير نقص..

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ إذا أعطوا الناس حقَّهم، الذي للناس عليهم بكيل أو وزن..

﴿يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك، فهذا سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم.. ثم توعد تعالىٰ المطففين، وتعجَّب من حالهم وإقامتهم علىٰ ما هم عليه، فقال:..

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين:١-٦] فالذي جَرَأَهم علىٰ التطفيف عدمُ إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدىٰ الله، يحاسبهم علىٰ القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

🕮 الفـوائـد

١- إذا كان هذا الوعيد علىٰ الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، **فالذي يأخذ أموالهم قهرًا أو سرقة، أولىٰ بهذا الوعيد** من المطففين.

٢- دلت الآية الكريمة، علىٰ **أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن**

يعطيهم كل ما لهم، من الأموال والمعاملات.

٣- **يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات**، فإنه كما أن المتناظرَين قد جرت العادة أن كلًّ واحد منهما يحرص على ما له من الحُجَج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن **ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته** هو، وفي هذا الموضع **يعرف إنصاف الإنسان** من تعصبه واعتسافه، **وتواضعه** من كبره، **وعقله** من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين:٨-٩]

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ **وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين، والفاسقين..**

﴿لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ **ثم فسر ذلك بقوله:..**

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ **والسجين: المحل الضيق الضنك.. و﴿سِجِّينٌ﴾ ضد ﴿عِلِّيِّينَ﴾ الذي هو محل كتاب الأبرار، كما سيأتي.. وقد قيل: إن ﴿سِجِّينٌ﴾ هو أسفل الأرض السابعة، مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم..**

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين:٨-٩] **كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة.**

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ [المطففين:١٠-١٧]

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ **ثم بين المكذبين بأنهم..**

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾ **يوم الجزاء، يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم..**

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ علىٰ محارم الله، متعد من الحلال إلىٰ الحرام..

﴿أَثِيمٍ ١٢﴾ كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه علىٰ التكذيب، ويوجب له كبره رد الحق، ولهذا..

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة علىٰ الحق، وعلىٰ صدق ما جاءت به رسله، كذَّبها وعاندها، و..

﴿قَالَ﴾ هذه..

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ من ترهات المتقدمين، وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله، تكبرًا وعنادًا.. وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنَّه لا يُكذِّب بيوم الدين؛ لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار..

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ بخلاف من ران علىٰ قلبه كَسبُه، وغطته معاصيه..

﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي علىٰ ذلك، بأن حجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله..

﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ﴾ مع هذه العقوبة البليغة..

﴿لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم توبيخًا وتقريعًا:..

﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ [المطففين:١٠-١٧]..

🕮 الفـوائـد

١- ذكر لهم **ثلاثة أنواع من العذاب**: عذاب **الجحيم**، وعذاب **التوبيخ** واللوم، وعذاب **الحجاب من رب العالمين**، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

٢- دل مفهوم الآية، علىٰ أن **المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة**، وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

٣- في هذه الآيات، **التحذير من الذنوب**، فإنها تَرين على القلب وتُغطيه شيئًا فشيئًا، حتىٰ ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرىٰ الباطل حقًا، والحق باطلًا وهذا من بعض عقوبات الذنوب.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين:١٨-٢١]

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها..

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾ عليون: اسم لأعلىٰ الجنة..

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠﴾ وأن كتابهم المرقوم..

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين:١٨-٢١] من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، وينوه الله بذكرهم في الملأ الأعلىٰ.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين:٢٢-٢٦]

فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم..

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢﴾ وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن..

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ علىٰ السرر المزينة بالفرش الحسان..

﴿يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ إلىٰ ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلىٰ وجه ربهم الكريم..

﴿تَعۡرِفُ﴾ أيها الناظر إليهم..

﴿فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ أي: بهاء النعيم ونضارته ورونقه، فإنَّ توالي اللذة والسرور يكسب الوجه نورًا وحسنًا وبهجة..

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها..

﴿مَّخْتُومٍ ۝٢٥﴾ ذلك الشراب..

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ **يحتمل**: أن المراد **مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته**، أو يفسد طعمه، وذلك الختام، الذي ختم به، مسك.. **ويحتمل**: أن المراد أنه **الذي يكون في آخر الإناء** الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة..

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النعيم المقيم، الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله..

﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين:٢٢-٢٦] يتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه، فهذا أولىٰ ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرىٰ ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين:٢٧-٢٨]

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ ومزاج هذا الشراب..

﴿مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا﴾ من تسنيم، وهي عين..

﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين:٢٧-٢٨] صِرفًا، وهي **أعلىٰ أشربة الجنة** علىٰ الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلىٰ الخلق منزلة، **وممزوجة لأصحاب اليمين**، أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين:٢٩-٣٦]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩﴾ لما ذكر تعالىٰ جزاء المجرمين وجزاء المؤمنين، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم، ويضحكون منهم..

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقارًا لهم وازدراءً، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف علىٰ بالهم..

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ صباحًا أو مساءً..

﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾ مسرورين مغتبطين.. وهذا من **أعظم ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا**، حتىٰ كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة..

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدىٰ، وأن المؤمنين ضالون، افتراء علىٰ الله، وتجرأوا علىٰ القول عليه بلا علم..

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾ وما أرسلوا وكلاء علىٰ المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتىٰ يحرصوا علىٰ رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالىٰ:..

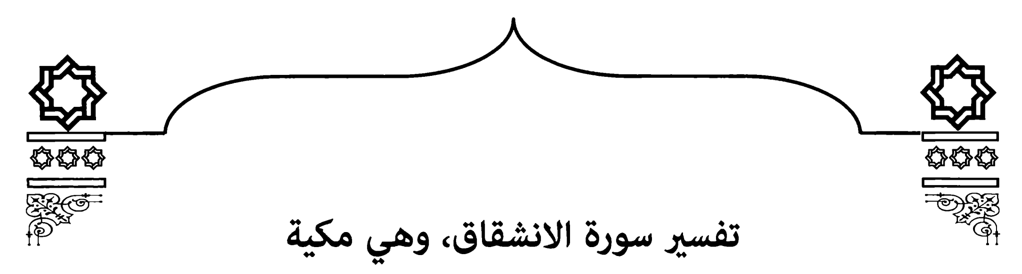
﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يوم القيامة..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة..

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر المزينة..

﴿يَنظُرُونَ ٣٥﴾ إلىٰ ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلىٰ وجه ربهم الكريم..

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين:٢٩-٣٦] هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.. نعم، ثُوِّبُوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.



تفسير سورة الانشقاق، وهي مكية

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ١٥﴾ [الانشقاق:١-١٥]

يقول تعالىٰ مبينًا لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام:..

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها..

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه..

﴿وَحُقَّتۡ ٢﴾ وحق لها ذلك، فإنها مُسَخَّرة مُدَبَّرة تحت مُسَخِّرِ مَلِكٍ عظيم، لا يُعصىٰ أمرُه، ولا يُخالفُ حُكمه..

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣﴾ رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدَّها الله تعالىٰ مدَّ الأديم، حتىٰ صارت واسعةً جدًا، تسع أهل الموقف علىٰ كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتا..

﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز..

﴿وَتَخَلَّتۡ ٤﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلىٰ وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتىٰ تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق،

ويتحسرون علىٰ ما هم فيه يتنافسون..

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾ إنك ساع إلىٰ الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاءً بالفضل إن كنت سعيدًا، أو بالعدل إن كنت شقيًا.. ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال:..

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ وهم أهل السعادة..

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ وهو العرض اليسير علىٰ الله، فيقرره الله بذنوبه، حتىٰ إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله تعالىٰ له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم»[1]..

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة..

﴿مَسْرُورًا ۝٩﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب..

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ أي: بشماله من خلفه..

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها..

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب علىٰ عذابها..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ وذلك لأنه..

﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الدنيا..

﴿مَسْرُورًا ۝١٣﴾ لا يخطر البعث علىٰ باله، وقد أساء..

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ ولم يظن أنه راجع إلىٰ ربه وموقوف بين يديه..

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾ [الانشقاق:١-١٥] فلا يحسن أن يتركه سدىٰ، لا يؤمر ولا ينهىٰ، ولا يثاب ولا يعاقب.

---

(١) أخرجه البخاري [٧٢٨٨] وقد تقدم.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾ [الانشقاق:١٦-٢٥]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل..

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ احتوىٰ عليه من حيوانات وغيرها..

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ امتلأ نورًا بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله:..

﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أيها الناس..

﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ أطوارًا متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلىٰ العلقة، إلىٰ المضغة، إلىٰ نفخ الروح، ثم يكون وليدًا وطفلا ثم مميزًا، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازىٰ بأعماله.. **فهذه الطبقات** المختلفة الجارية علىٰ العبد، **دالة** علىٰ أن الله وحده هو المعبود، الموَحَّد، المدبِّر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون..

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ٢١﴾ لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه..

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾ يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإنَّ المكذِّب بالحق عنادًا لا حيلة فيه..

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ بما يعملونه وينوونه سرًا، فالله يعلم سرَّهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال..

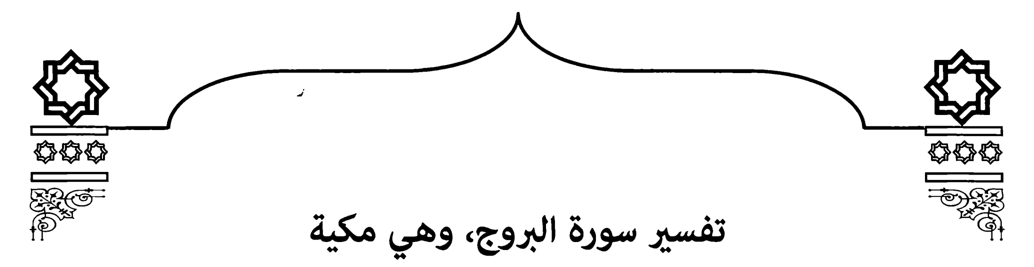
﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًا.. فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومن الناس فريق هداهم الله، فآمنوا بالله، وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فآمنوا..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهؤلاء..

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق:١٦-٢٥] غير مقطوع، بل هو أجرٌ دائمٌ مِمَّا لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

تم تفسير السورة، ولله الحمد



تفسير سورة البروج، وهي مكية

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج:١-٣]

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ ذات المنازل المشتملة علىٰ منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، علىٰ أكمل ترتيب ونظام دال علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ ورحمته، وسعة علمه وحكمته..

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد..

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج:١-٣] وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف، أي: مبصِر ومبصَر، وحاضر ومحضور، وراء ومرئي.. **والمقسم عليه** ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة.. **وقيل**: إن المقسم عليه قوله..

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج:٤-٩]

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.. و﴿ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ الحفر التي تحفر في الأرض.. وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فَشَقَّ الكافرون أخدودًا في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر علىٰ الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا

لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ ثم فسر الأخدود بقوله:..

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧﴾ وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها..

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة يُمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله..

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي له العزة التي قهر بها كل شيء..

﴿ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾ وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله..

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه..

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج:٤-٩] علمًا وسمعًا وبصرًا، أفلا خاف هؤلاء المتمردون علىٰ الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله، ليس لأحد علىٰ أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم علىٰ فعالهم؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمىٰ عن سواء السبيل..

ثم وعدهم، وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال:..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٠-١٦]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠﴾ العذاب الشديد المحرق.. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انظروا إلىٰ هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلىٰ التوبة.. ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال:..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم..

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم..

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته..

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]..

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك..

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب..

﴿ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء.. فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه التابعة لذلك لا يشبهها شيء من أنواع المحاب.. ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها.. وإن لم يكن غيرها تبعًا لها، كانت عذابًا علىٰ أهلها.. وهو تعالىٰ الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].. والمودة هي المحبة الصافية..

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ صاحب العرش العظيم.. الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلىٰ العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض.. وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالىٰ.. وهذا علىٰ قراءة الجر، يكون ﴿ ٱلۡمَجِيدُ ﴾ نعتا للعرش.. وأما علىٰ قراءة الرفع فإن المجيد نعت لله.. والمجد سعة الأوصاف وعظمتها..

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٠-١٦] مهما أراد شيئًا فعله، إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون.. وليس أحدٌ فعالًا لما يريد إلا الله، فإن المخلوقات ولو أرادت شيئًا فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد.. ثم ذكر من أفعاله الدالة علىٰ صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾.

📖 **الفـوائـد**

في هذا سر لطيف، حيث قرن (الودود) بـ(الغفور)، ليدل ذلك علىٰ أن **أهل الذنوب إذا تابوا إلىٰ الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم**، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل له راحلة عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو علىٰ تلك الحال، إذا راحلته علىٰ رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.. فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج:١٧-٢٢]

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين..

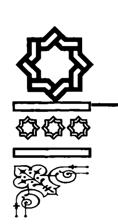
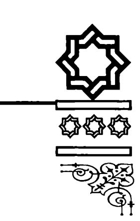
﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾ لا يزالون مستمرين علىٰ التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تجدي لديهم العظات..

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ قد أحاط بهم علمًا وقدرة، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، ففيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره..

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم..

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج:١٧-٢٢] من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.. وهذا يدل علىٰ جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالىٰ، والله أعلم.

تم تفسير السورة

تفسير سورة الطارق، وهي مكية

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطارق:١-٤]

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾ **ثم فسر الطارق بقوله:..**

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات، فينفذ حتىٰ يرىٰ في الأرض.. والصحيح أنه اسم جنس **يشمل سائر النجوم الثواقب**.. وقد قيل: إنه (زُحل) الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها فيرىٰ منها.. وسمي طارقًا لأنه يطرق ليلا.. والمقسم عليه قوله:..

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطارق:١-٤] **يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازىٰ بعملها المحفوظ عليها.**

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق:٥-١٠]

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق..

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ وهو: المني الذي..

﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ **يحتمل** أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها.. **ويحتمل** أن المراد المنيَّ الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه.. **ولعل هذا أولىٰ**، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس به ويشاهد دفقه هو مني الرجل.. وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب

للرجل بمنزلة الثديين للأنثىٰ، فلو أريدت الأنثىٰ لقال: (من بين الصلب والثديين) ونحو ذلك، والله أعلم..

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾ فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، **قادر علىٰ رجعه في الآخرة**، وإعادته للبعث، والنشور والجزاء.. **وقد قيل**: إن معناه، **أن الله علىٰ رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر**، وهذا -وإن كان المعنىٰ صحيحًا- فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده:..

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر علىٰ صفحات الوجوه قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران:١٠٦] ففي الدنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عيانًا للناس، وأما في القيامة، فيظهر بر الأبرار، وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية..

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ﴾ يدفع بها عن نفسه..

﴿وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾ [الطارق:٥-١٠] خارجي ينتصر به، فهذا القسم علىٰ حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.. **ثم أقسم قسمًا ثانيًا علىٰ صحة القرآن**، فقال:..

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢
إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾ [الطارق:١١-١٤]

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾ **ترجع** السماء بالمطر كل عام، **وتنصدع** الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم.. **وترجع** السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلهية كل وقت، **وتنصدع** الأرض عن الأموات..

﴿إِنَّهُۥ﴾ القرآن..

﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣﴾ حق وصدق بيِّن واضح..

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾ [الطارق:١١-١٤] جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق:١٥-١٧]

﴿إِنَّهُمْ﴾ المكذبين للرسول ﷺ، وللقرآن..

﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل..

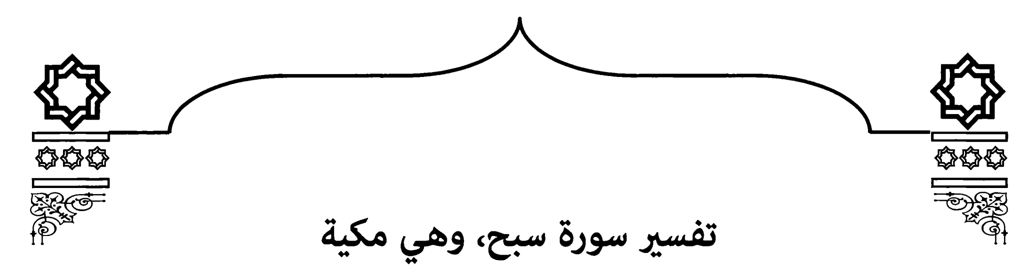
﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاءوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده..

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق:١٥-١٧] أي: قليلًا فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة (الطارق)، والحمد لله رب العالمين







تفسير سورة سبح، وهي مكية

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ [الأعلىٰ:١-٨]

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ يأمر تعالىٰ بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحًا يليق بعظمة الله تعالىٰ، بأن تُذكر أسماؤه الحسنىٰ العالية علىٰ كل اسم بمعناها الحسن العظيم، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها..

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات..

﴿فَهَدَىٰ ۝٣﴾ إلىٰ ذلك جميع المخلوقات.. وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه **هدىٰ كل مخلوق لمصلحته**، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها:..

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ أنزل من السماء ماء فأنبت به أنواع النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان ، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوىٰ نباته، وصوح عشبه..

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ أسود، أي: جعله هشيمًا رميمًا، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا امتنَّ اللهُ بأصلها ومنشئها، وهو القرآن، فقال:..

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعيه قلبك..

﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ منه شيئًا.. وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه علمًا لا ينساه.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة..

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد..

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ [الأعلىٰ:١-٨] وهذه أيضًا **بشارة كبيرة**، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرىٰ في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسرا.

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلىٰ:٩-١٥]

﴿فَذَكِّرۡ﴾ بشرع الله وآياته..

﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ ما دامت الذكرىٰ مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرىٰ جميع المقصود أو بعضه.. فالذكرىٰ ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين، فأما المنتفعون، فقد ذَكَرَهم بقوله:..

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾ الله تعالىٰ، فإن خشية الله تعالىٰ، وعلمه بأن سيجازيه علىٰ أعماله، توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي والسعي في الخيرات.. وأما غير المنتفعين، فذَكَرَهم بقوله:..

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢﴾ وهي النار الموقدة، التي تطلع علىٰ الأفئدة..

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣﴾ يعذب عذابًا أليمًا، من غير راحة ولا استراحة، حتىٰ إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر:٣٦]..

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ قد فاز وربح من طهَّرَ نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق..

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلىٰ:٩-١٥] اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصًا الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنىٰ الآية

الكريمة.. وأما من فسَّر قوله ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾ بمعني أخرج زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أنه صلاة العيد، فإنَّه وإن كان داخلا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنىٰ وحده.

🕮 الفـوائـد

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ **مفهوم الآية:** أنه إن لم تنفع الذكرىٰ، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرىٰ مأمورًا بها، بل منهيًا عنها.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلىٰ:١٦-١٩]

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦﴾ تقدمونها علىٰ الآخرة، **وتختارون نعيمها المنغص** المكدر الزائل علىٰ الآخرة..

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب..

﴿وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧﴾ وأبقىٰ لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، **فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ علىٰ الأجود،** ولا يبيع لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها علىٰ الآخرة رأس كل خطيئة..

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة..

﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلىٰ:١٦-١٩] اللَّذين هما أشرف المرسلين، سوىٰ النبي محمد صلىٰ الله وسلم عليه وسلم.. فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلىٰ مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة (سبح)، ولله الحمد




تفسير سورة الغاشية، وهي مكية

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية:١-٧]

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١﴾ يذكر تعالىٰ أحوالَ يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشىٰ الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلىٰ فريقين: فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير.. فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في وصف أهل النار:..

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة..

﴿خَاشِعَةٌ ۝٢﴾ من الذل، والفضيحة والخزي..

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣﴾ تاعبة في العذاب، تجر علىٰ وجوهها، وتغشىٰ وجوههم النار.. **ويحتمل** أن المراد بقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ ﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباء منثورا.. **وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا** من حيث المعنىٰ، فلا يدل عليه سياق الكلام، **بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول.. لأنه** قيده بالظرف، وهو يوم القيامة.. **ولأن** المقصود هنا بيان وصف أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلىٰ أهلها.. **ولأن** الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا..

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان..

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾ حارة شديدة الحرارة، ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] فهذا شرابهم، وأما طعامهم فـ..

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية:١-٧] **وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين:** إما أن **يسد جوع** صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن **يسمن بدنه من الهزال**، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة نسأل الله العافية.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ [الغاشية:٨-١٦]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ وأما أهل الخير، فوجوههم **يوم القيامة**..

﴿نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور..

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلىٰ عباد الله..

﴿رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها..

﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها..

﴿عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلىٰ عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية، يُشرُفُون منها علىٰ ما أعدَّ الله لهم من الكرامة، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣] أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها علىٰ أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة..

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ أي: الجنة..

﴿لَاغِيَةً ۝١١﴾ كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع، مشتمل علىٰ ذكر الله تعالىٰ، وذكر نعمه المتواترة عليهم، وعلىٰ الآداب المستحسنة بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور..

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ وهذا اسم جنس، أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا، وأنىٰ أرادوا..

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ و(السرر) جمع (سرير) وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة..

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون..

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ وسائد من الحرير والاستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصفوها بأنفسهم..

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية:٨-١٦] والزرابي: هي البسط الحسان، مبثوثة: أي مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]

يقول تعالىٰ حثًا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة علىٰ توحيده:..

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ ألا ينظرون إلىٰ خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها..

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرضوثباتها عن الاضطراب، وأودع فيها من المنافع الجليلة ما أودع..

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] مدت مدًا واسعًا، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق علىٰ ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك الطرق الموصلة إلىٰ أنواع المقاصد فيها.

📖 **الفوائد**

اعلم أن **تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة**، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل علىٰ ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس علىٰ أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر، وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة، فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافىٰ الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٦]

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلىٰ الله وتذكيرهم..

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلا بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥]..

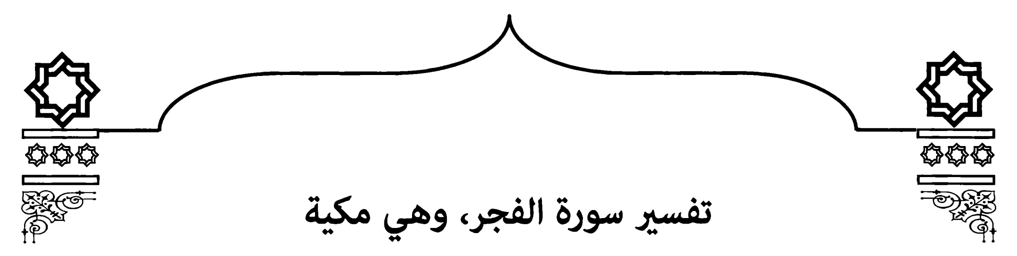
﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ لكن من تولىٰ عن الطاعة وكفر بالله..

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ الشديد الدائم..

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ رجوع الخليقة وجمعهم في يوم القيامة..

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٦] فنحاسبهم علىٰ ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة (الغاشية)، والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الفجر، وهي مكية

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾ [الفجر:١-٥]

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١﴾ أقسم تعالىٰ بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار.. **لـ: ما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات** الدالة علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، وأنه وحده المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.. **ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة**، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر..

﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ وهي علىٰ الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو عشر ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة علىٰ أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.. **وفي ليالي عشر رمضان** ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.. **وفي أيام عشر ذي الحجة** الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رئي الشيطان أحقر ولا أدحر منه في يوم عرفة، لما يرىٰ من تنزل الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة مستحقة لأن يقسم الله بها..

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ وقت سريانه وإرخائه ظلامه علىٰ العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون، رحمة منه تعالىٰ وحكمة..

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور..

﴿قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾ [الفجر:١-٥] لذي عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

📖 **الفوائد**

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾ الظاهر أن المقسم به، **هو المقسم عليه**، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمرًا ظاهرًا مهمًا، وهو كذلك في هذا الموضع.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر:٦-١٤]

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك..

﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي..

﴿إِرَمَ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن..

﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧﴾ القوة الشديدة، والعتو والتجبر..

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾ مثل عاد..

﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ في جميع البلدان في القوة والشدة، كما قال لهم نبيهم هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]..

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ وادي القرىٰ، نحتوا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن..

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾ ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها..

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١﴾ هذا الوصف عائد إلىٰ (عاد) و(ثمود) و(فرعون) و(من تبعهم)، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال:..

﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾ وهو العمل بالكفر وشُعَبِهِ، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل، وصد الناس عن سبيل الله..

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذَنُوبًا وسوطَ عذاب..

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر:٦-١٤] لمن عصاه يمهله قليلا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر:١٥-٢٠]

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥﴾ يخبر تعالىٰ عن **طبيعة الإنسان من حيث هو**، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل علىٰ كرامته عنده وقربه منه..

﴿وَأَمَّآ إِذَا﴾ وأنه إذا..

﴿مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ ضيقه، فصار يقدر قوته لا يفضل منه..

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحسبان: بقوله..

﴿كَلَّاۖ﴾ ليس كل من نعمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدَّرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنىٰ والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد، ليرىٰ من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه علىٰ ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فينقله إلىٰ العذاب الوبيل.. وأيضًا، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله علىٰ عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال:..

﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلىٰ جبر خاطره والإحسان إليه، فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل علىٰ عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير..

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ لا يحض بعضكم بعضًا علىٰ إطعام المحاويج من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح علىٰ الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال:..

﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ المال المخلَّف..

﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩﴾ ذريعًا، لا تبقون علىٰ شيء منه..

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر:١٥-٢٠] كثيرًا شديدًا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلىٰ]، ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠﴾ [القيامة].

﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾ [الفجر:٢١-٢٣]

﴿كَلَّآۖ﴾ ليس كل ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات، بباق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم..

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتىٰ تجعل قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمت..

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ويجيء الله تعالىٰ لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام..

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم..

﴿صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار..

﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل، فإذا وقعت هذه الأمور فـ..

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ما قدمه من خير وشر..

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾ [الفجر:٢١-٢٣] فقد فات أوانها، وذهب زمانها.

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر:٢٤-٣٠]

﴿يَقُولُ﴾ متحسرًا علىٰ ما فرط في جنب الله:..

﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ الدائمة الباقية، عملا صالحًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٨].. وفي الآية دليل علىٰ أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها وفي تتميم لذاتها هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء..

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له..

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون علىٰ وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين، وأما من اطمأن إلىٰ الله وآمن به وصدق رسله، فيقال له:..

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾ إلىٰ ذكر الله، الساكنة إلىٰ حبه، التي قرت عينها بالله..

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدىٰ عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه..

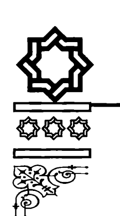
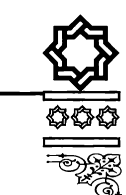
﴿رَاضِيَةٗ﴾ عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب..

﴿مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ والله قد رضي عنها..

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر:٢٤-٣٠] وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به حال الموت.

والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة (لا أقسم بهذا البلد)، مكية

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد:١-١٠]

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ **يقسم تعالىٰ ﴿ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان علىٰ الإطلاق..**

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾ خصوصًا وقت حلول الرسول ﷺ فيها..

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣﴾ آدم وذريته.. والمقسم عليه قوله:..

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾ **يحتمل**: أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه **ينبغي له أن يسعىٰ في عمل يريحه من هذه الشدائد**، ويوجب له الفرح والسرور الدائم، وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.. **ويحتمل أن المعنىٰ**: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم **خلقة مقدر علىٰ التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك فإنه لم يشكر الله** علىٰ هذه النعمة العظيمة ، بل بطر بالعافية وتجبر علىٰ خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال تعالىٰ:..

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥﴾ ويطغىٰ ويفتخر بما أنفق من الأموال علىٰ شهوات نفسه، فـ..

﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦﴾ كثيرًا، بعضه فوق بعض.. وسمىٰ الله تعالىٰ الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا؛ لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا

الندم والخسار والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.. قال الله متوعدًا هذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات:..

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ أيحسب في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟ بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.. ثم قرره بنعمه، فقال:..

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩﴾ للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين:..

﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد:١-١٠] طريقي الخير والشر، بيِّنَّا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.. فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠﴾ [البلد:١١-٢٠]

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾ لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته..

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ وهذه العقبة شديدة عليه.. ثم فسر هذه العقبة..

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ فكّها من الرق بعتقها، أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار..

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤﴾ مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة..

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥﴾ جامعًا بين كونه يتيمًا، فقيرًا ذا قرابة..

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة..

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، من كل قول وفعل واجب أو مستحب..

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ علىٰ طاعة الله وعن معصيته، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضًا علىٰ الانقياد لذلك، والإتيان به كاملا منشرحًا به الصدر، مطمئنة به النفس..

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم علىٰ المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة..

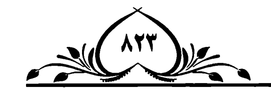
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها..

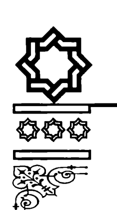
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، ولا آمنوا به، ولا عملوا صالحًا، ولا رحموا عباد الله..

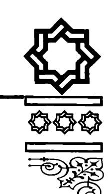
﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد:١١-٢٠] مغلقة، في عَمَدٍ ممددة، قد مدت من ورائها، لئلا تنفتح أبوابُها، حتىٰ يكونوا في ضيق وهم وشدة.

والحمد لله









تفسير سورة (والشمس وضحاها)، وهي مكية

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:١-١٠]

أقسم تعالىٰ بهذه الآيات العظيمة، علىٰ النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال:..

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ نورها، ونفعها الصادر منها..

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ تبعها في المنازل والنور..

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ جلىٰ ما علىٰ وجه الأرض وأوضحه..

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ يغشىٰ وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلمًا.. **فتعاقب** الظلمة والضياء والشمس والقمر علىٰ هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام لمصالح العباد، **أكبر دليل** علىٰ أن الله بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه فباطل..

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ **يحتمل**: أن (ما) موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالىٰ.. **ويحتمل**: أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك..

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ مدها ووسعها، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها، بجميع وجوه الانتفاع..

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ **يحتمل**: أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم.. **ويحتمل**: أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.. **وعلىٰ كل**، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام بها فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي **لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه**، وتسويتها علىٰ هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة..

﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ طهَّر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقَّاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح..

﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:١-١٠] أخفىٰ نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس:١١-١٥]

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١﴾ بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها علىٰ رسل الله..

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾ أشقىٰ القبيلة، وهو (قدار بن سالف)؛ لعقرها حين اتفقوا علىٰ ذلك، وأمروه فأتمر لهم..

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ محذرًا:..

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣﴾ احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها..

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فكذبوا نبيهم صالحًا..

﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ دمَّر عليهم وعمَّهم بعقابه، وأرسل عليهم

الصيحة من فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين علىٰ ركبهم، لا تجد منهم داعيًا ولا مجيبا..

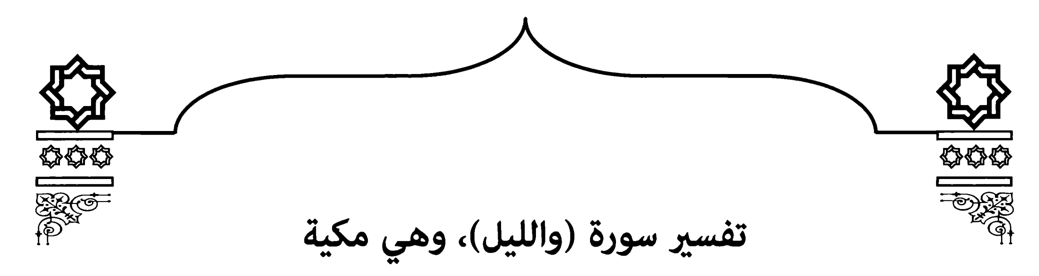
﴿فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ عليهم، أي: سوىٰ بينهم بالعقوبة..

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس:١١-١٥] أي: تَبِعَتَها، وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟!

تمت ولله الحمد







تفسير سورة (والليل)، وهي مكية

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل:١-٤]

هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد علىٰ تفاوت أحوالهم، فقال:..

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ يعم الخلق بظلامه، فيسكن كل إلىٰ مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب..

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم..

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ **إن كانت (ما) موصولة:** كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة بأنه خالق الذكور والإناث.. **وإن كانت مصدرية:** كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثىٰ.. **وكمال حكمته في ذلك** أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكرًا وأنثىٰ، ليبقىٰ النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلىٰ الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسبًا للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين..

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل:١-٤] هذا هو المقسم عليه.. أي: **إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتا كثيرًا،** وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، **وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلىٰ الباقي؟** فيبقىٰ السعي له ببقائه، وينتفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالىٰ، بهذا الوصف، ولهذا فصل الله تعالىٰ العاملين، ووصف أعمالهم، فقال:..

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل:٥-٧]

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما أمر به من **العبادات المالية**: كالزكوات، والكفارات والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير.. **والعبادات البدنية**: كالصلاة، والصوم ونحوهما.. **والمركبة منهما**: كالحج والعمرة ونحوهما..

﴿وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، علىٰ اختلاف أجناسها..

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ صدَّق بـ (لا إله إلا الله) وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي..

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل:٥-٧] نسهل عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كل خير، ميسرًا له ترك كل شر، لأنه أتىٰ بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل:٨-١١]

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله..

﴿وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلىٰ ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه..

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ بما أوجب الله علىٰ العباد التصديق به من العقائد الحسنة..

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية..

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنىٰ به، وبخل به..

﴿إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل:٨-١١] إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح، وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب فإنه يكون وبالا عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا.

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل:١٢-١٦]

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢﴾ إن الهدىٰ المستقيم طريقه، يوصل إلىٰ الله، ويدني من رضاه، وأما الضلال فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد..

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣﴾ ملكًا وتصرفًا، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين..

﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ تستعر وتتوقد..

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ﴾ بالخبر..

﴿وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل:١٢-١٦] عن الأمر.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل:١٧-٢١]

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، قاصدًا به وجه الله تعالىٰ..

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩﴾ ليس لأحد من الخلق علىٰ هذا الأتقىٰ نعمة تجزىٰ إلا وقد كافأه بها، وربما بقي له الفضل والمنة علىٰ الناس، فتمحض عبدًا لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه..

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل:١٧-٢١] هذا الأتقىٰ بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

🕮 الفوائد

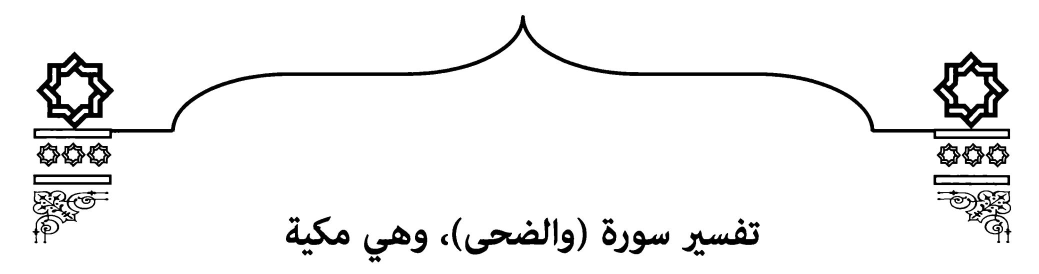
١- ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ دل هذا علىٰ أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك

واجب -كدين ونفقة ونحوهما- فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء؛ لأنه لا يتزكىٰ بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

٢- ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾ هذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ -بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ، حتىٰ ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلىٰ دين الإسلام، وتعليم الهدىٰ ودين الحق، فإن لله ورسوله المنة علىٰ كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة- فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزىٰ، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالىٰ.

والحمد لله رب العالمين





تفسير سورة (والضحى)، وهي مكية

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى:١-٥]

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أقسم تعالىٰ بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحىٰ، وبالليل إذا سجىٰ وادلهمت ظلمته، علىٰ اعتناء الله برسوله ﷺ فقال:..

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما تركك منذ اعتنىٰ بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة..

﴿وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ وَمَا قَلاك الله، أي: ما أبغضك منذ أحبك.. فإن نفي الضد دليل علىٰ ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحًا، إلا إذا تضمن ثبوت كمال.. فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج الكمال، ودوام اعتناء الله به.. وأما حاله المستقبلة، فقال:..

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل علىٰ الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي، ويمكن له الله دينه، وينصره علىٰ أعدائه، ويسدد له أحواله، حتىٰ مات، وقد وصل إلىٰ حال لا يصل إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب.. ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال:..

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى:١-٥] وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.. ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة فقال:..

﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [الضحىٰ:٦-٨]

﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا﴾ وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه..

﴿فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ فآواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله اللهُ عمَّه أبا طالب، حتىٰ أيده بنصره وبالمؤمنين..

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا﴾ وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان..

﴿فَهَدَىٰ ۝٧﴾ فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق..

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾ فقيرًا..

﴿فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [الضحىٰ:٦-٨] بما فتح الله عليك من البلدان التي جَبَيْتْ لك أموالَها وخراجَها.. فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلىٰ الغنىٰ، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران، ولهذا قال:..

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحىٰ:٩-١١]

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك..

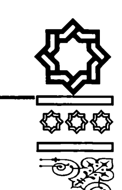
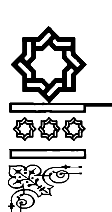
﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ لا يصدر منك إلىٰ السائل كلام يقتضي رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف وإحسان..

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية..

﴿فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحىٰ:٩-١١] أثن علىٰ الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة، وإلا فحدث بنعم الله علىٰ الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلىٰ من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة علىٰ محبة المحسن.

📖 الفـوائـد

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ هذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له علىٰ مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعىٰ في نفع العباد والبلاد.

تفسير سورة (ألم نشرح لك صدرك)، وهي مكية

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:١-٤]

يقول تعالىٰ -ممتنًا علىٰ رسوله-:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلىٰ الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال علىٰ الآخرة، وتسهيل الخيرات فلم يكن ضيقًا حرجًا، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطًا..

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ ذنبك...

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ﴾ أثقل..

﴿ظَهْرَكَ ۝٣﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]..

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:١-٤] أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق.. فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلىٰ الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.. وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالىٰ، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزىٰ نبيًا عن أمته.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح:٥-٨]

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتىٰ لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما

قال تعالىٰ: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٧]، وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا».. ثم أمر الله رسوله أصلاً والمؤمنين تبعًا بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال:..

﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ﴾ إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه..

﴿فَٱنصَبۡ ۝٧﴾ فاجتهد في العبادة والدعاء..

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده..

﴿فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الشرح:٥-٨] أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

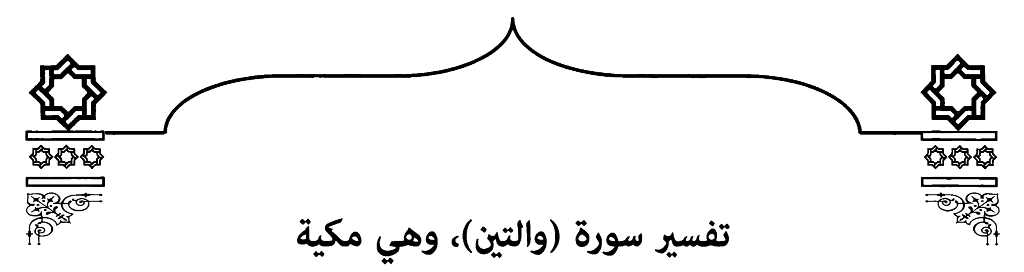
📖 الفـوائـد

١- تعريف (العسر) في الآيتين يدل علىٰ أنه واحد.. وتنكير (اليسر) يدل علىٰ تكراره، فلن يغلب عسرٌ يسرين.

٢- في تعريفه بالألف واللام الدالة علىٰ الاستغراق والعموم يدل علىٰ أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ- فإنه في آخره التيسير ملازم له..

٣- قد قيل: إن معنىٰ قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ﴾ من الصلاة وأكملتها، ﴿فَٱنصَبۡ﴾ في الدعاء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ في سؤال مطالبك.. **واستدل من قال بهذا القول** علىٰ مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك.

تمت ولله الحمد



تفسير سورة (والتين)، وهي مكية

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:١-٣]

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ (التين) هو التين المعروف، وكذلك (الزَّيْتُونَ) أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسىٰ ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ..

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ أي: طور سيناء، محل نبوة موسىٰ ﷺ..

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:١-٣] وهي: مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ.. فأقسم تعالىٰ بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات وأشرفها.. والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾ [التين:٤-٦]

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ تام الخَلْق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا أو باطنًا شيئًا..

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفساف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين، أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين علىٰ ربهم..

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلا من من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية..

﴿فَلَهُمۡ﴾ بذلك المنازل العالية، و..

﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾ [التين:٤-٦] غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها.

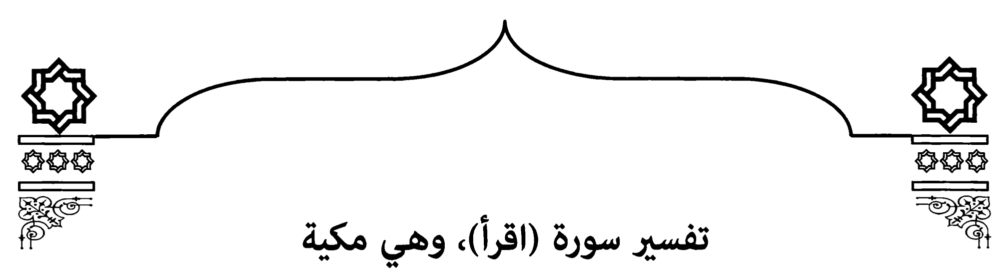
﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧
أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين:٧-٨]

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء علىٰ الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء مما أخبرك به..

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين:٧-٨] فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدىٰ لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلىٰ دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون.

تمت ولله الحمد





تفسير سورة (اقرأ)، وهي مكية

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق:١-٥]

هذه السورة أول السور القرآنية نزولا علىٰ رسول الله ﷺ.. فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع، وقال: «ما أنا بقارئ» فلم يزل به حتىٰ قرأ، فأنزل الله عليه:..

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ عموم الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه..

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنىٰ بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم ، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر بعد الأمر بالقراءة، خلقه للإنسان.. ثم قال:..

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود..

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ الذي من كرمه أن علَّم بالعلم.. وعلَّمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم..

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق:١-٥] فإنه تعالىٰ أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة.. فلله الحمد والمنة، الذي أنعم علىٰ عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها علىٰ جزاء ولا شكور.. ثم من عليهم بالغنىٰ وسعة الرزق.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق:٦-٨]

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ ولكن الإنسان -لجهله وظلمه- إذا رأىٰ نفسه غنيًا، طغىٰ وبغىٰ وتجبر عن الهدىٰ..

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق:٦-٨] ونسي أن إلىٰ ربه الرجعىٰ، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدىٰ بنفسه، ويدعو غيره إلىٰ تركه.

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢﴾ [العلق:٩-١٢]

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ فينهىٰ عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.. يقول الله لهذا المتمرد العاتي:..

﴿أَرَءَيۡتَ﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلىٰ..

﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي..

﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١﴾ العلم بالحق والعمل به..

﴿أَوۡ أَمَرَ﴾ غيره..

﴿بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢﴾ [العلق:٩-١٢] فهل يحسن أن ينهىٰ من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادة لله، والمحاربة للحق؟ فإنَّ النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه علىٰ غير الهدىٰ، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوىٰ.

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق:١٣-١٤]

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ﴾ الناهي بالحق..

﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشىٰ عقابه؟

﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق:١٣-١٤] ما يعمل ويفعل؟ ثم توعده إن استمر علىٰ حاله، فقال:..

﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦﴾ [العلق:١٥-١٦]

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما يقول ويفعل..

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ لنأخذن بناصيته، أخذًا عنيفًا، وهي حقيقة بذلك، فإنها..

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ في قولها..

﴿خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق:١٥-١٦] في فعلها.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق:١٧-١٩]

﴿فَلْيَدْعُ﴾ هذا الذي حق عليه العقاب..

﴿نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾ أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينوه علىٰ ما نزل به..

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ خزنة جهنم، لأخذه وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوىٰ وأقدر؟

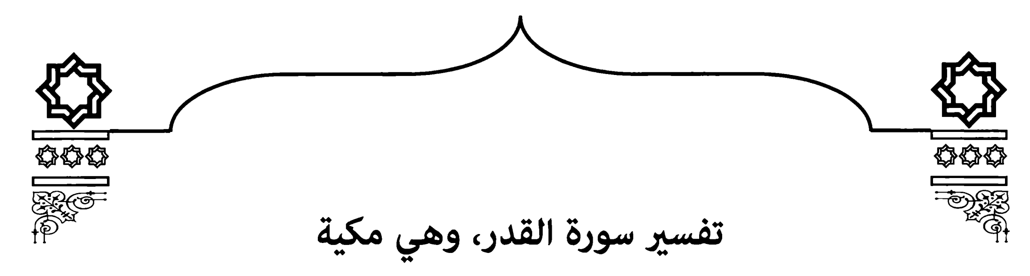
فهذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة.. **وأما حالة المنهي،** فأمره الله أن لا يصغىٰ إلىٰ هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فقال:..

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين..

﴿وَاسْجُدْ﴾ لربك..

﴿وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق:١٧-١٩] منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه.. وهذا عام لكل ناه عن الخير ومنهي عنه.. وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهىٰ رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعبث به وآذاه.

تمت ولله الحمد



تفسير سورة القدر، وهي مكية

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر:١-٥]

يقول تعالىٰ مبينًا لفضل القرآن وعلو قدره:..

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وذلك أن الله تعالىٰ ابتدأ بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا.. ثم فخم شأنها، وعظَّم مقدارها فقال:..

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾ فإنَّ شأنها جليل، وخطرها عظيم..

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر خالية منها.. وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندهش له العقول، **حيث مَنَّ تبارك وتعالىٰ علىٰ هذه الأمة الضعيفة القوة والقوىٰ، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد علىٰ ألف شهر**، عمر رجل معمر عمرًا طويلا نيفًا وثمانين سنة..

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ يكثر نزولهم فيها..

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ﴾ سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها..

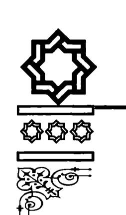
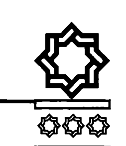
﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر:١-٥] مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر.. وقد **تواترت الأحاديث في فضلها**، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصًا في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلىٰ قيام الساعة.. ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف، ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء ليلة القدر.

📖 **الفـوائـد**

سميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يُقَدِّرُ فيها ما يكون في العام من الأجل والأرزاق والمقادير القدرية.

والله أعلم



تفسير سورة (لم يكن)، وهي مدنية

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:١-٥]

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارىٰ..

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم..

﴿مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه، أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفرًا..

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال:..

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أرسله الله، يدعو الناس إلىٰ الحق، وأنزل عليه كتابًا يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ولهذا قال:..

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون؛ لأنها في أعلىٰ ما يكون من الكلام، ولهذا قال عنها:..

﴿فِيهَا﴾ في تلك الصحف..

﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلىٰ الحق وإلىٰ صراط مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة..

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزابًا..

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدىٰ إلا ضلالًا، ولا البصيرة إلا عمىٰ، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد، ودين واحد..

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في سائر الشرائع..

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفىٰ لديه..

﴿حُنَفَآءَ﴾ معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد..

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله ﴿لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [البينة:٥] لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين..

﴿وَذَٰلِكَ﴾ التوحيد والإخلاص في الدين، هو..

﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:١-٥] الدين المستقيم، الموصل إلىٰ جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلىٰ الجحيم.. ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال:..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة:٦-٧]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها..

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾ [البينة:٦-٧] لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٨]

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها..

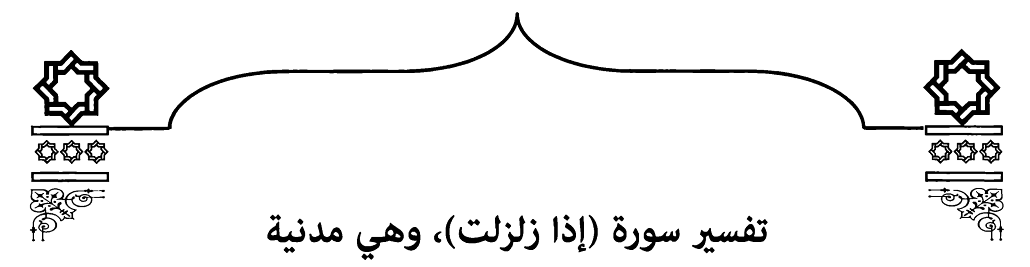
﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات..

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الحسن..

﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٨] لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته.

تمت بحمد الله





تفسير سورة (إذا زلزلت)، وهي مدنية

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۞﴾ [الزلزلة:١-٥]

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞﴾ يخبر تعالىٰ عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج، حتىٰ يسقط ما عليها من بناء وعلم، فتندك جبالها، وتسوىٰ تلالها، وتكون قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمت..

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞﴾ ما في بطنها، من الأموات والكنوز..

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إذا رأىٰ ما عراها من الأمر العظيم مستعظمًا لذلك:..

﴿مَا لَهَا ۞﴾ أي شيء عرض لها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض..

﴿أَخْبَارَهَا ۞﴾ تشهد علىٰ العاملين بما عملوا علىٰ ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون علىٰ العباد بأعمالهم، ذلك..

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۞﴾ [الزلزلة:١-٥] وأمرها أن تُخبِر بما عُمِل عَلَيهَا، فلا تَعصي لأمره.

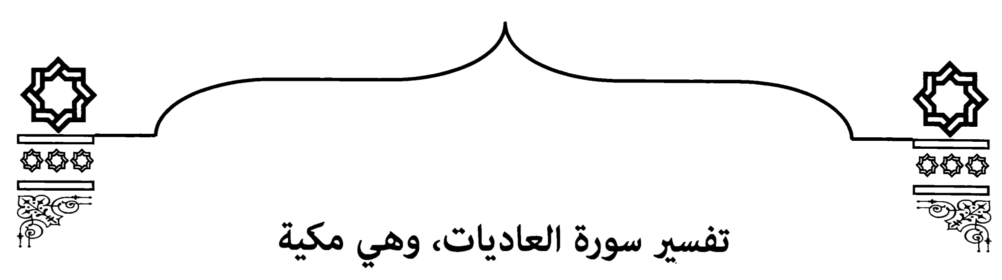
﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۞﴾ [الزلزلة:٦-٨]

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم..

﴿أَشْتَاتًا﴾ فِرَقًا متفاوتين..

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۞﴾ ليريهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويريهم جزاءه موفرًا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٦-٨] وهذا شامل عام للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأىٰ مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها فما فوق ذلك من باب أولىٰ وأحرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف:٤٩].. وهذه الآية فيها **غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلا والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا.**



تفسير سورة العاديات، وهي مكية

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ [العاديات:١-٥]

أقسم الله تبارك وتعالىٰ بالخيل، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للخلق.. وأقسم تعالىٰ بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات، فقال:..

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ العاديات عدوًا بليغًا قويًا، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها، عند اشتداد العدو..

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار..

﴿قَدْحًا ۝٢﴾ تقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون..

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ علىٰ الأعداء..

﴿صُبْحًا ۝٣﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحًا..

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ بعدوهن وغارتهن..

﴿نَقْعًا ۝٤﴾ غبارًا..

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ براكبهن..

﴿جَمْعًا ۝٥﴾ [العاديات:١-٥] توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.. والمقسم عليه، قوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٦-٨]

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ لمنوع للخير الذي عليه لربه.. **فطبيعة الإنسان وجبلته أن** نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلىٰ وصف السماح بأداء الحقوق..

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧﴾ إن الإنسان علىٰ ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمر بين واضح.. **ويحتمل** أن الضمير عائد إلىٰ الله تعالىٰ، أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد علىٰ ذلك.. **ففيه الوعيد**، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد..

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان..

﴿لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: المال..

﴿لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٦-٨] كثير الحب للمال.. **وحبه لذلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه**، قدم شهوة نفسه علىٰ حق ربه، وكل هذا لأنه قَصَرَ نظره علىٰ هذه الدار، وغَفَلَ عن الآخرة، ولهذا قال حاثًا له علىٰ خوف يوم الوعيد: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾..

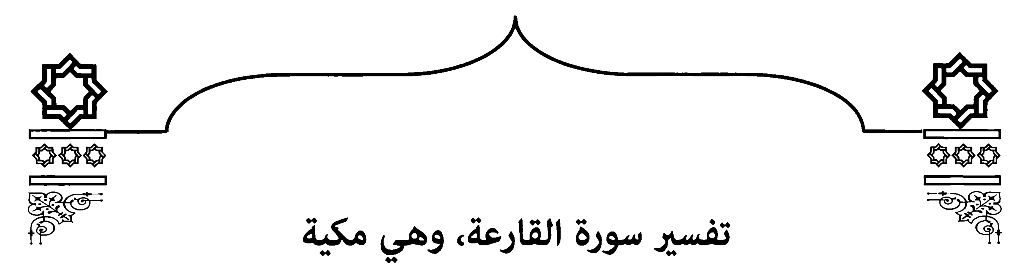
﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ۝١١﴾ [العاديات:٩-١١]

﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾ هلا يعلم هذا المغتر..

﴿إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩﴾ أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم..

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهرًا، وبان علىٰ وجوه الخلق نتيجة أعمالهم..

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ۝١١﴾ [العاديات:٩-١١] مطلع علىٰ أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخص خبره بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك الجزاء بالأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه.



تفسير سورة القارعة، وهي مكية

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة:١-٥]

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله:..

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ من شدة الفزع والهول..

﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض.. **والفراش:** هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول..

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾ الصمُّ الصلاب، فتكون..

﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة:١-٥] كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفًا جدًا، تطير به أدنىٰ ريح، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] ثم بعد ذلك، تكون هباء منثورًا، فتضمحل ولا يبقىٰ منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة:٦-١١]

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ رجحت حسناته علىٰ سيئاته..

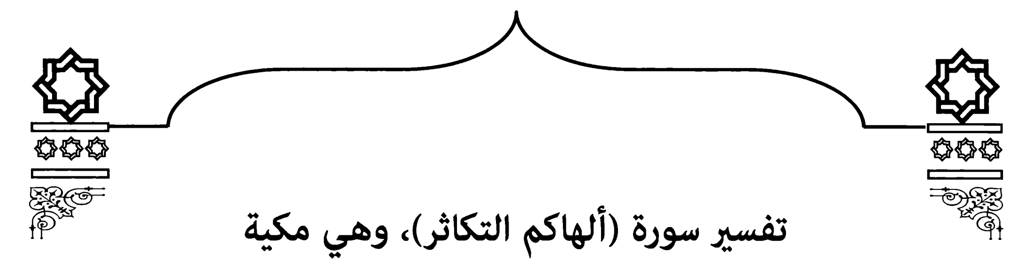
﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ في جنات النعيم..

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته..

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].. **وقيل: إن معنىٰ ذلك،** فأم دماغه هاوية في النار، أي: يلقىٰ في النار علىٰ رأسه..

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي:..

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة:٦-١١] شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها علىٰ حرارة نار الدنيا سبعين ضعفًا، نستجير بالله منها.



تفسير سورة (ألهاكم التكاثر)، وهي مكية

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:١-٨]

يقول تعالىٰ موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته علىٰ كل شيء:..

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ عن ذلك المذكور..

﴿ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ ولم يذكر المتكاثَر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالىٰ.. فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم..

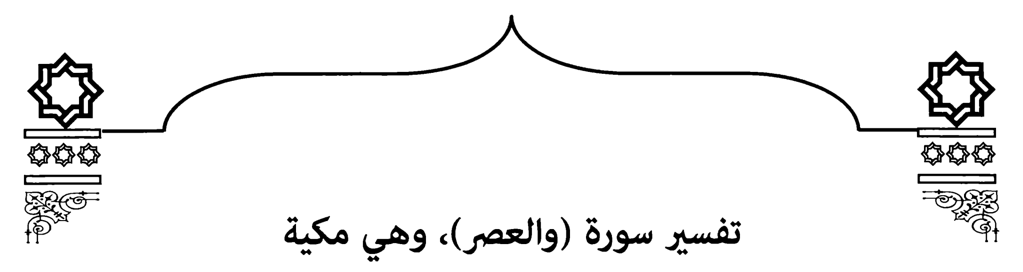
﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعد ما تعذر عليكم استئنافه.. ودل قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلىٰ الدار الباقية، أن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين، فدل ذلك علىٰ البعث والجزاء بالأعمال في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله:..

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلىٰ القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلىٰ الأعمال الصالحة، ولكن عدم العلم الحقيقي، صيركم إلىٰ ما ترون..

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين..

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ رؤية بصرية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ [الكهف:٥٣]..

﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:١-٨] الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به علىٰ معاصيه، فينعمكم نعيمًا أعلىٰ منه وأفضل، أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به علىٰ معاصي الله فيعاقبكم علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠] الآية.



تفسير سورة (والعصر)، وهي مكية

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣]

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ أقسم تعالىٰ بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم..

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ كل إنسان..

﴿لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ خاسر.. والخاسر ضد الرابح.. **والخسار مراتب متعددة متفاوتة:** قد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.. **وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض،** ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:..

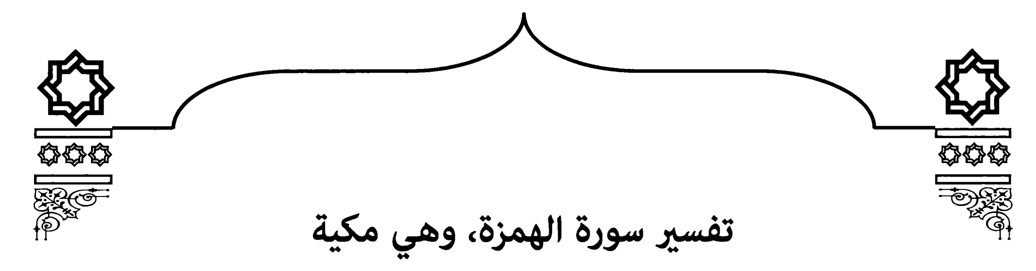
﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به..

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة..

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه..

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣] والتواصي بالصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة.. فبالأمرين الأولين يُكَمِّلُ الإنسانُ نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سَلِمَ من الخسار، وفاز بالربح العظيم.





تفسير سورة الهمزة، وهي مكية

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ [الهمزة:١-٩]

﴿وَيْلٌ﴾ وعيد، ووبال، وشدة عذاب..

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ الذي يهمز الناس بفعله، ويلمزهم بقوله، فالهمَّاز: الذي يعيب الناس، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذي يعيبهم بقوله..

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا هم له سوىٰ جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك..

﴿يَحْسَبُ﴾ بجهله..

﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله، الذي يظن أنه ينمي عمره، ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار، ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر..

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ﴾ ليطرحن..

﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ تعظيم لها، وتهويل لشأنها.. ثم فسرها بقوله:..

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ التي وقودها الناس والحجارة..

﴿ٱلَّتِى﴾ من شدتها..

﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ تنفذ من الأجسام إلىٰ القلوب.. ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال:..

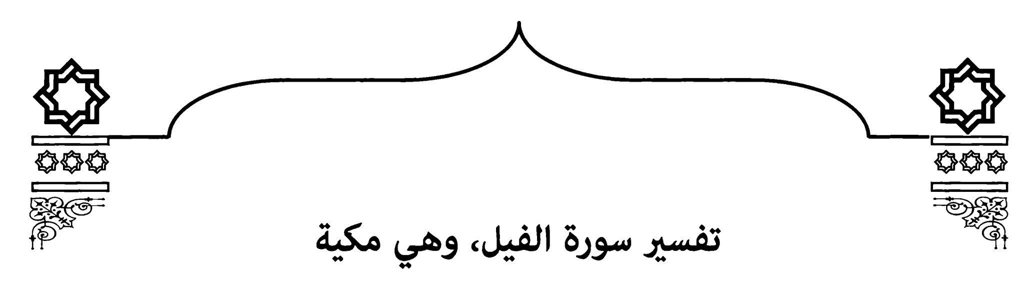
﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨﴾ مغلقة..

﴿فِي عَمَدٖ﴾ من خلف الأبواب..

﴿مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ [الهمزة:١-٩] لئلا يخرجوا منها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العفو والعافية.

~~~
~~~





تفسير سورة الفيل، وهي مكية

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل:١-٥]

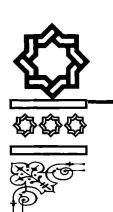
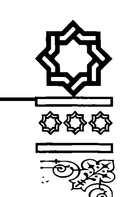
﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ..

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قبل للعرب به، من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلىٰ قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا علىٰ أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل..

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أي: متفرقة..

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ تحمل حجارة محماة من سجيل، فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم..

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل:١-٥] فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفىٰ الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم.. وقصتهم معروفة مشهورة.. وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته، ومقدمات رسالته، فلله الحمد والشكر.

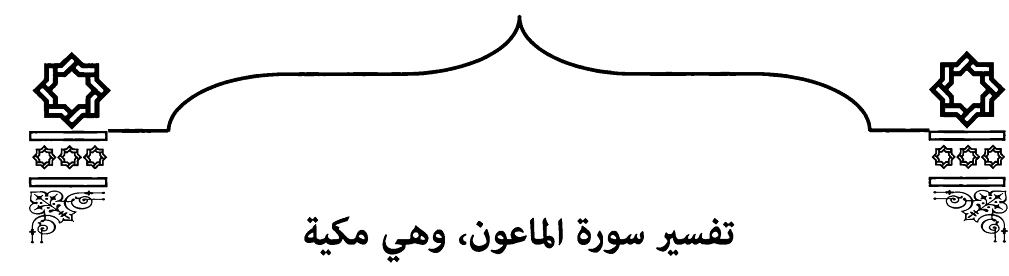
تفسير سورة (لإيلاف قريش)، وهي مكية

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش:١-٤]

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب، فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتىٰ احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال:..

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾ ليوحدوه ويخلصوا له العبادة..

﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش:١-٤] فرغد الرزق والأمن من المخاوف من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالىٰ، فلك اللهم الحمد والشكر علىٰ نعمك الظاهرة والباطنة.. وخص الله بالربوبية البيت لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون، وهي مكية

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:١-٧]

يقول تعالىٰ ذامًا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده:..

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل..

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثوابًا، ولا يخشىٰ عقابًا..

﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيره..

﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ ومن باب أولىٰ أنه بنفسه لا يطعم المسكين..

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ الملتزمين لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾..

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها.. وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله.. حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات.. والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم.. وأما السهو في الصلاة فهذا يقع من كل أحد، حتىٰ من النبي ﷺ.. ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال:..

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس..

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:١-٧] يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه علىٰ وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها

والسماحة به.. فهؤلاء -لشدة حرصهم- يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه؟!

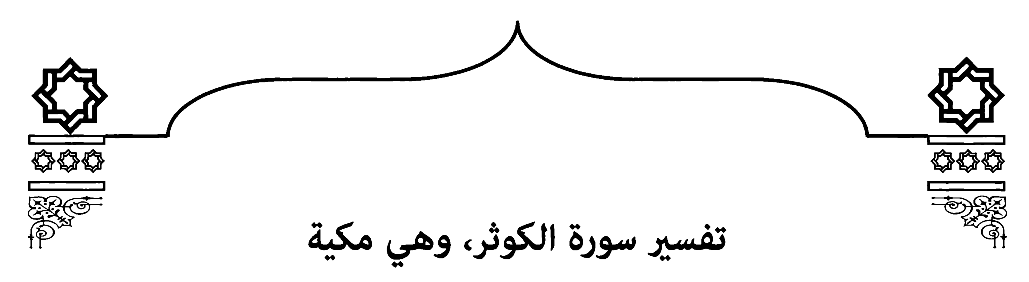
وفي هذه السورة، الحث علىٰ إكرام اليتيم، والمساكين، والتحضيض علىٰ ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلىٰ الإخلاص فيها، وفي جميع الأعمال.

والحث علىٰ فعل المعروف وبذل الأموال الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين







تفسير سورة الكوثر، وهي مكية

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثر:١-٣]

يقول الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ ممتنا عليه:..

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له..

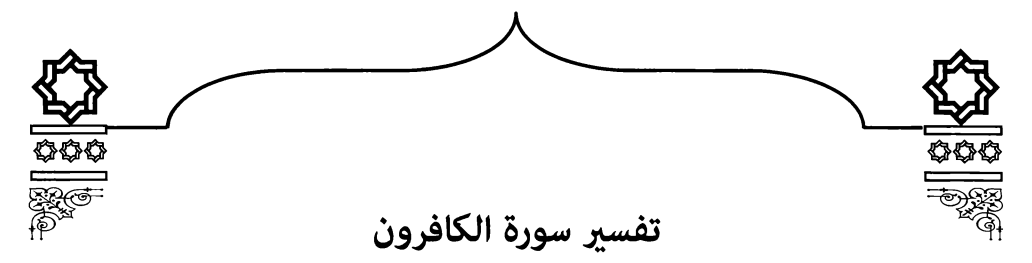
﴿ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ ومن الحوض، طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، آنيته كنجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا.. ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال:..

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر لأنهما **من أفضل العبادات وأجل القربات**، ولأن **الصلاة** تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، **وفي النحر** تقرب إلىٰ الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس علىٰ محبته والشح به..

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ مبغضك وذامك ومنتقصك..

﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثر:١-٣] المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.. وأما محمد ﷺ فهو الكامل حقًا، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار، والأتباع ﷺ.





تفسير سورة الكافرون

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:١-٦]

﴿قُلْ﴾ للكافرين معلنا ومصرحًا..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهرًا وباطنًا..

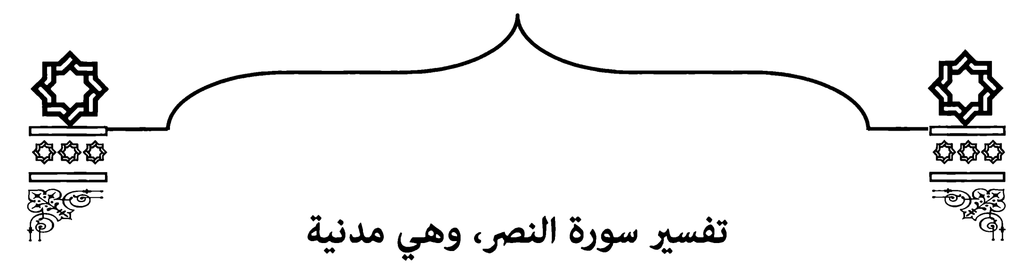
﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ لعدم إخلاصكم في عبادته، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمىٰ عبادة..

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ ثم كرر ذلك ليدل الأول علىٰ عدم وجود الفعل، والثاني علىٰ أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا، ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال:..

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:١-٦] كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٤]، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١].







تفسير سورة النصر، وهي مدنية

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:١-٣]

في هذه السورة الكريمة: بشارة، وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه علىٰ ما يترتب علىٰ ذلك..

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ **فالبشارة:** هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة..

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ ودخول الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه.. وقد وقع هذا المبشر به..

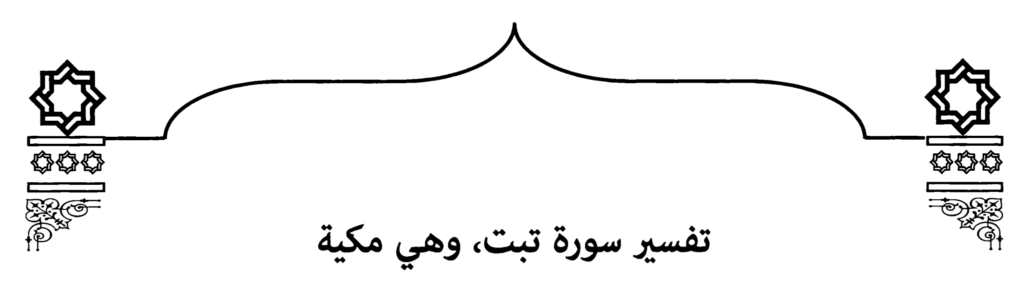
﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ **وأما الأمر** بعد حصول النصر والفتح، فأمر رسوله أن يشكر ربه علىٰ ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره.. **وأما الإشارة:** فإن في ذلك إشارتين: إشارة **لأن يستمر النصر لهذا الدين،** ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ، وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين، وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرًا، حتىٰ وصل الإسلام إلىٰ ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره.. حتىٰ حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم الله بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل، ومع هذا فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.. **وأما الإشارة الثانية،** فهي الإشارة إلىٰ أن أجل رسول الله ﷺ قد

قرب ودنا، ووجه ذلك أن عُمْرَه عُمرٌ فاضل، أقسم الله به، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك.. فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلىٰ أن أجله قد انتهىٰ، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه.. فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي»..

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:١-٣]..







تفسير سورة تبت، وهي مكية

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد:١-٥]

أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة والأذية للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حمية للقرابة -قبحه الله- فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلىٰ يوم القيامة فقال:..

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ خسرت يداه، وشقىٰ..

﴿وَتَبَّ ۝١﴾ فلم يربح..

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ الذي كان عنده وأطغاه..

﴿وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئًا من عذاب الله إذ نزل به..

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ ستحيط به النار من كل جانب، هو..

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها علىٰ الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعىٰ غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع علىٰ ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطبًا..

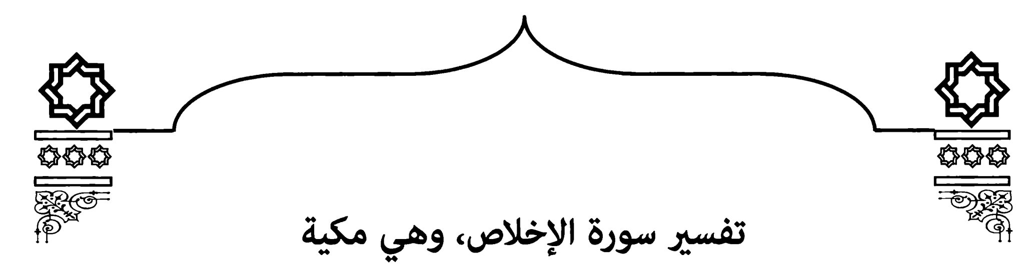
﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ﴾ قد أعد له في عنقه حبلا..

﴿مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد:١-٥] من ليف.. أو أنها تحمل في النار الحطب علىٰ زوجها، متقلدة في عنقها حبلًا من مسد، وعلىٰ كل.

📖 **الفـوائـد**

في هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.





تفسير سورة الإخلاص، وهي مكية

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤]

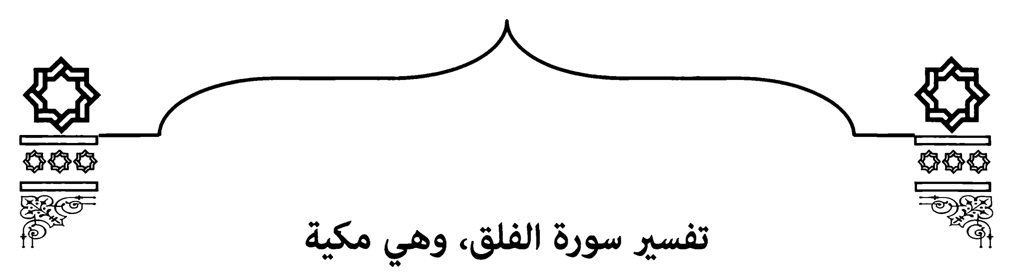
﴿قُلْ﴾ قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه..

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنىٰ، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل..

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ المقصود في جميع الحوائج، فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته، الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه..

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ لكمال غناه..

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤] لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالىٰ.. فهذه السورة مشتملة علىٰ توحيد الأسماء والصفات.



تفسير سورة الفلق، وهي مكية

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:١-٥]

﴿قُلْ﴾ متعوذًا..

﴿أَعُوذُ﴾ ألجأ وألوذ، وأعتصم..

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ فالق الحب والنوىٰ، وفالق الإصباح..

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها، من الشر الذي فيها، ثم خص بعد ما عم، فقال:..

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ من شر ما يكون في الليل، حين يغشىٰ الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية..

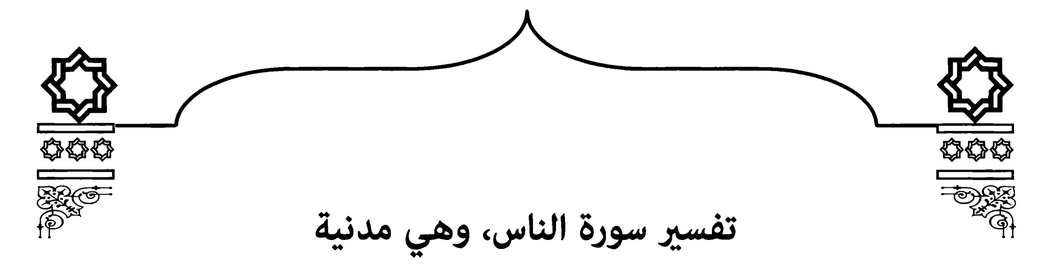
﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ ومن شر السواحر، اللاتي يستعن علىٰ سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها علىٰ السحر..

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:١-٥] والحاسد، هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود، فيسعىٰ في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلىٰ الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده.. ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس.

🕮 الفوائد

١- هذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عمومًا وخصوصًا.

٢- ودلت علىٰ أن السحر له حقيقة يخشىٰ من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله.



تفسير سورة الناس، وهي مدنية

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس:١-٦]

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ وهذه السورة مشتملة علىٰ الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم..

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها..

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ الذي من فتنته وشره، أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ويخنس، أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان علىٰ دفعه.. فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم.. وأن الخلق كلهم، داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها.. وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال:..

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس:١-٦]..

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا

ونسأله تعالىٰ أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبًا لنا حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته..

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون..

وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين،

صلاة وسلامًا دائمين متواصلين أبد الأوقات..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه، علىٰ يد جامعه وكاتبه، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربعٍ وأربعين وثلثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ.

فهرس المحتويات

